

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة وهران - ألسانيا -
كلية العلوم الاجتماعية
قسم الفلسفة

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة

إشكالية الخلاص والمخلص في الفكر الديني والفلسفي

مشروع المهدوية - نموذج -

-دراسة تحليلية مقارنة-

إشراف:
أ.د / عبد اللاوي محمد

لجنة المناقشة

إعداد الطالبة:
مروفل كلثوم

د بوعرفة عبد القادر - جامعة وهران - رئيسا -
أ.د عبد اللاوي محمد - جامعة وهران - مقرر -
أ.د طيبي محمد - جامعة وهران - مناقشا -
د. موسى عبد الله - جامعة سعيدة - مناقشا -
أ.د حمودة سعدي - جامعة الجزائر العاصمة - مناقشا -
أ.د شريط لخضر - جامعة الجزائر العاصمة - مناقشا -

السنة الجامعية: 2007/2008

فهرس المواضيع

الإهداء	
الشكر	
المقدمة	أ.....
الفصل الأول: قصة الخلاص	1.....
المبحث الأول : أولى إرهاصات الخلاص	2.....
القسم الأول :طوطم الخلاص لدى الشعوب البدائية	3.....
القسم الثاني: آلهة الخلاص في الأساطير والملاحم	8.....
المبحث الثاني : فلسفة الخلاص في الحضارات الشرقية	16.....
القسم الأول : مُخْلِص العالم والرجعة عند زرادشت	17.....
القسم الثاني: البوذية والمنهج الخلاصي	25.....
المبحث الثالث : فلسفة الخلاص في الديانات السماوية	32.....
القسم الأول : اليوم الموعود في الديانة اليهودية	33.....
القسم الثاني : رجعة الأخيار ب رجوع المسيح عليه السلام	44.....
المبحث الرابع: مشروع الخلاص في الفلسفة	56.....
القسم الأول : من خلاص البدن إلى خلاص المدينة حسب أفلاطون	57.....
القسم الثاني: مملكة الغرباء ومشروع النابطة الخلاصي عند ابن باجة	66.....
القسم الثالث :الشيوعية الماركسية والمستقبل السعيد	78.....
الفصل الثاني: فلسفة المهودية في التاريخ الإسلامي	89.....
المبحث الأول : جينيالوجيا وكرونولوجيا المهودية	90.....
القسم الأول :أولى تجليات المهدي في السلوك الإنساني خلال العهد الأموي	92.....
القسم الثاني: تصورات المهدي في العهد العباسي حتى عصر التدوين	100.....
المبحث الثاني: فلسفة المهدي من منظور شيعي	112.....
القسم الأول : السنة والمتصوفة والشيعية في ميزان الاتفاق حول بعض	116.....
مسائل المهدي	

- القسم الثاني: المهدي وحركة التاريخ عند الشيعة الإمامية119
- أم المهدي في المخيال الشيعي123
- ولادة المهدي127
- غيبة الإمام وظهور السفراء الأربع131
- المبحث الثالث : حركة المهديوية من القوة إلى الفعل137
(نماذج عن بعض المهديين وفلسفتهم في التاريخ)
- القسم الأول : مهدي السبئية والكيسانية139
- القسم الثاني :مهدي الفاطميين والمغاربة والسودانيين145
- المبحث الرابع: قراءة للمهدوية المُخْلِصة المزعومة168
- القسم الأول : لا منطوق المهديوية المُزيفة171
- القسم الثاني : ضوابط الحكم على مُدّعي المهديوية182
- الفصل الثالث: فلسفة انتظار المهدي**186
- المبحث الأول :قصة انتظار الفرج189
- القسم الأول :لماذا ينتظر الإنسان البطل وعاشق للبطل192
- القسم الثاني:ماهية الانتظار من زاوية سيكولوجية ودينية197
- القسم الثالث : الحيرة و انتظار الفرج201
- المبحث الثاني :شخصية المجتمع وطبيعته206
- القسم الأول : موقف القرآن من حركة التاريخ209
- القسم الثاني: تفسير تكامل التاريخ وعلاقته بفلسفة الانتظار210
- الطريقة الديالكتيكية أو الآلية211
- الطريقة الإنسانية أو الفطرية216
- المبحث الثالث: الانتظار الكبير.....223
- القسم الأول : الانتظار المُخرب و الانتظار البناء224
- القسم الثاني : نتائج الانتظار السلبي وشروط الانتظار البناء228

(النية وفلسفة الاستعداد)

- القسم الثالث: الولاية والاقْتداء 239
- المبحث الرابع: مكونات الانتظار والوعي بالمستقبل 250
- القسم الأول : مكونات الانتظار 251
- القسم الثاني: الانتظار والوعي بالمستقبل 252
- الفصل الرابع: مشروع حكومة المهدي العالمية**..... 258
- المبحث الأول : تبيئة الموضوع..... 259
- القسم الأول : علاقة الانتظار الإيجابي بتأسيس الدولة العالمية..... 260
- القسم الثاني: الواقع السياسي قبيل ظهور المهدي -من وجهة سنية- 261
- القسم الثالث: الوضع السياسي العالمي وعلاماته -من وجهة شيوعية-..... 279
- المبحث الثاني : مخطط الدولة العالمية وأهدافه..... 293
- القسم الأول : الأهداف الرئيسية للمشروع 294
- القسم الثاني: مهدي الإتيقا وفلسفة التربية..... 303
- القسم الثالث : مهدي الفلسفة السياسية..... 311
- القسم الرابع : مهدي الاقتصاد و العمران 315
- المبحث الثالث : خصائص المجتمع المعصوم 322
- القسم الأول: هل تزول الدولة عند بلوغ المجتمع الطور الأعلى؟ 323
- القسم الثاني: هل توجد طبقة في الدولة العالمية؟ 324
- القسم الثالث : ما محل الديمقراطية من الحكومة العالمية؟ 325
- المبحث الرابع: فلسفة الإنسان في الدولة العالمية 327
- القسم الأول :علاقة انتظار الشعوب المضطهدة بالمشروع 328
- القسم الثاني: مسؤولية المفكر لا المثقف إزاء الدولة 328
- القسم الثالث : رجعة المواطنين والغرباء إلى المجتمع المعصوم 330
- القسم الرابع : نزول سيدنا عيسى (ع) ومساهمته في بناء المجتمع 331

335.....	الخاتمة
339	قائمة المصادر والمراجع
346.....	فهرس الأعلام
347.....	فهرس الأماكن والبلدان
348.....	فهرس المواضيع

قائمة المصادر والمراجع

المصادر باللغة العربية :

1. القرآن الكريم
2. الكتاب المقدس (التوراة "العهد القديم" ، والإنجيل " العهد الجديد")
3. ابن باجة، تدبير المتوحد، سراس للنشر ، تونس ، [د.ط] ، 1002
4. ابن خلدون ، المقدمة ، الدار التونسية للنشر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر [د.ط] ، 1984 ، ج 1
5. ابن خلدون عبد الرحمان ، المقدمة ، دار الجيل ، بيروت ، [د.ط ، د.ت] .
6. ابن خلدون عبد الرحمان ، المقدمة ، دار العودة ، بيروت ، [د.ط] ، 1981.
7. ابن كثير أبي الفداء إسماعيل ، النهاية في الفتن والملاحم ، تحقيق : صلاح محمد محمد عويضة ، دار العنان ، القاهرة ، [د. ط] ، 2003 ، ج 1
8. أفلاطون، الجمهورية، تحقيق نظلة الحكيم، محمد مظهر سعيد، دار المعارف، مصر، ط2
9. إنجيل بوذا ، ترجمة : عيسى سابا ، دار صادر، بيروت ، 1953
10. باقر الصدر محمد، فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، ط 12 ، 1982
11. الجاحظ، رسائل الجاحظ (النوابت)، شرحها : عبد أمهنا، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1988
12. ستالين ،المادية التاريخية والمادية الديالكتكية، ترجمة: خالد بكداش ، منشورات دار البديع ، ط 2 ، 1959
13. السفاريني محمد ابن أحمد بن سالم ، العلامات الكبرى لقيام الساعة ، تحقيق : أبو عبد الأعلى خالد بن محمد بن عثمان ، دار الآثار ، القاهرة ، ط 1 ، 2003
14. الشهرستاني محمد عبد الكريم ، الملل والنحل ، تحقيق: محمد سيد كيلاني ، بيروت ، دار المعرفة ، [د.ط] ، 1982 ، ج 2
15. الشيخ الحاج محمد المهدي ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة- دار الحجّة البيضاء ، بيروت ، ط 2 ، 2003 ، ج 1
16. الشيخ الحاج محمد المهدي ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة-، دار الحجّة البيضاء ، بيروت ، ط 2 ، 2003 ، ج 2.
17. الشيخ الحاج محمد المهدي ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة- دار الحجّة البيضاء ، بيروت ، ط 2 ، 2003 ، ج 3.
18. الصدر محمد ، اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، [د.ط] ، 1992 ، ج 4
19. الصدر محمد ، تاريخ الغيبة الصغرى ، دار التعرف للمطبوعات ، بيروت ، [د.ط] ، 1992 ، ج 1 .
20. الصدر محمد ، تاريخ الغيبة الكبرى، دار التعرف للمطبوعات ، بيروت ، [د.ط] ، 1992 ، ج 2 .

21. الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، [د.ط] ، 1992 ، ج3
22. علي الكوراني ، الممهّدون للمهدي ، الدار الإسلامية للطباعة والنشر ، لبنان ، ط3 ، 2003 .
23. علي الكوراني العاملي ، عصر الظهور – المهدي- ، دار الحجة البيضاء ، بيروت ، ط7 ، 2004 .
24. علي شريعتي ، الأمة والإمامة ، ترجمة أبو علي ، مؤسسة الكتاب الثقافية ، مصر، [د.ط ، دت] .
25. علي شريعتي ، العودة إلى الذات ، ترجمة : إبراهيم الدسوقي شتى ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ط1 ، 1986 .
26. الفارابي، أبو نصر، السياسة المدنية، دار المشرق، بيروت، ط2، 1983 .
27. الكنجي الحافظ الشافعي ، البيان -في أخبار صاحب الزمان – تحقيق مهدي حمد الفتلاوي ، دار الحجّة البيضاء بيروت ، ط1 ، 2000
28. لينين ، المختارات ، المقدمة بتوقيع الماركسية اللينينية لدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ، دار التقدم ، موسكو ، [د.ط] ، 1960 ، مج 2 ، ج 2 .
29. مُطهري مرتضى .، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ ، ترجمة : محمد علي آذرشب ، المكتبة الإسلامية الكبرى ، طهران ، ط2 ، 1401هـ .

المراجع باللغة العربية :

1. الإدريسي علي ، الإمامة عند ابن تومرت ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر [د.ط] ، 1988

2. الاشتهادي محمد المحمدي ، إعداد الأرضية لحكومة الهدي (عج) العالمية، كتاب الإمام المهدي الوعد المحتوم ن دار النبلاء،بيروت، ط1 ، 1994
3. أمين أحمد ، المهدي والمهدوية ، دار المعارف ، مصر ، [د.ب.ط] ، 1951 .
4. بولتزر جورج ، أصول الفلسفة الماركسية ، ترجمة: شعبان بركات ، المكتبة العصرية ، بيروت ، [د.ب.ط ، د.ب.ت] ، ج 1
5. تبريزيان عباس ، العد التنازلي في ظهور المهدي آخر أوصياء الرسول المصطفى دار الأثر ، بيروت ، ط1 ، 2004
6. التكريتي ناجي ، الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية ، دار الأندلس للطباعة والنشر و التوزيع ، بيروت، ط2 1982
7. جمال الدين محمد أمين ، القول المبين في الأشراف الصغرى ليوم الدين ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ط1 ، 1997
8. جمال الدين محمد أمين ، هرمجدون – آخر بيان ... يا أمة الإسلام - ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، [د.ب.ط ، د.ب.ت]
9. الجميلي السيد ، علامات القيامة وأشرافها ، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر ، بيروت ، [د.ب.ط] ، 2000 .
10. جون كولر ، الفكر الشرقي القديم ، تر: كامل يوسف حسين ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، [د.ب.ط] ، 1995
11. حسن محمد سليمان ، تيارات الفلسفة الشرقية ، منشورات دار علاء الدين ، للنشر والتوزيع ، دمشق ، [د.ب.ط] ، 1999
12. خالد الصناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، منشورات دار علاء الدين دمشق ، ط1، 2001 .
13. الخزرجي ضياء الدين ، سفراء المهدي بين الحقائق و الخيال ، دار الهادي ، بيروت ، ط1 ، 2004 .
14. داود إلهامي ، بشرى اليوم السعيد ، الإمام المهدي الوعد المحتوم ، ترجمة حسن الهاشمي ، دار النبلاء،بيروت ، ط1 ، 1994
15. دي بور، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة : عبد الهادي أبو ريذة ،دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ط5 ، 1954
16. زروخي إسماعيل ، دراسات في الفلسفة السياسية ، دار الفجر للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 2001
17. زكرياء فؤاد ، دراسة الجمهورية أفلاطون ، وزارة الثقافة ، دار الكتاب العربي ، القاهرة [د.ب.ط] 1967
18. زكي عادل ، المهدي – دولة الإسلام القادمة - ، دار ابن حزم للطباعة والنشر بيروت ، ط1 ، 2005 .
19. السبحاني جعفر ، أثر الانتظار في بناء المجتمع الإسلامي ، الإمام المهدي الوعد المحتوم، ترجمة حسن الهاشمي ، دار النبلاء،بيروت ، ط1 ، 1994.
20. السحمراني أسعد ، الهندوسية – البوذية – السيخية ، دار النفائس ،بيروت، ط1، 1998 .

21. سعيد إسماعيل علي ، التربية في حضارات الشرق القديم ، الأنجلو مصرية ، القاهرة ، [د.ط] ، 1999 .
22. السّقا أحمد حجازي ، نهاية أمة الإسلام بين النبوءة والسياسة ، عربية للطباعة و النشر ، [د.ط] ، 2002 .
23. سليمان كامل، يوم الخلاص في ظل القائم المهدي، دار الحجّة البيضاء ، بيروت ط 11 ، 2003 .
24. السواح فراس ، مغامرة العقل الأولى ، دار علاء الدين ،دمشق ، ط11، 1996.
25. السيد الأبطحي حسن ، المُصلح الغيبي والحكومة العالمية الواحدة ، ترجمة : السيد هادي السليمانى ، مؤسسة البلاغ ،بيروت ، ط2 ، 2003 ،
26. الشنيطي فتحي، نماذج من الفلسفة السياسية، دار الحمamy للطباعة، القاهرة [د.ط]، 1961.
27. الشيخ جعفر عتريسي ، ما قبل نهاية التاريخ – ظهور المهدي المنتظر – دار الحجّة البيضاء ، بيروت ، ط1 ، 2003 .
28. عبد الله الأشقر عمر سليمان ، القيامة الصغرى ، دار النفائس للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط13 ، 2004 .
29. عبد الله علي علام ، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، دار المعارف ، مصر ، [د.ط] ، 1968 .
30. عصفور محمد أبو المحاسن ، حضارات الشرق الأدنى القديم ،دار النهضة العربية ، بيروت ، ط2، 1981 .
31. علي أكبر الحسني ، ولادة و حياة المهدي "عج" في مصادر أهل السنة ، كتاب الإمام المهدي الوعد المحتوم ، دار النبلاء ، بيروت ، ط1 ، 1994.
32. عمارة محمد عمارة ، قصة النهاية ، وعلامات الساعة الكبرى ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط1 ، 2002.
33. الفتلاوي مهدي حمد ، المهدي المنتظر - من ولد الإمام الحسن أم الإمام الحسين ؟- دار الحجّة البيضاء ، بيروت ، [د.ط] ، 2000.
34. كونستانتينوف ، بيرستنيف ، غليريرمان ، وآخرون ، المادية الديالكتكية ، ترجمة : فؤاد مرعى ، بدر الدين السباعي وآخرون ، دار الجماهير ، دمشق ، ط3 1983
35. كيائي كريم، صورة عن حكومة ولي الله الأعظم العالمية،، ترجمة : السيد هادي السليمانى ، مؤسسة البلاغ ،بيروت ، ط2 ، 2003 .
36. كيللي ، كوفالسون ، المادية التاريخية ، ترجمة: أحمد داود ، تحقيق: بدر الدين السباعي ، إصدار دار الجماهير ، دمشق ، [د.ط ، دت] .
37. الشلبي مصطفى أبو نصر ، صحيح أشراط الساعة ،دار ابن حزم للطباعة والنشر ، بيروت ، ط3 ، 2002 ، ص 193 ، ص 194 .
38. محمد الخطيب ، الأثنولوجيا – دراسة عن المجتمعات البدائية - منشورات دار علاء الدين ، دمشق ، ط1، 2000.

39. مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار – دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام- ، دار الهادي ، بيروت ، ط1 ، 2002
40. مرحبا محمد عبد الرحمن ، بدايات الفلسفة الأخلاقية ، موسوعة عز الدين للطباعة و النشر ، بيروت ، ط1 ، 1995 .
41. مرحبا محمد عبد الرحمن ، من الفلسفة اليونانية إلى الإسلامية ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط3 ، 1983.
42. المسكيني فتحي، فلسفة النوابت، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ، ط1 ، 1997.
43. مغنية محمد جواد معالم الفلسفة الإسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1، 1960 .
44. المقدم محمد احمد إسماعيل ، المهدي ، الدار العالمية للنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، ط4 ، 2004.
45. الوابل يوسف عبد الله بن يوسف ، أشراط الساعة ، دار الجوزي للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، ط2 ، 2003 .
46. ول ديورانت دايزيل ، قصة الحضارة (نشأة الحضارة –الشرق الأدنى- تر:زكي نجيب محمود ، دار الجيل ، بيروت، [د.ط] ، مج1 ، ج1 .

الموسوعات والمعاجم :

1. بدوي عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ،المؤسسة العربية للدراسات و النشر،بيروت ط1984،، 1 ، ج1
2. لالاند ، الموسوعة الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط1، 1996، مج1، مج2.
3. لحميل الحاج ،الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي ، مكتبة لبنان ناشرون بيروت ، ط1، 2000

المراجع باللغة الفرنسية :

1. Ali shariati , Histoire et Destinè , traduits : F.hamèd , les presses Darantierre à Djon , (s.e) , 1982.
2. Andrè Comt-Sponville , Trait du dèsespoire et de la bèatitudo , quadrige / puf ; paris, 1^{re}èdition, 1988 , tome1
3. Andrè Comt-Sponville , Trait du dèsespoire et de la bèatitudo , quadrige / puf ; paris, 1^{re}èdition, 1988 , tome2
- 4..El- sadr mohamed , al mahdi , traduit par :abass ahmed el bostani, bibliothèque ehl- elbeit, parie, 1^{er} édition, 1983
- 5.Munk, Mélange de la philosophie juive et arabe, librairie philosophique, J. Verin, Paris, nouvelle édition 1955.

الموسوعات باللغة الفرنسية

1. Didier Julia, Dictionnaire de la philosophie, librairie Larousse Paris, (S.E), 1964.
- 2.Huisman Dénis, Dictionnaire de la philosophie, Presse universitaire de France, Paris, 1^{ère} édition, 1984.
- 3.Lalande André, Vocabulaire de la philosophie, Presse universitaire de France, Paris, 9^{ème} édition, 1962.

4.LEWIS, MENAGE, Encyclopédie de l'Islam ; imprime aux Pays Bas, Paris, 1^{ère} édition, 1971

5.Ornaldez, Roger, Avempace; (dictionnaire des philosophies) ; Directeur de la publication demis Hwsman, presse universitaire de France, Paris 1^{ère} édition, 1989

فهرس الأعلام

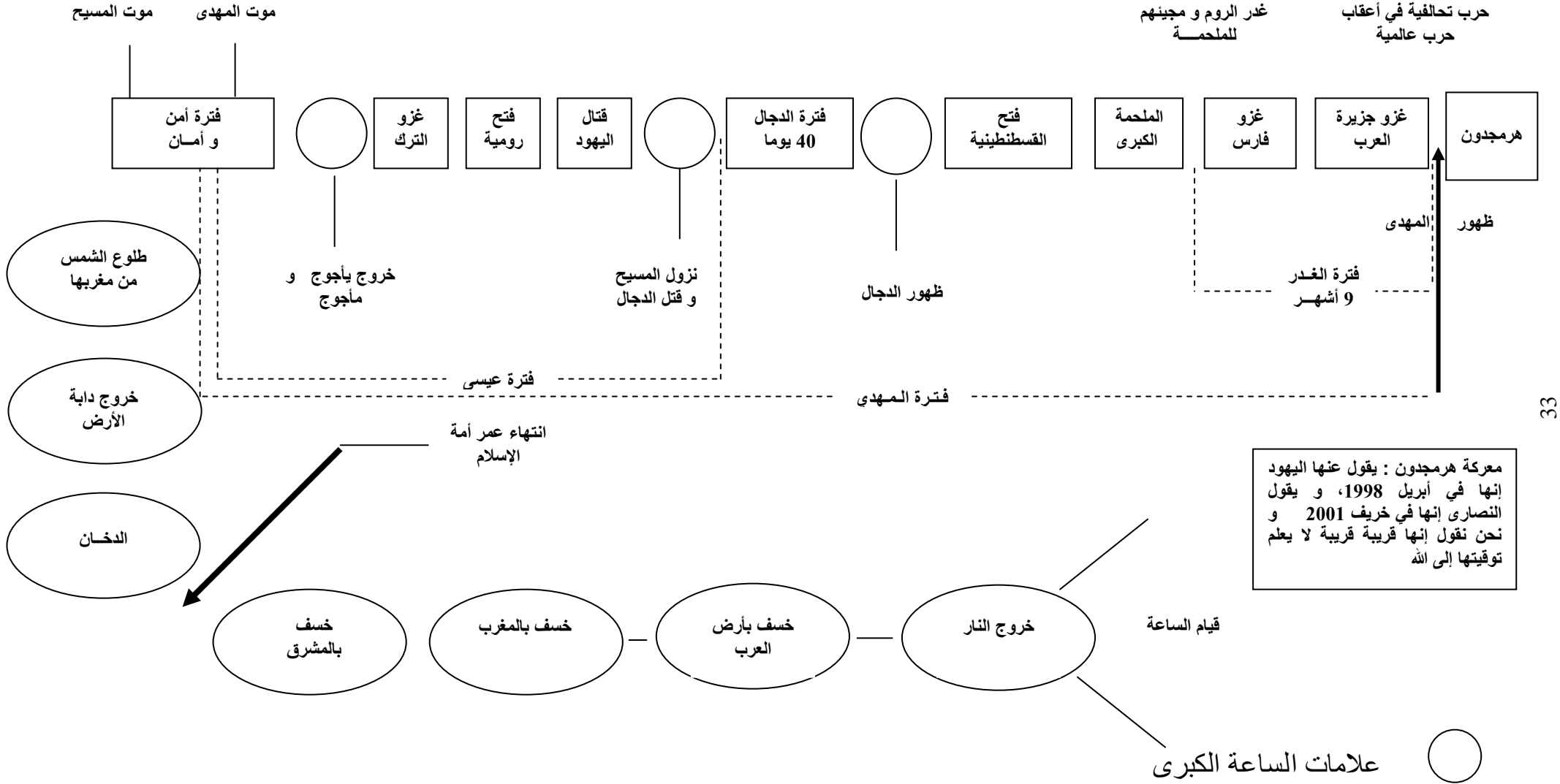
66.....	ابن باجة
292.....	ابن كثير
195.....	آدلى
57.....	أفلاطون
243.....	ألبىر كامو
04.....	إمىل دوركامى

193.....	بوذا
243.....	جان بول سارتر
265.....	جمال الدين محمد أمين
276.....	جورج بوش
17.....	زرادشت
97.....	السفا ريني
241.....	علي شريعتي
294.....	الفارابي
78.....	كارل ماركس
248.....	كونفوشيوس

فهرس الأماكن والبلدان

263.....	أفغانستان
265.....	أمريكا
264.....	أوروبا
277.....	إيران
291.....	تركيا
262.....	روسيا
266.....	الروم

263	سوريا
288	الشام
262	الصين
149	العراق
263	فلسطين
105	القسطنطينية
266	الكويت
105	المدينة (يثرب)
109	مصر
98	مكة المكرمة
286	اليمن



التسلسل الزمني للأحداث المنتظرة¹

¹جمال الدين محمد أمين ، عمر أمة الإسلام وقرب ظهور المهدي عليه السلام ، ص143

الإهداء

إلى من أوصى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بهما خيرا، "والديا الأعمراء"

إلى أمة الإسلام

إلى كل كائن بشري عاقل يريد أن يكون فوق متن الوجود في عالم متكامل

خاشع، تحته ظل العرش وعمق الصلة الوجودية بواجب الوجود

إلى قيادات أهل الدنيا التي تحكم على هدي الإتيقنا، ولها القدرة على اتخاذ

قرار مصيري

إلى من كان لي مونا في دربي، ونبراسا يضيء حياتي "زوجي الفاضل"

إلى الأجيال التي تأتي من بعدي

إلى هؤلاء أهدي ثمرة عملي المعرفي هذا

كلمة شكر

بداية أتقدم بفائق الشكر والتقدير إلى المشرف الفعلي على الرسالة ، المُشرق دائما
بإتسامته " الأستاذ الدكتور عبد اللاوي محمد " الذي علمني التواضع أمام الفكر
والمفكرين ، اطلب من الله عز وجل أن يحفظه ويُدِيم نوره علينا.

كما أتوجه بخالص آيات الشكر والعرفان إلى الدكتور " بوعرفة عبد القادر " الذي
تقاسم معي مصاعب البحث كما عودني دائما ، ولم يبخل عليا بنصائحه القيمة وآراءه
الصائبة ، فأتمنى أن يكون هذا العمل في المستوى الذي يصبو إليه .

شكرا إلى كل أعضاء اللجنة المناقشة ، التي قبلت مناقشة هذه الأطروحة .

شكرا إلى كل زملائي الأساتذة بجامعة جيلالي اليابس بسبدي بلعباس ، الذين
ساعدوني على انجاز هذا العمل .

أوجه شكري إلى كل أساتذة الفلسفة بجامعة وهران بدون استثناء والطاقم الإداري
بمعهد الفلسفة .

كما لا أنسى توجيه شكري إلى روح أستاذي الطاهرة " قاري محمد " رحمه الله
وأسكنه فسيح جنانه .

شكرا جزيلاً

المقدمة:

الإنسان مخلوق ذو بعدين ، ففي لغة البشر يعتبر الطين والوحل رمزا للحقارة والعفونة والتدني ، فالوحل من أحقر موجودات الطبيعة ، وفي لغة البشر أيضا ، يعتبر الله والروح من أرقى الموجودات وأكثرها قدسية ، وفي كل شيء موجود تعتبر الروح أشرف وأقدس مكون فيه .

هذا الإنسان ، الذي هو ممثل الله وخليفته ، خلق من الطين ، ثم نفخ فيه الله من روحه والله هو أرقى موجود ، وروحه هي أرقى مكوّن ، وهكذا نرى الإنسان مصنوعا من الطين ومن روح الله .

إن الله يريد أن يقول لنا بأن الإنسان هو موجود ذو بعدين ، إنه موجود " ثنائي " ، خلافا لكل الموجودات الأخرى التي هي ذات بعد واحد ، إن أحد بعديه هو النزوع للحضيض ، للطين ، فالطين والوحل هما خميرته ، إنه في هذا يُشبه النهر عندما يسير بزخم إلى أن تبقى منه كتل رسوبية خالية من الماء ، فتتوقف هذه الكتل وتتعفن .

أما البعد الآخر للإنسان فهو ينزع للعلاء ، إنه روح الله ، لذلك فإنه ينشد الكمال ويميل للصعود إلى أعلى فأعلى حتى آخر نقطة يمكن تصورها ، الإنسان إذن يحتوي نقيضين: أحدهما الطين والآخر هو الله ، وفي هذا تكمن عظمة الإنسان وسر تطوره ، فالمسافة التي تفصل بين بُعديه (الطين وروح الله) هي المجال الواسع لإرادته ونشاطه ، إنه يتحرك بين هذين القطبين ، وتبقى إرادته هي التي تقرر النزول إلى الدرك... إلى الطين ، أم الصعود إلى الله ، إن الإنسان هو نفسه ساحة للصراع بين هاتين النزعتين (نزعة الخير ، نزعة الشر) ، هذا النزاع الداخلي الذي سيفتح عليه أبواب النار، إنها أبواب النزاع الخارجي مع بني جلدته ، فيكون هناك طرف ظالم وطرف مظلوم ، فينشب الصراع الذي يتمظهر في الحروب والاستغلال والاضطهاد ، فنتوق حينها الفئات المظلومة إلى الخلاص من الظلم والفساد ، والقول بفكرة الخلاص يعني وجود مُخْلِص يُنقذ البشرية من طغيانها وجبروتها ليقودها إلى الراحة والأمان والسعادة .

والتاريخ يشهد على تبني جل الشعوب على اختلاف أديانها لفكرة المُخْلِص ، مُنقذ البشرية ، الذي يحمل مستقبل أفضل مما هم عليه ، وهذا بحكم الفطرة التي تتوق إلى مستقبل سعيد .

ربما مسألة الخلاص قد لا تثير نقاشا حادا لأنها أمر مفروغ منه أكده الواقع وشهد عليه التاريخ البشري ، لكن ما أثار فضولي هو مدى حضور فكرة الخلاص ومظاهرها في فضائنا الإسلامي ، فوجدت أن تاريخنا الإسلامي يحمل فكرة، قد يرفضها البعض ويؤكددها البعض الآخر ، إنها فكرة المهودية كشكل خلاصي لأمة الإسلام .

في حقيقة الأمر وقع اختلاف في وجهات النظر بين الباحثين المسلمين – بل وعامة الناس – حول مسألة المهدي المنتظر، وما ارتبط بها من نصوص دينية، ووقائع وأحداث في الواقع التاريخي عند المسلمين .

وقد اتخذ – الاختلاف- أشكالا وصورا وأنماطا من الجدل امتد بالتدرج من اللغظ العقيم والنقد إلى المواجهات الدموية أحيانا ، وقد يظهر –أحيانا- في شكل حوار نقدي هادف وقائم على ضوابط العلم وقواعد المنهجية وأغلب الاختلافات كانت بين جمهور السنة والمذهب الشيعي .

ببساطة، لا أريد أن أكون طرفا في هذا الصراع لذا ارتأيت أن أعالج مسألة المهودية من زاوية فلسفية ، وهذا بالبحث عن مدى تجلياتها في السلوك الإنساني عامة بغض النظر عن واقعيتها أو عدمها ، المهم أنني في النهاية أتعامل مع فكرة نظرية وألاحظ مدى تأثيراتها على حركة التاريخ والوقائع السياسية والاجتماعية والنفسية وغيرها من الوقائع ، وعليه كان إشكال الأطروحة كالاتي : ما مدى تجليات فكرة المهودية على سلوك الإنسان المسلم؟ سواء كان هذا المسلم سني المذهب أو شيعي ؟

هذا الإشكال يؤول بنا إلى طرح جملة من التساؤلات : هل المهدي المنتظر هو مُخْلِص المسلمين ؟ فهل المشروع المهدي يشابه المشاريع الخلاصية التي تبناها القادة من قبله ؟ ما الميكانيزمات التي ستحكم الإنسان والعالم مستقبلا في ظل المهدي المنتظر هذا إذا سلّمنا بوجوده ، وإن لم ولن يوجد المهدي فما خلاص أمة الإسلام وما مصير الإنسان ؟

تساؤلات مثل هذه تستدعي ثورة على المفاهيم ومنهج جد محدد، الأمر الذي أوحى إلي بوضع خطة تحاول الإجابة على مثل هذه التساؤلات ، فكان مخطط البحث على النحو التالي :

تنوزع الأطروحة على مقدمة تهدف إلى رصد حركية المنهج المتبع والمتمثل في إتباع المنهج التحليلي المقارن، مع رصد المبادرات و الغايات وأهم الصعوبات التي صادفت هذه الدراسة .ثم وزّعت العرض على أربعة فصول ، تناولت في الفصل الأول قصة الخلاص ابتداءا بالشعوب البدائية والأساطير والملاحم ثم تناولت فلسفة الخلاص لدي الديانات الوضعية (الزرادشتية والبوذية) ، والديانات السماوية (اليهودية والمسيحية) ، لأعرج بعدها إلى مشاريع الخلاص في الفلسفة وأخذت كنماذج " أفلاطون" و" ابن باجة" و " ماركس" ، وحاولت تسليط الضوء على المدن المثالية التي طالما حُلم بها الفلاسفة على مرّ التاريخ ، ومقارنتها بمشروع المهدي العالمي فيما بعد .

أما الفصل الثاني فكان ينقسم بدوره إلى أربعة مباحث ، تناولت في المبحث الأول جينيالوجيا وكرونولوجيا المهديوية حيث تطرقت إلى التسلسل التاريخي لفكرة المهدي وربط الحوادث التاريخية بالأحاديث النبوية الشريفة التي كانت تؤخذ كسند لكل واقعة في تلك الحقبة الزمنية .

أما المبحث الثاني : تناولت فيه فلسفة المهدي من وجهة شيعية ، ووضحت مدى العلاقة بين غيبة الإمام بحركة التاريخ ودخول السفراء الأربع إلى النشاط المهدي أثناء غيبته الصغرى ، وأبرزت مدى شساعة المخيال الشيعي في تصور الأحداث بداية بأمر المهدي إلى لحظة ميلاده .

المبحث الثالث عالجت فيه حركة المهديوية من وجودها بالقوة إلى وجودها بالفعل ومدى تأثير ذلك في تغيير مجريات التاريخ ، وهنا تتضح لنا أولى تجليات فكرة المهديوية على السلوك الإنساني ، وأخيرا في المبحث الرابع : أدليت بقراءة للمهديوية المزعومة أي المزيفة والتي كانت تعد البشرية بالخلاص ، ومن هنا حاولت إعطاء صورة عن لا

منطوق المهديّة المُزيّفة من جهة وإبراز مدى راهنيتها في يومنا هذا لاسيما مسألة الادّعاءات الكاذبة التي تحدّث يوميا ، والتي ترددها وسائل الإعلام باستمرار من جهة أخرى ، هذا الفصل يعد تمهيدا في حد ذاته للفصل الثالث الذي انقسم بدوره إلى أربع وحدات ، عالجت في الوحدة الأولى قصة انتظار الفرج بالأدلة والبيانات من زاوية شيوعية ، لأن انتظار المهدي يكون أثناء غيبته الكبرى ، ومسألة الغيبة لا نجدها سوى عند المذهب الإمامي – الشيعة الإثني عشرية - ، وهنا حاولت إعطاء قراءة فلسفية لمسألة حول لماذا ينتظر الإنسان البطل ونجده عاشقا له ، ثم عالجت ماهية الانتظار من زاوية سيكولوجية ودينية ، لماذا أقول سيكولوجية ؟ لأن فلسفة الانتظار لها صلة وطيدة بالحالة النفسية التي ينبغي أن يكون عليها المُنتظر ، ومدى تأثير انتظاره على حركة المجتمع ، لأن هناك نوعين من الانتظار: انتظار إيجابي والآخر سلبي ومدى ارتباط هذين الانتظارين بالطريقة الديالكتيكية والطريقة الإنسانية اللتين يفسران تكامل التاريخ ثم وضحت نتائج كلا النوعين من الانتظار ومدى ارتباطه – الانتظار – بالوعي بالمستقبل ، هذا المستقبل لن يكون سوى مشروع دولة المهدي العالمية وهذا مضمون الفصل الأخير الذي أبرزت فيه علاقة الانتظار الإيجابي بتأسيس الدولة العالمية ، لكن وجدت نفسي مضطرة إلى تبينة للموضوع وهذا بإعطاء صورة عن الواقع السياسي قبل ظهور المهدي من وجهتين (سنية وشيعية) هاتين الوجهتين التي لم أجد فيها اختلاف يستحق الذكر بينهما ، وبعدها حاولت في المبحث الثاني إعطاء أهم الآليات والميكانزمات التي سيسير عليها المشروع ومقارنة هاته الآليات ببعض

المشاريع المثالية كالتالي نجدها عند ابن باجة والفارابي وماركس وغيرهم من الفلاسفة ، فاكتشفنا "إتيقا" أرسطية في صورة مهديّة ، ومدى حضور فلسفة التربية في مشروعه باعتبارها أساس الإصلاح ومنبع هداية الشعوب بدل إدارة الشعوب ، ثم اكتشفنا مهدي السياسة والاقتصاد وأهم التحولات التي ستحدث على مجرى التاريخ مستقبلا .

أما في المبحث الثالث ناقشت قضية المجتمع المعصوم : معناه وأسسها ، وعالجت بالمناسبة قضية سبق وأن طرحها ماركس بخصوص زوال الدولة في حالة بلوغ المجتمع

المعصوم طوره الأعلى ، هل ستزول الطبقية في هذا المشروع وما محل الديمقراطية في الدولة ، ثم درست بامعان فلسفة الإنسان في الدولة العالمية ومدى تأثيره فيها ، ومتى يستحق لقب المواطن ومتى يكون غريبا عنها ، وهل هو أهل للرجعة إليها ، وبعدها أذكر حادثة متميزة يتفق فيها الفرقين (سنة وشيعة) ، إنها حادثة نزول سيدنا عيسى عليه السلام والدور الجبار الذي سيقوم به مساهمتا منه في بناء الدولة العالمية وكيف كان آخر أمة الإسلام طبقا للأحاديث الشريفة .

وأخيرا ننهي البحث بخاتمة نرصد فيها أهم النتائج المتوصل إليها .
على العموم هذه العناصر التي أشرنا إليها في هذا البحث لا تعبر في حقيقة الأمر سوى عن بعض جوانب مشروع المهديوية، ذلك أن المصاعب التي كانت تنتظرنا لم تغب عنا لحظة واحدة، مرد تلك المصاعب هو اتساع الأراضي التي سنحاذيها كما أن الإحاطة بالموضوع إحاطة كلية و دقيقة كان فوق طاقتنا نظرا لندرة المصادر التي تتعلق بالبحث، لاسيما المصادر الشيعية ، فهي مفقودة بشكل كلي في المكتبات الجزائرية ، بالإضافة إلى التحفظ الشديد إزاء الكتب الشيعية فلا أكاد أجد سوى كتب حول تكفير الشيعة أو ما شابهها الأمر الذي اضطرني إلى استيراد بعض المصادر من الخارج، هذا من جهة ومن جهة أخرى، ندرة الدراسات الفلسفية حول الموضوع من وجهة سنية فكل ما وجدته إشارات بسيطة إلى الأحاديث التي تنص على وجود المهدي، دون وجود

أي دراسة لمشروع المهدي العالمي ، فكان هذا البحث محاولة بسيطة مني للإعطاء قراءة فلسفية لدولة المهدي العالمية و بطريقة موضوعية دون التحيز لأي طرف كان وإضافتا إلى هذه الصعوبات قلة المراجع باللغة الأجنبية إلا نادرا ما أعر على كتاب في صلب الموضوع .

بل كان ما هو أصعب من ذلك، إدخال الدراسة في صلب اعتبار يستلزم اليوم تضافر معطيات الكثير من المعارف الدقيقة من الفلسفة إلى التاريخ، ومن السوسولوجيا إلى

السيكولوجيات ، ومن الإسلاميات إلى الجغرافيا ، كان نصيبنا إذن أن نسير في صراع بالغ الضيق.

و عليه فغرضنا من هذه المغامرة ليس مجرد استرجاع لأفكار و مضامين تراثية بقدر ما وضعنا نصب أعيننا هدف جد محدد هو الإسهام في بعث المشروع المهدي من جديد، ليستعيد مكانته الجديرة به كمُحاور واعد أمام الفلسفات الحديثة المحطمة للكيان الإسلامي، لاسيما بعدما اكتشفنا أنه بإمكانه أن يوجه حضارتنا من جديد نحو الارتقاء بل نحو البقاء و الخلود، لأن التفكير في الغايات يطرح اليوم مشكلة التفكير في فلسفة الإنسان وإعادة بنائها من جديد .

الفصل الأول: قصة الخلاص

1. المبحث الأول : أولى إرهاصات الخلاص

القسم الأول : طوَّطم الخلاص لدى الشعوب البدائية

القسم الثاني: آلهة الخلاص في الأساطير والملاحم

2. المبحث الثاني : فلسفة الخلاص في الحضارات الشرقية

القسم الأول : مُخْلِص العالم والرَّجعة عند زرادشت

القسم الثاني: البوذية والمنهج الخلاصي

3. المبحث الثالث : فلسفة الخلاص في الديانات السماوية

القسم الأول : اليوم الموعود في الديانة اليهودية

القسم الثاني : رَجعة الأخيار ب رجوع المسيح عليه السلام

4. المبحث الرابع: مشروع الخلاص في الفلسفة

القسم الأول : من خلاص البدن إلى خلاص المدينة حسب أفلاطون

القسم الثاني: مملكة الغرباء ومشروع النابتة الخلاصي عند ابن باجة

القسم الثالث : الشيوعية الماركسية والمستقبل السعيد

المبحث الأول : أولى إرهاصات الخلاص

القسم الأول : طوغم الخلاص لدى الشعوب البدائية

القسم الثاني: آلهة الخلاص في الأساطير والملاحم

طوّم الخلاص لدى الشعوب البدائية:

أول سؤال يتبادر إلى الذهن هو : ما مصدر فكرة الخلاص أو بالأحرى ما دافع البشرية إلى تصور منقذ (sauveur) أو مخلص؟ وما الهدف المرجو من وراء الاعتقاد في وجود مخلص؟

ربما الخوف أولى أمهات الاعتقاد بالمخلص ، وخصوصا الخوف من الموت ، فصراع الذات مع الموت بدا واضحا على مر التاريخ ، فقد كانت الحياة البدائية محاطة بالأخطار وقلما جاءت المنية عن طريق الشيخوخة الطبيعية ، فقبل أن تدب الشيخوخة في الأجسام بزمن طويل ، كانت كثرة الناس تقضى بعامل من عوامل الاعتداء العنيف أو بمرض غريب يفتك بها فتكا ومن هنا لم يصدّق الإنسان البدائي أن الموت ظاهرة طبيعية وعزاه إلى فعل الكائنات الخارقة للطبيعة ففي أساطير سكان بريطانيا الجديدة الأصليين ، جاء الموت نتيجة خطأ خطأته الآلهة ، فقد قال الإله الخير «كامبينانا» إلى أخيه الأحمق «كورقوفا» : «اهبط إلى الناس وقل لهم يسلموا جلودهم حتى يتخلصوا من الموت ثم أنبئ الشعبين أن موتها منذ اليوم أمر محتوم » ، فخلط «كورقوفا» بين شطري الرسالة بحيث بلّغ سر الخلود للشعابين* وقضاء الموت للإنسان ، وهكذا ظن كثير من القبائل أن الموت مرجعه إلى تقلص الجلد ، وأن الإنسان يخلد لو استطاع أن يبدل بجلده جلدا آخر .¹

وتحضرني هنا نظرية "جيوفونس" (JEVONS) التي ترى أن الديانة الطوطمية فد تشعبت عن عبادة مظاهر الطبيعة لأن الإنسان البدائي وهو تحت تأثير الخوف أو الرهبة من مظاهر الطبيعة من حيوان ونبات وجماد قد حرص على التقرب إلى بعضها ليتقي شرها ويضمن نفعها ويستدر عطفها عليه ، ولم يكن ثمة وسيلة للتحالف غير وسيلة القرابة ، لأن القرابة وحدها هي التي كانت في الشعوب البدائية تحقق التضامن والتكافل والأمن والسلام ، حيث كان أفراد العشيرة الواحدة أولياء بعضهم لبعض لصلة القرابة التي كانت تجمع بينهم ، على حين أنهم كانوا ينظرون لغير أقربائهم نظرتهم إلى خصوم

* كان كثيرون من الأقدمين يعبدون الأفعى ويتخذونها رمزا للخلود ، وذلك لقرتها الظاهرة على الفرار من الموت بتبديل جلدها .
¹ ول ديورانت دايزيل ، قصة الحضارة (نشأة الحضارة - الشرق الأدنى- تر : زكي نجيب محمود ، دار الجيل ، بيروت ، [د.ط] ، مج 1 ، ج 1 ص 100

وأعداء ، ولذلك اصطنع العقل البدائي صلة قرابة بينهم وبين بعض مظاهر الطبيعة ولم
يقم هذه الصلة بين أفراد وأفراد وإنما أقامها بين العشائر الإنسانية من جهة والفضائل
الحيوانية والنباتية والطبيعية من جهة أخرى ، وذلك لأن العشيرة هي التي كان لها وجود
قوي في العقلية البدائية ، أما الأفراد فلم يكن لهم وجود يعتد به ¹ ، وهذه النظرة تتقاطع
والنظرة الدوركايمية .

وهكذا تعاونت عدة عوامل على خلق العقيدة الدينية ، فمنها الخوف ، ومنها كذاك
الدهشة لما يسبب الحوادث التي تأتي مصادفة أو الأحداث التي ليس في مقدور الإنسان
فهمها ، ومنها الأمل وانتظار معونة الآلهة و الشكر على ما يصيب الإنسان من حظ
سعيد ، وكانت أهم ما تعلقت به دهشتهم وما استوقف أنظارهم بسرّه العجيب هما
الجنس والأحلام ثم الأثر الغريب الذي تحدثه أجرام السماء في الأرض والإنسان، لقد
بهت الإنسان البدائي لهذه الأعاجيب التي يراها في المنام وفرع فزعا شديدا ، الأمر
الذي جعله يعتقد أن لكل شيء روح ، أو إله خفي، وعليه فالمعبودات الدينية تقع في ستة
أقسام: منها ما هو سماوي و ما هو أرضي وما هو جنسي وما هو حيواني وما هو
بشري وما هو إلهي ، وبالطبع لن يتاح لنا قط أن نعلم أي الأشياء في هذا العالم الفسيح
كان أول معبود للإنسان ، وربما كان القمر بين المعبودات الأولى، فكما أننا اليوم
نتحدث في أغانينا الشعبية عن " الرجل الذي يسكن القمر " كذلك صورت الأساطير
الأولى القمر رجلا شجاعا أغوى النساء وسبب لهنّ الحيض مرّة كلما ظهر ولقد كان
القمر إلهما محببا للنساء عبدنه لأنه حامه بين الآلهة ²

عموما تعددت المعبودات وتتنوعت من قمر ، وشمس ، شجر وسماء بل حتى
الحيوان ، وتكاد لا تجد حيوانا في الطبيعة كلها - من " الجعل " (الجعران) المصري
إلى الفيل عند الهندوس - لم يكن في بلد ما موضع عبادة باعتباره إله مخلصا، فهنود
(OJIBWA) أطلقوا إسم "طوتم"*(TOTEM) على حيوانهم الخاص الذي يعبدونه

¹ محمد الخطيب ، الأثنولوجيا - دراسة عن المجتمعات البدائية - منشورات دار علاء الدين ، دمشق ، ط1، 2000، ص 143 .

² ول ديورانت دايزيل ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، مج1 ، ج1 ، ص100
* أقدم من كتب عن نشأة الطوتم شخص يُدعى " كارسيلاسو ديل فيكا" وهو أحد أفراد العائلة الحاكمة لعشائر " أنكا " في البيرو ، حيث كتب
هذا الشخص في القرن السابع عشر مخطوطا عن تاريخ شعبه وذكر في هذا المخطوط ما يعتقد أنه عن نشأة الطوتم . مقتبس من كتاب محمد
الخطيب ، الأثنولوجيا ، ص 143 .

وعلى العشيرة التي تعبده ، وعلى كل عضو من تلك العشيرة ، ثم جاء علماء الأجناس البشرية فأخذوا هذه الكلمة وجعلوها أسماء على مذهب «الطوطمية» الذي يدل دلالة غامضة على أية عبادة لشيء معين وعادة يكون الشيء المعبود حيوانا أو نباتا تتخذه جماعة ما موضع عبادتها، ولقد وجدنا أنواعا مختلفة من الطوطم في أصقاع من الأرض ليس بينها رابطة ظاهرة من قبائل الهنود في شمال أمريكا إلى أهل إفريقيا "دارقبد" (DARAVIANS) في الهند وقبائل استراليا ، ولقد

أعان الطوطم باعتباره شعارا دينيا على توحيد القبيلة التي ظنّ أعضاؤها أنهم مرتبطون معا برباطه، أو هبطوا جميعا من سلالته، ويحضر على الفرد أن يتزوج بفتاة تحمل طوطمه، لأن أبناء الطوطم الواحد أشبه ما يكون بالأشقاء والشقيقات¹،

فقبيلة " إراكو " تعتقد على نحو شبيه بما يذهب إليه "داروين"؛ أنهم سلالة التزاوج بين النساء وبين الدببة والذئاب والغزلان وأصبح الطوطم- باعتباره شعارا أو رمزا - علامة مفيدة تدل على ما بين البدائيين من قرى وتميزهم بعضهم من بعض ثم أخذ على مرّ الزمن يتطور في صور علمانية فكان منه التمايم و الشعارات ، كهذا الذي تتخذه الأمم من شعارات كالأسد أو النسر أو الأيل الذي تتخذه الجمعيات التي تعمل على الإخاء بين الناس أو هذه الحيوانات الخرساء التي تصنعها الأحزاب السياسية عندنا اليوم لتمثيل رسوخ الفيلة أو صخب البغال وكانت الحمامة والسمة والحمل ، في رمزية العقيدة المسيحية إبان نشوئها ، بقايا القديم في تمجيد الطوطم ، بل إن الخنزير الوضيع كان يوما طوطما لليهود السابقين للتاريخ ، وفي معظم الحالات كان الطوطم محرما لا يجوز لمسه ، ويجوز أكله في بعض الظروف على أن يكون ذلك من قبيل الشعائر الدينية ، فهو بذلك يرمز إلى أكل الإنسان لله أكلا تعبديا * ، وقبيلة "غاللا " في الحبشة تأكل السمكة التي

¹ لحميل الحاج ، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط1 ، 2000 ، ص338

* يعتقد فرويد بما له من خصوبة في الخيال - يتميز بها - أن الطوطم صورة يرمز بها الإنسان إلى الأب ، الذي يهابه الأبناء ويمقتونه لشدة بأسه وقوته فيثرون عليه ويأكلونه ويرى "دوركايم" ان الطوطم رمز للعشيرة يهابه الفرد ويمقته ومن هنا كان "مقدسا " و " نجسا " في أن واحد لشدة سلطته عليه سلطانا لا يغلب ولاستبداده استبدادا يجرج الصدر ، وأن الشعور الديني في أساسه الأول هو ما كان يشعر به الفرد إزاء أولي الأمر في جماعته الذين بيدهم السلطة .

تعبتها في احتفال ديني رصين ويقول أبناؤها «إننا نشعر بالروح تتحرك فينا إذ نحن نأكلها»¹

إذن يجوز لنا القول أن صراع ذات مع الموت رغبتنا في الخلود إحدى أسس الطوطمية كمظهر خلاصي كما هو أساس كثير من العبادات وذلك بأن يكون الإنسان قد عبد الحيوان لقوته فلم ير بداً من استرضائه ، فلما طهر الصيد الغابة من وحشها ، ومهد الطريق للطمأنينة التي تتوفر للحياة الزراعية ، قلّت عبادة الحيوان ولو أنها لم تنزل تمام الزوال ، وربما استمدت الآلهة البشرية الأولى طبعها من الآلهة الحيوانية التي جاءت تلك الآلهة البشرية لها بديلاً ، والانتقال من أولئك إلى هؤلاء واضح في القصص المشهورة التي تروي لنا تحول الصورة الإلهية، فتصف لنا تلك القصص كيف كانت الآلهة ، أو كيف صارت حيوانية الصورة ، وبعدئذ ظلت صفات الحيوانات لاحقة بالآلهة لا تبرحها ، كما تظل رائحة الإسطل لاحقة بمكانه بعد تحويله قصراً ريفياً منيفاً ، حتى في " هومر " الذي كان قد بلغ من الرقي مبلغاً بعيداً ، ترى الإلهة " جلوكوبيس أثيني " لها عينا بومة و " هيري بوبس " لناعينا بقرة ، والآلهة أو الغيلان في مصر وبابل ، بوجوهها الإنسانية وأجسادها الحيوانية تبين مرحلة الانتقال نفسها ، وتعترف بالحقيقة عينها ، وهي إن كثيراً من الآلهة البشرية كانت يوماً آلهة حيوانية² ومنه نستخلص أن الطوطم كان يمثل إحدى أشكال الخلاص في الفكر البدائي سواء كان هذا الطوطم حيواناً أو نباتاً أو كائن نصفه بشر ونصفه حيوان ، المهم وفي

النهاية يمثل مخلص البشرية بالنسبة للمجتمع البدائي الأمر الذي يسمح لنا بالقول أن مجرد الاعتقاد في وجود مخلص دليل قاطع على شعور الكائن البشري بالخوف من الموت والظلم والعجز أمام قوى غيبية كانت أو فزيائية يتقرب إليها ويتذرع لها من خلال رمز يدعى طوطماً ، لعل وعسى يُبعد هذا الطوطم عنه الآلام ويُنقذه من الظلم ويُوفر له الحماية والاستقرار إذا ما رضي عنه ويضمن له بقاء أطول ، وعليه يمكن القول أن

¹ محمد الخطيب ، الأثنولوجيا - دراسة عن المجتمعات البدائية ، مرجع سابق ، ص 146.

² ول ديورانت دايزيل ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، مج 1 ، ج 1 ، ص 108

المُخْلِص في هذه الحالة هو كائن حسي له حضور واقعي و يحض في الوقت نفسه بهالة من التقديس. فهل سيحتفظ الطوغم في الأساطير والملاحم بنفس الشكل الذي حضي به في المجتمعات البدائية؟.

الإله المُخْلِص في الأساطير والملاحم :

إن تاريخ الدين والأسطورة هو تاريخ صراع الذات مع الموت - كما أسلفنا الذكر - ، ففي المراحل الأولى كانت الذات مسحوقة تجاه الموت ، والعالم الأسفل مسيطر جبار لا مهرب منه ولا فكاك من أسره الأبدي ، وكان هم الإله الميت أن يحفظ البشر أحياء طيلة الفترة المقررة لهم في العالم الفاني ، لذلك كان هذا الإله في مراحل الأولى إله خصب

وقوى طبيعية ، تنحصر جهوده في دعم الإنسان في صراعه مع الجوع والفناء دون أن يكون قادرا على تحريره من رقبة الموت ومنحه خلودا أبديا حقيقيا ، إلا أن حياته وموته وبعثه كانت أمورا موحية بأمل غامض وبعيد بإمكانية الخلاص من سيطرة الموت كما تَخَلَّص منها إله الخصب ، فكان تعلق قلوب العباد بهذا المُخْلِص الحياتي تعبيراً عن النزوع الإنساني الأبدي نحو الخلود ، ولم يكن ظهوره في ضمير البشر إلا مظهراً من مظاهر صراع الظاهرتين الكونيتين في داخل الإنسان وخارجه ، صراع الموت والحياة

ونستطيع القول أن نمو الديانات البعلية (ديانات الخصب) واكتسابها غلبة شعبية على الديانات الايلية (ديانات الآلهة السماوية البعيدة) هو حالة تالية في تطور الدين والأسطورة ، وحالة وسط تحتوي على شيء من التوازن بين الحياة والموت ، أما المرحلة الثالثة فتمثل عن حق مرحلة انتصار الحياة على الموت في الدين والأسطورة، فما حصل للإله الخصب مرة سيحصل لكل عباده المخلصين ممن سيدخلون في ديانتهم ويلتحقون به من دون بقية الآلهة ، قال السيد المسيح : «من آمن بي وإن مات فسيحيا»، وتحولت ديانة الخصب إلى ديانة سرية وتحول مُخْلِصها الأرضي الحياتي إلى مُخْلِصٍ روحي ، باسطة سيطرته من عالم الحياة إلى عالم الموت أيضا ، مقدما لعباده خلاصاً لروحهم من سطوة العالم الأسفل ، وبعد أن كان الفرد حرّاً في التنقل من إله لآخر كلما حلا له ذلك ، فقد أصبحت الآن الجماهير المسحوقة التي ضاقت ذرعا

بالبهارج الزائفة للتطور المادي ، ترنوا للالتصاق بإله أقرب إلى طينة البشر وأصق بعواطفهم وأعلم ببواطن أمورهم ، إله لا يعيش في السماء ، بل يعيش بين الناس ويعاني مثل ما يعانون ثم إنه يموت كما يموتون ، ولكنه يصعد من عالم الموتى ويصعد معه عباده المؤمنين الملتصقين به ، المتحدين معه ، واهبا الخلاص الروحي لأولئك الذين اختاروه عن قصد ورغبة ومروا عبر جميع الطقوس السرية اللازمة للانتماء للجماعة

والإتحاد بالإله ، والدليل على ما قلناه وجدناه في الأساطير القديمة وهي كثيرة لا تُحصى إلا أننا نكتفي بذكر مجموعة بسيطة من الأساطير التي تنتظر عودة الإله المُخْلِص.

عودة الإله أدونيس :

انتشرت عبادة بعل في جميع أنحاء سورية وآسيا الصغرى وكان اسمه يسبق بلقب "آدون" وتعني السيد أو الرب ، وتروي هذه الأسطورة أن الرب لم يمت في صراعه مع "موت" وإنما قام خنزير بري باقتراسه في غابات لبنان أثناء الصيد ، أما حبيبته و البطة الرئيسية في سير الأحداث ، القوة الإخصابية الكونية فلم تعد "عناة" الأوغارتية بل زميلتها "عستارت" التي ظهرت بدور ثانوي في ملحمة بعل ، والواقع أن هاتين الإلهتين هما أصل أو انعكاس للإلهتين "أنا" و"عشتار" في بلاد الرافدين ، وكما كانت أنا وعشتار ألتهان في واحدة ولكن التسمية اختلفت تبعاً للمكان والزمان ، وكما مضت عناة تبحث عن بعلها، كذلك مضت عستارت تبحث عن أدوني إلى أن أثمرت جهودها ونهض من بين الأموات على مرأى من عباده الذين قضوا فترة موته في ندبٍ وعويل، وهكذا يمضي عباد أدون في كل ربيع عند فيضان نهر إبراهيم (نهر أدون سابقاً) بالبكاء ولطم الخدود والصدور على الإله الغائب* ، ويجري النهر الغاضب بمياه حمراء من جراء الأتربة التي تنجرف مع الثلوج الذائبة من المرتفعات ، فيعتقدون أن

دماء الإله القتيل هي التي أعطت للمياه صبغتها ، كما أعطت لشقائق النعمان المتفتحة لونها، وفي اليوم التالي كانت تعم الاحتفالات بقيام "أدوني" فيرفع الناس الحداد ويأخذون بالرقص والشراب والممارسات الجنسية التي من شأنها تقليد لقاء الإله والآلهة وإيحاء للتربة بالخصب والعطاء .

ولقد حمل الكنعانيون (الفينيقيون) في ترحالهم معهم ألتهم ، وكان أدوني من أشهر الآلهة المرتحلة وصل إلى اليونان حيث أغرم به الناس هناك ، وزوجوه "أفروديت"*

* ظاهرة اللطم والبكاء التي وجدناها بشكل جلي في الأساطير القديمة نُذكرنا بظاهرة تماثلها عند الشيعة الإثني عشرية حيث يلطم ويبكي أهل الشيعة فقيدهم الحسين عليه السلام الذي قُتِلَ قَتْلَةً شنعاء يشهد عليها التاريخ ، فتجدهم يبكون ويُلطخون أنفسهم بالدماء وكأنهم يقدون الحسين من جهة وينادون بتعجيل فرج المهدي المُخْلِص (محمد بن حسن العسكري) من جهة أخرى .

* أفروديت كلمة تعني الرحم نفسه وليس مجرد اشتقاق من المقطع السومري A- BURU- DA- TI الذي يدل على بعض صفات الرحم

آلهة الحياة والجمال ، والنسخة اليونانية عن "أنانا" أو "عشتار" ، وأضافوا لأسمه حرف أل"س" وفق ما هو معمول به في معظم الأسماء اليونانية فصار "أدونيس" وكان أدونيس يهبط مدة أربعة أشهر في كل سنة إلى العالم الأسفل ليعيش مع آلهته، ثم يغادر صاعدا إلى الحياة ثمانية أشهر أخرى وهكذا دواليك ، إلى أن أساء في إحدى المرات للآلهة "أرتميس" ربة الغابات والصيد فأرسلت إليه خنزيرا برياً صرعه ، ففاض دمه مضرجا الورود بحمرة أزلية باقية وهكذا تتكرر باقي الأسطورة -التي ذكرناها قبل حين- فيما يخص عودة الآله والاحتفال برجعته**.

فرجة الآلهة كانت سنة سنتها الأساطير القديمة لا الشرقية فحسب بل حتى اليونانية بالرغم ما تحمله من روح شرقية كما هو الحال للإله المخلص "ديونيسوس"*** هذا الإله ابن يهبط إلى الأرض ويموت ميتة شنيعة ثم يُبعث من جديد ويصعد إلى السماء ليحكم في مملكة أبيه إلا أن "هيرا" زوجة زوس قد أكلتها الغيرة لاعتلاء أحد أبناء زوس من امرأة أخرى عرش أبيه فقامت بتحريض التيتان¹ ، وهم قوم متوحشون من

آلهة الدرجة الثانية كانوا في خصام مع زوس ، على قتل الطفل فهاجموه محاولين تمزيقه ولكن الإله كان يغير من شكله هربا بنفسه منهم ، فصار أسدا فأفعى ولكن دون جدوى لأن التيتان قد نالوا منه أخيرا وهو في صورة الثور ، فقتلوه وقطعوا جسده سبع قطع أكلوها جميعا ، ولم تجد محاولة زوس الإنقاذ ابنه لأن التيتان قد أتوا عليه ؛ وعلى ذلك خصصت احتفالات دينية ربيعية ديونيسوسية ، كان يجري فيها تمثيل عذابات الآله الميت في لحظاته الأخيرة بدقائقها مصحوبا بالأناشيد الحزينة والموسيقى تم يؤتى بثور يمثل الإله القتل الذي التهمه التيتان وهو على هذه الصورة فيمزقونه ويلتهمون لحمه ويشربون دمه على أصوات الموسيقى المجنونة ، معبرين بذلك رمزيا عن رغبتهم في

** منه نلاحظ أن هناك ثمة تحوير يوناني في بعض التفاصيل لقصة أدونيس السورية لا يسع المجال لذكرها لأنها لا تخدم الأطروحة في شيء

***ديونيسوس هو ابن كبير آلهة الأوليمب ، حيث قام كبير الآلهة بزيارة بيرسفوني وهو في هيئة الأفعى فضاجعها وانسحب فحملت منه وولدت الإله "زاغروس" أو "ديونيسوس" الذي اعتلى عرش أبيه وهو طفل صغير وكانت الولادة في كهف صغير كانت ديمتر قد خبأت فيها ابنتها بيرسفوني ، ويظهر لنا تحت بارز من العصر المتأخر شكلا واضحا للكهف حيث ولد الإله الطفل وصورة للمهد الذي وضعته فيه أمه ، وهذه الولادة تحضر في أذهاننا ولادة المسيح في المغارة الصغيرة - كما ادعت المسيحية-

¹السواح فراس ، مغامرة العقل الأولى ، دار علاء الدين ، دمشق ، ط11 ، 1996 ، ص367 ، ص368 .

الإتحاد بالإله القتييل بواسطة أكل جسده وشرب دمه ، تماما كما وجدنا عند المسيحين فيما بعد ، نقرأ في العهد الجديد من الإصحاح 36: «وفيها هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا هذا جسدي هذا هو جسدي وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل الكثيرين لمغفرة الخطايا»¹. وبعد تناول القربان كانت الطقوس تستمر فيجري تمثيل ولادة ديونيسيوس الثانية وبعثه من بين الأموات ، بالإضافة إلى الثور فإن ديونيسيوس كان يمثل بشكل التيس أو الجدي تماما كالإله آتيس ، لذا فإن الجدي كان في أحيان أخرى هو الضحية التي تُؤكل ويُشرب دمها كرمز لإله القتييل ، وكان الراقصون يرتدون ثيابا من جلد الماعز في احتفالاتهم .

معنى الخلاص في ملحمة جلجامش :

جلجامش كان يمثل بطل مُخلص وحاكم أسطوري لأورك وهو من نسل شمش- نيشتين الذي نجا من الطوفان ولم يميت قط ، ويدخل جلجامش في القصة في صورة مركبة من

صورتى أونيس وشمشون ، فهو طويل القامة ، ضخم الجسم ، مفتول العضلات ، جريء مقدام ، جميل يفتن الناس بجماله :

ثلثاه إله ،
 وثلثه آدمي ،
 لا يماثله أحد في صورة جسمه .. ،
 يرى جميع الأشياء ، ولو كانت في أطراف العالم ،
 كابد كل شيء ، وعرف كل شيء ،
 واطلع على كل شيء ،
 ورأى ما كان خافيا ،
 وكشف الغطاء عما كان مغطى ،
 وجاء بأخبار الأيام التي كانت قبل الطوفان ،
 وسار في طريق بعيد طويل ،
 كابد في المشاق والآلام¹ ،

¹ السواح فراس ، مغامرة العقل الأولى ، مرجع سابق، ص 363 .
¹ديورانن ول دايزيل ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، مج 1 ، ج 2 ، ص 239 ، ص 240 .

ثم كتب على لوح حجري كل ما قام به من الأعمال كما نراه في أحد النصوص التاريخية السومرية في حرب مع آجا ملك المدينة السومرية المجاورة "كيش" إلا أن قصصا كثيرة حيكّت حول هذه الشخصية التاريخية ، فرفعتّها من مقام الواقع إلى عالم الأسطورة .

والأسطورة التي سنقدمها هنا هي إحدى تلك الأساطير التي دخلت في نسيج الملحمة البابلية ونرى فيها جلجامش الملك ، يمضي لصراع وحش رهيب ، سعيا وراء تخليد ذكره ورفع اسمه ، فلقد أدرك جلجامش أن الموت قادم لا محالة ، وأن نسبه الالهي لن ينجيه من مصير البشر ، فقرر القيام بفعل مجيد يخلد به اسمه بعد موته ، لأن الخلود هو خلود الذكرى * وعمل الإنسان الصالح :

إلى أرض الأحياء ، تاق السيد إلى السفر
إلى أرض الأحياء ، تاق جلجامش إلى السفر
فقال لتابعه أنكيدو :

أي إنكيدو ، ان الختم والآجر ، لم يأتيا، بعد بالمصير المحتوم
ولسوف أدخل أرض الأحياء ، وأخذ لنفسي هناك اسما
ففي الأماكن التي رفعت فيها الأسماء سأرفع اسمي
وفي الأماكن التي لم ترفع فيها الأسماء سأرفع اسمي
فأجابه تابعه أنكيدو :
بلغ أوتو ، البطل أوتو
فتلك الأرض في رعاية أوتو
أرض الأرز المقطوع ، في رعاية أوتو ، بلغ أوتو
فرفع جلجامش بيديه جديا تام البياض
وضغط إلى صدره جديا أسمر ، قربانا
وبيده أمسك العصا ال [...] الفضية
وقال مخاطبا أوتو السموات
أي أوتو، أتي لداخل أرض الأحياء ، فكن نصيري
إني لداخل أرض الأرز المقطوع، فكن نصيري
فأجابه أوت :
.....

* مقولة تذكرنا بما قاله ابن باجة في كتابه تديبير المنوحد " إن الذكرى عمرٌ ثاني للإنسان" .

في مدينتي يموت الرجل كسير القلب
 يفنى الرجل حزين الفؤاد
 أنظر من فوق السور
 فأرى الأجسام الميتة طافية في النهر
 وأي أني سأغدو مثلها حقا
 فالإنسان مهما علا ، لن يغطي الأرض عرضا
 ومهما اتسع، لن يغطي الأرض عرضا
 وأن الختم والآجر، لم يأتيا، بعد بالمصير المحتوم
 سأدخل أرض الأحياء، وأخذ لنفسي هناك اسما
 ففي الأماكن التي رفعت فيها الأسماء سأرفع اسمي
 وفي الأماكن التي لم ترفع فيها الأسماء سأرفع إثمي
 فتقبل أوتو دموعه قربانا
 وكرجل رحيم ، أظهر له من رجعته
 ثم أسلمه سبعة جبابرة ، أبناء من أم واحدة
 الأول [...] الذي [...]
 الثاني ، الأفعى السامة التي [...]
 الثالث التنين الذي [...]
 الرابع ، النار الحارقة إلي [...] ¹

يلي ذلك تسعة وعشرون سطرا ، معظمها يحتوي على نقص في موضع أو أكثر ولكن المعنى الإجمالي كامل الوضوح فبعد أن يضع أوتو تحت تصرفه تلك الجبابرة السبعة ، ينطلق جلامش إلى مدينته طالبا خمسين متطوعا لمرافقته في رحلته، ويشترط في مرافقيه أن يكونوا بلا بيوت يملكونها أو زوجات أو أولاد ، فيكون له ما أراد ثم يمضي إلى الحدادين فيصنعون له ولمرافقيه أجود أنواع الأسلحة وعندما تكتمل عدته يشرع في مغامرته ، التي ستنتج بالانتصار العظيم ¹.

وهكذا نجد جلامش يبحث عن خلود ذكراه بعد أن يبس في إيجاد سر الخلود و الخلاص من الموت فأدرك يقينا أن بني البشر مكتوب عليهم الموت كما كُتب على صديقه الحميم "أنكيدو" بالرغم من محاولته في إعادته إلى الحياة بعد موته لكن دون جدوى ، وتروي أسطورة أخرى كيف سعى جلامش إلى تخلص أنكيدو من العالم الأسفل لكن دون جدوى حيث قرّر البحث عن شمش-نيشتيم كون أنه يعرف سر الخلود

¹السواح فراس ، مغامرة العقل الأولى ، مرجع سابق ، ص219 ، ص220 ، ص 221 .

¹السواح فراس ، مغامرة العقل الأولى ، مرجع سابق ، ص220 ، ص 221 .

حتى لو اضطرّه هذا البحث إلى الطواف في العالم كله ويجتاز الطريق الموصل إليه يحرسه ماردان جباران يلمس رأسهما قبة السماء ويصل ثدياهما إلى الجحيم ن ولكنهما يأذنان لهما بالمرور، ويسير اثني عشر ميلا في نفق مظلم ، يخرج بعده إلى شاطئ عظيم ن ويرى من وراء مائه عرش "سبيتو" العذراء إلهة البحار ، ويناديها أن تعينه على عبور الماء ويقول : «إذا لم أفلح في هذا ، فسألقي بنفسي على الأرض وأقضي نحبي » فتشفق عليه "سبيتو" وتسمح له أن يجتاز البحر في أربعين يوما كلها عواصف وزعازع حتى يصل إلى الجزيرة السعيدة التي يسكن فيها شمش-نيشتيم المُخَدَّ أبد الدهر ، ويتوسل إليه جلجامش أن يفضي إليه بسر الخلود ويرد عليه شمش -نيشتيم بأن يقص عليه قصة الطوفان ، وكيف ندمت الآلهة على ما سببته في سورة جنونها من

دمار، وكيف أبت عليه هو وزوجته فخلدتهما لأنهما أنجبا النوع الإنساني من الفناء ، ويُقدم إلى جلجامش نبتة تجدد ثمارها شباب من يأكلها ، ويبدأ جلجامش رحلته الطويلة إلى بلده مغتبطا سعيدا ولكنه يقف في طريقه ليستحم ، وبينما هو يفعل هذا إذ تخرج إليه أفعى وتسرق النبتة¹ .

وعليه يمكن القول أن صراع الذات مع الموت كان يُمثل محور فلسفة الخلاص والمحرك الأساسي في التفكير في وجود مُخَلِّص للبشرية من هذا القدر المحتوم كما وجدنا ذلك واضحا في المجتمعات البدائية فهل نجد الرغبة في الخلاص من الموت في الحضارة الشرقية بنفس المعنى الذي وجدناه في الأساطير و الملاحم؟.

¹ أول ديورانت دايزيل ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، مج 1 ، ج 2 ، ص 242 ، ص 243 .

المبحث الثاني : فلسفة الخلاص في الحضارات الشرقية

القسم الأول : مُخْلِصِ العالم والرّجعة عند زرادشت

القسم الثاني: البوذية والمنهج الخلاصي

مُخْلِص العالم والرّجعة عند زرادشت :

يتحدث الزرادشتيون عن نهاية للعالم تشبه فكرة القيامة عند أتباع الرسالات السماوية، ولكنهم يربطون نهاية العالم بعقيدهم فيقولون بأن هذه النهاية تكون عند انتصار أهورامزدا إله النور على أهرمان إله الشر ، وبذلك تنتهي الشرور من العالم، حسب معتقدهم، وينتهي الظلام وكل أنواع الشقاء .

وبشأن فلسفتهم الخاصة حول هذا الأمر ، يتحدث الزرادشتيون «بأن العالم يقترب من نهايته المحتومة ، ذلك بأن مولد زرادشت كان بداية الحقبة العالمية التي طولها ثلاثة آلاف سنة ، وبعد أن يخرج من صلبه ، في فترات مختلفة ، ثلاثة من النبيين ينشرون تعاليمه في أطراف العالم، يحلّ يوم الحساب الأخير ، وتقوم مملكة أهورامزدا ، ويهلك أهرمان هو وجميع قوى الشر هلاكاً لا قيام لها بعده ؛ ويومئذ تبدأ الأرواح الطيبة جميعها حياة جديدة في عالم خال من الشرور و الظلام والآلام»¹. وعند هذه المحطة

¹ ول ديورانت دايزيل ، قصة الحضارة ، مج 1 ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 435

التي ينتصر فيها أهورامزدا ويُهزم فيها أهرمان، ينتشر الحق ويكون الصالحون من أتباع الزرادشتية في الجنة مع أهورامزدا* حيث السعادة .

والزرادشتية ، كدعوات كثيرة ، تؤمن بالرجعة وفكرة ظهور من سينشر العدل ، وعندهم يدعى صاحب العودة والظهور «أشيزريكا» أي الرجل العالم .

ينقل لشهرستاني عن الزرادشتية في هذا الموضوع مايلي: « ومما أخبر به زرادشت في كتاب زندأوستا أنه قال : سيظهر في آخر الزمان رجل اسمه أشيزريكا ومعناه الرجل العالم ، يزين العالم بالدين والعدل، ثم يظهر في زمانه بتيابه فيوقع الآفة في أمره وملكه عشرين سنة ، ثم يُضهر بعد ذلك أشيزرسكا على أهل العالم ، ويحي العدل ويميت الجور ، ويرد السنن المغيِّرة إلى أوضاعها الأولى ، وتنقاد له الملوك

وتتيسر له الأمور ، وينصر الدين والحق ، ويحصل في زمانه الأمن والعدالة وسكون الفتن وزوال المحن»¹.

إن فكرة العودة والظهور فكرة تشيع عند اليهود وعند المسيحيين وعند بعض المذاهب الإسلامية ، وبذلك نجد الزرادشتيين يواكبون كثيرين في هذا الطرح العقائدي ولا ينفردون به، وهو حالهم كذلك في أفكار أخرى ؛ ولعل ظهور زرادشت في منطقة جغرافية مجاورة للأرض العربية ، مهد رسالات السماء ، مع الإشارة إلى التفاعل والعلاقات بين العرب والفرس تاريخيا ، إيجابا وسلبا ، هو الذي لعب دورا في معتقدات وأفكار زرادشت .

إذن أشيزرسكا هو مخلص العالم من الشرور، لكن ما دور الإنسان في هذا العالم وما علاقته بهذا المخلص ؟

* لفظ أهور مزدا : مركب من ثلاث كلمات هي (أهو) ، (را) ، (مزدا) ومعناها على الترتيب أنا - الوجود- خالق أو أنا خالق الكون .

¹ الشهرستاني محمد عبد الكريم ، الملل والنحل ، تحقيق: محمد سيد كيلاني ، بيروت ، دار المعرفة ، [د.ط] ، 1982 ، ج 2 ، ص 5

يجيب زرادشت قائلاً : لكي نفهم الله و نعرفه ، يجب أن نتعلم كيف نفهم إخوتنا في الإنسانية و في طريقنا إلى هذا الفهم و تلك المعرفة نمر بعدد من معالم الطريق تشير إلى هدفنا و أهم هذه المعالم العدالة ، والتعاون و الإيمان و السعي وراء الكمال، فالعدالة هي أول مراحل الطريق وكانت أحد المبادئ الأساسية التي هدت إلى مذهبه الفلسفي، وتتحصر فكرة زرادشت الخاصة بالعدالة في **التخلص من الخطأ عن طريق** المعرفة الصحيحة بكل ما هو صواب وإن النور الذي يكشف عن هذه المعرفة هو التناسق الأبدي الإلهي " فإذا عرفت الحق عرفت الله" و ما العالم سوى نسيج حي يتجه في طريقه إلى الإله الحق و الإنسان يستطيع أن يتحد مع الله بإتباع الحق الأسمى :

قانون العدالة الذي ينبغي أن يتجسد في الذات الإنسانية أولاً و العالم ثانياً .

وهكذا فأول معلم من معالم الطريق إلى معرفة الله هو نور العدالة اللامع الذي تغذيه نار الحق * أما ثاني معالم الطريق إلى الإله فهو التعاون، فحياتنا كلها كما يقول زرادشت: " إن هي إلا رحلة جزئية نقوم فيها بخدمة بعضنا البعض أو أقل هي خدمة الله بخدمة إخوتنا في الإنسانية"¹ ومن هذا يبين زرادشت أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه يحتاج إلى غيره و يحتاجه غيره .

و المعلم الثالث في الطريق إلى الله و معرفته هو الإيمان " وليس المؤمن إلا ذلك الذي وصل إلى أذنيه صوت الله الهامس" و يغرس الله في قلب مثل هذا الإنسان غريزة الولاء لبيئته و مجتمعه و وطنه و العالم أجمع.

و بعبارة أخرى ليس الإيمان بالله شيئاً آخر غير حب الإنسان لأخيه الإنسان و لكي تثبت إيمانك بالله ما عليك إلا أن تقتدي بحبه" فحرارة الحب ستذيب كل شك في قلبك" و لكن

* يرموزون أتباع زرادشت إلى مبدأ العدالة من خلال معرفة الحق بما يسمونه (اللهب المقدس) ويجب ألا ننظر إلى هذا اللهب على أنه نار مادية و إنما هو يعبر عن وجه الأله الذي يسكن قلب الإنسان

¹ مرحبا محمد عبد الرحمن ، بدايات الفلسفة الأخلاقية ، موسوعة عز الدين للطباعة و النشر ، بيروت ، ط1 ، 1995 ، ص94

هذا الحب يجب أن لا يبقى مجرد أفكار تدور في ذهنك أو كلمات تلوكتها في فمك بل أن يتجسد أعمالا تكون لها آثار و نتائج محسوسة في حياة الآخرين، هذه الأفكار ليست بغريبة عن جوهر العقيدة الإسلامية التي جعلت من الإسلام دين معاملة ، ليس هذا و حسب بل أراد أن يعولم أفكاره فلم ينشد الأخوة و التعاون و العدالة في منزل أو مدينة بل في العالم بأسره .

أما فيما يخص المعلم الأخير في الطريق إلى الله هو السعي للكمال ، إنه الغرض من الخليقة ولا معنى للحياة إلا به ، لقد طال به التفكير والتأمل في مشكلة هذا العالم الذي يتمنى زارادشت أن يعيش فيه بكمال، فوصل إلى الحل الآتي : « علينا وحدنا يقع العبء الكبير و هو المعنى العميق لحياتنا»²

تلك فلسفة فيها من المبادئ الأخلاقية السامية ما يضيفي على الحياة الإنسانية من المعنى و من الكرامة ، فلقد أرادهم أهورامزدا ليحاربوا إلى جانبه فيجعلوا من العالم شيئا أفضل و يقضوا على الشر و يوطدوا أركان الخير .

إن فلسفة زرادشت ما هي إلا مبادئ للقضاء على الشر الموجود في العالم بأسره وفي هذا الصدد يقول : " إن الله يوصينا بأن نبدل الشر خيرا و أن الله يضع في طريقنا العقبات و العراقيل كي تكون رحلتنا في هذه الحياة أقل رتاية و أكثر إثارة وأغزر قيمة فالشر ضروري للعالم ضرورة الخير¹ ، وقد عبر القديس أوغسطين عن ذلك جيث قال: " يسمح الله بالشر من أجل خيرا أعظم " و في التراث الإسلامي شيء كثير من هذا و كله يُستوحى في الآية الكريمة (و عسى أن تکرهوا شيء و هو خير لكم ، و عسى أن تحبوا شيئا و هو شر لكم ، والله يعلم و أنتم لا تعلمون) سورة البقرة- الآية 216-

و على ذلك فإن كلا منا عاملا في بستان الإله، « فاعمل أيها الإنسان ولنتعاون أنا و إياك و الله من وراء القصيد لنخرج من الفوضى نظاما ، ومن القبح جمالا و من الحرب سلاما ونحن جميعا كما يؤكد زرادشت نبني مصيرنا لأنه عندما تنتهي مهمتنا في هذه

² مرجع نفسه ، ص 95

¹ مرحبا محمد عبد الرحمن ، بدايات الفلسفة الأخلاقية ، مرجع سابق ، ص96

الحياة فسيدي كل فرد منا ليقدم حسابا عن عمله ، و إن خيرا فخير ، وإن شر فشر ، و في النهاية تندمج مصائرنا المتحدة في نسيج عالم كامل متآلف نقي و سينتصر الخير يوما² .

نستنتج مما سبق أن زرادشت صور لنا العالم في شكل ميدان يتصارع فيه الخير والشر ، أيقض بعمله هذا في خيال الشعب حافزا قويا مبعثه قوة خارجة عن القوى البشرية ، يحض على الأخلاق الفاضلة ويصونها. كان يمثل النفس البشرية كما يمثل الكون، في صورة ميدان كفاح بين الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة ، وبذلك كان كل

إنسان مقاتلا ، أراد ذلك أو لم يردده ، في جيش الله أو في جيش الشيطان ، وكان كل عمل يقوم به أو يغفله يرجح قضية أهورامزدا أو قضية أهرمان . وتلك فلسفة فيها المبادئ الأخلاقية ما يعجب به المرء أكثر مما يعجب بما فيها من مبادئ الدين- إذا سلمنا بأن الناس في حاجة إلى قوة غير القوى الطبيعية تهديهم إلى طريق الخلق الكريم- ؛ فهي فلسفة تضي على الحياة الإنسانية من المعنى ومن الكرامة ما لا تضيفه عليه النظرة العالمية القائلة بأن الإنسان ليس إلا حشرة دنيئة لا حول لها ولا قوة (كما كان يقول أهل العصور الوسطى) ، أو آلة تتحرك بنفسها كما يقول أهل هذه الأيام ؛ ذلك أن بني الإنسان حسب تعاليم زرادشت ليسوا مجرد بيادق تتحرك بغير إرادتها في هذه الحرب العالمية ؛ بل إن لديهم إرادة حرة ، لأن أهورامزدا ، كان يريدهم شخصيات تتمتع بكل حقوقها ، وفي مقدورهم أن يختاروا طريق النور أو طريق الظلام فقد كان أهرمان هو الكذبة المخددة ، وكان كل كذاب خادما له¹ .

فالأخلاق الزرادشتية هي الأخلاق الكاملة تقول الأبتاق : «على الإنسان واجبات ثلاث " : أن يجعل العدو صديقا ، و أن يجعل الخبيث طيبا ، و أن يجعل الجاهل عالما» . و أم الفضائل هي التقوى و يأتي بعدها الشرف و الأمانة في القول و العمل هذا من جهة ومن جهة أخرى ، الإخلاص للبلاد و الوطن جزءا لا ينفصل عن أخلاق الفرس

² عصفور محمد أبو المحاسن ، حضارات الشرق الأدنى القديم ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط2 ، 1981 ، ص281

¹ ول ديورانت دايزيل ، قصة الحضارة ، مج1 ، ج2 ، مرجع سابق ، ص431

القدماء فمهما يجب أن نذكره لهم مقرونا بالثناء و التقدير أن من العسير علينا أن نجد في تاريخهم فارسيا واحدا قد استوَجِر مرة ليحارب الفرس ، فهم قوم ذو أخلاق سامية و آداب رفيعة² ؛ و حب الوطن و الدفاع عنه و الوفاء له من مكارم الأخلاق و واجب على كل فارسي و على كل إنسان التحلي بها.

فأهورا مزدا هو جماع قوى العالم التي تعمل للحق و الخير و لا سبيل إلى الأخلاق الفاضلة إلا بالتعاون مع هذه القوى ذلك لأن قوة الشر ستهزم في نهاية المطاف بعد أن يمر العالم بأربعة عهود طول كل منها ثلاثة آلاف سنة ، وبعدها ينتصر الحق في كل العالم و يزول الشر ثم يدخل الصالحون إلى الجنة و يسقط المجرمون في هوة مظلمة لا طعام فيها إلا السم* وبعدها يرجع الصالحون إلى هذا العالم ليعيشوا فيه بسلام وأمن واستقرار و عدل ما بعده عدل**.

إلا أن هناك ثمة اختلاف بين المراجع في مسألة أسماء وعدد المُخلصين إذ أجد عند بعض أتباع زرادشت من يقسم تاريخ العالم إلى عدة حقبات، "نعيش الآن في الحقبة الأخيرة التي بدأت عام 630ق.م عندما بدأ النبي زرادشت في نشر دعوته في سن الثلاثين وفي هذه الحقبة سوف يظهر على رأس كل ألف سنة مُخلص جديد ليجدد ديانة الحق للناس ؛ وعدد المُخلصين ثلاثة هم هُشدار و أشدارمه و سوشيانث وهم أولاد زرادشت ، إذ أن منيه محفوظ في بحيرة، وهؤلاء الثلاثة سوف يولدون من عذارى لقحن من منيه عندما كنّ يغتسلن في تلك البحيرة"¹.

الأيام العصبية التي تسبق اليوم الموعود :

² مرحبا محمد عبد الرحمن ، بدايات الفلسفة الأخلاقية ، مرجع سابق ، ص 98
 * زرادشت يُشير لوجود يوم حساب ، اليوم الموعود الذي يبعث فيه الموتى أخيارهم وأشرارهم ثم يحشرون في مكان واحد وتُعرض أعمالهم الصالحة والشريرة ، فيُنفذ الأخيار في الجنة وبتقذف الأشرار في النار.
 ** هذه الفكرة تماثل الاعتقاد السائد عند بعض القرق الشيعية الإسلامية ويتجلى ذلك من خلال فكرة المهدي المخلص الذي يملئ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا ، وهذا ما سنكتشفه في الفصول الآتية .
¹ خالد الصناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، منشورات دار علاء الدين ، دمشق ، ط1، 2001 ، ص 139، ص 140 .

لكن قبل ظهور المُخلصين يشير زرادشت إلى الأيام العصبية التي يعيشها العالم قائلاً :
 "سوف يسبق ظهور هُشدار أيام عصبية متدهورة، فالناس سوف يكونون كاذبين
 ومنافقين، وسيختفي الحنان والرحمة من العالم، والأخوة والآباء سيكرهون بعضهم
 البعض، وستصير الطقوس والتقاليد المقدسة خداعاً، وسينتشر الحقد والجشع، ثم تصير
 ردة شاملة عن الدين؛ وفي هذه الأيام العصبية ستظهر آيات على الشمس والقمر

وسيكون زلزال شنيع وعواصف مدمرة، وستزداد الحروب والمعارك ويموت الكثير من
 الجنود"¹. ثم تصير معركة هي أم الملاحم قبل نهاية العالم ، وتكون نهاية للصراع
 بين الخير والشر، هذا الصراع الذي تقوم عليه الديانة الزرادشتية ، حيث يمثل الخير
 الرب الخالق أهورا مزدا، ويمثل الشر القوة الشيطانية أهريمان ؛ وستكون حرباً هائلة
 يحشد لها أهريمان جميع قواه الشيطانية ، وستزداد حتى تجري الأنهار دماء ، وتصل
 الدماء إلى سروج الخيل ، ولكن نصر أهورامزدا سيكون ساحقاً. وبعد هذه الملحمة
 ستأتي نار عظيمة تلتهم العالم بأسره ، وسيحرق أهريمان وأولياؤه الذين في الدرك
 الأسفل من الجحيم، وسيمحق كل شيء ويستبدل بعالم جديد ، وبعدها ستكون الحياة
 الأبدية الهادئة².

باختصار هذه أهم تعاليم زرادشت الأخلاقية التي قضى حياته في الدعوة إليها والتي
 ازدهرت في فارس أكثر من أحد عشر قرناً ، و كانت دين الدولة الرسمي حتى دخلت
 فارس في الإسلام على عهد عمر بن الخطاب ، و أهم شيء في هذه التعاليم تفاؤلها لحياة
 روحية أخرى ، وشموليتها بحيث رسالتها كانت موجّهة للعالم بأسره ، لا إلى مدينة يقل
 عدد سكانها عن ألف وخمسمائة مواطن كما نجد ذلك مع أفلاطون ، ولا إلى تخليص
 الفرد وحده بعزله عن المجتمع كما سنجد ذلك مع تعاليم بوذا والهندوس، فالإنسان لا
 يساهم في خلاص نفسه فقط ، بل في خلاص الإله أهورامزدا إله الخير المحدود في

¹ خالد الصناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، مرجع سابق ، ص 65

² مرجع نفسه ، ص 133

وجوده بالمكان بأهريمان بعد الخلق لأن أهريمان من ذات الله لا من ذاته نفسه ، وبالتالي ، فإن اختيار الإنسان الخير ونبذ الشر يؤدي إلى القضاء على أهريمان وموت أهريمان إله الشر خلاص لإله الخير من شر وجود أهريمان فيخرج من محدودية المكان إلى لا محدودية الزمان والمكان معا ، إن خلاص العالم عند زرادشت يعني تغيير العالم³ . ترى هل هذه النظرة الزرادشتية فيما يخص مسألة الخلاص والإعتقاد برجعة الصالحين إلى العالم بعد موتهم ليرثوا الأرض ، تعد أولى الإرهاصات لفكرة الخلاص لدى البوذية والهندوس أم فلسفة الخلاص هنا ستأخذ وجهة أخرى ومنحى آخر ؟ .

³حسن محمد سليمان ، تيارات الفلسفة الشرقية ، منشورات دار علاء الدين ، للنشر والتوزيع ، دمشق ، [د.ط] ، 1999 ، ص 29

البوذية والمنهج الخلاصي :

بوذا يؤمن ، ككل الهندوس ، بالتقمص وانتقال الأرواح من بدن لآخر طلبا للخلاص الذي يتحقق بالنيرفانا* التي تعني الإخماد أو الانطفاء تمهيدا لاتحاد الأنفس بالروح الكلية ، وهي عند البوذيين الإتحاد ببوذا المخلص .

والبوذيون يزعمون " إن زعيمهم بوذا قبل أن يصبح الرجل المستنير تقمصت روحه خمس مائة وثلاثين جسدا منها اثنان وأربعون حالة تقمص في أجساد آلهة، وثمانون حالة في أجساد ملوك و يعتقد البوذيون أن الموت الجسدي لا ينهي وجود الإنسان، فالميت يبعث من جديد في شخص آخر أو في إله أو في حيوان"⁽¹⁾

الألم كان المحرك للاهوت بوذا ، فعنده الولادة مؤلمة ، والمرض مؤلم ، والشيوخوخة مؤلمة ، والحزن والخيبة ، والبؤس والبكاء كلها أمور مؤلمة ، وللخلاص من الألم كان على البوذي أن يمارس التخلي عن أناه بكل أبعادها وصولا إلى الخلاص من خلال النرفانا التي تحقق الإتحاد ببوذا، يقول بوذا:«والآن فهذه هي الحقيقة السامية عن زوال الألم ، إنه في الحق فناء المرء حتى لا تعود له عاطفة تشتتهي ، إنه إطراح هذا الظمأ اللاهث ، والتخلص منه والتحرر من رقبتة ، ونبذه من نفوسنا نبذا لا عودة له»⁽²⁾.

لقد ظلت النرفانا الهدف الأخير للراهب الماهاياني** ، لكن الهدف الأول لهذا الراهب كان أن يصبح بوذيساتفا (المستنير) ، وكان يتطلع إلى الحصول على العون

* إنه من العسير فهم مصطلح النيرفانا ، لأن الزعيم قد ترك الموضوع غامضا ، فجاء أتباعه وفسروا الكلمة ، ففي اللغة السنسكريتية بصفة إجمالية معناها "منطفئ" كما ينطفئ المصباح أو تنطفئ النار ، أما الكتب البوذية المقدسة فتستعملها بمعان : (1) حالة من السعادة يبلغها الإنسان في هذه الحياة باقتلاعه لكل شهواته الجسدية اقتلاعا تاما ؛ (2) تحرير الفرد من عودته إلى الحياة ؛ (3) انعدام شعور الفرد بفرديته ؛ (3) اتحاد الفرد بالله ؛ (5) فردوس من السعادة بعد الموت ؛ أما الكلمة في تعاليم بوذا فمعناها في ما يظهر إخماد شهوات الفرد كلها ، وما يترتب على ذلك للذات من الثواب وأعني به الفرار من العودة إلى الحياة .

¹ السحمراني أسعد ، الهندوسية - البوذية - السيخية ، دار النفائس ، بيروت، ط1، 1998 ، ص78

² ديورانت ول دايزيل ، قصة الحضارة (نشأة الحضارة) ، مج1، ج3 ، ص85

** الماهاياني نسبة إلى ماهايانا (MAHIANA) أو العجلة الكبيرة وهي شكل منحرف للبوذية ، وأتباعها يعتبرون بوذا إلهًا ويعيدون الروح التي ألهمت بوذا ، وهم يؤمنون بالملائكة والشياطين ، وتؤمن بعض طوائفهم بوجود الجنة والجحيم وأنه لا بد من مرور الروح بهما قبل أن تصل مرتبة النيرفانا.

في محاولته بلوغ هذا الهدف من مجمع البوذيساتفا القائمين ، والذين يمكن أن يتقدم إليهم للحصول على هذا العون ؛ فالبوذي الماهاياني كان يأمل في الوصول إلى هدفه المباشر ، بمساعدة بوذيساتفا ، وهذا لم يكن المقصود منه الوصول إلى النرفانا ، بل الوصول إلى الإقامة في السماء.

البوذي يؤمن بدورة النفس تناسخا في الأبدان في مسعى للتطهر حتى تصل إلى حالة الاستتارة والصفاء، وبذلك تستحق التسامي والرحيل من دورتها في الأبدان لتتحقق لها النيرفانا ، وهي الاندماج الكامل والاتحاد بالمُخلص بوذا* .

وطريق النيرفانا عندهم يمر بالزهد والتغلب عن الأهواء والشهوات ووفق "إنجيل بوذا" ، تتحقق النيرفانا لمن سلك الطريق التالي: «الزاهد هو الذي يتغلب على كل رغبة عالمية ولذة محتقرا وجوده، فيقبل دهارما** سالكا في هذا العالم حسنا»³.

إن بوذا ، حسب زعمهم، حلت فيه حقيقة علوية فبات فوق مستوى سائر الناس وتحول عندهم إلى مايسمونه "تنفاتا" ، أي الإنسان الكامل ؛ هذا الإنسان الكامل "بوذا" مارس حضورا بشريا مؤقتا حسب زعمهم، وأن حضوره يمثل الشريعة التي عليهم إتباعها، وليست عندهم شريعة منفصلة عن شخصية بوذا، كذلك من أراد النجاة والخلاص لن يتحقق له ذلك إلا إذا سار على الطريق المستقيم المؤدي إلى النرفانا وهي الإتحاد ببوذا الخالد¹.

هذا هو مقام بوذا عندهم، فهو الخالد وهو المتأله ، وهو الكامل، وهو الشريعة ، والاتحاد به هو المطلوب؛ هذه الفكرة البوذية ستشكل، فيما بعد، مصدراً لأفكار عند

* هذه الفكرة البوذية تقارب المفهوم المسيحي الذي يقول بالإتجاد بالمسيح عليه السلام ، كما أن هذه الفكرة تسربت إلى بعض الطرق الصوفية عند المسلمين ، فقال هؤلاء بالاتحاد الذي زعموا فيه الإتحاد بين المرید والمراد ، أي بين الصوفي والله، مما قاد بعضهم إلى شطحات أدت بهم إلى الكفر كاحلاج والبسطامي وسواهما، -وهذا ما سأتشير إليه في المباحث القادمة-

** الشريعة التي تنظم السلوك ، والقانون الأخلاقي

¹ إنجيل بوذا ، ترجمة: عيسى سبابا ، دار صادر ، بيروت ، 1953 ، ص 189 ، ص 190

كثيرين منهم ،تطرح الخلود من خلال الاتحاد بشخص فيه حالة تأله، إلا أن هذا الاتحاد يستدعي منهجا خاص اقترحه بوذا؛ فكيف تتحدد خطوات هذا المنهج الخلاصي؟ إن بوذا الذي نادى بمنهج خلاصي ينقذ النفس من دورتها في الأبدان في عملية التناسخ حدد منهجه هذا، وخطوات هذا المنهج الخلاصي غير بعيدة عن مجمل فلسفته التي حركتها الآلام ووجوه الشقاء والموت، وعن الغاية عنده في انجاز إخماد الشهوات وصولا إلى النيرفانا .

إن كل إنسان أراد الخلاص الذي يتحقق بالإتحاد ببوذا ، عليه أن يسلك طريق الاستنارة كبوذا نفسه، وهذا يكون منطلقه توليد حالة وعي وشفافية بحقائق أربع تشكل القاعدة التي يركز إليها الإنسان ليتحقق الوصول إلى شخصية الإنسان الكامل الذي يضفر بالخلاص¹

هذه الحقائق تساعد الإنسان الذي ينشد الفضيلة والنبيل على إخماد الشهوات وإماتة الذات وتلاشي البدن ،فما هذه الحقائق حسب البوذية، ومن خلال « إنجيل بوذا »؟: كانت محادثات بوذا تجري في صورة سقراطية من الأسئلة وضرب الأمثلة الخلقية والتلطف في الحوار، إذ كان يسوق تعاليمه في عبارات مقتضبة يرمي بها إلى تركيز أرائه تركيزا يجعلها في صورة من الإيجاز والترتيب بحيث تقر في الأذهان وأحب عباراته التعليمية المقتضبة إلى نفسه هي الحقائق السامية الأربع التي بسط فيها رأيه بأن "الحياة ضرب من الألم ، وأن الألم يرجع إلى الشهوة ، وأن الحكمة أساسها قمع الشهوات جميعا"²:

¹ السحمراني أسعد، الهندوسية –البوذية- السيخية-،مرجع سابق ص85
² إنجيل بوذا ،مصدر سابق ،ص49

"**الحقيقة المثلى الأولى:**" تلك – أيها الرهبان- هي الحقيقة السامية عن الألم: الولادة مؤلمة، النمو شقاء ، المرض مؤلم، والموت عذاب، وإنه لمن المضمي المؤلم أن نجاور ما لا نحب ونرغب فيه ، وإنه لمن الحزن العميق أن نفترق عن نشغف به حبا ونتحمل العذاب والقهر من أجله¹.

والحقيقة المثلى الثانية: تلك – أيها الرهبان – هي الحقيقة السامية عن سبب الألم وسببه الشهوة التي تؤدي إلى الولادة من جديد، والشهوة التي تمارجها اللذة والانغماس فيها ، الشهوة التي تسعى وراء اللذائذ، تتسقطها هنا وهناك شهوة العاطفة ، وشهوة الحياة ، وشهوة العدم وهي سبب الأوجاع.

والحقيقة المثلى الثالثة : تلك – أيها الرهبان – هي الحقيقة السامية عن وقف الألم أن تجتث هذه الشهوة من أصولها، فلا تبقى لها بقية في نفوسنا، السبيل هي الانقطاع والعزلة والخلاص وفك أنفسنا مما يشغلها من شؤون العيش ، ومن يقهر شهواته ويتغلب عليها يُعدّ عضيما ، لأنه يتحرر من القيود فلا يأخذه طمع أو بريق لذة

والحقيقة المثلى الرابعة : تلك – أيها الرهبان – هي الحقيقة السامية عن السبل المؤدية إلى وقف الألم ، والتي سبلها ، سلوك الطريق النبيل ذي الثماني شعب التي تشكل مجتمعة أسس الطريق المكمل **للمنهج الخلاصي**². وتتمثل فيما يلي :

1. سلامة الرأي (سماديثي SAMMA DITHI)

2. سلامة النية (سما سنكابا SAMMA SANKAPPA) الحكمة

3. سلامة القول (سما فكا SAMMA VACA)

¹ André Comt-Sponville , Trait du désespoir et de la béatitude , quadrigé / puf ; paris, 1^{re} édition, 1984 , tome1, p 34

² IBID, p 34, p35

4. سلامة الفعل (سما كمنتا SAMMA KAMMANTA)
5. سلامة العيش (ساما أجييفا SAMMA AJIVA)
6. سلامة الجهد (ساما فاياما SAMMA VAYAMA)
7. سلامة الوعي أو الانتباه العقلي (سما ساتي SAMMA SATI)
8. سلامة التركيز (سما سماذي SAMMA SAMDHI)¹

فهذا هو الصلاح، وهذه هي الحقيقة، وهذا هو الدين.

إن هذا التعقيب الذي ورد في « إنجيل بوذا » على الممرات الثمانية جاء ليؤكد أن البوذية ليست ديناً بالتعريف المعلوم عند الجميع وإنما فلسفة تركز اهتمامها على حياة الإنسان، وكيف يمكن إبعاده؛ ومن أراد الدين أو الحقيقة أو الصلاح حسب هذا النص، فعليه إتباع هذه الضوابط الممرات الثمانية، وكلها تدور حول الإنسان المفكر العاقل ونيته وقوله ومعاشه وطاقاته وأنشطته ويلاحظ أن هذه الممرات لم تقرب باتجاه البدن، وما ذاك إلا لأن البدن في الفلسفة البوذية لا مكان له ولا أهمية، وإماتة البدن وإخماد شهواته هي أحد أهداف البوذية.

وجون كولر، أورد تسميات مختلفة لهذه الشُّعب الثمانية، عقب عليها بتوجيه ترى فيه البوذية سبيل تحقيق لما تنشده. يقول كولر: « ينبغي لألوان السلوك المختلفة في الحياة التي تعمل بهذه المبادئ الثمانية وتُعبّر عنها، أن تمضي بشكل متزامن على نحو أو آخر، حيث أن الهدف هو تحقيق حياة مستقيمة من أسمى طراز والعلاقات بين التصرفات الحياتية والمبادئ التي تشكل هذه التصرفات يمكن إدراكها من خلال تأمل الحقائق الثلاث الخاصة بالسلوك الأخلاقي والانضباط الذهني والحكمة التي تشكل أساس المبادئ والتصرفات كافة »².

¹ إنجيل بوذا، مصدر سابق، ص 48، ص 49

² جون كولر، الفكر الشرقي القديم، تر: كامل يوسف حسين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، [د.ط]، 1995، ص 27

العقل والحكمة والسلوك الأخلاقي الفاضل من خلال الحقائق الأربع والممرات الثمانية يقودون الإنسان الذي ينشد الخلاص إلى هدفه.

هذا التطهر عماده فكر سليم ، وعقل نير ويقوم انطلاقاً من الاختيار الذاتي ، فالإنسان هو الذي يقرر بنفسه سلوك هذا الطريق مخالفاً بذلك طريق "مارا" (الشیطان).

وقد آمن الهندوس -قبل البوذيين- هم أيضاً بالخلاص وهذا من خلال رياضة روحية تعرف بـ"اليوغا" (YOGA)* وتعد طريق خلاص النفس من خلال تمارين فيها قسوة على البدن ، وتعويد النفس على الصبر والثبات واليوغا كلمة سنسكريتية معناها "النير"¹ وقد سميت كذلك لأنها تخلص النفس من نير البدن ومن نير الشهوات ومنه يمكن أن نعتبر اليوغا طريقة لتربية الإنسان فهي تهدف إلى تحقيق أمل الخلاص والتطهر الكامل من الخطايا التي ارتكبتها في حياواته السابقة².

هذا الموقف الهندوسي مشابه إلى حد ما الموقف البوذي إلا أن البوذيين بالغوا في اعتقادهم ببوذا إلى درجة أنهم اعتبروه ابن الله ، وأنه يحمل عنهم جميع خطاياهم كما يعتقدون أنه سيدخلهم الجنة ، فلما مات بوذا قال أتباعه : صعد إلى السماء بجسده بعد أن أكمل مهمته على الأرض وأنه سيرجع ثانية إلى الأرض ليعيد السلام والبركة إليها³.

إن هذا النظام الحياتي الذي يقود إلى الخلاص يعد نظاماً يؤسس رهبانية قاسية تغالي في إماتة البدن والهوى، وفي هذا تلتقي البوذية ثانية مع الزرادشتية في مسألة الرجعة و تلتقي مع الرهبانية في المسيحية ، ومع وفد إلى طرق صوفية كثيرة تعتمد هذا النظام

كما سنرى لاحقاً في بحثنا هذا-بل ذهبوا إلى أبعد من هذا ، فسخ العلاقات الاجتماعية لأن الخلاص- حسب زعمهم- لا يكون إلا من خلال الفرار من المجتمع ، وهجر

*ترجع اليوغا في أصولها التاريخية إلى ما يقرب من ألفين وخمسمائة عام ، وهذه الطريقة كانت موجودة قبل الوجود البوذي .

¹حسن محمد سليمان ، تيارات الفلسفة الشرقية ، ص 171

²سعید إسماعيل علي ، التربية في حضارات الشرق القديم ، الأنجلو مصرية ، القاهرة ، [د.ط] ، 1999 ، ص 183

³جون كولر ، الفكر الشرقي ، مرجع سابق ، ص 26

النمط المعيشي الذي يمارسه الآخرون إلى الغابات والبراري ، فهناك فقط يكون الإنسان قد هجر المطالب الدنيوية فعلا .

فالخلاص البوذي هو خلاص النفس من الشهوات أي انتصار النفس الخيرة على النفس الشريرة وهدفه تكوين إنسان مثالي لا عالم مثالي كما لاحظنا ذلك جليا مع زرادشت ، علما أن البوذية لا تؤمن بوجود إله ولا تعد معتنقيها بالجنة لأنه لا يوجد عالما خارج هذا العالم ، فالعالم الذي نعيش فيه وحده فقط ما سنجد فيه الخلاص لأن السماء فارغة –

حسب ¹-Andrè Comt-Sponville

لكن هل تلتقي الفلسفة الخلاصية التي اكتشفناها لدى الهندوس والبوذيين والزرادشتيين مع الفلسفة الخلاصية لدى الديانات اليهودية ، المسيحية ، الإسلامية؟ -هذا ما سنكتشفه في المباحث اللاحقة- .

¹ Andrè Comt-Sponville , Trait du désespoir et de la béatitude, tome1 , p 33

المبحث الثالث : فلسفة الخلاص في الديانات السماوية

القسم الأول : اليوم الموعود في الديانة اليهودية

القسم الثاني : رجعة الأخيار برجوع المسيح عليه السلام

توطئة:

وصل علم الرؤيا إلى درجة عالية من الاحترام والتقدير في دولة إسرائيل القديمة، إذ صارت الرؤى نوعا من الوحي الذي يتنزل على أنبيائهم ، وكان ملوك إسرائيل بحاجة

إلى الكثير من هؤلاء الأنبياء في البلاط الملكي لدرجة أنهم فتحوا مدرسة خاصة لتخريج الأنبياء ، وصار لصاحب الرؤى الصائبة الكثير من التقدير ، بينما تعرض أصحاب الرؤى الكاذبة إلى الرجم حتى الموت .

إلا أن هذه النبوءات على اختلاف أنواعها وطرق تحقيقها تتحدث عن مستقبل قريب الأجل ، له علاقة بما يجري في حاضر المستشير ، والهدف دائما حل مشكلة شخصية ، لكن يوجد نوع آخر من النبوءات يخص الأيام الأخيرة من تاريخ هذا العالم ، وهذا النوع ليس نبوءات شخصية وإنما تشمل توابعه كل من عاش وسيعيش على هذه الأرض ، وهو ما يسميه المسلمون بأخبار الغيب ، وتختلف هذه النبوءات باختلاف الزمان والمجتمع الذي جاءت منه هذه النبوءات ، إلا أن بين هذه النبوءات عاملا مشتركا ، فالدنيا- في آخر الزمان – ستكون عامرة بالشر والكفر والفجور والعصيان ، أو ستكون عامرة بالخير والإحسان والدين الصحيح ، ويظهر في حضيض زمان الشر الطاغية الذي هو رمز الشر المطلق، ويختلف اسمه في الكتب بين المسيح الدجال ونقيض المسيح وبليال . على ذكر النبوءات تحضرنى نبوءات يهودية تحدثت عن اليوم الآخر وتحديد الساعة ومقتل الطاغية ونزول المسيح ... إلخ منها نبوءة دانيال* ونبوءة أخنوخ الأول** ونبوءة عزرا*** وباروخ التي استوحاها من الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) :

نبوءة دانيال عن اليوم الآخر :

في هذه الرؤيا نجد أن دانيال قد ذكر حوادث اضطهاد سكان فلسطين من قبل أنطوخيوس* الرابع على أنها بداية فترة الأيام العصبية قبل مجيء المخلص ، ويتابع

*نبوءة دانيال تعد أحد أسفار العهد القديم والنسخة المرجعية في هذا السفر مكتوبة بلغتين: العبرية والآرامية ولا نجد هذه الازدواجية في أي سفر آخر ويعتبر هذا الأخير من أهم الكتب التي كُتبت قبل المسيح عليه السلام عن اليوم الآخر، وقد استشهد به السيد المسيح في حديثه عن نهاية الزمان، ولا يزال أصحاب الأفكار الأسكاتولوجية يستشهدون بهذا السفر حتى عصرنا الحاضر.
**ورد ذكر أخنوخ في التوراة في عدة آيات ، فهو أخنوخ بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر، والنبى نوح هو ابن حفيده ، وكل ما ذكر عن حياته أنه " سار مع الله ثم توارى من الوجود لأن الله نقله إليه"؛ وأخنوخ هو النبي الذي يسميه المسلمون إدريس حيث جاء في القرآن الكريم (واذكر في الكتب إدريس إنه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا) الآية6-7 من سورة مريم .
***عزرا هو أحد شخصيات مجموعة العهد القديم ، وربما يكون هو عزير الوارد في القرآن الكريم وهو عزرا بن سرايا الكاتب الماهر في شريعة موسى عليه السلام كما يصفه سفر عزرا الذي يُقال أنه كتبه وهو الذي قاد المجموعة الثانية للعودة إلى أورشليم من المنفى عام 459ق.م بتشجيع الملك داريوس .

* أنطوخيوس الرابع هو الذي اعتبره اليهود طاغية اليوم الآخر ، إذ أنه يحارب القديسين ويغلبهم ، ويذل ثلاثة ملوك وهم حكام مصر وإيران وفلسطين ، ويُجذف ضد العلي ، ويهلك قديسيه ، ويحاول أن يغير الأوقات والسنة. إلا أن هذا الوحش بالرغم من قوته وجبروته فإن عهده الظالم

دانيال بعدها بتنبؤاته عما سيحدث فيقول في نهاية الرؤيا الأولى بأنه بعد انتهاء مدة السنوات الثلاثة والنصف، « نصبت عروش واعتلى الأزلي [الله] كرسيه وكانت ثيابه بيضاء كالثلج ، وشعر رأسه كالصوف النقي، وعرشه لهيباً متوهجاً»، وعجلات عرشه نارا موقدة، ومن أمامه يجري ويتدفق نهر من نار، وتخدمه آلاف ألوف من الملائكة ، ويمثل في حضرته عشرات الألوف. فانعقد مجلس القضاء ، وفُتحت الأسفار* . وبعد هذا يُقتل الطاغية ويتلف جسمه ويُطرح وقودا للنار¹ ، ثم يحاسب الناس بعدها ، ليدوقوا الأشرار ذل العار والانكسار ويتنعم الأخيار -يقصد شعب الله المختار- نعيماً أبدياً .

واقعة الخلاص في سفر أخنوخ الأول :

يصف صاحب هذا السفر حوادث التاريخ كسلسلة من عشرة أسابيع ، تُذكر على لسان أخنوخ عندما يحدث أولاده عما أحي له من الملائكة فيقول: « وُلدت في اليوم السابع من السابوع الأول ، في وقت ساد فيه الخير والشر ، ولكن سيظهر من بعدي في السابوع الثاني الكثير من الشر ، وسيزداد الخداع ، وفيه سيكون الهلاك الأول [أي طوفان نوح] ، ولكن سينجو منه شخص معين [نوح] وبعد انتهائه سيعود للعدل قوته وتُكتب الشرائع للخطاة، وبعد ذلك في تمام السابوع الثالث سيأتي إنسان معين ، المختار لشريعته الأخيار [النبى إبراهيم] ، ثم بعده سوف يأتي إنسان آخر، وسيكون المختار

لكل الأخيار [أحد أولاد إبراهيم] ، وبعد انتهاء السابوع الرابع ستظهر رؤى الشيخ الصالح [موسى] ، وستقوم شريعة مُسوَّرة لجميع الأجيال [السور هو فلسطين] ، وبعد ذلك في السابوع الخامس عند إتمام المجد سوف يُبنى بيت ومملكة [مملكة سليمان وبيت المقدس] ، وبعدها في السابوع السادس سيكون كل من عاش فيه أعمى وستنسى قلوبهم الحكمة ، وسيصعد إنسان معين [النبي إلياس الذي رُفع إلى السماء] ، وبانتهائه سوف يحترق بيت المملكة بالنار [دمار القدسي ، وستتشرذم جميع القبيلة ذات الأصل المختار] لا

محدد من قبل بارادة ربانية ، فهو سوف يملك زمان وأزمنة ونصف زمان ، والمقصود بالزمان سنة واحدة وأزمنة في اللغة الآرامية هي في الواقع مئتي ، أي أنه سيعيش ثلاثة سنين ونصف سنة أي 1260 يوم فقط.
* مسألة الحساب وفتح الأسفار سترد كذلك في المسيحية من خلال إنجيل يوحنا 12: 20 -كما سنرى-

¹ دانيال 9 : 20-27

ينسى الكاتب حتى في حديثه عن السبي خرافة الشعب الله المختار] ، وفي السابوع السابع سيقوم جيل من المرتدين ، أعمالهم كثيرة ولكنها أعمال شر، وبانتهائه سيختار المختارون الأخيار الأبرار من جماعة الأبرار الدائمة ، وتُعطي لهم من الحكمة سبعة أضعاف مما خص به جميع خلقه¹ وستزداد حالة العنف على الأرض ، وسيأتي وباء عظيم ، وستمارس كل أنواع الاضطهاد ، وسينقلب كل شيء ، وتطير السهام بقوة وسيعود الاضطهاد مرة أخرى ويمارس على الأرض ، وسيصيب الأرض من الاضطهاد والظلم ضعفين ، وعندما يزداد الحرام والكفر والظلم ، سترتكب الجرائم والإثم والنجاسة وستزداد ، ثم يحل وباء عظيم من السماء على كل مرتكبي الشر ، وسيأتي الرب القدوس بالغضب والوباء لينزل قضاؤه على الأرض ، وفي تلك الأيام سيُجتث الظلم من مصادره ومن ينبوع الرغبة ، وتختفي الخيانة والاضطهاد من تحت السماء ، وسيستلم كل المشركين ، وتحترق الأبراج بالنار وتُمحي من الأرض ، سيرمون إلى حكم النار ، ويدمرون في غضب وجبر الحكم الأزلي ، ثم يقوم الصالح من نومه [أي من الموت] ، والحكيم أيضا سوف يقوم ، وسيُعطي لهم [أي يعطي الصالح لهداية الناس] ، وبواسطته ستقطع جذور الاضطهاد ، الأشرار سوف يزولون ويُقطعون بالسيف مع الكفار في كل مكان ، وكل من يخطط للاضطهاد أو يكفر فسوف يموت بالسكين ، وبعد هذا سيحل ثاني الأسابيع الثامنة ، سابوع الخير ، وسيُعطي سيفاً

لينفذ حكمه بالقسط على المضطهدين ، وسيؤخذ الخطة إلى أيدي الأبرار ، وبانتهائه سيسكبون الكثير من خيرهم ، وسيبنى بيت لملك العظيم للأبد وبعد هذا في السابوع التاسع سوف يُبين قضاء الخير لجميع العالم ، وتغادر أعمال الخطة من جميع الأرض فتمحى وتدمر ، ويتجه الجميع إلى طريق الخير وبعد هذا في نهاية السابوع العاشر سيكون القضاء الأزلي ، الذي سوف ينفذ من قبل ملائكة السماء الخالدة القضاء العظيم الذي يصدر عن جميع الملائكة ، السماء الأولى ستمر وتزول ، وسوف تظهر سماء

¹أخنوخ الأول 93 : 3 - 10

جديدة وتشع قواها للأبد أضعافا سبعة، وبعد هذا سوف تكون أسابيع عديدة دون ترقيم وللأبد ، وستكون أيام خير ورشاد ولن يسمع الناس بالشر أبدا ¹ .

« وفي تلك الأيام سيُضرب الأب مع ابنه في مكان واحد ، والأخوة سيسقطون مع أصدقائهم قتلى ، حتى ستجري دماؤهم كالنهر ، لأن الرجل لن يستطيع أن يبعد يديه عن أبنائه أو أحفاده بل سيقتلهم ، ولأن يستطيع الشرير أن يُبعد يديه عن أخيه ، من الفجر حتى غروب الشمس سوف يذبح بعضهم البعض ، وسيسير الحصان خلال دم الأشرار حتى صدره ، والعربات سوف تغطس حتى سقفا ، في تلك الأيام ستنزل الملائكة في أماكن سرية وسوف يحشرون كل الخطاة في مكان واحد ، أما الأخيار والقديسون فسوف يحميهم الملائكة كبؤبؤ العين حتى ينتهي الشر والخطيئة ، وبعد ذلك سينام الأخيار نوما هنيئا ، إذ لن يكون من يُخيفهم وعندما سوف ينتبه أبناء الأرض إلى كل كلام هذا السفر وسيعلمون أن غناهم لن ينقذهم في ذلك المكان الذي ستتهوى فيه خطاياهم ² »

من الواضح من هذه الكتابات أن الكاتب يعتبر السابوع السابع هو مرحلة التغيير في التاريخ ، وهي المرحلة التي عاشها الكاتب ووصفها بأنها مرحلة جيل من المرتدين ، أعمالهم شريرة ، إلا أنه أوضح أن بين هؤلاء الشريرين يقوم جماعة من الأبرار يعتبر

الكاتب نفسه منهم ، وسيبقون على طريق الخير ، وهذا تحذير للناس في زمن زاد فيه الشر وقلّ الخير ، لكن الحساب والقضاء النهائي قد اقترب أجله ، ولن يقتصر على بني إسرائيل بل سيشمل العالم كله .

أشراط الساعة في سفر عزرا :

في الحديث بين عزرا والملاك يُرائيل يسأل عزرا الملاك عن أشراط الساعة فيجيبه قائلا : « ستأتي أيام ينطم أهل الأرض بفزع رهيب ، وسيكون طريق الحق مخفيا ، ويختفي الإيمان من الأرض ، وسيزداد الشر عما تراه الآن وما سمعت عنه في السابق

¹ أخوخ الأول 91 : 5-17

² أخوخ الأول 100 : 1-6

، وتصير الأرض المأهولة خرابا ويهجرها سكانها ، ولكن إن قَدَّر لك العليّ أن تعيش فسوف تراها في فوض وذلك بعد الفترة الثالثة ، وستشع الشمس فجأة في الليل ويضيء القمر في النهار ، وسيقطر الدم من الخشب ، وسيتكلم الحجر ، وسيضطرب الناس وتسقط النجوم ، وسيحكم الناس من لا يتوقعون ، وستهرب الطيور جماعات ، وسيصطاد الناس سمكا من البحر الميت وسوف يصل إلى سمع الناس في الليل صوت من لا يعرفونه من قبل ، وسيكون فوضى في كل مكان ، وستزداد الحرائق ، وتصل الوحوش خارج براريها ، وتلد النساء وهن حائضات مخلوقات عجيبة ، والماء العذب سيختلط بالماء المالح ، وسيغزو الأصدقاء أصدقاءهم ، وعندما سيحجب الرشد وتراجع الحكمة إلى مكانها ولن يجدها الناس ولو طلبوها ، وسيزداد الشر على الأرض ، وسيسأل الناس فلا يعطون ، ويعملون ولا يَغنون¹.

رؤيا المهدي في سفر عزرا:

يتحدث عزرا عن رؤيا شاهدها كحلم في الليل فيقول «رأيت ريحا هبت من البحر وأثارت كل أمواجه ، ونظرتُ فرأيتُ الريح قد صنعت ما يشبه شكل رجل خارج من قلب البحر ، ونظرتُ فرأيتُ هذا الرجل قد طار في غمام السماء ، وحيث ما دار وجهه لينظر اضطرب كل شيء تحت نظره ، وكل من سمع الصوت الذي خرج من فمه ذاب

كما يذوب الشمع عندما يقترب من النار ، وبعد هذا نظرتُ فرأيتُ مجموعات عديدة من الرجال ، حشروا معا من رياح السماء الأربعة ، ليحاربوا الرجل الذي خرج من البحر ، ونظرتُ فرأيتُ أنه قد نحت لنفسه جبلا عظيما وطار إليه ، وحاولت أن أرى المكان أو المنطقة التي نحتَ منها الجبل فلم يمكنني ذلك وبعد هذا نظرتُ فوجدت أن جميع الذين تجمعوا ليحاربوه كانوا منه خائفين ، ولكنهم تجرؤوا للحرب ورأيتُ أنه عندما رأى اقتراب الجمع منه لم يرفع يدا ، ولم يمسك بحربة، ولكنه أرسل من فمه نهرا من لهب ، ومن بين شفتيه نفسا مُحرقا ، ومن لسانه أطلق عاصفة من شرار ، كل هذه تداخلت ببعضها : نهر اللهب والنفس المحرق والعاصفة العظيمة ، وسقطت على الجموع

¹عزرا الرابع 5 : 1 - 12

الهاجمة التي كانت تستعد للقتال فأحرقتهم جميعا وفجأة لم يعد يُرى أي شيء في الفضاء الواسع إلا الغبار والرماد ورائحة الدخان ، وعندما شاهدتُ هذا دُهشتُ¹ وبعدها يفسر ملاك هذا الحلم لعزرا فيقول «أما عن الرجل الذي خرج من البحر فهو الذي أبقاه العليّ خلال عصور عديدة ليُخَلِّص خلقه ويهدي من بقي منهم* ، أما عن الريح والنار التي خرجت من فمه وتدميره لجميع المهاجمين بدون حربة أو سلاح فهذا تأويله : في أيام قادمة عندما يُخَلِّص العليّ أهل الأرض ويحل عليهم ذهول الفكر ، ويخططون لمعركة ضد بعضهم البعض : مدينة ضد مدينة ، أرض ضد أرض ، وشعب ضد شعب ، ومملكة ضد مملكة فإذا حدث هذا وحدثت العلامات التي أريتك إياها من قبل ، عندها سيظهر ابني الذي شاهدته رجلا يخرج من البحر ، وعندما تسمع جميع الشعوب صوته فسيترك كل رجل أرضه ويتركون الحروب التي دخلوا فيها ، ويتجمعون جميعا كما شاهدت ، يريدون أن يهاجمونه ولكنه سيقف على قمة جبل ،

وس يظهر الجبل لكل الناس ، ويجهز ويبنى الجبل – كما شاهدت- نحتا بدون أيدي ، ثم يوبخ الشعوب المجتمعة لفسوقهم ، وهذا مُثَل بالعاصفة ، ويواجههم بأفكارهم الشريرة ويعذبهم بما ينبغي أن يعذبوا به ، وهذا مُثَل باللهيب، ثم يُدمرهم بدون جهد عن طريق الشرع ، وهذا مُثَل بالنار¹ .

رمزية الخلاص في رؤيا باروخ:

يشاهد باروخ في الرؤيا سحابا أتيا من البحر ، محملا بمياه سوداء ، ومن فوقه برق عظيم ، وانتشر السحاب حتى غطى جميع الأرض ، ثم بدأت المياه تتدفق من السحاب على الأرض ، ولاحظ باروخ بأن المطر الهائل يتغير لونه بين أسود و أبيض ، وحدث هذا التغيير اثنتا عشرة مرة وفي المرة الثالثة نزل المطر أشد سوادا مما قبله واختلط المطر الأسود بالنار ، وسبب دمارا وهلاكاً حيثما نزل ، وبعدها شاهد باروخ أن

¹ عزرا الرابع 6 : 18 - 24
*مسألة عودة المهدي من غيبته مسألة حاضرة بقوة في سفر عزرا الأمر الذي يشابه إلى حد كبير ما نادى به الشيعة الإثني عشرية التي ترى أن المهدي غاب غيبة كبرى ليتابع ما يجري في هذا العالم ويرقب مقومات الدول الشريرة العظيمة و ميكانزمات تطورها حتى يتسنى له تدميرها .
¹ عزرا الرابع 13 : 25 - 28

البرق الذي كان فوق السحاب قد أمسك بالسحاب وأنزله إلى الأرض ، وأصلح الأرض التي كانت دمرت من قبل السحاب الأسود ، ثم احتل البرق جميع الأرض وتحكم فيها وبعد هذا شاهد باروخ اثني عشر نهرا خارجين من البحر فأحاطوا بالبرق وخضعوا له².

ويفسر لباروخ الحلم بأن هذه المياه لاثني عشر تمثل تاريخ إسرائيل منذ آدم حتى يومه، وتعاقب الماء الصافي والكدر هو تعاقب أيام الخير والشر، والماء الثاني عشر يرمز للأيام الصافية التي تلت السبي البابلي ، ولكن في نهاية فترات التاريخ ستأتي فترة قائمة ، ممثلة بالماء الكدر الثالث عشر الذي هو نهاية التاريخ : « سوف تأتي الأيام التي سيكون فيها الزمان جاهزا لحصاد محصول بذور الخير و الشر ، وذلك عندما جعل الجبار على سكان الأرض وحكامها اضطراب الروح وانذهال القلب، و يستفزون لقتال بعضهم البعض ، فيكرهون بعضهم البعض ، ويتحكم رجال مغبونون

بمشاهير الناس ، ويتناول السفهاء على السادة ، وتخضع جموع الناس لفئة قليلة ، ويتحكم الرعاع بالأقوياء ويزيد عدد الفقراء على الأغنياء ، ويواجه الشرير الشجاع ، ويسكت الحكيم ويتكلم الجاهل ، وتفشل تصميمات الناس وخطط الأشرار ولا تتحقق آمال المتأملين عندما يحدث كل هذا يحل الاضطراب بين الناس ، فبعضهم يسقط في المعارك وبعضهم يموت من العذاب، والبعض يقتل من قبل أفراد شعبه ، عندها يرسل العليُّ هؤلاء الذين أعدهم من قبل ، فيأتون ويحاربون من بقي من الزعماء ، وكل من يهرب من المعركة سيموت بالزلال ، ومن ينجو من كل ما سبق – سواء أكانوا من الغالبين أو المغلوبين – يُسَلَمون لِيدي عبدي [المسيح] وستبتلع الأرض سكانها إلا الأرض المقدسة التي سترحم أهلها وتحميهم¹ .

ويذكر في فصل آخر رؤيا أخرى ، إذ شاهد غابة بين جبال عديدة ، ثم شاهد كرمة تنمو وغديرا تحتها ويتجه الغدير إلى الغابة حيث يتحول إلى سيل عارم يدمر الغابة ويدك

² باروخ الثاني : 53
¹ باروخ السرياني 70 : 2- 10

الجال ولا يبقى من الغابة سوى شجرة صنوبر وحيدة، ثم تتكلم الكرمة وتقول للصنوبرة : لقد تماديت في غزو ما ليس لك دون رحمة ، ومد سلطانك فوق القرييين منك والبعيدون عنك ، وتشبثت بروحك الشريرة ، وزاد بك الغرور حتى ظننت أنك لن تزولي ، ولكن انتهى الآن وقتك وجاءت ساعتك ، فزولي كما زالت الغابة من قبلك وصيري ترابا ؛ وبعد احتراق الصنوبرة تزدهر الكرمة وتمتلئ بالعناقيد ، وتنتهي الرؤيا هنا ولكن في الفصل التالي يسأل باروخ الرب عن تقسيم للرؤيا فيقول له بأن الغابة والجال تمثل المملكة في عهد باروخ ، والتي سوف تدمر بمملكة شريرة مجاورة ولكنها بدورها سوف تُهزم من قبل مملكة ثالثة ، وبعد هذا تأتي مملكة رابعة أسوأ وأشد قسوة من سابقتها ، وستمد سيطرتها وتتعالى ، وفي تلك المملكة سيطمس الحق وتصير البلاد دارا لأهل الباطل كما أن الغابة دار للوحوش ، ولكن سيأتي الوقت الذي تنتهي فيه

المملكة الرابعة وتهزم جيوشها ، عندما تتحقق مملكة المسيح الممثل في الرؤيا بالغدير والكرمة، ويقبض المسيح على آخر زعماء تلك المملكة حيا بعد أن يُدمر البقية ، فيأخذه إلى جبل صهيون ويواجهه بكل الشرور ثم يقتله ، ويجمع بقايا شعب الله في المكان المختار ، وستبقى مملكته إلى الأبد ¹.

نلاحظ في هذا السفر استعمال رمز الممالك الأربعة التي استعملها دانيال ، ومكن القول بأن المملكة الأولى مملكة البابليين ، والثانية مملكة الفرس ، والثالثة مملكة للإغريق بما فيهم السلوقين ، والرابعة هي الإمبراطورية الرومانية عندما كتب هذا السفر كما هو واضح من الإشارة إلى تدمير الهيكل ، وهنا يُطمئن الكاتب قراءه بأن المسيح سوف يأتي ويُنهى الدولة الظالمة .

إذن طاغية اليوم الآخر هو ذروة الشر الذي سوف يأتي في آخر الزمان (اليوم الآخر) وحكمه هو ذروة الطغيان والكفر ، إذ أنه بالإضافة لسيطرته على العالم ونشر الفساد والطغيان فإنه يضطهد المؤمنين القلائل الذين بقوا على دينهم وإيمانهم -المقصود هنا اليهود ، شعب الله المختار- ، وسيكون للطاغية من القوة والسيطرة بحيث لا يتمكن أحد

¹ باروخ السرياني 70 : 39 - 40 .

من البشر العاديين من مواجهته ، ولا ينهي سلطانه إلا شخصية سماوية هو المسيح مبعوث الرب .

الحياة المثالية بعد نزول مبعوث الرب :

شاهد دانيال شبه إنسان مُقبلا على الغمام حتى بلغ (الله) الأزلي فقرّبوه منه ، فأنعم عليه بسلطان ومجد وملكوت لخدمته كل الشعوب والأمم من كل لسان ، سلطانه سلطان أبدي لا يفنى وملكه لا ينقرض. ثم تُوهب المملكة والسلطان وعظمة الممالك القائمة تحت كل السماء إلى شعب قديسي العليّ ، فيكون ملكوت العليّ ملكوتا أبديا ، وتعبده جميع السلاطين ويطيعونه أما في الرؤيا الأخيرة فيقول الملاك لدانيال بعد الحديث عن

الطاغية الذي ينصب خيمته بين البحر و أُرْشليم» في ذلك الوقت يقوم الأمير العظيم الملاك ميكائيل حارس شعبك وذلك في أثناء ضيق لم يكن له مثل منذ أن وجدت أمة ذلك الزمان ، غير أن كل من كان مُدونا" اسمه في الكتاب من شعبك ينجو في ذلك الزمان ، ويستيقظ كثيرون من الأموات المدفونين تحت التراب ، بعضهم لِيُثابوا بالحياة الأبدية وبعضهم لِيُساموا ذل العار والانكسار إلى الأبد ، وضيء الحكماء [أي شعب الله المختار] كضيء الجَد ، وكذلك الذين ردّوا كثيرين إلى البر يُشعّون كالكواكب إلى مدى الدهر»¹.

كما ورد في سفر باروخ الثاني إشارة عن الحياة السعيدة قائلا : «عندما يمر جميع الذي يجب أن يحدث ، فسوف يظهر المسيح، ويظهر (بهمث) من موضعه ، ويخرج (لافتان) من البحر ، الوحشان اللذان خلقتهما في اليوم الخامس للخلقة وأبقيتهما حتى ذلك الزمان ، وسيكونا طعاما لمن بقي ، وستعطي الأرض محصولها من الفواكه عشرة آلاف ضعف ، ويكون على الكرمة الواحدة ألف عُصن ، وكل عُصن عليه ألف عنقود ، وكل عنقود به ألف حبة عنب ، وحبّة العنب الواحدة تصنع زق خمر ، والجائعون سوف يشبعون ويشاهدون عجائب في كل يوم»².

¹ دانيال 12 : 1-3

² باروخ الثاني 29 : 3-7

ويُضيف سفر أشعيا عن الملك المسيح الذي سوف يحكم اليهود ويُقيم العدل ويُحقق السلام « وسيقضي بعدل للمساكين ، ويحكم بالإنصاف لساكني الأرض (...) فيسكن الذئب مع الحمل ، ويربض النمر إلى جوار الجدي ، ويتألف العجل والأسد وكل حيوان معلوف معا ، ويسوقها جميعا صبي صغير ، ترعى البقرة والدب معا ، ويربض أولادها متجاورين ، ويأكل الأسد التبن كالثور ، ويلعب الرضيع عند جحر الصل ، ويمد الفطيم يده إلى جحر الأفعى لا يؤذون ولا يسيئون»³

إذن على ضوء ما عرضناه من نبوءات حول يوم الخلاص نستنتج أن أكذوبة شعب الله المختار تُعدُّ المحرك الأساسي لمحاولة غرس جذور تاريخية تبرر الوجود اليهودي في أرض أورشليم - القدس حاليا - الأرض الصالحة التي سيظهرها المُخلص من دنس الأشرار ومن احتلال الأعراب ويرث حينها اليهود الأختيار الأرض المقدسة بل العالم بأسره - حسب زعمهم - .

وعليه يمكن القول أن اليهود يلبسون دائما قناع الأقلية المظلومة المضطهدة ، الأقلية التي عانت على مرّ التاريخ من السبي البابلي (الروماني) والاضطهاد الفرعوني وظلم حاكميهم وسلب أراضيهم وتقتيل الأختيار منهم ، أقلية عانت من أيام عصيبة يملؤها الفجور والكفر والاضطهاد؛ إلا أن مع رجعة * الزعيم الروحي الذي يبعثه الرب ستنتهي كل مظاهر الظلم والاضطهاد. فهل يتشابه الطرح اليهودي بشأن مسألة المُخلص مع الطرح المسيحي ؟ .

³ أشعيا 11 : 4-9

* اليهود يؤمنون برجعة المُخلص من الموت أو من الغيبة ليتم لأتباعه طريقهم ، ولتحقق لهم ما وعدهم بتحقيقه من الحياة المحيية ، فاليهود يتوقعون عودة النبي إلياس كما هو منكور في سفر ملاخي (ها أنا أرسل إليكم إيليا النبي قبل أن يجيء يوم قضاء الرب الرهيب العظيم) ، وإيليا هو إلياس وقد يكون السبب الذي جعل اليهود يقولون بعودة هذا النبي دون غيره من أنبيائهم أنه لم يموت وإنما رُفِع إلى السماء حيا كما جاء في سفر ملوك الثاني . وقد بقيت رجعة إيليا وسماع هيرودوس بأن إيليا قد ظهر ويُفسر إنجيل متى ظهور النبي يوحنا المعمدان (بحي) بأنه إيليا المنتظر كما تقول الأناجيل إن أهل اليهودية تساءلوا إن كان المسيح عليه السلام هو النبي إيليا المنتظر اكن يوحنا نفى ذلك قائلا: "هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب العظيم والمخوف فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آباءهم لئلا آتي وأضرب الأرض بلعن" وهذه هو النص الذي ينفي فيه يوحنا المعمدان عن نفسه أنه إيليا.

معنى الخلاص في الديانة المسيحية :

الخلاص في اللاهوت هو مصطلح يدل على حالة الخروج من حالة أو وضع وظرف غير مقبول أو غير محبب، ويُدْرَج استعماله في الكثير من الديانات. وهو قضية أساسية ومحورية في المسيحية تشير إلى خلاص الإنسان من خطايه أو خَلاصه من سلطانها عليه، حيث تؤمن بأنه قد تم ذلك الخلاص بعملية الفداء التي قام بها المسيح على الصليب إلا أن هناك ثمة اختلاف بين آراء المذاهب المسيحية حول الكيفية التي يقبل أو ينال بها الإنسان هذا الخلاص .- وهذا ما سنكتشفه لاحقا -

"لقد عيّن الله شخصا مولودا من مريم العذراء وأيده بروحه القدس، وهو في نفس الوقت كلمة الله المتجسد كما يقول الكتاب المقدس في إنجيل يوحنا الإصحاح : "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله." والكلمة المتجسد اسمه يسوع وبالعبيرية يشوع يعني المخلص والمنقذ لشعبه من عبودية الخطيئة وهو الذي مثّل البشرية عندما صلب على جذع الشجرة من أجل أن يوفي الله عدله منه نيابة عن كل الخليقة. فكما أن رحمة الله كاملة، كذلك فعدله كامل أيضا. وكانت مشيئته أن يرحم أولاد آدم لكنه في نفس الوقت أراد أن يوفي عدله فكان موت المسيح هو الثمن لهذا العدل". هذا هو الاعتقاد السائد عند المسيحيين . ولتثمين هذا الاعتقاد نستشهد ببعض ماورد في إنجيل يوحنا، ومتى ولوقا وغيرهم.

ابن الله مخلص الذنوب في إنجيل يوحنا :

ورد في إنجيل يوحنا ما يلي : « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية ، لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص العالم »¹.

ليس المسيح شخصا عاديا لكن الكتاب المقدس يقول عنه إنه هو كلمة الله المتجسد والموجود من قبل تأسيس العالم، إنه كلمة الله ، التي تسمى "لوغوس" باليونانية، أي عقل الله الناطق الذي أخذ صورة إنسان. إن جزءا من شخصية المسيح هو إنسان وهو قال عن نفسه إنه هو ابن الإنسان، ولذلك أخذ جسدا من مريم العذراء وبهذا الجسد مثل كل البشرية على الصليب. هذا هو السر في ولادته من غير أب أرضي مما جعله يتخذ جسدا ليس له نسب بشري. فلو كان له أب أرضي لورث الخطية من أبونا آدم ولما كانت ذبيحته نافعة لتمثيل كل البشرية. لكن المسيح ولد من غير أن يرث الخطية وكان أيضا مؤيدا من روح الله القدوس أي كانت له طبيعة وسلطان روح الله القدوس. بمعنى انه يقدر أن يغفر الخطايا وكانت له الطبيعة غير المحدودة، ويعلمنا المسيح عن نفسه في سفر الرؤيا الإصحاح 1 والآية 8: "أنا هو الألف والياء البداية والنهاية يقول المسيح الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء."¹ وهكذا نعرف أن المسيح ليس إنسانا عاديا لكنه الملك الممسوح والنازل من السماء ومملكته لن تنتهي بل ستسود للأبد. وبما انه غير محدود وهو موجود من قبل تأسيس العالم وبه خلق الله الكون وهو الذي سيعود ليحاسب العالم يوم القيامة، لذا فهو الوحيد ذو الدم غير المحدود والمقبول عند الله عن كل الخليقة، لأن المسيح مؤيدا من روح الله القدوس، وفيه الطبيعة الأزلية كما قرأنا من سفر الرؤيا كما أنه هو الأول والآخر هو البداية والنهاية، وبذلك يكون تأثير قوة دم يسوع مختلف عن تأثير قوة دم أي إنسان فدمه طبيعة ممتدة ومستمرة ، و الفائدة في أن

¹السواح فراس ، مغامرة العقل الأولى ، مرجع سلبق ، ص 307 .

¹السواح فراس ، مغامرة العقل الأولى ، مرجع سابق ، ص 373 .

يكون للدم طبيعة مستمرة هو أن يصبح هذا الدم صالحا لأن يغطي كل أولاد آدم الذين ولدوا والموجودين اليوم والذين سيولدون

فكل من يؤمن به وبموته على الصليب من أجل خطاياهم يستحق دخول الجنة

وتغفر له كل خطاياهم، فالله يراه مغطى بدم يسوع ولا يرى فيه عيب الخطيئة والفساد الذي فيه .

الخلاص من الخطيئة سبيله الإيمان بالمسيح:

الخلاص نعمة من عند الرب لأن كل أعمال بني البشر ليس لها قيمة عند إله السماء، من أجل ذلك دبر الله بنعمته خلاصا لنا من عقوبة خطيئتنا التي ورثناها من أبونا آدم. ويقول الكتاب المقدس في الرسالة إلى أهل أفسس الإصحاح 2: "لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وهذا ليس منكم، أنه هبة من الله لا على أساس الأعمال حتى لا يفخر أحد، "أدعوك أن تصلي وتدعو الله باسم المسيح معترفا بخطاياك أمام الله لكي تنال الغفران وتكون من أهل الجنة فارفع في الصلاة هذا الدعاء: "يا سيدي المسيح إني أعترف اليوم بكل خطيئة ارتكبتها وأنا نادم عليها. أعترف أنه ليس لي خلاص بأعمالي الصالحة، إني أؤمن أن المسيح هو الطريق والحل لمشكلة كل البشرية. يا الله اقبلني مع شعبك المستحق دخول الجنة. إني أعترف بلساني أن المسيح هو مخلص العالم ومنقذهم من عذاب نار جهنم. يا رب سامحني لأنني كنت جاهلا ولم أعرف طريقك الحقيقي للجنة، يا الله اقبلني في اسم المسيح، آمين." ¹

وعليه نستنتج أن السيد المسيح بالنسبة للمسيحيين هو مُخلص البشرية من الخطايا أي خلاص على مستوى الذات أولا، ثم هناك خلاص من نوع آخر يتمثل في تخليص العالم

¹ السقا أحمد حجازي ، نهاية أمة الإسلام بين النبوة والسياسة ، عربية للطباعة و النشر ، [د.ط] ، 2002 ، ص139 .

من الظلم ليُقيم الأمن والسلام لهذا فهم يؤمنون بعودته وهذا ما ورد في الكثير من الأناجيل .

رجعة المسيح في رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي :

لما ارتفع المسيح إلى السماء دون أن يقوم ملكوت الله عل الأرض – وهو دخول المسيح بالقوة والمجد إلى أورشليم – قال المسيحيون برجعته من السماء بالقوة والمجد

وكانت عودته متوقعة في القريب العاجل وفي حياة أتباعه الذين ينتظرون عودته ، كما نرى ذلك واضحا في رسالة الحواري بولس الأولى : «إننا نحن الباقين أحياء إلى حين عودة الرب ، لن نسبق الراقدين ، لأن الرب نفسه سينزل من السماء حالما يدوي الأمر بالتجمع، وينادي رئيس الملائكة ، وينفخ في بوق إلهي عندئذ يقوم الأموات في المسيح أولا ، ثم إننا نحن الباقين أحياء ، نُختطف جميعا في السحب للاجتماع بالرب في الهواء ، وهكذا نبقى مع الرب على الدوام ، لذلك عزّوا بعضكم بعضا بهذا الكلام أما مسألة الأزمنة والأوقات المحددة فلستم في حاجة لأن يُكتب إليكم فيها ، لأنكم تعلمون يقينا أن يوم الرب سيأتي كما يأتي اللص في الليل فبينما يقول الناس : حل السلام والأمن! ينزل بهم الهلاك المفاجئ كالمخاض الذي يدهم الحبلى ، فلا يستطيعون أبدا أن يفلتوا »¹.

كما نقرأ في رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي : « إننا نفتخر بكم في كنائس الله بسبب ثباتكم وإيمانكم في وسط كل ما تتحملونه من اضطهاد وتضايق ، وفي هذا دليل على حكم الله العادل ، بقصد أن نُعتبروا مؤهلين لملكوت الله الذي من أجله تلاقون الآلام ، فمن العدل عند الله حقا أن يجازي بالضيقة أولئك الذين يضايقونكم ، وأن يكافئكم أنتم الذين تتضايقون ، كما يكافئنا نحن ، بالراحة لدى ظهور الرب يسوع علنا من السماء ، ومعه ملائكة قدرته ، وسط نار ملتهبة منتقما إلى التمام من غير العارفين لله وغير المطيعين لإنجيل ربنا يسوع ، فهؤلاء سيكابدون عقاب الهلاك الأبدي ، بعيدا عن حضرة

¹رسالة بولس الأولى 4: 15 – 5: 3

الرب ومن مجد قوته ، عندما يعود في ذلك اليوم ليتمجد في قديسه ويكون موضع العجب عند جميع الذين آمنوا ² .

وفكرة رجعة المُخْلِص المسيح ليست من ابتداع الحَواري بولس ، بل نجد في الأناجيل أن المسيح عليه السلام لَمَّحَ بذلك في إنجيل متى، أن المسيح تحدّث لتلاميذه وهو على

جبل الزيتون قائلاً : « انتبهوا لا يُضللکم أحد فإن كثيرون سيأتون باسمي قائلين إني أنا المسيح ، فيُضللون كثيرين» ثم يقول : «فكما أن البرق يضيء من الشرق فيضيء في الغرب ، هكذا يكون رجوع ابن الإنسان ، فحيث توجد الجيفة تتجمع النسور وحالا بعد الضيقة في تلك الأيام تظلم الشمس ، ويحجب القمر ضوءه ، وتتهاوى النجوم من السماء ، وتترزعزع قوات السموات ، وعندئذ تظهر آية ابن الإنسان في السماء فتنحب قبائل الأرض كلها ويرون ابن الإنسان آتيا على سحب السماء بقدره ومجد عظيم ، ويرسل ملائكته بصوت بوق عظيم ليجمعوا مختاريه من الرياح الأربعة من أقاصي السموات إلى أقاصيها [...] الحق أقول لكم : لا يزول هذا الجيل أبدا حتى تحدث هذه الأمور كلها ، إن الأرض والسماء تزولان ولكن كلامي لا يزول أبدا ¹ .

ونجد هذه الأقوال تتكرر في إنجيل مرقس وإنجيل لوقا، حتى الإسلام تبنى تعاليم رجعة المسيح مع الاختلاف في طبيعة العودة وطبيعة المسيح – كما سنلاحظ ذلك في الفصول اللاحقة-.

نلاحظ أن الحَواري بولس تحدث عن مسألة مهمة وغريبة في الوقت نفسه ألا وهي مسألة **الجدل** ويقصد بها عملية الخطف للاجتماع مع الرب في الهواء ، والهدف من الجدل هو صيانة المؤمنين من الدمار الشامل الذي سوف يحل بالأرض ومن عليها في يوم الفزع الأكبر ² .

²رسالة بولس الثانية 1 : 4 - 10

¹متى 24 : 4 - 41

²خالد الصناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، مرجع سابق، ص 127 .

والذين يقولون بالجدل فرقتان، فرقة تقول بأن الجدل يحدث عند عودة المسيح المترقبة، وفئة أخرى تقول بأن الجدل يحدث في وقت آخر قبل العودة المترقبة ، وأغلب الذين يتحدثون عن الجدل هم البروتستانت الإنجيليون الذين يقولون بان الدخول في مذهبهم هو بالنسبة للإنسان ولادة جديدة ، ولهذا يسمون أنفسهم بالمولودين من جديد ، ويشكلون

القسم الأكبر من المسيحية الأمريكية التي تحتضن إسرائيل وتنظر للمسلمين نظرة دانية.

راهنيه فكرة الجدل:

احتضن مبشورا التلفزيون فكرة الجدل هذه وبشروا بها وبنوا عليها إمبراطوريات تيشيرية ، وهذه الفكرة بالإضافة إلى فكرة مجيء المسيح المتوقعة وتدمير العالم في حرب هرمجدون هي أسس التبشير الناجح في كوريا الجنوبية التي تشاهد انقلابا دينيا . وانقلبت هذه الفكرة في عصر التكنولوجيا إلى تصور مادي ، فالمسيح سوف يأتي في (طبق طائر) وسيخطف بعض الناس إليه بطريقة تكنولوجية متقدمة ، ثم يحدث الدمار الشامل ، ويقال أن الداعية الإسلامي الشهيد مالكوم إكس قال في أوائل عهده عندما كان من أتباع إيجا محمد بأنه يوجد عدة أطباق طائرة بانتظار المسلمين السود ، سيركبونها قبل حصول الدمار الشامل القريب ، إلا أن الذين أخذوا هذه الفكرة بأبعادها الكاملة هم جماعة (بوابة السماء) في سان ديغو الذين قاموا عام 1997 قبل يوم الفصح بعملية انتحار جماعي مع زعيمهم ماريشال إبلوايت (APPLEWHITE MARSHALL) ، بغرض الوصول إلى الطبق الطائر الذي قالوا بأنه كان يصاحب المذنب هال بوب (HALE- BOPP) ، وتركوا لنا فيديو يقولون فيه أنهم يتطلعون إلى خطوتهم الجديدة القادمة حيث سيخلعون هذه الأبدان ويصلون إلى مستوى متطور قادم، ومن قبلهم اقتبست الفكرة هوليوود في أحد أفلام جيمس بوند المسمى (MOONRACKER) إذ نجد أن شرير هذا الفيلم يعمل على نشر سم خاص –عمل على تطويره- في العالم بغرض إفناء البشر ، ولكنه قبل أن يفعل ذلك سيغادر هو وأتباعه من الشباب والشابات

هذه الأرض إلى سفينة فضاء ليبقوا فيها عدة أيام إلى أن يزول تأثير السم فيعودون إلى الأرض ليبينون الحياة المثالية ، وغني عن القول بأن جيمس بوند أفضل مشروعه هذا ¹.

معركة هرمجدون ونهاية فترة حكم الدجال :

حدد يوحنا اللاهوتي مكان المعركة بأنه سيكون في أرض "هَرْمَجْدُون" وهَرُ : معناها بالعبرانية جبل ، ومجدون إسم المنطقة التي هي الآن مرج ابن عامر في فلسطين بجوار حيفا* وذكر يوحنا أن قوات الشر في هذه المعركة مكونة من جيوش عشرة ملوك تحت إمرة الدجال ، وأول ما تفعله هذه القوات هو اكتساح روما وتدميرها ، ومن الطبيعي ألاّ تحزن قوى الخير على دمار روما التي لم يرو منها غير الاضطهاد ، فيصرخ ملاك نازل من السماء سقطت، سقطت بابل العظيمة وصارت مسكناً للشياطين وحصنا لكل روح نجسة وكل طائر ممقوت نجس ، لأنه من خمر زناها** قد شربت جميع الأمم ، وملوك الأرض زنو معها وتجار الأرض استغنوا من وفرة نعيمها ؛ والمقصود ببابل هنا روما إذ أن بابل رمز الشر والرذيلة ، ومعظم الإصحاح الثامن عشر من سفر الرؤيا مخصص لذكر نواح الناس على روما العاهر وراثهم لها ¹.

ثم يبدأ غضب الله يتجسد على الأرض ، فيرى صاحب الرؤيا ملاكا على رأسه إكليل من الذهب وبيده منجل حاد ألقاه على الأرض فحصدها، وألقى ملاك ثاني منجلا آخر فقطف كروم العنب وألقاها في معصرة غضب الله ، ثم جاء سبعة ملائكة يحملون جامات (أي قناني) من ذهب مملوءة بغضب الله ، فسكب الملاك الأول جامه على الأرض فخرجت منها جروح خبيثة أصابت جميع الناس الذين عليهم وسم الوحش ويسجدون لتمثاله ، ثم سكب الملاك الثاني جامه على البحر فصار دما وماتت جميع المخلوقات الحية فيه ، وسكب الملاك الثالث جامه على الأنهار ويناابيع المياه فصارت كلها دما ، أما الملاك

¹ خالد الصناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، مرجع سابق ، ص 128 .

* وجدت في بعض المراجع أن مجيدو هو وادي بأرض فلسطين .

** يصف يوحنا روما "بأنها العاهر العظيمة التي زنى بها ملوك الأرض وسكر سكانها من خمر زناها " والمقصود بالزنا هنا الفسوق والفجور واضطهاد قديسي المسيحية وليس الزنى الفعلي ، وبراها صاحب الرؤيا متسرلة بأرجوان وقرمز و متحلية بذهب وأحجار كريمة ولؤلؤ وبيدها كأس من ذهب مليء برجاسات ونجاسات زناها ، وقد كُتب على جبهتها : بابل العظيمة أم الزواني وأرجاس الأرض .

¹ السقا أحمد حجازي ، نهاية أمة الإسلام بين النبوة والسياسة ، مرجع سابق ، ص 56

الرابع فسكب جامه على الشمس فازدادت حدتها واحترق الناس من الحر الشديد ، ولكنهم بالرغم من ذلك لم يتوبوا بل جدفوا على اسم الله ، وسكب

الملاك الخامس جامه على عرش الوحش فحل بمملكته ظلام دامس وصار أتباعه يعضون أسننتهم من الألم ولكن لم يتب أحد منهم ، ثم سكب الملك السادس جامه على نهرا لفرات الكبير فجف ماؤه ليصير ممرا للملوك القادمين من الشرق للمشاركة في هذه الملحمة¹.

وهنا تخرج الأرواح الشريرة من أفواه التنين والوحشيين ؛ فتذهب لتستنفر ملوك الأرض لتجمعهم مع الدجال في حرب واحدة ضد قوى الخير جند الله في مكان يسمى هَرْمَجِدُون (Armageddon) * ، وفي هذه الحالة يسكب الملك السابع جامه في الهواء ، فتحدث بروق وأصوات ورعود وزلازل عنيفة لم تشهد الأرض مثلها منذ أن خلق الله الأرض وما عليها ويحل الدمار بالمدن ومنها المدينة العظيمة بابل(روما) التي تنقسم إلى ثلاثة أجزاء ، وتهرب الجزر ، وتختفي الجبال ويتساقط من السماء بَرْدٌ كثير كبير الحجم ، ولكن بدلا من أن يتوب الناس فإنهم يجدفون على الله بسبب هذه البلايا².

ثم يُسمع صوت من السماء صادر من جمع كبير يقول «هللويا! الخَلاص والمجد والكرامة والقدرة للرب إلهنا ، فإن أحكامه حق وعدل لأنه عاقب الزانية الكبرى التي أفسدت الأرض ، وانتقم لدم عبيده منها ، وهتفوا ثانية : هللويا ! دخان حريقها يتصاعد إلى أبد الأبدين»³

ثم يشاهد صاحب الرؤيا أن السماء قد انفتحت ، ونزل منها فارس على فرس أشهب يدعى أمينا وصادقا وبالعدل يحكم ويحارب ، عيناه كلهيب النار وعلى رأسه تيجان كثيرة ، متسربل بثوب مغموس بدم ، ويسمى (كلمة الله) ، ومعه جند يتبعونه على خيل شهب يلبسون القز الأبيض النقي ، والفارس المذكور في هذا النص هو بدون خلاف السيد المسيح عائد إلى الأرض .

¹ رؤيا يوحنا 17 : 3 - 5

* هَرْمَجِدُون هي المنطقة التي سيكون فيها القتال يوم الرب .

² رؤيا يوحنا 17 : 17 - 18 .

³ رؤيا يوحنا 17 : 2 - 3 .

ويخرج من فم الفارس سيف ماض ليضرب به الأمم ، ويصرخ ملاك واقف في الشمس بصوت عظيم ينادي طيور السماء الكواسر : «هلموا اجتمعوا إلى عشاء الله العظيم لتأكلوا لحوم الملوك ولحوم القواد ولحوم الأقوياء ولحوم الخيل والراكبين عليها ولحوم جميع الأحرار والعبيد والصغار والكبار»¹.

ثم تحدث أم الملاحم بين جند الدجال وبين المسيح وجنده النازلين من السماء، وتكون النتيجة هزيمة الوحش والنبي الكذاب وأوليائهما الذين اتبعوهما وسجدوا لصورة الوحش، فيطرح الوحش والنبي الكذاب أحياء في بحيرة النار المتقدة بالكبريت ، أما باقي الجند فقد قُتلوا بجيش الفارس ، وشبعت الطيور من لحومهم²، وهذا ما يسميه سفر الرؤيا بالموت الأول بسيف المسيح ؛ ثم ينزل ملاك من السماء ومعه مفتاح الهاوية ويبيده سلسلة عظيمة ، فيقبض على التنين- الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان- ويقيده ويطرحه في الهاوية ، فتُغلق عليه وتختم بحيث يبقى فيها لمدة ألف سنة لا يستطيع خلالها أن يمارس أعماله الشيطانية³.

الحياة المثالية بعد نزول المسيح :

وبعد هذه الأحداث التي ذكرناها، يُبعث شهداء المسيحية الذين قُطعت رؤوسهم لأنهم رفضوا أن يسجدوا للوحش وأن يضعوا سمته على أبدانهم، وهذا ما يسميه كتاب الرؤيا بالبعث الأول أو القيامة الأولى كما وضّح ذلك في رؤياه قائلاً : « رأيت عروشاً فجلسوا عليها وأوتوا الحكم ورأيت نفوس الذين قتلوا لأجل شهادة يسوع ولأجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يتسموا بالسمة على جباههم ولا في أيديهم فحيوا وملكوا مع المسيح ألف سنة، فأما باقي الأموات فلم يحيوا إلى تمام الألف سنة هذه القيامة

¹ رؤيا يوحنا 19 : 17 - 19

² رؤيا يوحنا 19 : 19 - 21

³ رؤيا يوحنا 20 : 1 - 3.

الأولى ، سعيد ومقدس من له نصيب في القيامة الأولى ، إن هؤلاء لا يكون عليهم للموت الثاني سلطان بل يكونون كهنة لله وللمسيح ويملكون معه ألف سنة»⁴

أما بقية الناس فلن يُبعثوا إلا بعد انتهاء فترة الألف سنة في البعث الثاني ، والقول بالبعثين الخاص والعام هو قول يختص به سفر الرؤيا ولا نجد له تأكيدا في بقية كتب العهد الجديد ، والفترة بين البعثين هي فترة يسود فيها الخير والصلاح ، يحكم فيها الأرض المسيح عليه السلام على شعب من القديسين الشهداء الذين يعيشون ألف سنة في عالم بدون شر ، وتسمى بالكليازمية أي الألف سنوية ، وقد قال بها بعض أباء الكنيسة ، كما ذكرها بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس «ألستم تعلمون أن القديسين سيدينون العالم». وجاء في سفر حكمة سليمان بأن الصالحين سيحكمون شعوبا ويسيسون أمما والرب من فوقهم إلى الأبد.¹

إلا أن العقيدة الكليازمية أدينت من قبل المجمع المسكوني المنعقد عام 381 واعتبرت صابئية، ولكنها عادت مع الطوائف الدينية الجديدة كالمعماديين والمتنورين والتقدميين، وكثرت الكتب والبشارات التي كُتبت وقيلت على الهواء في هذا الموضوع ، ويقول أفركي تاوشيف رئيس الأساقفة في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في مهاجمته للكليازمية : «لقد تحدث يسوع المخلص عن بعث واحد يشمل الجميع عندما قال بأن الصالحين والمُخطئين سيُبعثون وسيُحاسبون»² ، وتحدثت كتب الوحي عن مجيئين للمسيح لا عن ثلاثة ، المجيء الأول لتخليصنا ، والمجيء الثاني عندما يأتي بالمجد ويحاسب الأحياء والأموات ، وكذا تحدثت عن مملكتين للمسيح: مملكة المهلة التي ستستمر حتى نهاية العالم ، ومملكة المجد التي ستبدأ بعد يوم الحساب وهي أبدية لا تنتهي ويؤول رئيس الأساقفة الآيات السابقة التي تتحدث عن الفترة الألفية فيقول بأنه ليس المقصود منها مملكة على هذه الأرض، وإنما المشاركة الروحية بين المسيح والشهداء بأرواحهم في تسيير كنيسة المسيح على الأرض و لهذا كان من المقبول الاستشفاع بهم في الصلوات،

⁴ رؤيا يوحنا 20: 4 - 7

¹ خالد الصناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، مرجع سابق، ص135

² رؤيا يوحنا 6 : 39 - 40 ونجده أيضا في إنجيل متى 13 : 37- 43

وهو المقصود بالبعث الأول ، أما البعث الثاني فهو اجتماع الجسد والروح في آخر الزمان³.

أين تلتقي اليهودية مع المسيحية في مسألة الخلاص؟ :

في هذا الجو الثقافي المشبع بديانات الأسرار وجيش الآلهة المُخلصين ظهرت المسيحية إلى الوجود وكان الأتباع الأول للسيد المسيح هم قلة من اليهود المشبعين بالأفكار المهدوية التي كانت من القوة في تلك الآونة بين جماعة اليهود لدرجة كان معها ظهور المهدي المنتظر أو المسيح المرتقب متوقعا في أي لحظة وساعة ، لينقذ الشعب من اضطهاد الرومان ويبني ملكوت الرب في الأرض ، ولم يعتقد هؤلاء في البداية بأنهم إنما ينتسبون لدين جديد ، بل نظروا لأنفسهم دوما على أنهم فرقة متميزة في الدين اليهودي القديم ، ورغم أن المسيح قد خيَّب آمال الكثيرين في ذلك الوقت عندما ترك نفسه للصلب والموت ، فإن من بقوا على إيمانهم ، رأوا أن المسيح قد غادر لأن الناس ليسوا بعد على مرحلة تؤهلهم للدخول في ملكوت الرب وأن عليهم أن يتطهروا قبل أن يعود المسيح إليهم مرة ثانية¹.

إلا أن المسيحية لم تحافظ على وضعها هذا باعتبارها فرقة يهودية صغيرة لأسباب متعددة :

أولا : لم يتحول الإيمان الجديد سوى قلة من اليهود ، و ثانيا تأخرت عودة المسيح إلى درجة كبيرة ، ثالثا: تدمير مدينة أورشليم إثر ثورة مُسلحة قام بها اليهود على الرومان وتم بذلك توجيه ضربة قاضية لآمالهم القومية ، أخيرا فقد أثبتت تعاليم السيد المسيح أنها أشمل وأوسع من التفسيرات اليهودية الضيقة ، فبدأت بالانتشار في الأصقاع المجاورة و البعيدة ، وقد انتشرت المسيحية أولا لدى بعض أفراد الجاليات اليهودية في أصقاع الامبراطورية الرومانية ، ولكنها ما لبثت أن انتقلت إلى أفراد غير اليهود ، وقد ساعدت تعاليم بولص الرسول إلى حد كبير في تدعيم هذا الانفصال فكان يؤكد دوما على أن الخلاص سيأتي عن طريق الإيمان بالسيد المسيح بالدرجة الأولى لا عن اتباع

³ خالد الصناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 135
¹ السواح فراس ، مغامرة العقل الأولى ، مرجع سابق ، ص 369.

ما تقول به الشريعة اليهودية ، وهكذا يدخلون الغرباء إلى المسيحية وأخذت المسيحية تغدو غريبة عن اليهودية ، ولما كان هؤلاء الغرباء بعيدون كل البعد عن فكرة المهدي أو المسيح المنتظر الذي ينقذ شعبه من الاضطهاد ويعيد بناء أمجاده ، فقد قاموا بصياغة فكرتهم الخاصة عن المسيح وطبيعته ودوره ، ولأن معظم من دخلوا في الدين الجديد كانوا أتباعا لديانات سرية ، ولأن الجوهر العام لهذه الديانات هو المسيطر على أفئدة الناس في تلك الآونة ، ولأن الرسل الأوائل أرادوا اجتذاب الجماهير بأسلوب يألفونه وصيغ اعتادوا عليها ، لهذا كله قد نحت المسيحية منحى الديانات السرية وتبنت كل ما استطاعت أن تتبناه وما يتلاءم معها من طقوسها ومعتقداتها فتحول المسيح من مبشر يهودي إلى إله ميت * وهو كمن سبقه من الألهة المُخْلِصة إله ابن يُلد من عذراء ويبشر برسالة جديدة ثم يعاني ويتألم ويموت ولكنه يتغلب على الموت ويصعد منتصرا من عالم الأموات حاملا الخلاص والحياة الأبدية لمن آمن به ، لكن الخلاص المسيحي لا يعتمد على الاتحاد الجسدي بالإله عبر مجموعة من الطقوس ، كما هو الأمر في الديانات السرية بمقدار ما يعتمد على الحياة الأخلاقية القويمة .

وعليه يمكن أن نخلص إلى أن نقاط الالتقاء بين المسيحية واليهودية في مسألة الخلاص كانت في بداية ظهور المسيح لكن مع بعد صلبه انقلبت الموازين وتفرقت الطائفتان في النظر إلى المهدي وطبيعته مع الاحتفاظ بفكرة وجود مُخْلِص للبشرية ووجود العقاب والثواب كما وجدنا هذين الفكرتين راسختين في أذهان الشعوب منذ فجر التاريخ قبل هبوط الديانات السماوية.

* أنظر المبحث الأول (آلهة الخلاص في الأساطير والملاحم)، ص 7 .

المبحث الرابع: مشروع الخلاص من وجهة فلسفية

القسم الأول: من خلاص البدن إلى خلاص المدينة (أفلاطون)

القسم الثاني: مملكة الغرباء ومشروع النابتة الخلاصي (ابن باجة)

القسم الثالث : الشيوعية الماركسية والمشروع الخلاصي

إذا كان الإغريق قد تلقوا معارف الشرق القديمة وتمحور تفكيرهم السياسي و الأخلاقي حول المعرفة الأسطورية في وقت من الأوقات ، فهذا لم يكن ليحول دون تأكيد الواقع في أن كان لهم الفضل في الارتفاع بالتفكير السياسي و الأخلاقي إلى المستوى المنهجي للمعرفة و كانت تباشير ذلك ، يوم استشراف سقراط رؤيا المدينة الفاضلة ، ليُليه أفلاطون وأرسطو و غيره من الفلاسفة فيما بعد.

"أعرف نفسك" عبارة سقراطية تحمل أكثر من دلالة ، إنها دعوة ضمنية إلى العودة إلى الذات بعد انصهارها في بوتقة الخرافات والسفسطات ، فالفرق عجيب بين من يعرف نفسه ومن لا يعرفها ، الإنسان الذي يعرف نفسه يعرف من ثمّ ما هو خير له وما هو شر له والإنسان الذي لا يعرف نفسه يجهل الاثنين معا ، إذن معرفة الذات خلاص في حد ذاته من الجهل ، فالفضيلة علم والرذيلة جهل – على حد تعبير سقراط- من هنا كانت انطلاقة أفلاطون في تأسيس مشروع المثالي.

خلاص النفس من الجسد من زاوية أفلاطونية:

صراع النفس مع الجسد هو صراع دائم بين الجانب العاقل الخالد والجانب المادي الفاني من الإنسان ، ويحاول العقل السيطرة على الشهوة مستعينا بالعاطفة ، فإن تغلب العقل صعدت النفس إلى حيث تعيش النفوس الخالدة لتتعم بصحبة الآلهة والنفوس الخيرة ، أما إذا تغلب الجزء غير العاقل فيها فمصيرها التناسخ في أبدان تتدرج من الأعلى إلى الأدنى بحسب نصيبها من العقل ، ففي "طيمائوس" يفترض أفلاطون أن النفوس جميعا كانت في الأصل ذكورا ، لكنها تتدهور خلال التناسخ حسب الحياة التي تحياها على هذه الأرض ، فإن ابتعدت عن التمسك بالعقل وُلدت في جسم امرأة أ ثم في جسم حيوان ، ولا تزال تنتقل من حيوان إلى آخر حتى تُظهر من أدناسها وتعود إلى الكوكب الذي صدرت عنه¹.

¹مرحبا عبد الرحمن ، من الفلسفة اليونانية إلى الإسلامية ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط3 ، 1983 ، ص 136 ، 137 .

النفس الإنسانية هي مقر المثل ومصدر المعرفة ، فهي عندما كانت في عالم المثل اطلعت على كل شيء لكنها عند حلولها في البدن نسيت معارفها ، وبشيء من الانتباه يمكنها أن تتذكر ما كانت اطلعت عليه ولإثبات ذلك فقد استدعى سقراط خادم "مينون" و يلقي عليه بعض الأسئلة في الهندسية ، ولم يكن للخادم معرفة سابقة بالهندسة ، ومع ذلك فقد تمكن بطريقة سقراط في الحوار وقدرته على توجيه الأسئلة أن يتوصل إلى هذه المعرفة، وهكذا تموضعت المعرفة في النفس من كان يبدو أنه معدوم منها ، مما يدل على أنه كان على علم سابق بها فالمعرفة تذكر والجهل نسيان ، وبما أن النفس اطلعت على كل شيء في عالم المثل فهي تحيط علما بكل شيء ، لكنها نسيت عند اتصالها بالبدن ، لذا فما على الإنسان إلا تخليص نفسه من هذا السجن ، سجن البدن لتمثل له حقائق الأشياء ، لكن لا يمكنه ذلك ما لم يتم حصول المدينة المثالية باعتبار أن ذلك شرط أساسي لخلاص الفرد .

الحياة المثالية والخلاص من شرور المدينة الفاسدة :

إن المشكلة الأساسية الحقيقية بالنسبة إلى أفلاطون إنما هي في الواقع مشكلة سياسية ، إنها مشكلة المدينة التي لا يجد الفيلسوف فيها مكانا لنفسه ، فجميع المدن في عصره – بل وفي كل عصر- مضادات للمدينة المثالية غير جديرة بالفيلسوف ، فكيف السبيل إلى الخلاص من مدن فاسدة إلى مدينة مثالية ؟ وكيف يتخلص الفيلسوف من عالم الأشباح ،عالم المادة الفاسد إلى عالم الحقيقة السرمدى ؟

فليس عجيبا إذن أن يذهب إلى أن المدينة الفاضلة إنما هي المدينة التي تتألف من الذين يعرفون فالمعرفة هي الأساس الصحيح الأوحد للمدينة ، فلا مدينة إلا بالعلم ، ولا حكومة إلا حكومة العقل والفلسفة وهنا يتجلى لنا التأثير السقراطي.

ولكي نفهم التفكير السياسي عند أفلاطون يجب أن نعلم أولا أن هذا التفكير متضمن في تفكيره الأخلاقي ، فليست السياسة عنده سوى امتداد للأخلاق فالسياسة علم أخلاقي

غايته تحقيق العدالة في المدينة كما أن الفضيلة هي تحقيق العدالة في النفس¹ إن أفلاطون يحرص على أن يكون إطار نظريته السياسية إطاراً أخلاقياً فالسياسة هي العلم الذي يحدد المعاني العامة التي تكلف سعادة الناس و التي تتوخى أن تجرى العلاقات بينهم على أساس من التضحية و الإيثار و التعاطف ، فغاية الأخلاق عنده هي المدينة لا الفرد ، فالفرد صورة مصغرة من الدولة ، أو قل أن الدولة إنما هي إنسان كبير ، هذا هو الطابع العام للسياسة عند أفلاطون وأرسطو والفلاسفة اليونان جميعاً. إن علم السياسة على ذلك نظرية شاملة لتنظيم المجتمع تنظيمًا يكفل له التقدم في ظل من الاستقرار و السلام و السعادة ، إذن المجتمع المثالي ظل حلم راود الكثيرين من الفلاسفة على تباين أوطانهم و اختلاف عصورهم و ليس ذلك بغريب عن عقلية الفيلسوف وهي تدور أبداً في محور: لماذا كان الشيء على ما هو عليه ؟ و كيف ينبغي له أن يكون ؟ و هذا ما فعله أفلاطون في مدينته .

فالدولة عند أفلاطون أشبه بالكائن العضوي ، تتعاون أعضاؤه و تساند من أجل تحسين حياته واستقرار أحواله و اختلال عضو من الأعضاء يؤثر لا محالة في سائرهما و إذا نظرنا إلى المجتمع الإنساني من هذه الزاوية لاحظنا أنه يتألف من طبقات ، كل طبقة أشبه بعضو من الأعضاء ، يؤدي و وظيفته كاملة ، و لا بد لكل طبقة من أن تؤدي هذه الوظيفة دون ما تعدي على اختصاص الطبقة الأخرى حتى تكفل الحياة للكائن العضوي أي المجتمع² . و الحياة الاجتماعية في نظر أفلاطون تسير على سنة التميز

الطبقي و هو أمر واقع يسلم به أفلاطون كحقيقة مقررة لا تحتمل مناقشة و يعرض لنا في هذا الإطار طبقات المجتمع على النحو التالي :

أ- طبقة الحكام : و تسودها القوة العاقلة و يمثلها الفلاسفة أي الطبقة العليا التي سيكون بيدها زمام الأمر في الدولة الجديدة و يسميها أفلاطون بالطبقة الذهبية .

¹ الشنيطي فتحي ، نماذج من الفلسفة السياسية، دار الحمامي للطباعة والنشر، القاهرة ، [د.ط] ، ص، ص 22، 21
² أفلاطون، الجمهورية، تحقيق نظلة الحكيم، محمد مظهر سعيد، دار المعارف، مصر، ط 1، ص 107، ص 108

ب- **طبقة الجنود:** تلقب بالطبقة الفضية: و تسودها القوة الغضبية ، و يمثلها رجال الجيش فيها تتمثل الشجاعة أحسن تمثل ، كما أنها المعين للحكام من الفلاسفة

على تحقيق أوامرهم التي يصدرونها في صالح الطبقة الثالثة و التي نقصد بها

ج- **طبقة العمال :** تلقب بالطبقة النحاسية لأنها تمثل طبقة الشهوات ، بمعنى المنافع المادية المختلفة من زراعة ، تجارة ، صناعية و هؤلاء لا يحفل بهم أفلاطون إطلاقاً و لا يعني بأمر تربيتهم بل يكتفي بأن يقول: «إن هؤلاء الزراع و الصناع و التجار عليهم أن يتبعوا الأخلاق الشعبية و الأوضاع التقليدية»¹.

و لما كانت الصفة المميزة لهذه الطبقة في هذا المستوى فمن المحرم إطلاقاً على الطبقتين الآخرين هذا الحق ، حق الملكية ، و إنما يعيشون عيشة شيوخ ليس فيها الملكية و ليس فيها أي اتجاه نحو كسب أو نفع و هنا نجد احتقار أفلاطون للعمل ، و الدولة قد انقسمت على هذا الأساس واختص كل قسم منها بجزء يجب عليه ألا يتعداه فإن حقق كل ما عليه و لم يفرط أو لم يُفرط ، فحينئذ يكون العدل فهذا النظام يتحقق ، كما هي الحال بالنسبة للعدل أو الانسجام في النفس الإنسانية عن طريق أداء كل ما يجب عليه².

فأهم ما يميز فلسفة أفلاطون السياسية أنها تجمع بين النظر و العمل فالحاكم يجب أن يكون فاضل السيرة محبا للحكمة متخلصاً من كل إغراء يقوده إلى الشهوة أو اللذة ، أو بعبارة أصح أن يكون فيلسوفاً يُؤثر الاعتدال و يُحكم عقله في حياته ثم يلتفت إلى وظيفته الرئيسية و هي قيادة الدولة و حفظ و حدثها ولن يتأتى هذا لمن أراد أن يكون

¹ بدوي عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1984، 1، ج1 ص183

² أفلاطون، الجمهورية، مرجع سابق ، ص101 ، ص102 ، ص103 ، ص104 .

حاكما إلا أن يتجرد عن كل ملكية خاصة و أن يتصف بالمزايا السقراطية الأربعة :

الحكمة ، الشجاعة ، العفة و العدالة¹ .

تكلما عن ميزات حاكم المدينة و علمنا أن يتميز بالحكمة والنظر العقلي فكذلك المدينة الفاضلة تمتاز بالفضائل الأربع الحكمة والشجاعة و العفة و العدالة ، فالمدينة حكيمة بحكامها ، مقدامة بجيشها معتدلة بعفة أهلها ، و عادلة حين يقوم كل فرد بالعمل الذي يصلح له بوضع الرجل المناسب في مكانه المناسب ، فالمساواة إذن في المدينة أن تعطي أكثر لمن هو أكبر و أقل لمن هو أصغر .

فتعطي لهذا أو ذاك بمقدار طبيعته و هي تناسب المناصب مع الاستحقاق تعطي أكثر لمن له فضيلة أكثر ، و تعطي أقل لمن له فضيلة و تعليم أقل ، و الحال كذلك في الفرد فالعقل يدبر و الغضب يسوق و الشهوة تستمتع و الاعتدال بين العقل و الغضب و الشهوة هو العدل فهناك توازن بين أخلاق الفرد و سياسة المدينة فالعقل يهدي الفرد و الحاكم الفيلسوف يدبر المدينة ويسوسها بما فيها من عقل إلهي خالق أما مجتمع المدينة فيعزوه أفلاطون إلى طبيعة الإنسان الغريزية لأن الفرد لا يستطيع الحياة إلا داخل نطاق المجتمع أو كما سيقول أرسطو إن الإنسان مدني بالطبع ، وقد خالف بذلك السفستائيين الذين ذهبوا إلى أن المجتمعات الإنسانية صناعية أي تقوم على أساس التعاقد بين الأفراد و ليس على أساس طبيعي غريزي.

لقد ربط أفلاطون فكرة الخير و الفضيلة بالحكمة و التأمل شأنه شأن فلاسفة العصر الثاني جميعا ،(أرسطو و شيشرون) ، حيث أنهم لم يفرقوا بين الأخلاق و السياسة فأفلاطون يُعنى كثيرا ببيان الصلة بين الأخلاق الفردية و واجبات الدولة ، ذلك لأن الفرد يعيش في مدينة ، فلا بد أن تكون سيرته الأخلاقية مرتبطة بمصلحة المدينة السياسية،

¹التكريتي ناجي، الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية، دار الأندلس للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت، ط2 1982،ص 72

فالإنسان كفرد و كاجتماع فهما يسيران جنباً إلى جنب ، ولهذا عندما ننظر للإنسان يجب أن ننظر إليه كفرد و كعضو في المجتمع إذن ، عدالة الفرد هي عدالة الدولة ¹ .

على ذكر الفرد : نتساءل عن مكانته في الدولة ! الفرد عند أفلاطون يجب أن يكون من أجل الدولة و على هذا يجب ألا يفعل شيئاً خارج الدولة و لا ضد الدولة بل عليه أن يفعل كل شيء من أجل الدولة ، فإذا كانت هذه الأخيرة ستعنى بإيجاد الطبقتين الأولين فلنبحث الآن في النظم التي يجب أن تنشأ من أجل تحقيق المدينة الفاضلة .

ولأجل ذلك يجب أن يفصل الفرد منذ ميلاده عن والديه ، ويسلم إلى الدولة ، وهنا نجد أن فكرة الزواج و فكرة الأسرة ينظر إليها نظرة جديدة مختلفة عن المؤلف فالغرض من الزواج عند أفلاطون هو إيجاد الأفراد و المرأة مهمتها حينئذ إيجاد الأولاد ، ذلك لأن الأسرة و الزواج مصدر كل شر²، لذا قال بمشاعيتهما (الأسرة والأولاد) .

فلكي تقوم الدولة المثلى يجب أن يقضي على الأسرة و الملكية و الزواج و على هذا تتحمل الحكومة على عاتقها أعباء التربية بهدف تحقيق التجانس التام بين الأجيال الناشئة بحيث تغدو الجمهورية « الأسرة » الوحدة الاجتماعية الحقيقية.

وقد أشار بإنشاء دور للحضانة و معاهد للتهديب و التعليم و أوجب إتاحة إمكانات تحصيل العلم للجميع على اختلاف الجنس و المكانة الاجتماعية .

أما مراحل التعليم فقد جعلها ثلاث، واتخذها أساساً لتقسيم الرعية في الجمهورية إلى ثلاث طبقات تقابل قوى النفس الثلاث، المرحلة الأولى: تشتمل الرياضة لتقوية الجسم وجعله صحيحاً جميلاً على الأخلاق و الدين و بعض الفنون لصقل الطباع و تهذيب النفوس ، وتقع بين السن العاشرة و العشرين يجرى في نهايتها امتحان عام تتألف من الراسبين فيه طبقة العمال في الجمهورية ، و يواصل الناجحون الدرس في المرحلة الثانية فيدرسون العلوم الرياضية و الطبيعية مدة عشر سنوات أخرى تنتهي كذلك

¹ أفلاطون الجمهورية ، مرجع سابق ، ص 46

² بدوي عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة، مرجع سابق، ج1، ص184

بامتحان عام ، يحال على إثره الراسبون إلى الجندية ، و يؤلفون الطبقة الثانية من رعية الجمهورية ، و يستأنف الناجحون التحصيل في المرحلة الثالثة فيدرسون الفلسفة بوجه عام، وعالم المثل بوجه خاص في مدى خمسة سنوات يحالون بعدها إلى ممارسة الشؤون الإدارية الجزئية ، أو يسرحون في المجتمع يعلمون الناس و يوجهونهم في معضلات حياتهم حتى سن الخمسين فمن لم يثبت منهم كفاءة في السياسة الناس أعيد إلى طبقة الجند و أسندت إليه بعض الوظائف العليا و تتألف من الناجحين منهم طبقة الحكام الذين يتولون الحكم في الجمهورية بالتعاون و المناوبة ¹ .

هذا الإشكال يثير نوعا من القلق و الاشمئزاز اتجاه فلسفة أفلاطون لاسيما و أنه يبدو في صميمه فيلسوفا معاديا للفردانية مؤديا لنظام الذوبان في الكتلة، فالمبدأ الرئيسي للعدالة هو أداء كل واحد لوظيفته - يعني تغليب المصالح العامة للمجتمع على مصالح الفرد - فالطبقة الحاكمة عنده تتنازل عن كل مصالحها و اهتماماتها الفردية في سبيل تحقيق مصالح الدولة ، فهو يرى أنه من المفروض القضاء على آخر بقايا الفردية

و هذا ما يظهر جليا من خلال قوله بشيوعية الأولاد و المرأة، فهذا لم يكن لشيء سوى للقضاء على مصالح الخاصة بين الأفراد.

فالدليل القاطع على أن فلسفة أفلاطون السياسية كانت مضادة تماما للنزعة الفردية هو دعوته الصريحة إلى ترك الضعفاء و المرضى يموتون ، بل إلى قتلهم إذا اقتضى الأمر فهو يقول بلهجة لا يستطيع أي مفكر فاشي أن يجارها في قسوتها « إن من الواجب أن يعني الأطباء و القضاء بالمواطنين من ذوي الطبائع الجسمية أو النفسية السليمة ، أما من

¹ زكرياء فواد ، دراسة الجمهورية أفلاطون ، وزارة الثقافة ، دار الكتاب العربي ، القاهرة [د ط] 1967 ، ص 113 .

عدادهم ، فسندهم منهم أولئك الذين اعتل جسمهم يموتون و سيقضي المواطنون ذاتهم على أولئك الذين اعرجت نفوسهم وانحرفت طبائعهم»¹.

فمعنى ذلك و بعبارة أخرى، أن حق الحياة - و هو أول الحقوق و أبسطها - ليس حقا طبيعيا للفرد و إنما يكون للفرد هذا الحق بقدر ما يكون سليما و صالحا لخدمة المجتمع و أداء وظيفته فيه فحسب.

و هناك أحد الكتاب قد وصف مدينة أفلاطون المثالية بأسلوب ساخر فقال : « إن جمهورية أفلاطون تتألف من موظفين و محاربين و حكام و حرفيين و صناع و عبيد و إناث و لكنها لا تتألف من بشر فكل فرد مسمار أو عجلة ذات شكل معين في آلة الدولة»، وفيما عدا هذه الوظيفة الرسمية فليست له أهمية في أي شيء آخر لكن مع ما وجدناه في مبادئها السياسية شيئا يدعو إلى النفور فلنعترف مع ذلك بأنها عمل عظيم بدليل أنها استطاعت أن تكون جزءا لا يتجزأ من تراث الفكر الغربي و ربما الإنساني بل كانت من المؤلفات الفردية القليلة التي أسهمت في تشكيل ذلك التراث و صبغته بصبغته المميزة .

هذه إذن مملكة الخلاص المثالية التي طالما حُلم بها أفلاطون و وضع لها مخطط يتماشى و معطيات هذه المدينة ، التي تُجبر الفرد على الخلاص من شهواته و انفعالاته لا لصالحه الخاص بل لصالح الدولة كون أن الفرد وُجد لخدمة الدولة لا العكس - حسب أفلاطون - فخلاص الفرد مرهون بخلاص المدينة وهذا بخروجها من الوضع الفاسد إلى الوضع المثالي، أي خلاص مما هو كائن نحو خلاص إلى ما ينبغي أن يكون أقصد الدولة المثالية .

الواضح من ما جاء به أفلاطون أن الخلاص المنشود هو خلاص لا يوجد في هذا العالم المادي لأن في الأساس المادة لا تصلح لأن تكون أساس للخلاص لسبب بسيط كونها

¹ مغنية محمد جواد معالم الفلسفة الإسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1، 1960، ص310

متغيرة، لذا نادى أفلاطون بخلاص النفس من البدن وهذا لن يتأتى لها إلا بعد الموت¹ لأن الخلاص الحقيقي هو خلاص خارج هذا العالم الحسي المتغير نحو عالم مثالي مجرد، عالم ميتافيزيقي؛ المهم أن أفلاطون جعل الإنسان يشارك في العملية الخلاصية كما وجدنا ذلك مع بوذا وسنجده مع ابن باجة وماركس لكن مع وجود اختلاف ما في المنهج وسبيل الخلاص .

مملكة الغرباء:

يقول ابن باجة: "... و كأن السعداء إن أمكن وجودهم في هذه المدن فإنما يكون لهم سعادة المفرد (...). و هؤلاء هم الذين يعينهم الصوفية بقولهم الغرباء لأنهم و إن كانوا في أوطانهم وبين أترابهم و جيرانهم غرباء في آرائهم قد سافروا بأفكارهم إلى مراتب آخر هي لهم كالأوطان (...). و نحن في هذا القول نقصد تدبير هذا الإنسان المتوحد"¹ هذا النص يضع بين أيدينا كشفا حاسما عن طبيعة معنى الغربة الذي يحتمله مفهوم التوحد، فالغربة تأخذ معنى التوحد أي تموضع الذات في ذاتها و تموضعها في وطن موحد الآراء ويُلقب ابن باجة المتوحد بالنابذة أي الفرد المنعزل الذي يعيش في نفسه أو

¹ André Comt-Sponville , Trait du désespoir et de la béatitude , quadrige / puf ; paris, 1^{re} édition, 1988 , tome2, p 25

¹ ابن باجة، تدبير المتوحد، سراس للنشر، تونس، [د.ط]، 1002، ص 13

مع غيره، كما أن لفظ المتوحد يطلق على مجموعة أفراد دفعة واحدة، إذ طالما أن الجماعة لم تأخذ بعادات هؤلاء المتوحدون و لم تتبع تقاليدهم، فإن هؤلاء كما سماهم ابن باجة نقلاً عن الفارابي و المتصوفة يظلون رجالاً "غرباء" * وسط عائلاتهم و مجتمعهم ذلك لأنهم مواطنوا الحكومة الكاملة،الذين تدفعهم جرأتهم العقلية إلى استباق حدوثها ². المتوحد هو المنفرد بنفسه الذي جعل فرادته هيئة لوجوده، فما يتفرد به هو ما يتوحد لأجله، و لأنه لا يعاني من وحدته هو فيلسوف و أن مهمة وجوده هو تهذيب الوحدة بضرب خاص من الوطن و ذلك هو معنى التوحد، غير أنه يحسن بنا ألا نظن بالتوحد أنه مجرد حنين إلى الوطن أو إلى وطن لا وجود له، فالتوحد ليس صفة حنينة **

قد تصيب المفارق للجماعة كذلك هو ليس فشلاً بئساً في البقاء في عصمة الجماعة. إن المتوحد هو غريب الرأي لا الوطن، و توحدده هو تدرب عسير على الإقامة على حدود وطن عقلي هو مطالب سلفاً برسمه لنفسه في كل مرة. إن التوحد فنٌ مخصوص يعيد ترتيب العلاقة بالمكان لأنه ينطلق من ضرورة حاسمة لإعادة رسم معنى الوطن، فالأمر يتعلق في كل مرة بضرب من تدبير المكان سواء كان ذلك تدبيراً للعالم أو المدينة أو المنزل، ولأن ابن باجة يعرض عن الضروب الثلاثة من التدبير لبحث عن تدبير خاص بالفيلسوف الغريب ويتساءل عن "بيئته" الأصلية أعني كيف عليه أن يسكن العالم الفلسفي الذي يشيده في كل مرة؟ إننا إذا كنا اليوم نفكر بطرح "أيكولوجي" لعلاقتنا بالعالم من حيث هو البيئة الوحيدة للإنسان، فإن ابن باجة إنما كان يفكر بالفلسفة بوصفها البيئة الوحيدة للمتوحد؛ فالنابت مدعوا سلفاً إلى ضرب من الوطن الذي اخترعه لنفسه كبيئة فلسفية خاصة في انتظار حدوث المدينة الكاملة، مدينة الغرباء.

* كلمة الغريب من أصل غنوصي قديم، اجتازت أحاديث الأئمة عند الشيعة وكثر ورودها في كتاب السهروردي "رسالة الغربية المشرقية".

² Munk, *Mélange de la philosophie juive et arabe*, librairie philosophique, J. Verin, Paris, nouvelle édition 1955, P 39

** نقصد بذلك أن طلب المتوحد لضرب من المواطن يخصه ليس صادراً عن ظاهرة "ألم الوطن" *nostalgie* التي اشتق منها المحدثون معنى الحنين إلى الوطن و لفظة *Nostalgia* مركبة من لفظي *Nostos* الذي يعني عند اليونان العود إلى البلد أو الطريق إلى البحث عن مطلوب ما غذاء مثلاً بعمامة و *Aigeo* ويعني الألم أكان جسمانياً أو روحانياً.

إنه توزيع جديد تماما في كل مرة لارتسام مواضع جدد و إطبوبيا لا ذاكرة لها غير ما يفلح الفيلسوف في إنشائه بنفسه و قد أفلح ابن باجة بطرح إشكالية المتوحد في دفع إمكانية السؤال من الفيلسوف إلى أقصاها، و ذلك هو معنى الاقتراب الغامض من مسألة الوطن، باعتباره الأفق الخلفي سواء للبحث الأصيل في معنى التوحد أم للشروع في السؤال عن الموضوع الذي يقف فيه الفيلسوف.

فأين يتحدد موضع المخلص المتوحد ؟

لاحظنا جليا أن ابن باجة يحرص حرصا طريفا على استبعاد معنى التدبير من جهة ما يطلق على الإله مدبر العالم وعلى اختصاص الإنسان به دون غيره و لذلك فما يبدو نقلا لمعنى التدبير من أفق الإله إلى أفق الإنسان ليس مجازا ولا تجوزا في العبارة بل هو صادر عن قصد إشكالي ليس من السهل تبيينه، ربما هو فعَل ذلك من قبيل أن

التدبير شأن مختص بالفكر و الرويَّة و الفكر شأن إلهي سواء أصابه الإله أم الإنسان، بيد أن ابن باجة يصر على التوضيح أنه لا يقصد "التدبير المطلق" الذي هو شأن الإله وقد يتعلق الأمر إذن بالشبه المظنون بينه وبين إيجاد الإله للعالم " كأن الإنسان مدعو إلى إيجاد العالم مرة أخرى على طريقته¹ ، وهنا تتحدد العملية الخلاصية .

إننا ندفع بشأن الإعراض عن شأن الإله إلى شأن الإنسان مع التدبير أو التخليص، ندفع إلى نحو من المساءلة بحيث يكف أن يكون مجرد حرص منهجي يجدر بالمتفلسف أن يأتيه في بعض مواضع من تفكيره، إن الأمر يتعلق بقرار فلسفي على درجة عالية من الخطورة ، إن ما أقدم عليه ابن باجة هو إزاحة الاعتبار التقليدي لمبحث الإله* ، و الإقبال على تنصيب فلسفي لإشكالية الإنسان في صناعة الفلسفة عامة. إن مسألة "البدء" الفلسفي لإشكالية العملي قد وجدت في السؤال عن الإنسان موضعها الأصيل. إن

¹ ابن باجة، تدبير المتوحد، ص 06.

*كتاب تدبير المتوحد لا يبدأ بعرض ماهية الموجود الأول كما فعل الفارابي في كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، بحيث يجعل الفارابي القول في الموجود الأول (الله) و القول في النفس مدخلا أساسيا للقول في المدينة، لذلك فخرج ابن باجة عن هذا النحو من التقليد إنما ينطوي على اختيار آخر لا يقل حسما.

الإعراض عن التدبير الإلهي و الاقتصار على البحث في التدبير الإنساني إنما ينطوي على قرار واقعي؛ إنه إعادة ترتيب للموضع الذي يقف فيه الفيلسوف المخلص². لذلك لا ينبغي أن نحقق بالإنسان هاهنا بوصفه مجرد غرض من أغراض التفلسف أو موضوع عادية لكتاب، بل باعتباره موضعا رسمه ابن باجة بعناية مشهودة، غير أن توضيح طبيعة هذا الموضع إنما تبقى مسألة مثيرة للبحث. فموضع المتوحد لا هو المدينة و لا هو المنزل و لذلك فالنظر في أمر المتوحد لا هو انخراط في الفلسفة المدنية التي وضعها أفلاطون تقليدا لكل تفكير بماهية المدينة و بطبيعة منزلة الفيلسوف داخلها. و لا هو استئناف لإشكالية كان البلاغيون قد أعطوا عنها صيغة أولية.

ليس المتوحد متوحد المنزل و تدبيره ليس بالتدبير المنزلي، و ذلك لأن مبحث المنزل نفسه لا يملك من وجهة تخصصه غير ما يستفيد ه من مبحث آخر مؤسس له كل مرة، مثل مبحث المدينة أو أي مبحث آخر. كذلك فمبحث المتوحد يخرج بمحض صعوبته الخاصة عن مبحث المدينة، رُبَّ مبحث ظل لدى القدماء من أفلاطون إلى الفارابي قيد إشكالية المدينة الفاضلة، و هنا نعثر على قرار فلسفي هام أقدم عليه ابن باجة، إنه الكف عن التفكير بمنزلة الفيلسوف من زاوية إشكالية المدينة الفاضلة بخاصة، ومن ثم الشروع في البحث في إمكانية الفحص عن معنى الوجود الذي هو شأن الفيلسوف، لا في ضوء مدينة مأمولة بل في أفق المدن الموجودة في هذا الزمان¹.

إن غرض التفلسف إنما لم يعد افتراض مدينة فاضلة، الوجود لها أنها توفر الشروط السعيدة لتحقيق إمكانية الفيلسوف و الوطن الفلسفي المفقود، بل صار مطلوبا لانكباب على واقعة الفيلسوف كما يوجد فعلا في المدن غير الفاضلة. إن موضع الفيلسوف إذن ليس شيئا آخر غير "هذا الزمان" الذي يحدث فيه قبل ظهور المدينة الفاضلة. إن تفكير الفارابي بإعادة هيكله ميتافيزيقية لإمكانية المدينة العالمية التي عبّر عنها الإسلام بواسطة الملة لم يعد ما يبرره.

² Munk, Mélange de la philosophie Juive et Arabe, P 389.

¹ ابن باجة، تدبير المتوحد، ص 13.

لقد سقطت الخلافة، و صار المتفلسف غير مسؤول ميتافيزيقيا إلا عن نفسه لذلك لم يعد ثمة من معنى لإشكالية الفيلسوف الإمام، كما لدى الفارابي، الذي أفلح في إنجاز تبيئة طريفة لإشكالية الفيلسوف، المملكة الأفلاطونية، إنه في هذا الوقت ولدت إشكالية المتوحد² بيد أننا يحسن بنا أن ننبه إلى أن ابن باجة إنما لا يقترب من طرح إشكالية المتوحد إلا بقدر ما يعيد ترتيب مسألة المدينة الفاضلة : فإن "كمال" هذه المدينة يعني أنها في غير حاجة إلى طبّ أو قضاة كما جاء في قوله : "...لما كانت المدينة الفاضلة تختص بعدم صناعة الطبّ و صناعة القضاء، ذلك أن المحبة بينهم أجمع فلا تشاكس بينهم أصلا..."³.

وهذا يعني أنها مدينة بلا مرض و لا ظلم، وأن أفعالها كلها صواب، لكن هل يعني أنها مدينة خالية من الحاجة إلى الفلسفة ؟ هل أن ظهور المدينة الفاضلة هو وقت انقراض الفلسفة و بطلانها*؟

إن هذين السؤالين إنما هما غير مهمين إلا بقدر ما يشيران إلى وجه الصعوبة التي تكتنف البحث في طبيعة الموضوع الذي يقف فيه الفيلسوف.

إن انطلاق ابن باجة من إزاحة إشكالية المدينة الفاضلة و محاولة التلفت رأسا إلى الموضوع الذي يصيبه الفيلسوف في المدن غير الفاضلة، و هذا ضرب من السكن الاضطراري في مدن لا فاضلة هو الذي يدفع إلى التفلسف. ليس التفلسف إذن صفة سعيدة لأهل المدينة الفاضلة، بل هو الضرب من التدبير الذي يمتنه رهط من الناس يجدون من أنفسهم غربة في الرأي يعسر معها دفع حيلة التوحد.

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ المصدر السابق، ص 10.

*إننا نعثر في هذا السياق على إمكانية للتفكير بضرب ما من "نهاية الفلسفة" و المعلوم أن هذا الإشكال قد صار تقليدا عند ماركس، غير أن تفكير ابن باجة بإمكانه بطلان الحاجة إلى الفلسفة إنما يختلف عن النظرة الحديثة في أنه لا يأخذ معنى النهاية مأخذ التحقيق التاريخي للفلسفة (ماركس)، بل هو يشير على نحو ظريف إلى أن نهاية الفلسفة موقوفة في جوهرها على اكتمال المدينة و حدوث المدينة الكاملة و هذا يعني أن الحاجة إلى الفلسفة إنما تزداد حدة كلما كان اكتمال المدينة غاية بعيدة المنال. إن ابن باجة ينتبه إذن على نحو غير مباشر إلى الحاجة الحاسمة للفلسفة طالما أن مدن الزمان مدن ناقصة.

و إنه بذلك إنما يقدّم ابن باجة على إقرارين هامين : الأول : أن الفيلسوف إنما يوجد أولاً في المدن غير الفاضلة مثل : "العشب النابت من تلقاء نفسه بين الزرع"¹ أي بشرط أن يوجد في أخرى المدن التالية (أرستقراطية، و أوليغارشية، و ديمقراطية و ملكية) الثاني "إن من خواص المدينة الكاملة أن لا يكون فيها نوابت"² هذان الإقراران خطيران لأنهما يؤديان إلى ارتسام إشكالية طريفة تماماً هي إشكالية النابطة، لا يتعلق الأمر هنا بمجاز نباتي بل على الأخص بنحو من الرسم للموضع الطبيعي للفيلسوف³ و هنا يقودني الفضول إلى الكشف عن لفظ النوابت هذا المفهوم القديم في نشأته، المستحدث في معناه.

فيبدو أن إشكالية النابطة لم يفعل ابن باجة سوى استعادتها داخل تأويل جديد و إذا كان الفارابي هو من أعطى الصيغة المشهورة عن معنى أو منزلة النوابت، فإن ثمة من العرب من استعمل هذه اللفظة قبله و الأمر على غاية الخطورة للإشارة إلى فرقة كلامية أو سياسية ظهرت في عصر المأمون و نحن نجد الجاحظ قد أرخ لهذه الواقعة الثقافية في رسالة عنونها بـ "النوابت" أرسلها إلى القاضي أبي الوليد بن أحمد بن دؤاد المعتزلي وفيها يشن هجومه على هؤلاء النابطة في عصره الذين يحبون معاوية و سائر الأمويين و يعتبرون سبهم بدعة و بغضهم مخالفة للسنة و أخذ يعرض مبادئ النابطة في قوله : "و زعمت نابطة عصرنا و مبتدعة دهرنا أن سبّ ولاة السوء فتنة و النابطة في هذا الوجه أكفر من يزيد و أبيه"¹

إذن هؤلاء النابطة و يعني بهم أهل السنة و الجماعة أو الحشوية اللذين يقولون بالجبر و التشبيه و عدم خلق القرآن و هذا كله في نظره كفر و ضلال، إذن مفهوم النوابت بالمنظور الجاحظي هو تأصيل لموضع الفرقة الخارجة عن دولة الجماعة على نحو "إتيقي" و ديني. فهل حافظت الصيغة على معناها لدى كل من الفارابي و ابن باجة ؟

¹ ابن باجة، تدبير المتوحد، ص 12.

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ المسكيني فتحي، فلسفة النوابت، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1997، ص 93.

¹ الجاحظ، رسائل الجاحظ (النوابت)، شرحها : عيد أمهنا، دار الحدائق، بيروت، ط 1، 1988 ص 11.

قبل الإجابة على هذا الإشكال أشير إلى أن النوابت عند الفارابي "هم أصناف كثيرة² و بعددهم : "المراءون، والمحرفون، و الباغون و المارقون و المغالطون و هناك أنواع أخرى. -لا أريد ذكرها لأنها ليست موضوع بحثنا-. المهم هو أن هؤلاء أفراد يصادون المدينة الفاضلة حيث يقول : " هؤلاء الأصناف النابتة في خلال أهل المدينة و لا تحصل من أرائهم مدينة أصلا ولا جمع عظيم من الجمهور، بل يكونون مغمورين في جملة أهل المدينة"³ و يقول أيضا "منزلة الثوابت في المدن منزلة الشيلم في الحنطة أو الشوك النابت فيما بين الزرع أو سائر الحشائش غير النافعة و الضارة بالزرع" ومنه نستنتج أن منزلة النوابت هي منزلة معارضة تسعى دوما إلى تحطيم المدينة الفاضلة. لكن كان ابن باجة على نقيض الفارابي يجعل من النابتة أو النوابت رتبة "الذين يرون الآراء الصادقة" لماذا هذا الموقف الذي يقول أن النابتة هو "العشب النابت من تلقاء نفسه بين الزرع" فهل النابتة هو الحكيم أو الفيلسوف أو ما حول ذلك من مصطلحات سياسية و دينية (صوفية) ربما يكن الجواب في الظن بأن النابتة هم مضادوا المدينة أي المغمورون المعارضون : فهم يرون الآراء الصادقة في المدينة الفاسدة الجاهلية (وهنا موقف ابن باجة) و هم المراءون (المارقون، المحرفون.) في المدينة الفاضلة (وهنا موقف الفارابي) فهل هذا الطب يرتقى إلى مستوى كشف معرفي أرفع له دلالات سياسية أخطر؟ الواضح من خلال هذا العرض البسيط أن منزلة النوابت في المدينة (سواء بمنظور الفارابي أو وجهة ابن باجة) قد أخذت مأخذ الجاحظ حيث أشار إلى الفرقة المتمردة على القيم و المبادئ بغض النظر إذا كانت هذه القيم فاسدة أم فاضلة. لكن ما يهمنا الآن هو عرض مفهوم النابتة من الوجهة الباجوية لأن في معنى النابتة إجابة حاسمة عن الأسئلة التالية : أين يقف الفيلسوف؟ ما هو الموضع الأصلي الذي ينطلق منه؟ كيف يأتي الفيلسوف إلى موضعه؟

² الفارابي، أبو نصر، السياسة المدنية، دار المشرق، بيروت، ط2، 1983، ص 104.

³ المصدر نفسه، ص 107.

إننا نتأول خلو المدينة الفاضلة من النوابت على أنه إشارة مثيرة من قبل ابن باجة إلى الطابع الإشكالي ليس فقط لظهور الفيلسوف بل لوجود أو بقاء الفلسفة نفسها كصناعة بعينها.

يبدو أن كمال المدينة الفاضلة يجعلها في غير حاجة إلى الفلسفة و إلى فلاسفة و لكن كيف نفهم قول ابن باجة : "النوابت إن وجودهم هو سبب حدوث المدينة الكاملة" ؟
قد يعني ذلك فقط أن الموضوع الذي يقف فيه فيلسوف هو الذي يحدّد طبيعة الحاجة إلى

الفلسفة و قد يعني أيضا أن دور الفيلسوف مؤقت مثل موضعه، إن الفيلسوف إنما يضطر للظهور داخل عصر لا يختاره، فهو موجود اضطرارا في هذا الزمان أو ذلك بيد أن هذا الاضطرار إلى الزمان الذي يظهر فيه إنما يحجب حرية جذرية هي خاصة للفيلسوف جذرية بالمعنى الذي نحملة على النبتة الغريبة هو "العشب النابت من تلقاء نفسه بين الزرع" و اسم النابتة متوحدّ أولا و أخيرا، أولا لأنه يولد من تلقاء وحدته، فهو غريب في مدن اللافلسفة إنه "غير الممكن" الذي بظهوره يكسر كسل الروح في أمة ما، و أخيرا لأنه مطالب بأن يصنع بنفسه إمكانية العالم الذي يخصه، هذا العالم الذي هو هيئة المتوحدّ إذا كان ساكنه الوحيد، إنما هو في الوقت نفسه الصيغة البدائية عن العالم الكامل الذي تشير إليه فكرة المدينة الفاضلة، فالنابتة ليس سبب نفسه فحسب بل هو بخاصة سبب حدوث المدينة الكاملة، وليس كما اعتقد الفارابي بأن النوابت هو من يحطم المدينة الفاضلة¹ فما قصد إليه ابن باجة هو أن يستشعر فلسفيا اللحظة الوعرة التي تسبق حدوث المدينة الكاملة التي يبدو أن ابن باجة يائسا من حصولها لكن يبقى أملا طالما النوابت موجودين بشكل تلقائي.

مشروع النابتة الخلاصي :

¹ Ornaldez, Roger, Avempace; (dictionnaire des philosophies) ; Directeur de la publication demis Hwsman, presse universitaire de France, Paris 1^{ère} édition, 1984, P 158.

إذا كان الفيلسوف نابتة غريبة عن الزمان، متفردة عن المكان فكيف لنا أن نتحمل فلسفيا هذه " الواقعة " و كيف له أن يُخْلِص هذا الوطن الغريب عنه ؟ وهل أن الطابع " الناقص " لمدن الزمان (سير الطوائف) هو ما يجعل ظهور الفيلسوف المُخْلِص ممكنا؟ لا يبدو أن الأمر ينطوي على أي ضرب من السلبية المنتجة للإيجاب في ترتيب معنى النابتة أي في ترتيب معنى " الأصلي " الذي يحمل في نفسه تلقائية وجوده، لا موضع للجدل، بل أن المسألة تتعلق بطبيعة الممكن الذي يفتح أمام الفلاسفة عند ظهورهم " البري " الطابع البري هذا هو الحال الأصلي للفيلسوف غير أن هذا

اللاوطن الأولي إنما هو إمكان الفلسفة، وذلك يعني إمكان حدوث المدينة الكاملة نفسها في حين أن " الفارابي ظل متمسكا إلى غاية انتهاء أفق التفكير بالمدينة الفاضلة كمشروع حاسم للفلاسفة، يبدو أن ابن باجة قد باشر طريقا معكوسا حيث انكب على الحال الأصلي للفيلسوف من حيث هو موجود دوما في " هذا الزمان " الذي توفره المدينة الناقصة، لمن تعلقت همته بصناعة التفلسف (خاصة)، إن تواضعا جذريا إنما جعل ابن باجة ينقطع عن التفكير في المدينة الفاضلة و يقبل على التفكير بتدبير المفرد وبسعادة المفرد " ¹ ، على أساس أن النابت أو المتوحد تراهن عليه المدينة في إعادة ولادتها من جديد وفق تصورات عصرية حددها النابت، و على هذا الأساس يكون مطلوبا من البرنامج التدبيري الخاص أن يشكل صورة مصغرة للمدينة الجديدة في شخصية المتوحد، و الذي من جانبه يتحمل مسؤولية قلب أوضاع المدينة إلى مدينة كاملة، و في إشارته إلى أن النوابت غرباء عن المدينة و إن كانوا يعيشون فيها، و هم غرباء وسط الأهل و الأقارب و الجيران، تأكيدا على مشروعهم الناشد إحداث تجديد في أوضاع المدينة. إنهم بتفكيرهم (الأيدولوجيا الجديدة للمدينة) يتقاطعون مع كل تفكير سائد، و أنظمة سياسية و اجتماعية و أخلاقية مهيمنة، فالنوابت سعداء المدينة و مستقبلا، المدينة تسعد بهم : " و كأن السعداء إن أمكن وجودهم في هذه المدن فإنما يكون لهم سعادة المفرد، و صواب التدبير إنما يكون تدبير المفرد، و سواء كان المفرد واحدا أو أكثر من واحد، ما لم يجتمع على

¹ المسكيني فتحي،فلسفة النوابت، ص 97

رأيهم أمة أو مدينة، و هؤلاء هم الذين يعنيههم الصوفية بقوله الغرباء، لأنهم و إن كانوا في أوطانهم و بين أترابهم و جيرانهم غرباء في آرائهم، قد سافروا بأفكارهم إلى مراتب آخر هي لهم كالأوطان " ²

نلاحظ أن الرؤية السياسية للخلاص عند ابن باجة، قد هدفت إلى تصحيح كيان الإنسان،

فهي تربية تنشد إعادة بناء شخصية الإنسان بعد أن أصابها الانحراف والاعوجاج، و هذا الأمر يجعلنا نستشعر فيه صدى للاتجاه الطبيعي في التدبير يحملنا هذا على القول أن معنى التدبير يلوح عنده بأنه إعادة الصحة للإنسان المتوحد (النابت) و إعادة السعادة له و هو (التدبير) جهد لعودة الصحة إلى الإنسان بعد فقدانها، و توفير أجواء

السعادة بعد زوالها فالتدبير يصبح مجهودا تصحيحيا لبناء الإنسان من الناحية الصحية، و توفير السعادة له بعدما حل الشقاء و السقم في حياته " ونحن في هذا القول نقصد التدبير الذي ينال به أفضل وجوداته، كما يقول الطبيب في الإنسان المنفرد في هذه المدن، كيف يتوحد حتى يكون صحيحا، إما بأن تحفظ صحته و إما بأن يسترجعها إذا زالت، كذلك هذا القول هو للنابت المفرد وهو كيف ينال السعادة إذا لم تكن موجودة ؟ أو كيف يزيل عن نفسه الأعراض التي تمنعه عن السعادة أو نيل ما يمكنه منها؟ إما بحسب غاية رؤيته أو بحسب ما استقر في نفسه و أما حفظها فذلك شبيه بحفظ الصحة، فلا يمكن في السير الثلاث و ما تركب منها، فهذا الذي يصفه طب النفوس و ذلك طب الأجسام و الحكومة طب المعاشرات " ¹.

إن هذه المقارنة التي أجراها الفكر الفلسفي التدييري عنده بين الصحة و المرض و بين السلوك المنحرف (الإجرامي) و السلوك السوي بين الطب و التربية و العدالة و التربية، إنها فعلا مقارنة مفيدة، نجد لها مقارنة للتحديدات التربوية الحديثة و هذه المقارنة حملت في الوقت نفسه تمييزا بين نمطين من التربية : التربية في المجتمع الفاضل و الهدف منها بناء الإنسان الفاضل، و هو منتج مجهود تدييري تربوي لمجتمع

² ابن باجة، تدبير المتوحد، ص 13.

¹ ابن باجة، تدبير المتوحد، مرجع سابق، ص 14

فاضل، و التربية في المدن الأربعة، و هي مجتمعات الخلل و التربية هنا لها هدف و غرض مختلف.

لا بد من التنبيه إلى أن ابن باجة عندما يفترض كمعطى أصلي أن الوجود الإنساني إنما هو في جوهره وجود مدني لذلك فالأمر الحاسم هو في إعادة ترتيب معنى المدني

هذا على النحو الذي يخرجنا من بوتقة التفكير في المدينة الكاملة و يدخلنا في الأفق الأصلي لوجود الفيلسوف، هذا الأفق الأصلي هو المدن الناقصة و في البدء كان اللافلسفة و هذا يعني أن الفيلسوف ليس صفة كسولة و نهائية بل هي حال فرادة أصلية مهددة منذ أول أمرها بأن يلحقها " أمر خارج عن الطبع، و ليس ذلك سوى الإقامة في المدن الناقصة، هنا ينكشف معنى التدبير المقصود هاهنا، إنه صناعة استعادة الفيلسوف للإمكان الذي يخصه من حيث هو نابذة، فالتوحد هو نتيجة جوهرية لواقعة النبت في مدن " هذا الزمان " الذي توفره المدن الناقصة، أما معنى إقامة النابذة في المدن الناقصة فهو ما يخرج عن الطبع الفلسفي الذي يتوفر عليه منذ " نبتة " من تلقاء نفسه. و ليس ذلك سوى "الأ فلسفة " و هنا يطالب ابن باجة الإنسان بأن يتولى تعليم نفسه بنفسه على أن الإنسان يستطيع أن ينتفع بمحاسن الحياة الاجتماعية دون أن يأخذ مساوئها في ذلك

1»

إن اللافلسفة هي مرض ألم بطبع الفيلسوف بسبب إقامته غير الطبيعية في مدينة الجمهور، لذلك فالفلسفة هي صناعة دفع ما يخرج عن الطبع و لأن ما يخرج عن الطبع ضرب من المرض، فالفلسفة إنما تتقلب إلى طب جذري للنوابت أما الدواء الكلي فهو التوحد؛ لذا نجده ينصح في كتابه تدبير المتوحد، بالابتعاد عن مخالطة الماديين الذي لا همّ لهم إلا متع الحياة و لذائذها و أن يعمل على توثيق الرابطة بأهل العلم و حدهم و لكن بما أن هؤلاء لا يوجدون في كل مكان حيث يريد المتوحد فواجبه أن يعيش بعيدا عن

¹دي بور، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة : عبد الهادي أبو ريبة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط 5، 1954 ص 307.

الناس جميعا ما كان ذلك في وسعه و ألا يختلط بهم إلا بقدر الضرورة لأنهم ليسوا على شاكلته² فالمتوحد الظاهر من أمره أنه يجب عليه أن لا يصحب

الجسماني ، بل إنما يجب عليه أن يصحب أهل العلوم، و لكن أهل العلوم يقفون في بعض السير و يكثرن في بعض، حتى يبلغ في بعضها أن يعدموا و لذلك يكون المتوحد واجبا عليه في بعض السير أن يعتزل عن الناس جملة ما أمكنه، فلا يلابسهم إلا في الأمور الضرورية (...). أو يهاجر إلى السير التي فيها العلوم إن كانت موجودة و بذلك يسلم من ثرثرتهم و أكاذيبهم و من اضطراره للرد و الحكم عليهم بما هم أهل له و بهذا يستطيع التوفر على ما يأخذ به نفسه من تكميل نفسه حتى يضيء لغيره الطريق¹ لكن ابن باجة لا يريد من الحاكم أن يبتعد عن الناس كلية بل ليكمل نفسه بالعلم و الحكمة و بعد هذا ينير للمجتمع الطريق، و هذا مثل ما ابتغاه أفلاطون في الفيلسوف الحكيم الذي تأمل و نال الحكمة و اتصل بالمثل ثم ينزل إلى المجتمع ليخرجهم من الكهف المظلم و ينير لهم طريق الخير لأن هدف المدينة الفاضلة أن تقود المجتمع إلى السعادة²

الفلسفة إذن صناعة الانفراد وسبيل للخلاص و فن الوحدة و هي ليست كذلك لأن واقعة الفيلسوف نفسها هي نابذة و كما أن انفراد المريض صحة، كذلك توحد الفيلسوف سعادة إنه اغتراب عن الجماعة من جهة اعتبارها آلة اللافلسفة و مدينة بلا وطن أو عاجزة عن الوطن.

نستنتج مما سبق أن ابن باجة أعاد للإنسان إنسانيته من جهة أنه جعله محور العملية الخلاصية التي لا يمكن لها أن تكن ما لم تتحرك إرادة الإنسان العاقلة ومنه خلاص ابن باجة غير مرهون بالآخر سواء كان هذا الآخر إله كما رأينا ذلك في الأساطير القديمة، أو كان إنسان يبعثه الله لتخليص البشرية من المفسد والمظالم بل هو خلاص ينبض

²التكريتي ناجي، الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام، ص 351، ص 352.

¹ LEWIS, MENAGE, Encyclopédie de l'Islam ; imprime aux Pays Bas, Paris, 1^{ère} édition, 1971, P 751.

² Arnaldez, Roger, Avempace, P 158

بالحركة والسمو نحو الأعلى مهما وقفت أمامه الصعاب فلا شيء يقف أمام إرادة الإنسان وعقله ، ومن ثمّ تتشكل مملكة الغرباء الخلاصية .

المستقبل السعيد للبشرية في الفكر الماركسي:

تتزعج الاتجاهات المادية عموماً ، الفكرة المسماة بالماركسية وإن لم تكن متنسبة بكل تفاصيلها لماركس ، وهي الاتجاه الوحيد من الفكر الحديث -حسب معرفتنا- الذي بشر بالمستقبل البشري السعيد .

بنظرة عامة تتكفل ميادين ثلاثة بالبحث والتمحيص ، وتحاول الربط بينها ربطاً عضويًا، وسوقها مساق نظرية موحدة شاملة :

الميدان الأول : إعطاء نظرية شاملة للكون المادي كله ، وتفسير تسلسل الحوادث فيه ، بشكل تحاول الماركسية عدم إبقاء ثغرة فيه ويتمثل ذلك بنظرية (الديالكتيك) القائلة بأن كل شيء يحتوي في داخله ومضمونه على صراع دائم بينه وبين نقيضه حتى يزول المتصارعان ويتولد من الصراع شيء جديد ، يكون بدوره محتويًا على الصراع ذاته ، وهكذا تتعدد الأشياء ، وهكذا تتطور .

الميدان الثاني : إعطاء نظرية شاملة للتاريخ البشري ومفسرة له ، وهي المسماة بـ (المادية التاريخية) المبتنية بدورها على الديالكتيك العام حيث نجدها تقول- طبقاً لذلك المفهوم- : بانقسام المجتمع إلى طبقتين متصارعتين يتمخضان عن وضع اجتماعي جديد ويتبدل بتبدل الوضع الاجتماعي كل أحواله الفكرية والاقتصادية والأخلاقية وغيرها، وتحتوي هذه النظرية على إيجاد تسلسل تقليدي لعصور التاريخ معروف لكل مثقف ، يبدأ بعصر الاشتراكية الأولى البدائية ، وينتهي بعصر الاشتراكية العلمية أو الطور الشيوعي الأعلى ، الذي تنتفي فيه الدولة ويحكم المجتمع نفسه على أساس وضع اقتصادي معين .

الميدان الثالث : إعطاء فهم شامل للاقتصاد قائم على أساس تقييم معين للنظريات الاقتصادية المعروفة ، خاصة الاقتصاد الرأسمالي العدو التقليدي للعنيد للماركسية ، مع

بناء نظرية جديدة في الاقتصاد تكون هي البديل - في نظرها- عن جميع النظريات الأخرى ، وأهم نقطة ركزت عليها الماركسية في هذا الصدد ، هو نظرية فائض القيمة التي تنتج النظام الرأسمالي على أساس لا إنساني ظالم، الشيء الذي يولد الاستلاب والاعتراب * ، قائم أيضا على أساس سرقة مالك رأس المال نسبة معينة من أرباح عماله ، تلك السرقة التي تركز الصراع بين هاتين الطبقتين ، وتتمخض في نهاية المطاف- بقانون الديالكتيك- عن المجتمع الاشتراكي فالشيوعي .

ونحن إذ نكون بصدد دراسة الماركسية من زاوية تبشيرها بالمستقبل السعيد للبشرية ، نكون مواجهين للميدان الثاني بشكل أساسي لأن هذا المستقبل هو جزء عضوي رئيسي من المادية التاريخية نفسها .

من نهاية الرأسمالية إلى بداية الاشتراكية :

طبقا لمفاهيم الديالكتيك الكوني والمادية التاريخية ، لا بد للرأسمالية من نهاية ليحل محلها النظام الأفضل في نظر الماركسية الاشتراكية وهو المرحلة الأخيرة من سلسلتها التاريخية .

فمن زاوية المادية التاريخية ، فإن الطبقة البرجوازية أو الرأسمالية "أطروحة" والطبقة البروليتاريا "نقيضا" أو نفيًا أول للمجتمع الرأسمالي ، والمجتمع الاشتراكي "تركيبا" أو نفي النفي ، والتركيب دائما يكون أكمل من سوابقه .

أما من زاوية المادية التاريخية ، فإن الطبقة البرجوازية الرأسمالية ، بعد أن كانت طبقة تقدمية بالنسبة للإقطاع ومرتبطة مصلحيا بالشكل الجديد من وسائل الإنتاج ، وما تستلزمه من علاقات إنتاج ، تصبح هذه الطبقة تدريجا قديمة لأن وسائل الإنتاج تستمر في النمو ، فيحدث الجديد منها تلو الجديد ، فتبقى هذه الطبقة مرتبطة بالنوع الذي كانت مرتبطة به أولا ولا يمكنها تغيير علاقات إنتاجها وتحديث في نفس الوقت ، طبقة جديدة

* اغتراب ماركس والماركسيين هو اغتراب مادي حيث يشعر العامل أنه غريب عن البضاعة التي أنتجها من حيث أنه لا يمكن شراءها لأن القدرة الشرائية لديه لا تسمح وهذا راجع إلى سرقة رب العمل فائض القيمة للعامل وهذا ما يدعى بالاستلاب .

مرتبطة مصلحيا بالوسائل الجديدة للإنتاج ، تفضل العلاقات الإنتاجية التي تقررها وتفرضها هذه الوسائل وهذه الطبقة الجديدة هي البروليتاريا .

وحيث أن قانون المادية التاريخية يقتضي انتصار الوسائل الجديدة والجماعة المرتبطة بها بالضرورة ، إذن ، فلا بد للبروليتاريا أن تنتصر على علاقات الإنتاج الرأسمالية ، وتبدلها بالعلاقات التي تفصلها -أي البروليتاريا- وهي العلاقات التي تقررها الآلة الجديدة ، وهي علاقات الإنتاج الاشتراكية ، إذن فبالضرورة سوف يتحقق المجتمع الاشتراكي مولودا من أحشاء المجتمع الرأسمالي ، كما ولد المجتمع الرأسمالي بالضرورة من أحشاء المجتمع الإقطاعي .

ومن هنا تنبثق في نظر الماركسية أهمية عمل البروليتاريا ، في تفويض الرأسمالية ، وتوجيه الحزب الشيوعي نحو وعيها وثورتها ولعل أوضح من عرض ذلك هو "بوليتزر" حيث نسمعه يقول : « نستطيع الآن إدراك مهمة نضال البروليتاريا الطبقي وسنرى بأن هذه المهمة هي حل التناقض الذي ظهر بين علاقات الإنتاج الرأسمالية وبين قوى الإنتاج ؛ كانت البرجوازية تنمي البروليتاريا في نفس الوقت الذي كانت تنمي فيه قوى جديدة للإنتاج ، حسبما تقتضيه طبيعة علاقات الإنتاج الرأسمالية (...) وكما تجمعت وسائل الإنتاج بين يدي البرجوازية ، كلما ازداد عدد البروليتاريا وقوتها (...) غير أنه لا يمكن للعمال البروليتاريين أن يؤمنوا معيشتهم ، كما نعلم ، إلا بالنضال المستمر ضد الطبقة التي تستغلهم ، وهكذا ولدت البرجوازية بتوليدها نقيضها " البروليتاريا المستغلة" جيشا من الأعداء يقومون بنضال طبقي ضد المستغلين»¹ .

يقول ماركس : « البروليتاريا ، في نضالها ضد البرجوازية ، تتكون حتما في طبقة ، وتنصب نفسها بالثورة طبقة سائدة ، وبصفتها طبقة سائدة ، تحطم بالعنف نظام الإنتاج

¹ بولتزر جورج ، أصول الفلسفة الماركسية ، ترجمة: شعبان بركات ، المكتبة العصرية ، بيروت ، [د.ط. ، د.ت. ، ج1] ، ص 119 .

القديم»¹ وهكذا يحل نشاط الناس الواعي محل سير التطور العفوي ، ويحل الانقلاب العنيف محل التطور السلمي ، وتحل الثورة محل التطور التدريجي. ومنه نخلص إلى القول بأن البروليتاريا هي السبيل إلى الخلاص من ظلم واستبداد الرأسمالية ولكل سبيل إلى الخلاص منهج خاص ومنهج البروليتاريا هو الثورة التي من شأنها قلب الأوضاع وتغيير النظام.

الاشتراكية خلاص الضعفاء :

تنقسم الاشتراكية كما تنقسم الرأسمالية إلى ثلاث مراحل : تتضمن أولاها : دكتاتورية البروليتاريا ، وتتضمن الثانية : عهد الاشتراكية الأول المُمهّد للطور الأعلى ، أما الثالثة : فهي المجتمع الشيوعي الكامل أو الطور الأعلى للإشتراكية ، الذي به تتحقق آمال البشرية (الماركسية) في إيجاد المجتمع الأمثل الذي تتحقق به السعادة التامة الكاملة للبشر أجمعين .

يشير إلى ذلك كوفالسون قائلا : «إن العملية الطبيعية التاريخية لقيام وتطور التشكيلة الشيوعية تشكل ثلاث درجات معروفة تتعاقب بصورة محتمة طبيعية ، هي المرحلة الانتقالية التي ترسي الثورة الاشتراكية ، أي الطور الأدنى من التشكيلة الشيوعية ، ومرحلة الشيوعية»²

وسوف تكون القاعدة الاقتصادية الرئيسة فيما قبل المجتمع الأخير ، أو بالأخص في المرحلة الثانية ، هو المبدأ التالي : «على كل فرد أن يؤدي حسب طاقته وأن ينال حسب عمله» على حين تكون القاعدة الرئيسة في المجتمع الأخير هو المبدأ التالي : « على كل فرد أن يؤدي حسب طاقته ، وأن ينال حسب حاجاته» كما سنرى . إذن مراحل الاشتراكية تأتي على النحو التالي :

¹ ستالين ، المادية التاريخية والمادية الديالكتيكية ، ترجمة: خالد بكداش ، منشورات دار البديع ، ط2 ، 1959 ، ص52

² المصدر نفسه ، ص 53

المرحلة الاشتراكية الأولى (دكتاتورية البروليتاريا) : وتعد أهم مرحلة ، قال ماركس « بين المجتمع الرأسمالي و المجتمع الشيوعي تقع مرحلة تحول المجتمع الرأسمالي تحولا ثوريا إلى المجتمع الشيوعي ، وتناسبها مرحلة انتقالية سياسية لا يمكن أن تكون الدولة فيها سوى الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا »¹.

وقال لينين : « إن الانتقال من المجتمع الرأسمالي بسبيل التطور نحو الشيوعية ، إلى المجتمع الشيوعي ، يستحيل بدون مرحلة انتقال سياسية ولا يمكن لدولة هذه المرحلة أن تكون غير الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا »².

وتتصف هذه المرحلة بوجود الطبقات ، كما كانت عليه في العهود السابقة عليها ، ولكن بينما كانت الطبقة القليلة هي المسيطرة والمُضطهدة للأكثرية ، يكون الآن الأمر بالعكس ، فإن الأكثرية البروليتارية هي التي تضطهد الأقلية الرأسمالية ، بل إنها تقمعهم قمعاً ، وتبيدهم عن الوجود من خلال صراع مرير .

قال لينين : « في مرحلة الانتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية يظل القمع أمراً ضرورياً ولكنه يغدو قمعاً للأقلية المستثمرة من جانب الأكثرية المستثمرة »³. وقال ماركس في نفس السياق « ولكن قبل أن يكون بالإمكان تحقيق هذا التغيير ، فلا بد من ديكتاتورية البروليتاريا، وشرطها الأول هو جيش للبروليتاريا ، إن الطبقة الكادحة يجب أن تحصل على الحق في تحررها في ساحة القتال » ومنه يمكن القول أن صراع المتناقضات هو أساس للتطور⁴.

ومن أجل أمرين مقترنين ، لا بد من وجود الدولة خلال هذه المرحلة :

أولاً : من أجل وجود طبقات ، وقد أفهمنا الماركسية أن الدولة طبقية للقمع ، ومادامت الطبقات موجودة ، فلا بد أن تكون الدولة موجودة .

¹ لينين ، المختارات ، المقدمة بتوقيع الماركسية اللينينية لدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ، دار التقدم ، موسكو ، [د.ط] ، 1960 ، مج 2 ، ج 2 ، ص 281

² المصدر نفسه ، ص 282

³ المصدر نفسه ، ص 286

⁴ كونستانتينوف ، بيرستنيف ، غليريرمان ، وآخرون ، المادية الجدلية التكتيكية ، ترجمة : فؤاد مرعى ، بدر الدين السباعي وآخرون ، دار الجماهير ، دمشق ، ط 3 ، 1983 ، ص 319

ثانيا : من أجل الحاجة الملحة إلى القمع ، خلال هذه المرحلة ، قال إنجلز : « إن البروليتاريا بحاجة إلى الدولة لا من أجل الحرية ، بل من أجل قمع خصومها». وقال لينين : « ويبقى الجهاز الخاص ، الآلة الخاصة للقمع "الدولة " أمرا ضروريا»¹.

لكن سيكون الحزب الشيوعي هو القائد للطبقة البروليتارية ودولتها . وستكون الدولة في هذه المرحلة انتقالية، تبعا لانتقالية المرحلة ذاتها، وستكون من نوع جديد يختلف عن شكل الدولة الرأسمالية السابقة عليها، لأنها ستكون في طريق الفناء.

قال لينين : «ولكنها تغدو دولة انتقالية ، تكف عن أن تكون الدولة بمعنى الكلمة الخاص»²

أولا : إنه لا يلزم البروليتاريا ، في رأي ماركس ، سوى دولة في سبيل الفناء ، يعني مشكّلة بحيث تأخذ في الاضمحلال على الفور ، ولا يمكن إلا أن تضمحل .

ثانيا : إن الشغيلة يحتاجون إلى دولة هي البروليتاريا المنظمة في طبقة سائدة . وسيكون للديمقراطية وجود خلال المرحلة البروليتارية ، ولكن لن يكون معناها هو المفهوم الرأسمالي البرجوازي بل معناها جلب أكثرية الشعب إلى جانب البروليتاريا ، وصهرهم في بوتقة ثورتهم ضد البرجوازية .

قال لينين : «على ذلك نرى أن الديمقراطية في المجتمع الرأسمالي هي ديمقراطية بتراء حقيرة زائفة ، هي ديمقراطية للأغنياء وحدهم ، للأقلية ، أما ديكتاتورية البروليتاريا ، مرحلة الانتقال إلى الشيوعية فهي تعطي لأول مرة الديمقراطية للشعب ، للأكثرية ، بمحاذاة القمع الضروري للأقلية للمستثمرين»³ وقال أيضا : «الديمقراطية من أجل الغالبية العظمى من الشعب ، والقمع بالقوة يعني حرمان المستثمرين

ومضطهدي الشعب من الديمقراطية، ذلك هو التبدل الذي تمر به الديمقراطية عند الانتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية»¹ .

¹ لينين ، المختارات ، مرجع سابق ، ص 285

² المصدر نفسه ، ص 286

³ المصدر نفسه ، ص 286

¹ لينين ، المختارات ، مرجع سابق ، ص 286

إذن وبالرغم من الإجراءات القمعية ضد البرجوازية الرأسمالية ، فإن آثارها سوف تبقى خلال هذه المرحلة كلها ، فإن الناس لا يمكن أن يتغيروا فجأة بالاتجاه الذي تريده الماركسية ، وتفتضيه قوانين المادية التاريخية .

قال كوفالسون : « إن عدد أولئك الذين بوسعهم أن يحطموا ويفسدوا ويبددوا الأموال العامة ، لمجرد أنها ليست لهم بل حكومية ، يقل أكثر فأكثر في البلدان الاشتراكية ، ولكن هذا لا يعني أن جميع أفراد المجتمع قد تعوّدوا هنا على العمل بوعي وإدراك من أجل الخير العام فحتى في عشية ثورة أكتوبر أشار لينين قائلاً : " إن المرء إذا لم ينسق مع الخيال لا يمكنه أن يفكر بأن الناس بعد إسقاط الرأسمالية ، يتعلمون على الفور العمل للمجتمع بدون أية أحكام حقوقية ، ناهيك عن أن إلغاء الرأسمالية لها فورا مميزات اقتصادية لمثل هذا التغير »².

وقال لينين : «إن تحويل الزارع الصغير ، تحويل كل ذهنيته وعاداته ، هو عمل أجيال كاملة وإن القاعدة المادية والتقنية والاستخدام الكثيف للحارثات والآلات في الزراعة ، والكهربة على نطاق واسع ، تستطيع وحدها أن تحل هذه القضية أن تصلح ذهنيته نوعا ما ، هذا ما يمكن أن يحول رأسا على عقب بسرعة هائلة هذا الزارع الصغير ، وحين أقول أنه لا بد لذلك من أجيال ، فهذا لا يعني قرونا وأنكم لا تفهمون جيدا أنه في سبيل الحصول على حارثات و آلات ، وفي سبيل كهربة بلد شاسع الأبعاد ، لا بد على الأقل من عشرات السنين ، ذلك هو الوضع الموضوعي»³ .

ثم يوضح لينين أن المرحلة الأولى من الشيوعية لا يمكنها أن تعطي العدالة والمساواة، تبقى فروق في الثورة ، وهي فروق محجفة ولكن استثمار الإنسان للإنسان يصبح مستحيلا ، لأنه يصبح من غير الممكن للمرء أن يستولي كملكية خاصة على وسائل الإنتاج ، على المعامل والمكنات والأرض وغير ذلك، ومنه يتحقق الخلاص المادي .

وعليه يمكن القول أن الحق البرجوازي في الطور الأول من المجتمع الشيوعي الذي يسمى عادة بالاشتراكية يُلغي لا بصورة تامة ، بل بصورة جزئية فقط بالمقدار الذي بلغه

² كليلي ، كوفالسون ، المادية التاريخية ، ترجمة: أحمد داود ، تحقيق: بدر الدين السباعي ، إصدار دار الجماهير ، دمشق ، [د.ب. ، د.د.ت] ، ص 261

³ المصدر نفسه ، ص 266

الانقلاب الاقتصادي ، أي فقط حيال وسائل الإنتاج ، ويقصد لينين هنا بالطور الأول من المجتمع الشيوعي ما نعتبره في تقسيمنا السابق بالمرحلة الثانية للاشتراكية ، على ما سيأتي .

وستبدأ الدولة البروليتارية بزمam المبادرة إلى إيجاد تشريعات وتطبيقات اشتراكية ومن هنا اندرجت هذه المرحلة في العهد الاشتراكي ، بالرغم من أن الماركسية اعتبرتها مجرد مرحلة انتقالية .

ونسلم من انجلز قائمة من التعاليم التي بجدر بهذه الدولة تطبيقها ، حيث يقول : «إنها – يعني ثورة البروليتاريا – ستقيم بادئ ذي بدئ دستوراً ديمقراطياً وعن هذا الطريق ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، السيطرة السياسية للبروليتاريا ولن تكون الديمقراطية ذات نفع للبروليتاريا ، إذا لم تستخدمها من فورها لاتخاذ تدابير تتضمن طعنة مباشرة للملكية الخاصة ، وتضمن وجود البروليتاريا ، وإن أهم هذه التدابير كما هي مبينة منذ الآن على أنها مترتبة بالضرورة على الوضع كالتالي :

1. إنقاص الملكية الخاصة بواسطة الضرائب التصاعدية والضرائب المرتفعة على الإرث وإلغاء حق الميراث في خط جانبي (الإخوة ، أبناء الإخوة) والقروض الإجبارية .

2. الاغتصاب التدريجي للملاكين العقاريين والصناعيين وأصحاب السكك الحديدية وأحواض السفن ، إما بواسطة منافسة صناعة الدولة وإما مباشرة ، لقاء التعويض بالسندات .

3. مصادرة جميع أملاك المغتربين والمتمردين على غالبية الشعب .

4. تنظيم العمل واستخدام العمال في الميادين والمصانع والورشات الوطنية ، مع إلغاء منافسة العمال بينهم ، وإجبار الصناعيين الموجودين بعد على دفع نفس الأجر المرتفع الذي تدفعه الدولة .

5. إلزام العمل بالنسبة إلى جميع أفراد المجتمع ، حتى القضاء التام على الملكية الفردية ، وتشكيل جيوش صناعية ، وبصورة خاصة من أجل الزراعة .
 6. تربية جميع الأولاد ، منذ اللحظة التي يمكن فيها إبعادهم عن الأحضان الأمومية في مؤسسات وطنية ، وعلى نفقة الأمة (تربية وإنتاج مُصنِع) .
 7. بناء قصور كبيرة على الأراضي الوطنية التي تكون مسكنا لجماعات من المواطنين المشتغلين في الصناعة والزراعة ، وتكون جامعة لمحسنات الحياة المدنية والريفية دون أن يكون لها مساوئها .
 8. تدمير جميع المساكن والأحياء غير الصحية والسيئة البناء .
 9. حق الميراث المتساوي للأبناء الشرعيين وغير الشرعيين
 10. مركزة جميع وسائل النقل بين أيدي الدولة «
- المهم أن الماركسية أعطت ليومها الموعد وطورها الأعلى عددا من الأوصاف في التعاريف وغيرها حيث يصفون الشيوعية بأنها المستقبل المشرق لإنسانية جمعاء ، ويصفه كوفالسون بأنه تنظيم اجتماعي عاقل يعتمد على قاعدة تكنولوجية عالية التطور ، ويوحد الناس في إطار وحدة تضامنية من أجل إخضاع قوى الطبيعة باطراد ، ويوحد سيادة الإنسان على علاقاته الاجتماعية بالذات ، ويوحد النظام الاجتماعي كله والثقافة المادية والروحية كلها نحو تطوير الإنسان ، نحو تطوير الفرد تطورا متناغما¹ .
- واليوم الموعد هو أيضا فض سر التاريخ ودرجة عالية من التقدم الاجتماعي وظاهرة تاريخية عالمية وهو وحده الذي يدل البشرية على مخرج من تلك النزاعات الفاجعة التي تتخبط فيها ، ولهذا لبد أن تصل الشعوب إليه ، عاجلا أم آجلا ؛ ولا مرأ أن تشكيلة (اليوم الموعد) ستكون عامة وأن جميع الشعوب ستبلغ في آخر المطاف * مستوى واحدا ، فيبدأ آنذاك تاريخ واحد لبشرية واحدة .

¹الصدر السيد محمد ، اليوم الموعد بين الفكر المادي والديني ، دار التعاريف للطبوعات ، بيروت ، [د.ط] ، 1992 ، ص 357
*الفكر الماركسي فكر مادي فلا وجود لعالم روحي سوى هذا العالم المادي ، والمستقبل السعيد المرجو في الفكر الماركسي يحصل في الدنيا فقط فلا خلاص خارج هذا العالم .

كذلك قال كوفالسون واصفا اليوم الموعود قائلا : « ففي اليوم الموعود ستحقق الثقافة فيه نهوضا لم يسبق له مثيل ، إن الثقافة الموعودة تترث وتطور كل ما هو تقدمي ، وأفضل ما خلقته الثقافة العالمية ستكون مرحلة جديدة عليا من تطور الإنسانية الثقافي». إن اليوم الموعود يفترض بل يصنع إنسانا جديدا يتناسق فيه الغنى الروحي والنقاء الأخلاقي والكمال الجسماني ، إن الوعي الموعود وحب العمل والانضباط والإخلاص لمصالح المجتمع ، تلك هي الصفات المتكاملة لهذا الإنسان ، وسيكون إنسان ذلك العهد متناسقا ومنتظورا من جميع النواحي حيث ستتطور قابليته ومواهبه ، وتزدهر كليا وتتجلى بوضوح أفضل خصاله الروحية والجسمانية .

إن الماركسية تتوقع وصول المجتمعات إلى طور الأعلى تدريجا واحدا بعد الآخر ، وهذا ما تتوقعه في مدى بعيد قد يبلغ مئات السنين، لذا نجد الماركسيين يصفون مجتمعهم السعيد ويومهم الموعود وخالصهم المنشود ، خلاص في هذا العالم لا خارجه خلاص واقعي ملموس** خلاص راهني¹، سبيله ثورة البروليتاريا أي إرادة الإنسان ورغبته في الخلاص من ظلم الرأسماليين واستغلال الضعفاء .

إذن نستخلص مما سبق أن الاعتقاد بالمُخلص أو المنجي ، هو اعتقاد عام ومشترك بين مختلف الشعوب والأمم ، أخبر بظهوره بشكل عام في الأديان السماوية والوضعية والمذاهب الفلسفية التي تحكم العالم ، مع وجود اختلاف في اسمه ، لكن ذكر هذا الأمر في الإسلام وبالأخص في مذهب الشيعة بشكل أعمق وأوسع بحيث يعتبر الاعتقاد بالمهدي وظهوره عند الشيعة بمستوى الاعتقاد بوقوع القيامة ، وتكذيبه وتصديقه في صف تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وتصديقه ، وهذا ما سنذكره بالتفصيل في الفصل الثاني .

** MARX : renoncer aux bonheurs illusoires ; c' est « l' exigence que formule (le) bonheur réel » dit – il , mais le seul bonheur réel , c'est le bonheur présent

¹Andrè Comt-Sponville , Trait du désespoir et de la béatitude , tome1, p 21

الفصل الثاني: فلسفة المهدوية في التاريخ الإسلامي

1. المبحث الأول : جينياالوجيا وكونولوجيا المهدوية

القسم الأول : أولى تجليات المهدي في السلوك الإنساني خلال العهد الأموي

القسم الثاني: تصورات المهدي في العهد العباسي حتى عصر التدوين

2. المبحث الثاني: فلسفة المهدي من منظور شيوعي

القسم الأول : السنة والمتصوفة والشيعة في ميزان الاتفاق حول بعض

مسائل المهدي

القسم الثاني: المهدي وحركة التاريخ عند الشيعة الإمامية

- أم المهدي في المخيال الشيعي

- ولادة المهدي

- غيبة الإمام وظهور السفراء الأربع

3. المبحث الثالث : حركة المهدوية من القوة إلى الفعل

(نماذج عن بعض المهديين وفلسفتهم في التاريخ)

القسم الأول : مهدي السبئية والكيسانية

القسم الثاني :مهدي الفاطميين والمغاربة والسودانيين

4. المبحث الرابع: قراءة للمهدوية المُخْلِصة المزعومة

القسم الأول : لا منطوق المهدوية المُزَيِّفة وراهنيتها

القسم الثاني : ضوابط الحكم على مدّعي المهدوية

المبحث الأول : جينيالوجيا وكرونولوجيا المهدوية

القسم الأول : أولى تجليات المهدي في السلوك الإنساني خلال العهد الأموي

القسم الثاني: تصورات المهدي في العهد العباسي حتى عصر التدوين

توطئة :

سبق وأن تحدثنا في الفصل السابق عن أولى إرهابات الخلاص لدى مختلف الشعوب البدائية والأساطير والديانات السماوية (اليهودية والمسيحية) والوضعية لنصل في نهاية المطاف أن فكرة الخلاص من الظلم والمآسي فكرة راودت الإنسان منذ أن وطئ سيدنا آدم قدماء هذه الأرض ، أو بالأحرى هي فكرة فطرية فينا، كما أن الفرق والمذاهب الإسلامية تُجمع أيضا مع -اختلاف طفيف بينها- على حتمية انتصار قوى الحق والعدالة والسلام في صراعها مع قوى الباطل والظلم والعدوان في نهاية المطاف وتؤمن بغد يشع فيه نور الإسلام على جميع ربوع المعمورة ، وتسود فيه القيم الإنسانية سيادة تامة ، ويتحقق ظهور المدينة الفاضلة والمجتمع الأمثل .

المسلمون يجمعون أيضا أن هذه الآمال الإنسانية الكبيرة ستتحقق على يد شخصية مقدسة أطلقت عليها الروايات الإسلامية اسم " المهدي " ، هذه الفكرة تنطلق أساسا من المفاهيم القرآنية التي تؤكد على حتمية انتصار رسالة السماء وحتمية انتصار الصالحين والمتقين ، وحتمية انهزام قوى الظلم والطغيان وحتمية بزوغ فجر غد مشرق سعيد على البشرية .

هذه النظرة تنطوي قبل كل شيء على نظرة تفاؤلية تجاه المسيرة العامة للنظام الطبيعي وتجاه مسيرة التاريخ ، وتبعث الأمل في المستقبل ، وتُزيل كل النظرات بالنسبة لما تنتظره البشرية في آخر الزمان ، وهذا ما أكده ابن القيم بعد ذكره لحديث الحارث : " وهذا إسناد جيد " ، ومنها ما أخرجه ابن ماجة ، والرويانى ، وابن خزيمة ، وأبو عوانة ، والحاكم ، وأبو نعيم ، واللفظ له ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : " خطبنا رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلّم - ، وذكر الدجال ، وقال : « فتنفي المدينة الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد ، ويُدعى ذلك اليومَ يومَ الخَلاص » ، قالت أم شريك : « فأين العربُ ، يا رسول الله يومئذ؟ » قال : « هم يومئذ قليل، وجُلهم ببيت

المقدس ، وإمامهم رجلٌ صالح ، فبينما إمامهم قد تقدم يُصَلِّي بهم الصبح* ، إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم الصُّبْح ، فرجع ذلك الإمام يَنْكُصُ القهقري ، ليتقدّم عيسى يصلي بالناس ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ، ثم يقول له : " تَقَدَّم ، فصلِّ ، فإنها لك أُقيمت " ، فيصَلِّي بهم إمامهم «¹ ، ومن هذا يتأكد لدينا أن يوم الخلاص يوم محتوم وظهور المهدي أمل بعض جمهور أهل السنة وفرق الشيعة على اختلافها – وهذا ما سأوضحه لاحقاً - ، إلا أن الحديث عن المهدي المُخْلِص محفوف بالصعاب ، كون أن فكرة المهدي عند المسلمين ملازمة للانشقاقات الدينية ، والثورات السياسية ، وقد وضعت الأطراف السياسية والثورية الكثير من الأحاديث عن المهدي ، إما كدعم لحركاتهم ، أو كرد على أحاديث الخصوم ، وتطورت الفكرة على مجال التاريخ السياسي والطائفي لدى المسلمين وقد قام على قواعد هذه الفكرة الكثير من الثورات والحروب في تاريخنا الإسلامي ، وقد وجدتُ أنني لا أستطيع أن أكتب في هذا الموضوع دون أن أستعرض تطور فكرة المهدي من خلال أحاديث مختلف المراكز الإسلامية عبر الأجيال .

تجليات المهدي في السلوك الإنساني :

أ/ خلال العهد الأموي :

اصطلاح المهدي المعروف لم يرد في القرآن الكريم ، ولكن اللفظ عربي واضح الأصل من (هدى يهدي) المستعمل بكثرة في القرآن دون أي صفة خلاصية (أي ليست متعلقة بفكرة المُخْلِص الذي سيأتي في آخر الزمان) ، وقد استخدم هذا اللفظ منذ فجر الإسلام ، كما في شعر حسان بن ثابت في رثائه للرسول عليه الصلاة والسلام قائلاً :
ما بال عينك لا تنام كأنما كُحلت مآقيها بكحل الأرمـد

جزعا على المهدي أصبح ثاوييا ياخير من وطئ الحصى لا تبعـد

بأبي وأمي من شهدت وفاته في يوم الإثنين النبي المهتدي²

* وجدت في بعض المراجع أن المسيح عيه السلام يصلي مع الإمام المهدي صلاة الفجر وليس الصبح ، أنظر كتاب العلامة السفاريني العلامات لكبرى لقيام الساعة ، ص 52 .

¹ الوابل يوسف عبد الله بن يوسف ، أشرط الساعة ، دار الجوزي للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، ط2 ، 2003 ، ص53

² أمين أحمد ، المهدي والمهدوية ، دار المعارف بمصر ، مصر ، [د.ط] ، 1951 ، ص 8 .

كما وصف به الشاعر جرير سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ووصف به سليمان بن صُرد الحسين عليه السلام بعد استشهاده حيث قال عنه بأنه (مهدي بن مهدي) ، ووصف الشاعر الفرزدق الخليفة الوليد في قصيدة مدحٍ قائلاً :

ومن عبدِ الشمسِ أنتِ سادسِ ستَةٍ خلائف كانوا منهم العمُّ والأب
هداةً ومهديين، عثمان منهم ومروان وابن الأبطحين المُطَيَّبُ

ولكن بعد حروب علي ومعاوية والفتنة التي تلت هذه الحروب ، صار هذا الاصطلاح يدل على أمير منتظر للمسلمين يعيد الإسلام إلى أصله ، وبالرغم من أن عبد الله بن الزبير لم يُعط لقب المهدي ، إلا أنه تولى الخلافة على هذا الأساس ، وشكلت قصة حياته الصورة المتوقعة للمهدي فيما بعد ¹.

وفي الكوفة أعلن المختار الثقفي أن محمد بن الحنفية هو المهدي* (بالمعنى المميز)، وكان بين منافسيه موسى بن طلحة بن الزبير ، من أعيان الكوفة الذين تركوا الكوفة هرباً من المختار ، وكان أهل الكوفة يأملون أن يكون هو المهدي إن طالب بالخلافة ولكنه رفض أن يكون طرفاً في الفتنة مقتدياً بعبد الله بن عمر في الفتنة الأولى (موقعة الجمل) .

وكان الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (96-99) أول من شجع الناس أن يعتبروه الخليفة المهدي الذي سيعيد الحق إلى نصابه بعد أن كثر الظلم في عهد سابقه، وكثيراً ما خوطب بهذا اللقب في أشعار جرير والفرزدق ، بل إن الفرزدق ذكر بأن دعامة الدين قد اعتدلت بعد أن كانت معوجة وأن المظالم رفعت من قبل المهدي (سليمان) ، وأن الكثيرين من القسيسين والأحبار قد أخبروا بخلافته ، وهذا بيت مما قاله عنه الفرزدق :

سليمان المبارك قد علمتم هو المهدي قد وضح السبيل ²

وبعد سليمان خوطب الخليفة عمر بن عبد العزيز بلقب المهدي في قصيدة لجرير ، وقد

¹ خالد صناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 66 .

* أنظر المبحث الثالث من الفصل الثاني .

² أمين أحمد ، المهدي والمهدوية ، ص 8 .

نظر إليه الكثير من علماء الإسلام عل أنه المهدي نظرا لتقواه ، وفيما بعد خوطب هشام بن عبد الملك بهذا اللقب في قصيدة لجرير قائلا :

فقلت له الخليفة غير شك هو المهدي والحكم الرشيدُ

وخاطب الفرزدق يزيد الثاني بهذا الوصف وكذا ابنه الوليد الثاني قائلا :

أرى الله قد أعطى ابن عاتكة الذي له الدين أمسى مستقيم السوالفِ
تقى الله والحكم الذي ليس مثله ورافة مهدي على الناس عاطفِ

ويمكننا إرجاع الأخبار عن المهدي بين علماء المسلمين إلى عهد الفتنة الثانية (صفين)، وقد أخذت هذه الأخبار اتجاهات عديدة في مختلف المراكز العلمية الإسلامية، وأثرت في عقيدة المهدي فيما بعد إلى حد واضح، وهذه الأخبار بدورها تأثرت بعقائد سارية أكدت في أحاديث مختلفة نسبت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، إضافة إلى عقيدة نزول المسيح في آخر الزمان .

ففي حديث عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما - روي في المدينة ربما في عهد الخليفة مروان بأنه عليه الصلاة والسلام قال (يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثيا ، لا يعده عدا)¹، وفي رواية أبي سعيد الخدري وجابر - رضي الله عنهما - (يكون خليفة من خلفائكم في آخر الزمان يحثو المال و لا يعده)²، وفي حديث آخر مبكر روي في المدينة عن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه)³ ، ولا بد أن هذا الحديث كان معروفا قبل ثورة عبد الرحمان بن الأشعث عام ثمانين للهجرة ، الذي سمى نفسه (القحطاني ناصر المؤمنين) حسب ما قال المسعودي (التنبيه) وابن الطاهر المقدسي .
وقد قبل علماء المدينة عمر بن عبد العزيز على أنه المهدي، وقد سهل هذا القبول

كونه ينتسب عن طريق أمه إلى عمر بن الخطاب ، الذي كان مع ابنه عبد الله يحظيان بقبول أهل المدينة ، وقد روي عن عبد الله أن أبيه (عمر) قد توقع أن يخرج من ذريته

¹ الوابل يوسف عبد الله بن يوسف ، أشراف الساعة ، ص 44 .

² المرجع نفسه ، ص 45 .

³ خالد صناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 67

من يملأ الأرض عدلاً ، وهذه الرواية تعكس توقعاً سابقاً بأن رجلاً من نسل عمر بن الخطاب سوف يعيد الحق إلى نصابه ن إلا أن هذه الرواية استعملت في خليفة أموي وقيل أن سعيد بن المسيب قد قال بأن عمر بن عبد العزيز هو المهدي وذلك قبل خلافته بمدة عندما كان في المدينة ، وقد اجتهد في إضعاف ادعاء الكوفيين من أن المهدي سيكون علويًا ، ولهذا روى بأن محمد بن الحنفية قال في المدينة (إنه إذا كان فإنه من ولد عبد شمس)¹ . ولا نعلم أنه سوى عمر عبد العزيز .

ومن جهة أخرى فإن طاوس بن كيسان (توفي 106) من المحدثين المكيين ومقيم في اليمن شرح رأيه بتحفظ حين قال : (كان عمر بن عبد العزيز مهديًا وليس به)² ، لأنه في أيام المهدي ستزيد الزكاة عن حاجة الناس ولن يوجد من يأخذها ، وروى أبو معبد نافذ (توفي 104) مولى عبد الله بن عباس عن مولاه قوله بأن المهدي سيكون شاباً من أهل البيت ، وقد نقل هذا الحديث عنه عمرو بن دينار الذي له احترامه الشديد عند أهل مكة .

وفي حمص برز الولاء الأموي بحديث نسب إلى كعب الأحبار يعاكس حديث القحطاني (ما المهدي إلا من قریش وما الخلافة إلا فيهم ، غير أن له أصلاً ونسباً في اليمن) ، وهذا الحديث يروى عن شريح بن عبيدة الحمصي (توفي بعد 108) وربما يعود في زمن ثورة بن الأشعث .

في البصرة ، دعم أبو قلابة -المتوفى عام 107- القول بأن عمر بن عبد العزيز كان المهدي الحقيقي ، وأبو قلابة من المحدثين البارزين وله صلوات بأهل الشام ، وقد

خالفه في قوله هذا أبو نضرة (توفي 109) وأبو العلا العامري (توفي 108) اللذان روى في البصرة حديث الخليفة الذي يحثو المال حثوا ، وقالوا بأنهما لا يعتقدان بأن المعنى بهذا الكلام عمر بن عبد العزيز ، ويتضح ذلك من ما رواه عن الجريري ، عن

¹ خالد صناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 68.
² المرجع نفسه ، ص 68.

أبي نصره قال : كُنَّا عند جابر بن عبد الله - رضي الله عنهم - قال الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثيا ، لا يعده عدا " قال : قلت لأبي نصره ، وأبي العلاء : " أتريان أنه عمر ابن عبد العزيز *؟ فقالا : لا " ¹ .

أما الحسن البصري (توفي 110) فلم يُدخل نفسه في موضوع المهدي ، ورُوي عنه أنه قال (لا مهدي إلا عيسى بن مريم) ، وقيل أنه قال (ما أرى مهديا فهو عمر بن عبد العزيز) ² . بينما قال منافسه في زعامة البصرة الدينية محمد بن سيرين (توفي 110) بأنه سيكون لهذه الأمة مهدي وأن عيسى بعد نزوله من السماء سيصلي خلفه ، وقال بأن مقام المهدي سيكون أرفع من مقام الشيخين ويساوي مقام نبي ، وهذا ما أكده في قوله : " أن المهدي خير من أبي بكر وعمر " ، وجاء عنه أيضا " لا يفضل عليه أبو بكر وعمر " ورد العلامة السفا ريني على الإدعاء القائل أن لا مهدي إلا عيسى قائلا : " قد كثرت الأقوال في المهدي حتى قيل لا مهدي إلا عيسى والصواب الذي عليه أهل الحق : أن المهدي غير عيسى ، وأنه يخرج قبل نزول عيسى عليه السلام " ، ويؤكد العلامة في هذا المقام " أن أحاديث المهدي كثرت حتى بلغت حد التواتر المعنوي وشاع ذلك بين علماء السنّة حتى عدّ من معتقداتهم " . وفي حديث حذيفة رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم : «يا حذيفة ، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول

الله ذلك اليوم حتى يملك رجل من أهل بيتي تجري الملاحم على يديه ويظهر الإسلام ولا يخلف الله وعده وهو سريع الحساب » ¹ .

وروي عن قتادة (توفي 117 أو 118) تلميذ الحسن البصري حديث رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم (يكون اختلاف عند موت خليفة ، فيخرج رجل من أهل المدينة

* صح عن مطر قال : " بلغنا أن المهدي يصنع شيئا لم يصنعه عمر بن عبد العزيز ، قلنا : ما هو ؟ قال : " يأتيه رجل فيسأله ، فيقول : " أدخل بيت المال فخذ " فيدخل فيأخذ ، فيخرج ، فيرى الناس شباعا ، فيندم ، فيرجع إليه فيقول : " خذ ما أعطيتني " ، ويقول : " إنا نُعطي ولا نأخذ " - أخرجه أبو عمرو والداني في السنن الواردة في الفتن ومطر من أتباع التابعين .

¹ الوابل يوسف عبد الله بن يوسف ، أشراط الساعة ، ص 44 .

² خالد صناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 69 .

¹ السفاريني محمد ابن أحمد بن سالم ، العلامات الكبرى لقيام الساعة ، تحقيق : أبو عبد الأعلى خالد بن محمد بن عثمان ، دار الآثار ، القاهرة ، ط 1 ، 2003 ، ص 49 ، ص 50

هاربا إلى مكة ، فيأتيه الناس من أهل مكة ، فيخرجونه وهو كاره ، فيبايعونه بين الركن والمقام ، ويُبعت من الشام فيُخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة ، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه ، ثم ينشأ رجل من قریش ، أخواله كلب ، فيبعث إليهم بعثا فيظهرون عليهم ، وذلك بعث كلب ، والخيبة لمن يشهد غنيمة كلب فيغنم فيقسم المال ، ويعمل في الناس بسنة نبينهم صلّى الله عليه وسلّم ، ويلقي الإسلام بجرانه إلى الأرض ، فيلبث سبع سنين ، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون)²، والواضح من هذا الحديث أن الجزء الأول منه قد فصلّ على ثورة عبد الله بن الزبير ، ويعود في إسناده إلى عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب المدعي أنه سمعه من أم سلمى أم المؤمنين ، وعبد الله بن الحارث كان قد اختاره أهل البصرة أميرا عليهم عام 64 للهجرة ، بعد موت الخليفة يزيد وهرب أميره عبيد الله بن زياد ، ولكنه رفض أن يدخل نفسه في الفتنة وأبقى نفسه بعيدا عنها ، ولهذا يستبعد أن يكون هو الذي روى هذا الحديث الذي يناصر عبد الله بن الزبير ، والنصف الأخير من الحديث الذي يتحدث عن أموي أمه من كلب يبعث حملة ضد ابن الزبير ، يعكس توقعات ذلك العهد التي لم تتحقق تاريخيا . أما الحديث عن الخسف

الذي سيحدث للحملة ، فإنه استعير من حديث سابق رواه عبد الله بن الزبير نفسه واثنان من أنصاره ، عبد الله بن صفوان والحارث بن أبي ربيعة المخزومي ، كدعاية ضد غزو جيش يزيد لمكة والمدينة^{1*} ، وبالرغم من أن قتادة لم يذكر المهدي في هذا الحديث ، إلا أنه اعتبر أنه المقصود بالحديث ، بينما صار غريمه الشامي هو السفيناني عدو المهدي في الأحاديث ، كما أن الكثير من الأحاديث اللاحقة التي تذكر المهدي والسفيناني هي توسيع لهذا الحديث – أنظر الفصل الرابع-.

² الشلبي مصطفى أبو نصر ، صحيح أسراط الساعة ، دار ابن حزم للطباعة والنشر ، بيروت ، ط3 ، 2002 ، ص 193 ، ص 194 .

* يقصد بهذا الحديث الذي أخرجه مسلم عن أم سلمة " يعود عائد بالبيت فيبعث له بعث ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم "

¹ خالد الصناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص69 ، ص 70 .

وفي أواخر العصر الأموي رفض مطر بن طهمان الوراق - توفي 125، خراساني مقيم بالبصرة وتلميذ قتادة - الرأي القائل بأن عمر بن عبد العزيز كان المهدي ، وقال بأن المهدي سيفعل ما لم يفعله عمر بن عبد العزيز، كأن يرفض قبول المال المعاد إلى دار المال من شخص وجد بعد أن طلبه أنه ليس في حاجة إليه ، كما أن مطر روى عن كعب الأحبار بأن المهدي سمي كذلك (لأنه يهدي لأمر خفي ، ويستخرج التوراة والإنجيل من أرض يقال لها إنطاكية)². وهذا القول كان معروفا في الكوفة في نفس الوقت حيث روى فيها عبد الله بن بشر الخثعمي بأن المهدي (يبعث بقتال الروم ، ويعطى فقه عشرة ، ويستخرج تابوت السكينة من غار بإنطاكية فيه التوراة التي أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام ، والإنجيل الذي أنزله الله عز وجلّ على عيسى عليه السلام ، يحكم بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم)³.

وذكر الإمام أبو عمرو الداني قال : إنما سمي المهدي لأنه يهدي إلى جبل من جبال الشام يستخرج منها أسفار التوراة يحاج بها اليهود فيسلم على يده جماعة منهم ؛ أما لقبه فالجابر لأنه يجبر قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولأنه يجبر أي يقهر الجبارين والظالمين .

وفي أواخر العهد الأموي أيضا روى أبو سعيد الخدري بأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : (يكون في أمتي المهدي ، إن قصر فسبع ، وإلا فتسع ، تنعم فيها أمتي نعمة لم يسمعوا بمثلها قط ، تؤتي الأرض أكلها ولا يدخر منها شيء والمال يومئذ كروس يقوم الرجل فيقول يا مهدي أعطني فيقول خذ)¹، وقد عين هذا الحديث الحاكم الذي سيسفح المال سفحا كما ذكرته أحاديث سابقة بأنه المهدي ، وروي هذا الحديث بصورة أخرى عن زيد العمي ولكنه قد يعود إلى أبو الصديق الناجي البصري (توفي 108) ، كما روي بطريقة أخرى عن سليمان بن عابد السلمي البصري ، الذي عاصر

²السفارييني محمد ابن أحمد بن سالم ، العلامات الكبرى لقيام الساعة ،ص29

³المرجع نفسه ، ص 37

¹ابن كثير أبي الفداء إسماعيل ، النهاية في الفتن والملامح ، تحقيق : صلاح محمد محمد عويضة ، دار العنان ، القاهرة ، [د. ط] ، 2003 ، ج1، 29

العمي ، كما أن من الأقوال التي ظهرت في أواخر العصر الأموي في البصرة وصف المهدي بأنه أفتى الأنف ،أجلى الجبهة * ، وهذا ما ورد من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه السلام : " المهدي مني أجلى الجبهة ، أفتى الأنف ، يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت ظلما وجورا ، ويملك سبع سنين"².

وأحاديث الكوفة تؤكد بأن المهدي سيكون من أهل البيت أو من نسل علي بن أبي طالب ، فقد روي عاصم بن بهدلة القارئ الشهير في الكوفة (توفي 127) حديثا بإسناد كوفي يعود إلى عبد الله بن مسعود بأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : (لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي ، يواطئ اسمه اسمي يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما)³، وهذا الإدعاء بأن اسم المهدي يواطئ اسم الرسول صلى الله عليه وسلم قد ظهر بدون شك في أيام ثورة المختار ، وذلك لدعم محمد بن الحنفية ، الذي يقال أنه عندما خطب بالمهدي أشار إلى أن اسمه وكنيته تواطئ اسم وكنية الرسول عليه الصلاة والسلام. والأغلب أن حديث عاصم يعود إلى من رواه عنه عاصم وهو زر بن حبيش المعروف بمحبابته للعلويين ، وعندما قامت ثورة زيد بن

علي في الكوفة عام 120 هجرية كان لقب المهدي قد أخذ من قبل ولهذا لم يحاول أنصاره أن يعطوه هذا اللقب بل سموه المنصور ، وهو شخصية مُخلصة في الفكر اليماني. وفي الكوفة روي أيضا حديث عن إبراهيم بن محمد بن الحنفية عن أبيه عن علي بأن الرسول قال : (المهدي منا أهل البيت ، يصلحه* الله في ليلة)¹ ، كما ثبت كون المهدي من أهل البيت في الحديث (لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتي ، يملؤها عدلا كما ملئت جورا)². وبالرغم من أن هذا الحديث قد وصل عن طريق فطر بن خليفة الكوفي (توفي حوالي 100) المعروف بتشييعه ونصره لعللي، الذي

* أجلى الجبهة : خفيف الشعر ما بين النزعتين من الصدغين والذي انحسر الشعر عن جبهته ، أم أفتى الأنف : القنا في الأنف طول ورقة أرنبته مع حذب في وسطه .

²الجميل السيد ، علامات القيامة وأشراتها ، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر ، بيروت ، [د.ط] ، 2000 ، ص 39 .

³السفا ريني محمد ابن أحمد بن سالم ، العلامات الكبرى لقيام الساعة ، ص 28 .

* قال ابن كثير : " أي يتوب عليه ، ويوقفه ، ويلهمه ، ويرشده ، بعد أن لم يكن كذلك "

¹ ابن كثير أبي الفداء إسماعيل ، النهاية في الفتن والملاحم ، ص 28 .

²السفا ريني محمد ابن أحمد بن سالم ، العلامات الكبرى لقيام الساعة ، ص 27 ، ص 28

قال بأنه سمعه من الإمام علي ، كما أن حديث الحاكم الجواد ظهر أيضا في الكوفة برواية عطية بن سعد بن جنادة القيسي (توفي 111 أو 127) من الشيعة عن أبو سعيد الخدري عن الرسول أنه قال (يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان وظهور الفتن ، رجل يقال له السفاح ، عطاؤه حثيا)³ .

ب/تصورات المهدي في العصر العباسي حتى تدوين الحديث:

قامت الثورة العباسية ونوصرت بتوقعات عن المهدي ، وأمل في إعادة الدين إلى أصله، والحكم بالعدل من قبل أهل البيت ، وقد سمّي الخليفة العباسي الأول نفسه في خطبة توليه الحكم في جامع الكوفة عام 132^{هـ} بالسفاح ، وهو اسم للمخلّص معروف في الكوفة ، وخاطبه الشاعر سديف باسم الهاشميين ، أما الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور فقد سماه الشاعر أبو دلّامة بالمهدي ، ولكن ادعاء المهديّة من قبل العباسيين اعتراه منافسة شديدة من قبل محمد بن عبد الله الحسني عام 145 الذي قدمه أنصاره على أنه المهدي المنتظر ، وظهر بالمدينة حسب توقعات الأحاديث ، وبعد إخماد ثورته أخذ الخليفة لقب المنصور وأعطى ابنه وولي أمره محمد بن عبد الله لقب المهدي ، وقدمه

للناس على أنه المخلّص الموعود ، وقد حاول هذا بعد توليته العرش أن يفعل ما يتوقعه الناس من المهدي فأطلق المساجين وبذل العطاء وخاصة في مكة والمدينة .

أما الأحاديث التي تعود إلى ذلك الوقت فتُظهر التطورات التالية : ففي خرسان ولمنصرة حركة الثورة العباسية روى يزيد بن أبي زياد من الشيعة حديثا في الكوفة بإسناد يرجع إلى عبد الله بن مسعود ، وجاء فيه (بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اغرورقت عيناه وتغير لونه ، فقلت : ما نزال نرى في وجهك شيئا تكرهه فقال : إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريدا وتطريدا ، حتى يأتي قوم من قبل المشرق ، معهم رايات سود ، فيسألون الخير فلا يعطونه ، فيقاتلون فينصرون ، فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه ، حتى يدفعوها إلى

³خالد صناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 71 .

رجل من أهل بيتي ، فيملؤها قسطا كما ملئوها جورا ، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبوا على الثلج)¹ ، وبالرغم أن هذا الحديث المسمى بحديث الرايات قد صُنّف من قبل نقاد الحديث على أنه موضوع من قبل أبي زياد إلا أنه كان له تأثير واضح على التوقعات عن سيرة المهدي ، وقد قبله ابن ماجة في سننه ، كما روي حديث مشابه بإسناد من أهل البصرة رواه خالد الحذاء (توفي 141) ، يقول فيه ثوبان إن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم قال : (يُقتل عند كنزكم [الكعبة] ثلاثة كلهم ابن خليفة ، ثم يصير [الأمر] إلى واحد منهم ، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق ، فيقتلونكم قتلا لم يُقتله قوم) ، ثم ذكر شيئا لا أحفظه فقال (فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوا على الثلج ، فإنه خليفة الله المهدي)².

وقد لاقت دعوى العباسيين بالمهدية بعض القبول من علماء الكوفة ، فقد روى عبد الملك بن أبي غنية الخداعي ، وهو كوفي من أصفهان ، في نهاية حكم المنصور أو ربما في بداية حكم المهدي ، حديثا ينسب إلى ابن عباس يقول فيه بعد حديثه عن اثني

عشر خليفة ، ثم الأمير (والله أن منا بعد ذلك السفاح والمنصور والمهدي يدفعها إلى عيسى بن مريم)¹. وخبر الخطيب وابن عساكر عن علي رضي الله عنه قال للعباس: «يا عم ألا أخبرك أن الله افتتح هذا الأمر بي ويختمه بولدك»².

وفي الوقت نفسه تقريبا روى ابن جابر الأعمش – من الكوفة- حديثا نسبه لأبي سعيد الخدري بأنه سمع رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم يقول سمعت الرسول يقول : القائم منّا والمنصور منّا ، والسفاح منّا ، والمهدي منّا ، أما القائم فتأتيه الخلافة دون أن يسفك قدر قدح من دم ، أما المنصور فلن تهزم له راية ، أما السفاح فسيسفح المال والدم بكثرة ، أما المهدي فسيملؤها عدلا كما ملئت ظلما ، وأضاف ابن جابر إلى هذا الحديث قوله بأنه يعتقد بأن المنصور هو الخليفة أبو جعفر ، وأن السفاح هو الخليفة المهدي ، ولكن ربما لم يكن هذا الحديث قد وضع لخدمة العباسيين وقد يكون في الأصل أمويا يعود إلى

¹ ابن كثير أبي الفداء إسماعيل ، النهاية في الفتن والملاحم ، ص 27.

² المصدر نفسه ، ص 28 .

¹ السفاريني محمد ابن أحمد بن سالم ، العلامات الكبرى لقيام الساعة ، ص 31.

² المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

مرجع ابن جابر وهو أبو الوداك الحمداني الكوفي ، والحديث الذي يجعل المهدي من نسل ابن عباس غريب نوعا ما ، قال ابن حجر في كتابه " القول المختصر " :
وأما ما روي « إن المهدي من ولد العباس عمي » ، فقال الدارقطني : حديث غريب تفرد به محمد بن الوليد مولى بني هاشم قال : ولا ينافيه خبر الرافعي عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعا : «ألا أبشرك يا عم أن من ذريتك الأصفياء ومن عترتك الخلفاء ومنك المهدي في آخر الزمان بنشر الله الهدى ويطفئ نيران الضلالة إن الله فتح بنا هذا الأمر وبذريتك يختم»³

إلا أن أغلب الأحاديث المقبولة تخالف ادعاء العباسيين وتجعل المهدي من نسل علي وفاطمة ، وقد رويت هذه الأحاديث خارج الكوفة ، ففي البصرة روى عمران القطان وهو من مؤيدي ثورة محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم ، الحديث التالي عن قتادة :

(المهدي مني ، أجلي الجبهة ، أقتى الأنف ، يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جوراً وظلما ، فيملك سبع سنين)¹.

وروي حديث مشابه عن أبي الصديق الناجي من قبل قدرى عوف الأعرابي (توفي 146 (المناصر للشيعة ، وغيره من رجال البصرة ، كما روى في الرقة في الوقت نفسه تقريبا زياد بن بيان الحديث القائل (المهدي من عترتي من ولد فاطمة)².

ويضيف مناصرو ثورة محمد بن عبد الله الحسنى جملة (اسم أبيه يوافق اسم أبي) للحديث الذي رواه عاصم عن زر عن عبد الله ونقله رجال من الكوفة ، كما روي عن شعيب بن خالد ، كوفي مقيم في الري ، الحديث المنسوب إلى الإمام علي (قال علي وهو ينظر إلى ابنه الحسن : سمى النبي صلى الله عليه وسلم الحسن سيدي ، وسيخرج من صلبه رجل اسمه اسم نبيكم ، يشبهه في الخلق وليس في الخلقة ، يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً)³.

³المصدر نفسه ، ص 30

¹المقدم محمد احمد إسماعيل ، المهدي ، الدار العالمية للنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، ط4 ، 2004 ، ص 37 .

² عمارة محمد عمارة ، قصة النهاية ، وعلامات الساعة الكبرى ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط1 ، 2002 ، ص 149 .

³ الجميلي السيد ، علامات القيامة و أشراطها ، ص 40 .

وفي حديث ينسب إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ورواه عبد الله بن لهيعة في مصر يتحدث عن خروج (رجل من ولد الحسين من قبل المشرق ، لو استقبلته الجبال لهدمها واتخذ فغيها طرقا) ، وهذا الحديث يعبر عن توقع ثورة أخرى بعد ثورة العباسيين في الشرق ، وهذه التوقعات تتحدث عن جيش بملابس بيضاء وراية سوداء يقوده رجل من تميم اسمه شعيب بن صالح ، يجيء من خراسان أو من الري ليمهد السبيل للمهدي ، وأقدم ما جاءنا من هذه النبوءة من أصل عراقي ولكن أغلبية الأحاديث من أصل شامي أو مصري ، ففي مصر وضع عبد الله بن لهيعة عددا من هذه الأحاديث ووضع لهم إسنادا ملفقا ، أما في بلاد الشام فقد رويت مثل هذه الأحاديث عن أرطاة بن المنذر الحمصي (توفي 166 أو 163) بإسناد قد يعود أحيانا إلى كعب الأحبار ، أو في

دمشق عن أبو بكر بن أبي مريم (توفي 156) كما أن أحاديث أخرى من هذا النوع كانت معروفة في الشام ومصر رواها جابر الجعفي عن أبي جعفر محمد الباقر ربما ، لأن جابر مات عام 132 أو قبل ذلك التاريخ ، ولهذا فلا تعتبر هذه الرواية مقبولة وبعض هذه الروايات تتحدث عن السفيناني ودخوله وخروجه الكوفة ثم هزيمته على يد شعيب ، وانضمام الرايات السود من المشرق مع الرايات الصفراء من المغرب في سرية الشام التي هي دمشق ، وينعكس موت محمد بن عبد الله في نبوءة تنسب إلى جابر وأرطاة بأن النفس الزكية من أهل البيت سيقتل في معركة على المدينة المنورة عند أحجار الزيت ، وسيظهر المهدي في مكة فيبايعه شعيب ، وبعد قتال سيهزم جيش الكلبى ويهزم السفيناني ، وحسب بعض التنبؤات الشامية سيسكن في القدس ، ويستمر حكمه أربعة وعشرين أو ثلاثين أو تسعة وثلاثين أو أربعين عاما¹.

فألفاظ الروايات السابقة إما سبع سنين ، بالجزم أو ثماني سنين أو تسع سنين بالشك ، ولا ندري هل هذا الشك موجود في أصل هذه الروايات بمعنى أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال هذه الألفاظ بنصها ، أو أن هذا الشك من الرواة ، وعلى كل حال

¹ خالد صناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص.74.

فالشك من الرواة محمول على اليقين فالأمر في ألفاظ هذه الروايات يحمل على أن المدة فيها قد ذكرت بالتقريب من سبع إلى تسع سنوات ، وليس هذا بأمر غريب ، فلقد ذكر القرآن الكريم المدة التي سيغلب فيها الروم الفرس على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن غلبوا منهم بالتقريب ، وذلك في قوله تعالى (ألم ، حُلَيْبَةُ الرُّومِ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ حُلَيْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بضع سنين ، لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ)² والبضع في نغمة العرب من ثلاث إلى تسع سنوات³ .

إلا أن العلامة السفا ريني أكد أن الروايات في مدة ملك المهدي تصل إلى حد الاختلاف بل التضارب أحيانا ، ويمكن الجمع على تقدير صحة الكل بأن ملكه متفاوت الظهور والقوة فيحمل الأكثر باعتبار جميع مدة الملك منذ البيعة والأقل على غاية الظهور، والأوسط على الأوسط . قال في الإشاعة " وهذا الذي تقتضيه بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بالمهدي وأن الله تعالى يعوضهم عن الظلم والجور قسطا وعدلا ، واللائق بكرم الله تعالى أن تكون مدة ذلك بقدر ما ينسون الظلم والجور ، والفتن والسبع والتسع أقل من ذلك مع أنه في مدته تفتح الدنيا كلها كما فتحها ذو القرنين وسليمان ويدخل جميع الآفاق كما في بعض الروايات ويبني المساجد والبلدان ويحلي بيت المقدس ، وهذا يقتضي مدة طويلة مع ما ورد أن الأعمار تطول في زمانه فطولها مستلزم لطول مدته ، والتسع ونحوها ليست من الطول في شيء ولاسيما مهادنته للروم تسع سنين ثم فتح القسطنطينية ورومية المدائن وغيرها وهذا يقتضي طول مدته " ¹

وسيلخفه خليفة من أهله أو القحطاني ، وفي هذه النبوءات نرى أن ظهور المهدي غير مرتبط بآخر الزمان، إلا أن بعض هذه النبوءات تحدثت عن مهدي سيفتح القسطنطينية ويُسَلِّم الحكم للمسيح بعد نزوله من السماء ، ففي "المسند" وسنن أبي داود" عن معاذ بن

² الآية 4 من سورة الروم

³ زكي عادل ، المهدي - دولة الإسلام القادمة - ، دار ابن حزم للطباعة والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2005 ، ص 102 ن ص 103 .

¹ السفا ريني محمد ابن أحمد بن سالم ، العلامات الكبرى لقيام الساعة ، ص 48

جبل رضي الله عنه قال ك قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم : « عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة* ، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال»²، وعمران بيت المقدس سيكون بانتقال الخلافة إليه ، وهي خلافة المهدي على الأرجح ، ففي " المسند " و" سنن أبي داود" و" المستدرک" من حديث عبد الله بن حوالة رضي الله عنه أن النبي صَلَّى الله عليه وسلّم قال : « يا ابن حوالة: إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت

الزلازل والبلابل والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه إلى رأسك»¹، وفي "المسند" و" سنن أبي داود وابن ماجه " من حديث عبد الله بن يسر أن النبي صَلَّى الله عليه وسلّم قال : « بين الملحمة وفتح المدينة ست سنين ، ويخرج الدجال في السابعة » وفي " سنن أبي داود وابن ماجه " عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صَلَّى الله عليه وسلّم قال : «الملحمة الكبرى وفتح القسطنطينية وخروج الدجال في سبعة أشهر » وقال الحافظ ابن كثير عن الحديث الأخير والذي قبله : «وهذا مشكل مع الذي قبله ، اللهم إلا أن يكون بين أول الملحمة وآخرها ست سنين ، ويكون بين آخرها وفتح المدينة وهي القسطنطينية مدة قريبة بحيث يكون ذلك مع خروج الدجال سبعة أشهر » والغرض هو إثبات ما في الروايات من أن قتال الروم في آخر الزمان يسمى بالملحمة أو بالملحمة الكبرى² . وقال في شرح سنن ابن ماجه : «قوله: "ويجتمعون للملحمة " هي الحرب وموضع القتال مأخوذة من اشتباك الناس واختلاطهم فيها كاشتباك لحمه الثوب بالجسد أو قيل هو من اللحم لكثرة لحوم القتلى فيها»³ . وهذا الغزو المذكور في الحديث ليس بالضرورة أن يكون في آخر الزمان ، بل يجوز أن ينصرف إلى ما حدث من غزو وفتوح في عهد عمر بن الخطاب وما بعده ، وذلك لأن " ثم " في قوله: « تغزون

*الملحمة هي الوقعة العظيمة في الفتنة، الشديدة القتال.

²زكي عادل ، المهدي - دولة الإسلام القادمة - ، ص 124 .

¹زكي عادل ، المهدي - دولة الإسلام القادمة - ، ص 125 .

²الرجع نفسه ، ص 126

³الرجع نفسه ، ص 126

جزيرة العرب فيفتحها الله ، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله ، ثم تغزون الدجال فيفتحها الله» إنما تفيد الترتيب مع التراخي ، فلا مانع أن تكون قرون بين غزو الروم وغزو الدجال .

وبالرغم من انتشار الأحاديث عن ظهور المهدي فإننا نجد المعارضة لهذه الفكرة التي جاءت في وقت مبكر في قول الحسن البصري لم تختف من أقوال علماء الأحاديث ، فقد عبر محمد بن خالد الجندي اليماني عن معارضته في حديث بإسناد يعود إلى

الحسن البصري عن أنس قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لا يزداد الأمر إلا شدة ، ولا الدنيا إلا إدياراً ، ولا الناس إلا شحاً ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس ، ولا مهدي إلا عيسى بن مريم عليه السلام) * ومما أعطى الحديث قوة أن الإمام الشافعي نقله عن الجندي ، وذكره ابن ماجة في السنن ، إلا أن الحديث أول فيما بعد من قبل منتظري المهدي بأن المقصود منه أن لا أحد تكلم في المهدي باستثناء المسيح أو أن المسيح سيحكم حسب اجتهادات المسيح لأن للمسيح العصمة لكونه نبياً ، كما أن كثيراً من نقاد الأحاديث كالنسائي وابن الجوزية رفضوا الحديث على أنه موضوع ، وقد يكون هذا الشك في حقيقة المهدي وراء السبب الذي لا نجد له ذكراً في الصحيحين، ومحمد رشيد رضا من بين الذين يرددون هذا القول : " لم يعتد الشيخان بشيء من رواياتها " وأيضاً أحمد أمين الذي قال : " ولم يرو البخاري ومسلم شيئاً عن أحاديث المهدي ، مما يدل على عدم صحتها عندهما " ، ومنهم سعد محمد حسن ، وعبد الله بن زيد بن محمود رئيس المحاكم القطرية الذي قال : " وهذه الأحاديث لم يأخذها البخاري ومسلم ، ولم يُدخلاها في كتبهما ، مع رواجها في زمنهما ، وما ذاك إلا لعدم ثباتها عندهما " ¹ .

* ورد هذا الحديث في كتاب النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير : " لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الدنيا إلا إدياراً ولا الناس إلا شحاً ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس وما المهدي إلا عيسى بن مريم " وأكد ابن كثير أنه حديث مشهور بمحمد بن خالد الجندي الصنعاني المؤذن شيخ الشافعي وقد روى عنه غير واحد أيضاً وليس هو بمجهول كما زعمه الحاكم بل قد روى عن ابن معين أنه وثقه ولكن من الرواة من حدث به عن أبان عن أبي عياش عن الحسن البصري مرسلًا وذكر شيخنا في التهذيب عن بعضهم أنه رأى الشافعي في المنام وهو يقول كذب على يونس بن عبد الأعلى الصدقي ويونس من الثقات لا يطعن فيه بمجرد منام ، وهذا الحديث فيما يظهر بادئ الرأي مخالف للأحاديث التي أوردها ابن كثير فيما سبق التي تثبت أن المهدي غير عيسى بن مريم ، وهنا نستنتج أن مسألة وجود المهدي فيها ريب وشك لاسيما وأن ابن كثير أنهى قوله... والله أعلم .

¹المقدم محمد احمد إسماعيل ، المهدي ، ص 136

ليس هذا بل هناك اعتراضات كثيرة حول قدوم المهدي المُخلص أذكر من بينها فرقة تدعى بالقرآنيين وهم يقولون : «لم يرد في القرآن أية إشارة إلى المهدي ، ولا حجة فيما سوى القرآن » ، والبعض يرفض وجود المهدي على أساس أن أحاديث المهدي الواردة ، أحاديث آحاد وأحاديث الآحاد لا تفيد العلم ، ولا يصح الاعتماد عليها في شأن العقائد والمغيبات² ، وهناك من العلماء من تردد في إنكار وجود المهدي كابن

خلدون الذي أورد في كتاب المقدمة : " وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل ، والأقل منه¹ ، فالظاهر من قول ابن خلدون ، أنه كان مترددا في المسألة ولم يكن جازما بإنكار المهدي ، فاكتفى بتضعيف بعض الأحاديث الخاصة بشأن المهدي . وهناك من أنكر الاعتقاد في خروج المهدي على أساس أن ذلك خرافة ، تسربت إلى أهل السنة من طريق المؤانسة والمجالسة ، والاختلاط بالشيعية ، دون أن يكون لها أصل في عقيدتهم ، والآخر ذهب إلى القول أنها فكرة غنوصية ، كما قد نجد لها جذور في الفلسفة البوذية والزرادشتية وغيرها من الديانات والفلسفات التي تتنبأ وتعتقد في خروج المهدي المخلص .

إلا أن إخراج أحاديث المهدي في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه والنسائي ومسند ابن حنبل وكثرتها تجعلنا نقول بوجود عقيدة شعبية في الإيمان بالمهدي . أما بعد فترة جمع الأحاديث فنجد أن قصة المهدي تتوسع في كتب الطبراني والحاكم النيسابوري والبيهقي ، ويتضخم دور المهدي في نهاية الزمان ، فالقول بأن المهدي سيكون حاكم المسلمين عند نزول المسيح صار من الأمور المقبولة حتى صار الإمام غير المسمى في الأحاديث السابقة التي تقول بأنه أراد أن ينتحى للمسيح في إمامة الصلاة عند نزوله ، وأكد أبو الحسن الأبري (توفي 363) في كتابه (مناقب الشافعي) بأنه من المتواتر أن المسيح سيصلي خلفه، حتى أن بعض الأعمال التي كانت تنسب في الأحاديث السابقة إلى المسيح صارت تُنسب إلى المهدي الذي سيساعد المسيح في قتل

² المرجع نفسه ، ص 97 .

¹ ابن خلدون عبد الرحمان ، المقدمة ، دار الجيل ، بيروت ، [دبط ، دبت] ، ص 574 .

الدجال ، كما أن المهدي صار يذكر في الملاحم التي ستحدث في آخر الزمان وخاصة ملاحم القسطنطينية والروم - كما أسلفنا الذكر - ، ووصف بأن سيحكم العالم برمته ، ويظهر هذا الاتجاه في الأحاديث التي جمعها أبو نعيم الأصفهاني (توفي 458) في ثلاثة مجموعات من أحاديث المهدي².

ويظهر اتجاه جديد في أعمال المهدي في كتاب التذكرة لأبي عبد الله القرطبي (توفي 671) الذي نقل أحدثاً بأن المهدي سيظهر في موضع يقال له ماسنة في جبل المغرب، ولكن فيما بعد سيبيع له في مكة ، وسيجهز جيشاً من البربر ويعبر المضيق إلى الأندلس التي كانت تعاني من حكم الكفار ، وسيخطب في مسجد أشبيلية ويباعه جميع المسلمين في الأندلس ، ويفتح سبعين مدينة من مدائن الروم ، ثم يصلون إلى كنيسة الذهب ، ولما أتباعه يختلفون على اقتسام عصا موسى التي ستوجد هناك ، فيغتنم الروم الفرصة ويهزمون المسلمين حتى الفيوم في مصر بعدها ينتصر المهدي نصره المبين ، وبعض هذه الأحاديث تتنبأ بظهور المهدي عام 599 ، وتعتبر هذه الأحاديث انعكاساً متأخراً لثورة المهدي ابن تومرت (توفي 524) ، كما أنها تعبر عن أمل المسلمين في ظهور مهدي يعيد فتح الأندلس ، ولم يشر ابن تومرت إلى هذه الأحاديث ولكن ابن خلدون يذكر مثل هذه الاعتقادات عند صوفية المغرب مثل ابن قاسي (توفي 536) وابن عربي (توفي 638) وابن سبعين (توفي 623) وتلميذه ابن أبي واطل ، وقال بأنهم قالوا بأن المهدي سيظهر في المغرب ، وقال بأن الكثير من الناس في زمانه يعتقدون بأن المهدي سيظهر في رباط ماسة وبعضهم ذهب إلى ذلك المكان عل أمل أن يروه و يبايعوه ، وفي القرن الثامن ادعى رجل بأنه المهدي وحاز على بعض التأييد إلا أنه قتل من قبل حاكم مسمودة ، والاعتقاد بأن المهدي سيظهر في المغرب بقي منتشر حتى العصر الحالي¹.

²خالد صناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 75 .
¹خالد لصناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 75 .

أما في المشرق الإسلامي ومصر فلم يتعرضوا لهذه الأحاديث وظهرت رسائل عن المهدي جمعت الكثير من أقوال الكتب السابقة التي كتبها علماء الحديث ، ككتاب عقد الدرر في أخبار المنتظر لكتابه يوسف بن يحيى المقدسي السلمي الدمشقي ، الذي أنهى كتابته عام 658 ، وكتاب العرف الوردي في أخبار المهدي للسيوطي الذي استعان

بكتاب أبو نعيم الأصفهاني (أربعون حديثاً عن المهدي ، إحداهما) القول المختصر في علامات المهدي المنتظر (لم تبق ، بينما بقي حديثه عن هذا الموضوع في رسالته التي كتبها ضد الشيعة (الصواعق المحرقة) ، ومعظم هذه الرسائل حاولت أن توفق بين الأحاديث المتعارضة في أخبار المهدي ، إلا أن بعض الخلاف بين هؤلاء العلماء لم يزل قائماً ، فبينما قال أبو نعيم الأصفهاني بأن المهدي سيكون من سلالة الحسين ، رأى بن قيم الجوزية ومن بعده ابن حجر الهيتمي أن الأخبار التي تقول بأن المهدي سيكون حسنيا هي أصح ، وقال بفضل الحسن عل الحسين لأن الأول ترك الخلافة لوحدة الصف ، ولكن هذا الرأي سقّه من قبل علي الهراوي القاري (توفي 1014) الذي كان من نسل الحسين عليه السلام ، اللذين قالوا بأن المهدي سيكون حسنيا ، وظهر إشكال في قصة صلاة المسيح خلف المهدي ، فقال التفتزاني (توفي 792) في تعليقه على عقيدة النسفي بأن المهدي هو الذي سيصلي خلف المسيح لأن المسيح نبي ويفضل المهدي في مركزه الديني ، إلا أن هذا الرأي رفض من قبل ابن حجر الهيتمي وغيره وقالوا بأن صلاة المسيح الأولى خلف المهدي تعبر عن خضوعه لشريعة الإسلام لا عن فضل المهدي عليه ، وقد يصلي المهدي فيما بعد ذلك خلف المسيح ،

واعترض السيوطي ومن بعده الهيتمي على الرأي القائل بأن المهدي **يفضل الشيخين** ، لإجماع القول بأن الشيخين هما أفضل الناس بعد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكن هذا الاعتراض رُفض من قبل علي القاري ومحمد بن عبد الرسول البرزنجي في كتابه (الإشاعة في أشراف الساعة) الذي انتهى منه عام 1076 ، وقال أن هذا التفضيل لا

يشمل ما سوف يحدث ، وقالوا – بتأثير من أقوال الصوفية- بأن المهدي سيكون معصوما وأعلى درجة من الشيخين¹.

أما عن أقوال الصوفية في المهدي فقد جمعها ابن عربي في الفصل 366 في الفتوحات المكية ، فذكر أن المهدي المنتظر سيكون من سلالة الحسن ، وخاتم الأولياء ، كما كان محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الرسل ، وسيطبق شريعة الإسلام بالسيف ، وسيكون معصوما في اجتهاده دون اللجوء إلى القياس¹، وسيكون مقلدة العلماء أهل الاجتهاد أعداؤه ، بينما يبايعه العارفون بالله ، وقد ترددت هذه الآراء بين الصوفيين فيما بعد ، وهناك رأي صوفي آخر قال به علي القاري – الذي هو رأي الشيخ عبد الله الهندي مخدم الملك – بأن المهدي والمسيح سيحكمان بمذهب أبو حنيفة ، ونجد أن هذا القول كان يُردد من قبل المشايخ الحنفية في المدينة في أيام البر زنجي الذي نجح في الرد عليه ، ورد علي الباري على قول (المهديّة) القائلين بأن شيخهم الذي مات في خرسان هو المهدي واعتبر هذا القول كُفراً .

وبالرغم من الدعم الذي كسبته فكرة المهدي من قبل العلماء والمشايخ الصوفية ، فإن عقيدة المهدي لم تصبح من العقائد الأساسية عند أهل السنة من المسلمين ، ولم تذكره كتابات العقائد إلا نادرا ، بل إن بعض مشاهير العلماء كالغزالي تجنب الخوض في هذا الموضوع ، وربما كان الدافع لذلك الخوف من أن يُثير هذا الموضوع خلافا بين المسلمين وليس الشك في صحة الأحاديث، أما الذين رفضوا أحاديث المهدي إطلاقا محمد رشيد رضا، وأحمد أمين، فَهُم النَّادِر .

عموما ليس بحثي هذا من أجل إثبات أو إنكار وجود المهدي، بل من أجل اكتشاف التصورات السنية وكذا الشيعية حول المهدي المُخلص ، ومدى اكتساح فكرة المهدي على اللاشعور السني والشيعي سواء كانوا من مؤيدي فكرة المهدي أو من المعارضين

¹خالد صناديقي، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 76 .

¹خالد صناديقي، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 75 .

لأن في كلتا الحالتين هناك هاجس خلاصي ، ومدى تأثير ذلك الهاجس على مختلف الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنفسية والدينية وغيرها من المجالات الأخرى ، وهنا أتى على ذكر مجموعة من المهديين أو الذين ادعوا المهدوية عبر التاريخ موضحة مدى تأثير فكرة المهدي على الجانب الدنيوي للإنسان بشكل عام .

المبحث الثاني: فلسفة المهدي من منظور شيعي

القسم الأول : السنة والمتصوفة والشيعية في ميزان الاتفاق حول بعض

مسائل المهدي

القسم الثاني: المهدي وحركة التاريخ عند الشيعة الإمامية

- أم المهدي في المخيال الشيعي

- ولادة المهدي

- غيبة الإمام وظهور السفراء الأربع

توطئة:

كان الحنين لإعادة الحق و الدين إلى نصابه عند الشيعة – على اختلافها وخاصة الأصوليين منهم – من المشاعر القوية ، وصار الإيمان بمجئ مهدي من آل الرسول صلى الله عليه وسلم من العقائد الأساسية عند الأصوليين منهم ، على خلاف الحال عند أهل السنة ، كما قبلت عقيدة الغيبة التي تقول بغيبة المهدي المؤقتة ثم عودته بالقوة والمجد ، ولما وُضع هذا الأمل بعدة رجال من أهل البيت ولكنهم لم يقوموا بما كان ينتظر منهم أثناء حياتهم ، حوّل هذا الأمل إلى الرجعة الثانية ونرى هذا في حال محمد بن الحنفية الذي أنكرت الكيسانية موته ، وظهر القول نفسه في أبو هاشم بن محمد بن الحنفية (ت 98 هـ) ، وعبد الله بن معاوية الجعفري (ت 130 هـ) ، ومحمد بن عبد الله النفس الزكية (ت 145 هـ) وجعفر الصادق (ت 148 هـ) وغيرهم من العلويين خلال القرون التالية ، وقد أعطى مهدي الشيعة لقب القائم، وقد يكون أول من حاز هذا اللقب محمد بن الحنفية في غيبته ، ومهما كان أصل هذه الكلمة فإن المقصود بها عند الشيعة الإمام الذي سيقوم ويحكم ، وقد عمّ استعمال هذه الكلمة في آخر العصر الأموي بديلاً عن لقب المهدي عند الإمامية¹.

ونضجت عقيدة غيبة المهدي بعد موت الإمام السابع موسى الكاظم عام 183هـ من بين الواقفة الذين اعتبروه الإمام الأخير وقالوا برجعته ليكون المهدي ، وقال معظم أتباعه بأنه لم يمت وإنما اختفى وسيعود ، بينما قال البعض بأنه مات ولكنه سيقوم من الموت، واعتمدوا على حديث نُسب للإمام جعفر الصادق بأن المهدي سمي القائم لأنه سيقوم من الموت²، ونشر كتاب عن الغيبة من قبل أحد مؤسسي الواقفية في الكوفة الحسن بن علي

¹ عبد الله الأشقر عمر سليمان ، القيامة الصغرى ، دار النفائس للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط 13 ، 2004 ، ص 218 ، ص 220 .
² محمد المهدي الحاج الشيخ ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة-، دار الحجّة البيضاء ، بيروت ، ط 2 ، 2003 ، ج 1، ص 90.

بن أبي الحمزة البطائني ، كما نشرت كتب أخرى عن الغيبة من قبل عبد الله بن جبلة الكوفي (ت 210) ، وعلي بن عمر الأعرج ، وعلي بن الحسن الطاطاري

(ت 263) ، والحسن بن محمد بن سماعة (ت 263) ، والأغلب أن إبراهيم بن صالح الأنماطي الكوفي من النصف الأول للقرن الثالث صاحب كتاب الغيبة كان واقفياً كما كتبت كتب عن الغيبة في نفس الفترة من قبل فقهاء الإمامية الذين يقولون باستمرار الإمامة بعد الإمام موسى كالعباس الناشري (ت 219) ، وفتحي علي بن الحسن بن فضال الكوفي¹.

وهكذا نجد أن مفهوم الغيبة كان واضحاً لفقهاء الإمامية قبيل غيبة الإمام الثاني عشر الذي اعتبره معظم الإمامية بأنه المهدي وذلك بعد وفاة الإمام الحادي عشر الحسن بن علي العسكري عام 260 ، وصار بالإمكان الاستعانة بتعاليم الغيبة - التي وضحت من قبل - لتأكيد مهديّة الإمام الثاني عشر ، فالحديث الواقفي الذي نسب للإمام محمد الباقر ورواه الحسن بن علي بن أبي حمزة صار الآن يخدم الإمام الثاني عشر : صحيح هذا الأمر سيكون له سنة من موسى وعيسى ويوسف ومحمد أما من سنة موسى فسيكون خائفاً يترقب ، أما من سنة عيسى فسيقال عنه كما قيل عن عيسى ، أما من يوسف فالسجن والغيبة ، أما من سنة محمد فسيظهر بالسيف ، ويتبع طريقه ، ويشرح سنته ، وهذا الحديث يشير بوضوح إلى سجن الإمام موسى الكاظم والنبأ - غير صحيح - القائل بأنه قُتل من قبل أعدائه ، وكذلك الحال في حديث واقفي نسب للإمام جعفر الصادق عن غيبتين للمهدي (لصاحب هذا الأمر غيبتان ، إحداهما طويلة حتى يقول بعض الناس إنه مات ، ويقول البعض إنه قتل ، ولكن القليل من أتباعه سيبقون على بيعته ، ولا يعلم أبنائه ، ولا أحد من أقربائه مكانه إلا نائبه)² وهاتان الغيبتان هما في الأصل يشيران إلى إعتقالين للإمام موسى الكاظم ، الذي سجن لمدة وجيزة في عهد الخليفة المهدي قبل سجنه الأخير على عهد هارون الرشيد ، السجن الذي لم يعد منه ،

¹ خالد صناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 80 .

² محمد المهدي الحاج الشيخ ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة- ، ج 1 ، ص 90.

هذا الحديث صار الآن يفسر على أنه يشير إلى غيبة الإمام الثاني عشر الصغرى والكبرى .

عقيدة الأئمة الإثني عشر والقائم والغيبة المبنية على أحاديث تنسب للأئمة فصلت بصورة مرجعية من قبل محمد ابن إبراهيم النعماني (منتصف القرن الرابع) في كتاب الغيبة ، ومن قبل ابن بابويه (ت 381) في كتاب إكمال الدين ، ومن قبل الشيخ الطوسي (ت 460) في كتاب الغيبة .

أما عن حياة المهدي وأعماله بعد ظهوره فهي تشابه القصص عند أهل السنة ، فهو سيكون قائما بالسيف وسيحكم العالم ، وسيصلي المسيح خلفه بعد نزوله من السماء ، وهذا الأمر لم يثر إشكالا كما هو الحال عند أهل السنة ، لأن الإمام عند الشيعة يفضل على جميع الأنبياء باستثناء محمد عليه الصلاة والسلام ، ومما يميز قصة المهدي عند الشيعة القول بأنه سيجبر جميع المعارضين على القبول بالتشيع ، وقد نقل عن الإمام جعفر الصادق قوله (عندما يقوم القائم سيرض الدين على ناصبي علي ، فإما أن يقبله ، أو تقطع رقبتة ، أو يجبر على دفع الجزية كأهل الذمة ، وسيطوق نفسه بطوق سفر ويخرجهم إلى السواد) وسيطبق القائم الشريعة كما فصلت من قبل الأئمة ، وسيمنع طلاق البدعة ، أي أن المهدي سيعيد الشريعة الحقة ، وهذا دائما عقيدة الإمامية ولكن للكرمانية عقيدة أكثر تطرفا في المهدي ، فيقولون بأن المهدي سوف يبطل الشريعة ويأتي برسالة جديدة كما يقول النوبختي في كتاب فرق الشيعة ، ويستشهدون بقول ينسب للإمام جعفر (عندما يقوم قائمنا فستعلم القرآن من جديد) ، وقول آخر له (عندما يقوم قائمنا فسيجيء بأمر غير الذي كان) "وقد ورد في عدة روايات أن الإمام القائم إذا قام أخرج المصحف الذي كتبه علي أمير المؤمنين للناس ، والظاهر أن المراد من المصحف

هو نفس هذا القرآن الموجود بنفسه وبعينه ، لا قرآن آخر إلا أنه يغاير القرآن الموجود في ترتيب السور"¹ .

السنة والشيعة و المتصوفة في ميزان الاتفاق حول بعض مسائل المهدي:

ولمواجهة نقد فقهاء السنة قام بعض الإماميين بجهد خاص لإثبات أن تعيين المهدي بالإمام الثاني عشر موجود في أحاديث أهل السنة ، وأن امتداد عمر المهدي – كما يلزم من غيبته الطويلة – ليس أمرا مستبعدا مقارنة بما قيل عن امتداد عمر الخضر والمسيح والدجال ، وما جاء عن أخبار المعمرين ، وقد حازت أقوالهم هذه دفعا جديدا في نصف القرن السابع ، عندما دعم عدة من علماء أهل السنة الفكرة الإمامية القائلة بأن الإمام الثاني عشر هو المهدي المنتظر ، ومن هؤلاء العلماء محمد بن يوسف الكنجي القرشي الشافعي الذي قُتل في عام 658هـ لتعامله مع المغول ، وكان قد وضع كتاب (البيان في أخبار صاحب الزمان) الذي قال فيه بأن المهدي هو الإمام الثاني عشر معتمدا على أحاديث أهل السنة¹ .

وفي عام 650 وضع الفقيه كمال الدين محمد بن طلحة العدوي النصيبيني الشافعي ، الذي كان قبل وزيرا للأرطقد الملك السعيد في ماردين ، كتاب (مطالب السؤل في مناقب الرسول) الذي أيد فيه مهديّة الإمام الثاني عشر² ، ورد على اعتراضات علماء أهل السنة في هذا الموضوع ، كما أن السبط ابن الجوزي (تـ 654) وضع قبل موته في دمشق كتاب (تذكرة خواص الأمة بذكر خصائص الأئمة) الذي يشرح فيه مناقب الإمام علي بن أبي طالب وآله وخاصة الأئمة الإثني عشر ، وأكد في النهاية أن الإمام الثاني عشر هو صاحب الزمان والمهدي والقائم المنتظر ، وقد دعم رأيه هذا بالحديث التالي الذي وصفه بأنه حديث مشهور قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم سيأتي في آخر الزمان رجل من عترتي ، اسمه كاسمي ، وكنيته ككنيتي ، وسيملاً الأرض عدلا كما ملئت

¹ محمد المهدي الحاج الشيخ ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة-ج3 ، ص 185 .
¹ الكنجي الحافظ الشافعي ، البيان في أخبار صاحب الزمان – تحقيق مهدي حمد الفتلاوي ، دار الحجّة البيضاء بيروت ، ط1 ، 2000 ، ص 12 .
² الفتلاوي مهدي حمد ، المهدي المنتظر - من ولد الإمام الحسن أم الإمام الحسين؟- دار الحجّة البيضاء ، بيروت ، [د.ط] ، 2000 ، ص59.

جورا³، وقد تجنب السبط بهذا أشهر اعتراضات أهل السنة على مهديّة الإمام الثاني عشر، محمد بن الحسن، وهو وجوب تلازم اسم أبيه مع اسم أبي الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، كما جاء في حديث عاصم في شكله الموسع، وقال الكنجي الذي نقل حديث الآبري بأن هذه الجملة قد أضيفت إلى الحديث من قبل الراوي الكوفي زائدة (تـ 160 أو 161). كما حدث إشكال في الحديث الذي نقله ابن حنبل وغيره، قال الرسول: لن تهلك أمة أنا أولها وعيسى بن مريم آخرها، والمهدي في الوسط، ويفهم من هذا على أن المسيح سيبقى من بعد المهدي، وسيكون العالم في ذلك الوقت بدون إمام، وقد فسر الكنجي هذا الحديث بأنه يعني بأن المسيح سيكون آخر الدعاة إلى الإسلام، ولكن المهدي لن يموت قبله¹.

وقد نقلت هذه الأقوال من قبل علماء الشيعة، بالإضافة إلى نقلهم أقوال من أتى بعدهم كالفقيه الملكي ابن الصباغ الأسفاقي المكي (تـ 855)، الذي ذكر أن «ولد أبو القاسم محمد الحجة بن الحسن الخالص بسر من رأى [سامراء]، ليلة النصف من شعبان، سنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة»²، وهو مغربي مقيم في مكة كما نقلوا حديثاً أقوال الشيخ الحنفي النقشبندي سليمان بن إبراهيم القندوزي البلخي (تـ 129)³، واستشهد علي بن عيسى الأربيلي (تـ 692) بكتابات الكنجي وكمال الدين بن طلحة بكثرة في كتابه (كشف الغمة في معرفة الأئمة) الذي نال الإطراء من علماء السنة لاعتماده الواسع على أحاديث أهل السنة⁴.

تشابه المواقف من المهدي بين الشيعة والصوفية :

وجاء تأييد لمهديّة الإمام الثاني عشر من مشايخ الصوفية، وقد ذكر أبو بكر البيهقي (تـ 458) بأن جماعة من أهل الكشف يقولون بمهديّة الإمام الثاني عشر وبالغيبية، فمنهم الصوفي صدر الدين إبراهيم الحموي الفارسي (توفي في أواخر القرن السابع) الذي

³ المرجع نفسه، ص 60.

¹ الكنجي الحافظ الشافعي، البيان في أخبار صاحب الزمان - ص 26.

² الفتاوى مهدي حمد، المهدي المنتظر - من ولد الإمام الحسن أم الإمام الحسين؟ -، ص 57.

³ المرجع نفسه، ص 58.

⁴ علي أكبر الحسني، (ولادة وحياة المهدي) "عج" في مصادر أهل السنة، من كتاب الإمام المهدي الوعد المحتوم، دار النبلاء، بيروت،

ط 1994، ص 62، ص 63.

دعم هذا الرأي في كتابه (فرائد سمطين) ، ومنهم أيضا الصوفي المصري الشعراني الذي لا يُظهر أي تعاطف مع الشيعة ، والذي أكد هذا الرأي في كتاب (اليواقيت والجواهر) ، الذي كتب عام 958 ، فقال بأن المهدي هو ابن الإمام الحسن العسكري ، وأنه ولد عام 255 ، وأنه يبقى حيا حتى يلقى المسيح ، وأنه قد يظهر بعد عام 1030 ، وقد بني هذا القول على شهادة الشيخ الصوفي حسن العراقي الذي قال بأنه قابل المهدي ، وعلى قول غير معتمد للشيخ محي الدين بن العربي الذي عين فيه المهدي بالإمام الثاني عشر ، وكان هذا القول للشيخ محي الدين قد اعتبر وقبل من الإماميين وعلماء أهل السنة¹ ، إلا أن الشيخ الصبان المصري (ت1206) قال في كتابه (إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفنائل أهل بيته الطاهرين) بمقاطعة كتب الشيخ لقوله هذا الذي يناقض البراهين الواضحة المقبولة من فقهاء أهل السنة إلا أن الشيخ الصبان انتقد بسبب هذا القول من قبل حسن العيدوي الحمزاوي في كتابه (مشارق الأنوار) الذي قال فيه بأن أهل الكشف هم خير من يفسر أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونقل العيدوي في هذا الكتاب أيضا قول الشعراني في هذا الموضوع إلا أنه غيّر من أقواله ليخفف من الدعم الشيعي الناتج عن هذا القول ، فأضاف ألف عام لتاريخ ميلاده ولم يذكر تاريخ عودته ، ولا دعوى الشيخ العراقي برؤيته ، فصار بذلك مولد المهدي عام 255 ، وجعله من نسل الإمام الحادي عشر بدلا من أن يكون الإمام الثاني عشر ، وقد نقل هذا الرأي المشوه للشعراني – كما ذكره العيدوي – الشيخ الشبلنجي المصري في كتابه (نور الأبصار في مناقب المختار) الذي كتب عام 1290² .

إن مسألة المهدي حاضرة بقوة في الذهنية العربية الإسلامية ، سواء بقبول فكرة المهدي أو رفضا ، والأهم من هذا أنهم أوجدوا مهديا في كل زمان ومكان بل دعموا أرائهم بأحاديث منسوبة لسيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى تكون لفكرة المهدي مصداقية أقوى وتأثير أكبر على نفسية الشعوب العربية – وهذا ما لاحظناه سابقا - ، لنكتشف بعدها مذهب إسلامي آخر له عقيدة مُميّزة حول المهدي .

¹ الفقلأوي مهدي حمد ، المهدي المنتظر - من ولد الإمام الحسن أم الإمام الحسين ؟- ، ص 60 .

² علي أكبر الحسني ، (ولادة وحياة المهدي) ، ص 66 .

فلسفة المهدي عند الشيعة الإمامية :

إذا تأملنا مجال الخلاف عند عامة المسلمين حول ظهور المهدي ، وتعيينه ، وزمانه ، وأعماله ، وحروبه ، وغير ذلك مما كتب عنه ، واختلاف هذه القصص عن بعضها البعض لتبين لنا أن فكرة المهدي عند الشيعة الإمامية ليست إلا أحد هذه الأفكار المختلفة ، وليست نقيضا لها أو شاذة عنها وفي الحقيقة أن بعض أهل السنة قالوا تقريبا بالأفكار نفسها التي قال بها علماء الإمامية - كما وضحت سابقا - مع اختلاف في بعض النقاط كمسألة الإمامة والعصمة والرجعة - كما سأبين لاحقا- ، إلا أن ما يميز عقيدة الشيعة الإمامية في المهدي أنها إحدى العقائد الأساسية التي يجب أن تؤخذ بدون شك أو تردد ، وبدون هذه العقيدة لا يستطيع المسلم أن يقول إنه يتبع المذهب الإمامي .

الشيعة الإمامية تؤمن بأن الأرض لا تخلو من حجة الله على خلقه ، ولهم في ذلك أدلة يعتمدونها في قولهم هذا ، حيث يقول محاسن البرقي بإسناده إلى زياد العطار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إنَّ الأرض لا تكون إلا و وفيها حجةٌ إنه لا يُصلح الناس إلا ذلك ، ولا يُصلح الأرض إلا ذلك¹ .

وفي الإكمال بإسناده إلى أبي جعفر الباقر (عليه السلام) ، قال: لو أن الإمام رُفِع من الأرض لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله² .

في هذا الباب أخبار كثيرة ، اقتصرنا على هذا المقدار وما للاختصار ، وقد دلّت هذه الأخبار على لزوم وجود الإمام في الكرة الأرضية ، وإلا انخسفت بأهلها ، أو ماجت وتزلزلت ، فبقاء العالم منوط ببقاء الإمام المفترض الطاعة ، ووجود حفظ لأهل الأرض ، وبسببه يرزق الله العباد ويعمرّ به البلاد وينزل المطر والخيرات ، وتظهر به البركات ، وبه يدفع البلاء والعذاب عن العصاة ، فهو رحمة للعاصيين والمذنبين وإمام للعالمين .

¹ محمد المهدي الحاج الشيخ ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة-، ج1، ص22 .

² المرجع نفسه ، ص 23 .

إذن لا تخلو الأرض من قائم بحجة ، إما ظاهر مشهور ، أو خائف مستور ، لئلا تبطل حجج الله وبيئاته ، لكن لماذا سمى الشيعة الإثني عشرية المهدي بالقائم والمنتظر؟

روي أنه سمع أبو جعفر محمد علي الجواد عليه السلام يقول : «إن الإمام بعدي ابني علي أمره أمري ، وقوله قولي ، وطاعته طاعتي والإمامة بعده في ابنه الحسن إلى أن قال : إن من بعد الحسن ابنه القائم بالحق المنتظر»¹

فقيل له : بابن رسول الله ولم سمى القائم ؟

قال : لأنه يقوم بعد موت ذكره وارتداد أكثر القائلين بإمامته .

فقيل : ولم سمى المنتظر ؟

قال : لأن له غيبة تكثر أيامها ويطول أمدها ، فينتظر خروجه المخلصون ، وينكره المرتابون ، ويستهزئ بذكره الجاحدون ، ويكذب فيه الوقاتون ، ويهلك فيه المستعجلون وينجو فيه المسلمون² .

نخلص من هذا القول أن الناس في زمان الغيبة يكون الناس على أجناس بحسب مراتبهم ومعتقداتهم :

فالمخلصون: هم الذين أخلصوا في اعتقادهم بالإمام الحجة وبظهوره ، فهؤلاء ينتظرون ظهوره .

المرتابون : هم الذين يحصل لهم الشك والريب بظهور الإمام ، لطول غيبته ، فؤلاء ينكرون ظهوره .

الجاحدون : هم الذين ينكرون وجود الإمام ، فهؤلاء يستهزئون بالإمام وبمن يدعي أنه هناك إمام .

الوقاتون : هم الذين يضربون وقتا معينا لظهور الإمام فيكذبون ، لأن الله تعالى حتم في علمه أن يخالف توقيت الموقتين .

¹ محمد المهدي الحاج الشيخ ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة-، ج 1 ، ص 90
² المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

المستعجلون: هم الذين يعتقدون بظهور الإمام في وقت مستعجل، وعند تبين الخلاف يكفرون به فيهلكون¹.

المسلمون : هم الذين أسلموا لله أمورهم ، وثبتوا على دينهم وجعلوا ظهوره أمرا منوطا بإشاعة الله تعالى ، فهؤلاء الذين يكتب الله لهم النجاة والسلامة في الدين والدنيا.

وفيه: قيل لأبي عبد الله (عليه السلام) : بأي شيء يعرف الإمام (عليه السلام)؟ فقال: بالسكينة والوقار ، قيل وبأي شيء؟ قال : وبمعرفة الحلال والحرام وبحاجة الناس إليه ولا يحتاج إلى أحد ، ويكون عنده سلاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل أليكون وصيا ابن وصي؟ فقال : لا يكون إلا وصيا وابن وصي².

وعليه فالشيعة الإثني عشرية تؤمن بأن الساعة لا تقوم حتى يقوم قائم للحق من أهل البيت ، وذلك حين يأذن الله عزّ وجل بذلك ، ومن تبعه نجا ، ومن تخلف عنه هلك .

لكن هناك ثمة إشكال حول أصل المهدي أهو من ولد الحسن أم الحسين عليهما السلام؟ لقد فصل الحافظ الكنجي في هذه المسألة قائلا: « حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يزيد ، حدثنا سها بن سليمان ، عن أبي هارون العبدي قال: أتيت أباسعيد الخدري فقلت له : ألا تحدثني بشيء مما سمعته من رسول الله في علي وفضله، فقال بلى أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرض مرضة نقه منها ، فدخلت عليه فاطمة تعوده ، وأنا جالس عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأت ما برسول الله من الضعف ، خنقتها العبرة حتى بدت دموعها على خدها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا فاطمة إنا أهل بيت أعطينا ست خصال ، لم يُعطها أحد من الأولين ولا يدركها أحد من الآخرين غيرنا أهل البيت ، نبينا خير الأنبياء

¹ محمد المهدي الحاج الشيخ ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة-، ج 1 ، ص 90 .
² المرجع نفسه ، ص 91 .

وهو أبوك ، ووصيُّنا خير الأوصياء وهو بعُلك ، وشهيدنا خير الشهداء وهو حمزة عمُّ أبيك ، ومنا سبطا هذه الأمة وهما ابناك ، ومنا مهدي الأمة الذي يصلي عيسى خلفه . ثم ضرب على منكب الحسين فقال : من هذا مهديُّ الأمة « . قلت هكذا أخرجه الدارقطني صاحب الجرح والتعديل ¹ .

إذن من هذا النص يتبين أن المهدي من صلب الحسين من ذرية فاطمة رضي الله عنها أما أبوه فهو الإمام الحسن العسكري بن الإمام علي الهادي بن الإمام محمد الجواد بن الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين الشهيد بن الإمام علي ابن أبي طالب عليهم الصلاة والسلام جميعا ² .

إن الله عز وجل ، ركب في صلب الحسن (أي العسكري) نطفة مباركة زكية طيبة طاهرة مطهرة ، يرضى بها كل مؤمن أخذ الله ميثاقه بالولاية ، ويكفر بها كل جاحد ، فهو إمام تقي نقي هادٍ مهدي ، أوله العدل وآخره يصدقُّ الله عزَّ وجل ويصدقُّه الله في قوله ، يكون معه صحيفة مختومة فيها عدد أصحابه بأسمائهم وأنسابهم وبلدانهم وصنائعهم وكلامهم وكناهم : يعني لغاتهم ³ .

ولد في النصف من شعبان سنة 255 من الهجرة النبوية في سامراء أيام الخليفة العباسي المعتمد ، ونظرا لكونه الإمام الثاني عشر ، والتوقعات التي كانت سائدة من قبل بأنه هو المهدي الذي سيملاً الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ، شددت السلطات العباسية مراقبتها للإمام الحسن العسكري حتى لا تفلت عنها من أخباره ، فسعى الخليفة العباسي إلى التصدي للفحص عن تركة الإمام العسكري وورثته ومراقبة الحوامل من نسائه، وأدرك الإمام الحسن أن فرصة ولده في البقاء حيا ، ناهيك عن إمكانه بالخروج

ضد الحكم في ذلك الزمان ، ستكون أو هن من خيوط العنكبوت إن لم تتداركه رحمة الله، ولهذا أخفى نبأ الحمل به وولادته عن جميع الناس باستثناء المقربين لديه الذين يثق بهم ،

¹ الكنجي الحافظ الشافعي ، البيان في أخبار صاحب الزمان ص 55 ، ص 56 .

² الفتلاوي مهدي حمد ، المهدي المنتظر - من ولد الإمام الحسن أم الإمام الحسين ؟- ، ص 64 .

³ سليمان كامل ، يوم الخلاص في ظل القائم المهدي ، دار الحجّة البيضاء ، بيروت ، ط 11 ن 2003 ، ص 45 ، ص 46 .

كما أخفاه عن العيون بعد ولادته ، وقد بلغت السرية في حياة هذا الإمام إلى درجة أنه حُرِّم على شيعته التلفظ باسمه إلا بعد أن يظهر ، وعندما توفي الإمام الحسن العسكري ظن الكثير من الناس – بما فيهم الخليفة وجواسيسه وبعض المؤرخين- أن الحسن العسكري مات دون أن يُخلف¹.

وقد أدت ظروف ولادته الغامضة ، ومحاولة الخليفة العباسي التجسس على أخباره وربما بهدف القضاء عليه – مما يذكرنا بولادة موسى عليه السلام – إلى ولادة الكثير من القصص الأسطورية عن هذه الولادة ، نذكر منها هذه القصة التي رواها محمد الصدر عن الصدوق في كتابه تاريخ الغيبة الصغرى عن بشر بن سليمان النخاس ، وهو من موالى أبي الحسن وأبي محمد العسكريين ، قال : أتاني ليلة كافر الخادم فقال لي : مولانا أبي الحسن وأبي بن محمد العسكري يدعوك ، فأتيته فقال لي : مولانا أبو الحسن علي (الإمام العاشر) بن محمد العسكري يدعوك ، فأتيته فقال لي : يا بشر ، إنك من ولد الأنصار ، وهذه الموالاتة لم تزل فيكم يرثها خلف عن سلف ، وأنتم ثقاتنا أهل البيت ، وإني مُشرفُك بفضيلة تسبق بها الشيعة في الموالاتة بسر أطلعك عليه ، وأنفذك في ابتياع أمة².

أم المهدي في المخيال الشيعي :

كتب الإمام أبو الحسن علي كتابا لطيفا بخط رومي ولغة رومية ، وطبع عليه بخاتمه ، وأعطاني مائتين وعشرين دينارا فقال خذها ، واحظر معبر الفرات ضحوة يوم كذا ، فإذا وصلت إلى جانبك زوارق السبايا فستُحَدِّقُ بهن طوائف المبتاعين من وكلاء قواد بني العباس وشرذمة من فتیان العرب ، فاشرف على النخاس عامة نهارك إلى أن

تبرز جارية صفتها كذا وكذا ، لابسة حريرتين صفيقتين تمتنع من العرض ولمس المعترض ، وستسمع صرخة رومية من وراء ستر رقيق فاعلم أنها تقول : واهنك ستراه ، فيقول بعض المبتاعين : علي بثلاثمائة دينار فقد زادني العفاف فيها رغبة ، فنقول له

¹الصدر محمد ، تاريخ الغيبة الصغرى ، دار التعرف للطبوعات ، بيروت ، [د.ط] ، 1992 ، ج 1 ، ص 240 .

²المرجع نفسه ، ص 244 .

الجارية بالعربية : لو برزت في زي سليمان بن داود ، وعلى شبه ملكه ، ما بدت فيك رغبة ، فأشفق على مالك ، فيقول النخاس : فما الحيلة ولا بد من بيعك ؟ فتقول الجارية : وما العجلة ؟ لا بد من اختيار مبتاع يسكن قلبي إليه وإلى وفائه وأمانته وعند ذلك قل له أن معك كتابا ملصقا لبعض الأشراف بلغة رومية ، وصف فيه كرمه ووفاءه ونبله وسخاءه ، فنأولها إياه لتأمل منه أخلاق صاحبه ، فإن مالت إليه ورضيته فأنا وكيله في ابتياعها ، قال بشر : فامتثلت جميع ما حدده لي مولاي أبو الحسن (ع) ، فلما نظرت في الكتاب بكت بكاء شديدا وقالت له : بعني لصاحب هذا الكتاب ، وحلفت له إن امتنع من بيعها قتلت نفسها ، فما زلت أشاحه في ثمنها حتى استقر الأمر على مقدار ما كان أعطانيه مولاي من الدنانير ، فاستوفاه وتسلمت الجارية ضاحكة مستبشرة ، وانصرفت بها إلى حجرتي ببغداد¹ .

وإلى هنا رأينا في هذه الجارية أربعة أوصاف يندر وجود واحد منها فضلا عن المجموع في جارية مسبية حديثة العهد بهذا المجتمع ، وكل منها جار على خلاف السلوك الاعتيادي للعبيد ، فهي أولا تنطق العربية بطلاقة ، وثانيا تمتنع من السفور وتتحاشى يد الأماس وثالثا ترفض أي مشتر يتقدم لشرائها ، وتقترح على بائعها أن تعين هي مشتريها لأجل أن يسكن قلبها إلى أمانته ، ورابعا : أنها رغبت رغبة شديدة بالإمام عليه السلام ، وبكيت وهددت بالانتحار إذا لم يبيعها منه .

كل ذلك يراقبه بشر النخاس ويعجب منه وتتولد في ذهنه في ذهنه علامات استفهام كبيرة ، وتتأكد هذه العلامات وضوحا حين رآها بمجرد أن استقر بها المقام في غرفته

في بغداد ... أخرجت كتاب الإمام (ع) من جيبها وصارت تلممه وتضعه على خدها وتطبقه على جفونها وتمسحه على بدنها ، فيقول لها متعجبا منها : أتلثمين كتابا لا تعرفين صاحبه ؟ وإذ تجيبه عن سؤاله نراها تعطيه بيانا إضافيا ، عن تاريخها وأحوالها ، يفسر كل تصرفاتها الحالية قائلة : أنها مليكة بنت يوشعاء بن قيصر ملك الروم وأمها من ولد أحد الحواريين المنتسب إلى وصي المسيح شمعون .

¹ الصدر محمد ، تاريخ الغيبة الصغرى ، ص 245 .

ويحدث في يوم من الأيام أن يحاول جدها القيصر تزويجها من ابن أخيه ، فيعقد لذلك أعظم مجالسه أبهة وجلالة وأكثرها من حيث عدد الحاضرين وأساخاها من حيث الذهب والجواهر الموزعة على أطراف المكان وعلى عرش الموضوع هناك المهياً للعريس الجديد فبينما يصعد ابن أخيه على هذا العرش تتساقط الصلبان وتتهار الأعمدة ويخر الصاعد على العرش مغشياً عليه ، ويتشائم القيصر والأساقفة ، ويبادره كبيرهم قائلاً : أيها الملك أيها الملك أعفنا من الملاقات هذه النحوس الدالة على زوال هذا الدين المسيحي والمذهب الملكاني¹ .

وعلى أي حال فهي ترى في تلك الليلة فيما يرى النائم أنه انعقد في قصر جدها القيصر مجلس متكون من المسيح وشمعون وعدة من الحواريين ، ويدخل محمد صلى الله عليه وسلم وجماعة معه وعدد من بنيه فيخف المسيح لاستقباله معتقاً له فيقول له نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم : يا روح الله إني جئتك خاطباً من وصيك شمعون فتاته مليكة لأبني هذا ، تقول : وأوماً بيده إلى أبي محمد صاحب هذا الكتاب ، فنظر المسيح إلى شمعون فقال : قد أتاك الشرف ، تصل رحمك برحم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال : قد فعلت . فصعدوا ذلك المنبر وخطب محمد صلى الله عليه وسلم وزوجني من ابنه وشهد المسيح عليه السلام وشهد بنو محمد (ص) والحواريون² .

وعلى إثر هذا الحلم يعلق في نفسها حب الإمام العسكري أبي محمد عليه السلام ،

بالرغم من أنها تخاف أن تقص الرؤيا على أبيها وجدها مخافة القتل ، ثم أنها تصاب على أثر حرمانها من حبيبها بمرض شديد ، ويحضر لها جدها كل الأطباء فلا يفهمون من دائها شيئاً ، ويطول بها الداء ... فيقترح عليها جدها أن تقترح عليه شيئاً ترغبه لكي ينفذ لها رغبتها عسى أن تحس بالسعادة في مرضها ، فتقول له : يا جدي أرى أبواب الفرج مغلقة ، فلو كشفت العذاب عن في سجنك من أسرى المسلمين وفككت عنهم الأغلال وتصدققت عليهم ومنيتهم بالخلاص ... رجوت أن يهب المسيح وأمه في عافية

¹ الصدر محمد ، تاريخ الغيبة الصغرى ، ص 246 .

² المصدر نفسه ، ص 247 .

وشفاء، فينفذ لها جدها القيصر رغبتها فتتجدد في إظهار الصحة وتتناول يسيرا من الطعام، فيسر جدها بتحسن حالتها ويزيد في إكرام الأسرى وإعزازهم¹.

ثم أنه يزورها في المنام بعد أربع ليال : مريم بنت عمران وفاطمة بنت محمد عليهما السلام ، فتقوم العذراء بتعريف الزهراء لمليكه قائلة : هذه سيدة النساء أم زوجك أبي محمد عليه السلام ، وإذ تعرفها مليكه تتعلق بها وتبكي وتشكو إليها امتناع أبي محمد (ع) من زيارتها فتجيبها الزهراء عليها السلام : إن ابني أبي محمد لا يزورك وأنت مشركة بالله على دين مذهب النصارى ، ثم تأمرها بأن تشهد الشهادتين، فيدفعها الحب والشوق إلى امتثال هذا الأمر ، وتدخل في الإسلام في عالم الرؤيا، وإذ تسمع منها الزهراء عليها السلام ذلك ، تضمها إلى صدرها وتعددها بزيارة أبي محمد لها ، وبالفعل زارها أبو محمد في الحلم في الليلة التالية حيث قالت له الأميرة : جفوتني يا حبيبي بعد أن أتلفت نفس معالجة حبك، فقال لها : ما كان تأخيري عنك إلا لشركك ، وإذ قد أسلمت فإني زائر كل ليلة إلى أن يجمع الله شملنا في العيان².

ولما سألها بشر كيف وقعت في الأسر قالت له أن أبا محمد أخبرها في ليلية من الليالي أن جدها الملك سيسير جيشا إلى قتال المسلمين يوم كذا وكذا ، وعليها اللحاق بهم متكرة في زي الخدم ، ففعلت ذلك ، ووقعت عليهم طلائع المسلمين فوقعت في الأسر.

وبعد هذه القصة الحافلة بالرؤى والأحلام يأخذها بشر إلى أبي الحسن الذي استقبلها بحفاوة ، وبشرها بولد لها يملك الدنيا شرقا وغربا ، ويملا الدنيا شرقا وغربا ، ويملا الأرض قسطا وعدلا ، ثم قدمها إلى أخته حكيمة التي اعتنقتها ، ثم طلب منها أبو الحسن أن تأخذها إلى بيتها فتعلمها الفرائض والسنن لأنها ستكون زوجة ابنه أبي محمد وأم القائم¹.

أما عن قصة دخول أبي محمد بها فقد روى الصدوق في إكمال الدين عن المطهري عن حكيمة بنت الإمام محمد الجواد (ع) قالت : كانت لي جارية يقال لها نرجس ، فزارني

¹ الصدر محمد ، تاريخ الغيبة الصغرى ، ص 248

² المصدر نفسه ، ص 249 .

¹ الصدر محمد ، تاريخ الغيبة الصغرى ، ص 250.

ابن أخي (حسن العسكري) وأقبل يحد النظر إليها ، فقلت له : يا سيدي ، لعلك هويتها فأرسلها إليك ؟ فقال : لا يا عمه ، ولكن أتعجب منها ، سيخرج منها ولد كريم على الله عزّ وجل الذي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً ، فقلت : فأرسلها إليك يا سيدي ، فقال : استأذني أبي ، فأتيت منزل أبي الحسن (ع) فبدأني وقال : يا حكيمة ، ابعتي بنرجس إلى ابني أبي محمد ، فقلت : يا سيدي ، على هذا قصدتك ، فقال : يا مباركة ، إن الله تبارك وتعالى أحب أن يشركك في الأجر ، وزينتها حكيمة ووهبتها لأبي محمد² .

ولادة المهدي المنتظر وحركة التاريخ:

ولد المهدي عند الفجر من يوم النصف من شعبان ، فقد عبر بعضهم أن ولادته كانت في الليل وبعضهم عبر باليوم حيث قال : في يوم الجمعة كالصدوق في إكمال الدين ، وابن خلكان في وفيات الأعيان .

أما عام ولادته فالمشهور أنه عام 255 ، وليس على ذلك اعتراض إلا ما يذكره الكليني في الكافي والصدوق في إكمال الدين ، فإنهما يرويانها على وجهين ، فتارة قالوا: إنه

ولد عام 255 وتارة أخرى قالوا: أنه ولد عام 256 ، وتنافيهما في الرواية يوجب الأخذ بالمشهور كما هو واضح¹ .

وعلى ذلك يكون قد ولد المهدي بعد وفاته جده الإمام الهادي عليه السلام بحوالي عام ، يعاصر الإمام المهدي من حياة أبيه خمس سنوات ، حيث يصعد أبوه إلى الرفيق الأعلى عام 260 هـ وقد انصب النشاط الرئيسي خلال ذلك على أمرين رئيسيين : إحداهما الحذر التام من السلطة الحاكمة ، ثانيهما : تعرّف خواص أبيه (ع)² .

ومهما يكن من أمر ، فالمهم الآن أن نحمل فكرة عما تدلنا عليه الروايات من حوادث ولادة المهدي .

²المصدر نفسه ، ص 250.

¹الصدر محمد ، تاريخ الغيبة الصغرى ، ص 261.

²المصدر نفسه ، ص 262 .

لما حملت نرجس لم يظهر عليها آثار الحمل ، لأن مثلها مثل أم موسى التي لم يظهر عليها الحمل ولم يدر بها أحد إلى وقت ولادتها ، وكانت حكيمة في زيارة الإمام وجاريته نرجس ، ولما أرادت الانصراف طلب منها الإمام الحسن أن تبقى تلك الليلة لأنها ليلة ولادة ابنه المهدي ، وبالرغم من عدم ظهور علائم الحمل أو علائم الطلق فإن حكيمة بقيت تلك الليلة ، وفجأة شعرت الأم أن ابنها قد جاء ، فكشفت الثوب فإذا به ساجد يتلقى الأرض بمساجده وهو نظيف منظف ، ثم سمعت حكيمة صوت أبيه الإمام الحسن يطلب رؤيته ، فأخذته له ، فوضع يده تحت إبطيه وظهره ، ووضع قدميه على صدره ، ثم أدلى لسانه في فيه ، وأمر يده على عينيه وسمعه ومفاصله ، ثم قال : تكلم يا بني ، فقال الوليد : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم صلى على أمير المؤمنين وعلى الأئمة إلى أن وقف على أبيه³ .

وجاء الحسن العسكري أربعون رجلاً من أصحابه يسألونه عن الحجة (أي الإمام) ، من

بعده ، فأظهر لهم ابنه وهو غلام كأنه قطع قمر ، أشبه الناس به ، فقال لهم : هذا إمامكم من بعدي وخليفتي عليكم أطيعوه ولا تتفرقوا من بعدي فتهلكوا في أديانكم ، ألا وأنكم لا ترونه بعد يومكم هذا حتى يتم له العمر ، فاقبلوا من عثمان بن سعيد ما يقوله وانتهوا إلى أمره ، واقبلوا قوله ، فهو خليفة إمامكم والأمر إليه¹ .

ويروي أحمد بن اسحق الأشعري الذي دخل على الإمام العسكري (ع) يسأله عن الحجة من بعده فدخل الإمام البيت ثم خرج على عاتقه غلام كأن وجهه القمر ليلة البدر ، وهو من أبناء ثلاث سنين ، وقال : يا أحمد ، لولا كرامتك على الله عز وجل وعلى حججه ما عرضت عليك ابني هذا ، إنه سمي باسم رسول الله - صلى الله عليه وآله - وكنيته ، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، وفي اليوم التالي يخبره الإمام حسن العسكري أن ابنه الإمام سيغيب ، فيسأله أحمد : يا ابن رسول الله ، وإن غيبته

³ الشيخ جعفر عتريسي ، ما قبل نهاية التاريخ - ظهور المهدي المنتظر - دار الحجة البيضاء ، بيروت ، ط1 ، 2003 ، ص 59 ، ص 60 .
¹ خالد صناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 87 ، ص 88 .

لتطول؟ فيجيب : أي وربي ، حتى يرجع عن الأمر أكثر القائلين به ، ولا يبقى إلا من أخذ الله عز وجل منه عهدا لولايتنا ، وكُتِبَ في قلبه الإيمان ، وأيده بروح منه² .
وعندما مرض الإمام الحسن (ع) مرض الموت (يقال أنه سمم) أرسل المعتمد العباسي قاضي القضاة مع عشرة من أصحابه ليلتزموا دار الإمام ، وأرسل الأطباء ليفحصوه حتى يشهدوا بأن الإمام مات موتا طبيعيا ، وبعد وفاته كبسوا داره والمنازل القريبة ، وفتشوا جوارى الإمام ونساءه ومن شك في كونها حاملا أوقفت ووضع تحت المراقبة حتى يتم التأكد من عدم حملها ، وعندما تم كل ذلك ظن الخليفة العباسي أن الإمام الحسن العسكري مات ولم يخلف .

يبدو أن الشيعة الإثني عشرية قاربوا بين قصة ولادة المهدي وولادة سيدنا موسى عليه السلام ففرعون لما وقف على أن زوال ملكه على يد مولود من بني إسرائيل ، أمر

أصحابه بشق بطون الحوامل من نساء بني إسرائيل ، حتى قتل في طلبه نيفا وعشرين ألف مولود ، وتعذر عليه الوصول إلى قتل موسى بحفظ الله تبارك وتعالى ، وكذلك بنو أمية وبنو العباس ، ما وقفوا على زوال ملك الأمراء والجبابرة منهم على يدي القائم منا ، ناصبوا العداوة ووضعوا سيوفهم في قتل القائم ، فأبى الله أن يكشف أمره لواحد من الظلمة (ويأبى الله إلا أن يُنمّ نوره ولو كره الكافرون)¹ .

ذاك أن أهل العهدين الأموي والعباسي ، كانوا لا يشكون بأمر المهدي كأهل زماننا ، بل كانوا يعتقدون يقينا بأنه أمر محتوم لا محيص عنه ، بل كانوا مستيقنين بأنه سيظهر في زمانهم ، ولذلك دأبوا على تقتيل آبائه خوفا مما وعد الله تعالى به من السطوة والقوة التي تزيل ملكهم ، وقد روي الجزء الأخير من هذا الحديث عن الإمام العسكري (ع) بلفظه ثم قال الصادق (ع) : «وكذلك النمرود ، فإنه لما علم أن زوال ملكه يكون على يد النبي إبراهيم (ع) وكل نساء قومه بالحبالي من الناس ، وعزل الرجال عن النساء حتى يقتل كل مولود ذكر في تلك السنة»² .

² المرجع نفسه ، ص 88 .

¹ الآية 33 - سورة التوبة -

² سليمان كامل ، يوم الخلاص في ظل القائم المهدي ، ص 121 ، ص 122 .

لهذا السبب وجد الإمام محمد المهدي (ع) نفسه وهو في سن الخامسة من عمره في منصب الإمامة الروحية ، الأمر الذي اضطره للبقاء مستترا ، ودخل في مرحلة الرجولة مباشرة في هذا السن ، وكان هو المرجع الأول لشيعة آل البيت ، وكانت تصله منهم أموال الزكاة بواسطة سفيره عثمان بن سعيد ، كما كان يتصل بهم عن طريقه برسائل بخط الإمام وتوقيعه ، وقد حاول الخليفة القبض عليه في إحدى المرات ولكن يقال أنه هرب إلى سرداب .

غيبية الإمام وظهور السفراء الأربع :

روى الرضا (ع) : «لابد للغلام من غيبية ، يخاف فيها القتل» وقال أيضا «إنما مثل قائمنا - أهل البيت - كمثل الساعة لا يُجْلِيها لوقتها إلا هو ، تُقْلت في السماوات ... لا يأتيكم إلا بغتة ... » . وقال الإمام زين العابدين (ع) : «القائم مَنّا يخفي على الناس ولادته حتى يقولوا : لم يولد بعد ، ليخرج حين يخرج وليس لأحد في عنقه بيعة»¹ .

إذن المهدي ستمتد غيبته ليصرّح الحق عن محضه ، وتبدأ الغيبة الصغرى من وفاة الإمام العسكري وتولي الإمام المهدي عليه السلام الإمامة وقد بدأها عليه السلام بالإيعاز بنصب وكيله الأول ، أي السفير الأول ومن هنا يبدأ عهد سفراء المهدي .

اعتمد المهدي في عمله نظاما هرميا خاصا ، أمكنه أن يرتبط من خلاله بقواعده الشعبية وفئاته الموالية، فكان المهدي يتصدى قمة هذا النظام ويمارس أعماله بسرية وحذر وكتمان شديد ، ويصدر تعليماته وأوامره إلى سفرائه مباشرة ، وقد عدّوا ركنا مهما في هذا النظام وكانوا بمثابة أعضاء الارتباط بينه وبين وكلائه المنتشرين في سائر البلاد

¹ سليمان كامل، يوم الخلاص في ظل القائم المهدي، ص113، ص 116 .

الإسلامية ، ولا نعرف مدى قوة هذا الارتباط لكونه محاطا بالغموض ، ومجهولا تماما لدى الجميع سوى السفير نفسه الذي كان يعرف قوة هذا الارتباط وضعفه² .
السفير الأول هو محمد بن عثمان بن سعيد العمري ، وكان علي الهادي الإمام العاشر قد نصبه وكيلا له ، ثم خدم الإمام الحادي عشر الحسن العسكري في نفس المنصب ، وبعد وفاة الإمام الحسن تابع في خدمة الإمام المهدي كأول وكيل له ، ولم يختلف في عدالته أو يرتاب بأمانته أحد ، وكانت التوقيعات من الإمام المهدي تخرج على يده إلى الشيعة في المهمات طول حياته³ ، وبعد وفاته خلفه في السفارة ابنه محمد بن عثمان

بن سعيد العمري حسب رغبة المهدي ، وكان قد قال لبعض أصحابه : اشهدوا على أن عثمان بن سعيد العمري وابنه ثقتان ، فما أديا إليك فعني يؤديان ، وما قال لك فعني يقولان ، فاسمع لهما وأطعهما فإنهما الثقتان المأمونان¹ ، وبعد أن توفي السفير الثاني عام ثلاثمائة وخمسة (أو ثلاثمائة وأربعة) ، خلفه في هذا المنصب السفير الثالث الحسين ابن روح ابن أبي بحر النوبختي ، وكان محمد بن عثمان قد أقامه مقامه قبل وفاته بسنتين أو ثلاث سنين إذ جمع وجوه الشيعة وشيوخها وقال لهم : إن حدث علي حدث الموت فالأمر إلى أبي القاسم الحسين ابن روح ابن أبي بحر النوبختي ، فقد أمرت أن أجعله في موضعي بعدي ، فأرجوا إليه وعولوا في أموركم عليه ، وتوفي الحسين بن روح سنة ثلاثمائة وست وعشرين² ، وجاء بعده السفير الرابع أبو الحسن علي بن محمد السمري الذي استمرت سفارته سنتين أو ثلاث إذ توفي سنة ثلاثمائة وثمان وعشرين أو تسع وعشرين ، وكان قد أخرج قبل وفاته بأيام إلى الناس توقيعا نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم ، يا علي بن محمد السمري أعظم الله أجر إخوانك فيك ، فأنت ميت ما بينك وبين الموت ستة أيام ، فاجمع أمرك ولا توص إلى أحد يقوم مقامك بعد وفاتك ، فقد وقعت الغيبة التامة ، فلا ظهور إلا بعد إذن الله تعالى ذكره ، وذلك بعد طول الأمد وقسوة القلوب وامتلاء الأرض جورا ، وسيأتي من شيعتي من يدعي المشاهدة ، ألا فمن

² الخزرجي ضياء الدين ، سفراء المهدي بين الحقائق والخيال ، دار الهادي ، بيروت ، ط1 ، 2004 ، ص 27 .

³ المرجع نفسه ، ص 63 .

¹ الخزرجي ضياء الدين ، سفراء المهدي بين الحقائق والخيال ، ص 118 .

² المرجع نفسه ، ص 165 .

ادّعى المشاهدة قبل خروج السفيناني والصيحة فهو كاذب مفتر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ولما كان اليوم السادس وكان علي بن محمد وجود بأنفاسه قيل له : من وصيك من بعدك ؟ فقال : الله أمر هو بالغه³.

بداية الغيبة الكبرى للمهدي :

إذن بداية الغيبة الكبرى كانت بعد وفاة السفير الرابع ، وعليه يمكن القول أن الغيبة الصغرى كانت كافية لإثبات وجود المهدي (ع) بما يصل إلى الناس عن طريق سفرائه وغيرهم من البيّنات والبيّنات ، كما أوجبت بكل وضوح أن يعتاد الناس على غيبة الإمام ويسبقون فكرة اختفائه ، بعد أن كانوا يعاصرون عهد ظهور الأئمة ، وإمكانه الوصول إلى مقابلة الإمام ، لكن ما السبب في انتهاء عهد السفارة ؟

يمكن حصر الأسباب في ما يلي :

1. استكمال الغيبة الصغرى لأغراضها من كون الغرض الأساسي هو تهيئة الذهنية العامة لغيبة الإمام (ع) ، وهو مما قد حصل بالفعل خلال هذه الفترة ، فإنها فترة كافية لحصول ذلك ، وخاصة بعد أن تزايد احتجاب الإمام بالتدريج حتى انحصرت رؤيته بشخص واحد هو السفير نفسه ، ولم يبق بعد إلا أن يحتجب الإمام على الإطلاق¹.

2. صعوبة الزمان وازدياد المطاردة والمراقبة من قبل الجهاز الحاكم ، للقواعد الشعبية الموالية للإمام المهدي بل لكبرائهم وعلماهم ، ولم ينجح من هذا الضيق حتى السفير نفسه ، إلى حد لم يستطيع السفير الرابع أن يقوم بعمل اجتماعي ذي بال ، ولم يرو لنا من أعماله إلا ما هو قليل وبسيط².

³الصدر محمد ، تاريخ الغيبة الصغرى ، ص 634 .

¹الصدر محمد ، تاريخ الغيبة الصغرى ، ص 631 .

²المصدر نفسه ، ص 632

إذن فلو وجد سفير جديد فسيفشل في مهمته جزماً بالنظر إلى ظروف المجتمع في ذلك الحين .

3. عدم إمكان المحافظة على السرية الملتزمة في خط السفارة ، و لو طال بها الزمان أكثر من ذلك ، لانكشف أمرها شيئاً فشيئاً ، لذا أوصى المهدي بعدم توصية أي شخص آخر لاستلام السفارة - كما أشرت سابقاً - ، وهذا أيضاً إشارة واضحة

لغلق باب السفارة وغلق الباب أمام المدعين بأنهم سفراء المهدي من جهة ، وإعلان نهاية الغيبة الصغرى وبداية الغيبة الكبرى من جهة أخرى¹ - حسب الشيعة الإمامية- وبدأت الغيبة الكبرى التي لا تزال مستمرة حتى يمنا هذا ، ولا يزال المهدي حياً بيننا بالرغم من عمره المديد الذي يزيد عن ألف سنة ، ولا يعجز على الله شيء ، وعندما يأذن بظهوره سيظهر بالسيف ، وسيكون فوق رأسه غمامة فيها ملك ينادي : هذا المهدي خليفة الله فاتبعوه ، فيذعن له الناس ويشربون حبه ، ويمده الله بثلاثة آلاف من الملائكة ، جبريل على مقدمتهم وميكائيل على ساقته ، أنصاره بعده أهل بدر ، وأهل الكهف منهم ، يملك شرق الأرض وغربها فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، يظهر الإسلام ويرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض ، أسعد الناس به أهل الكوفة ، تخصب الأرض في زمانه وتخرج كنوزها ، يحثو المال حثوا ولا يعده عدا ، يصلي خلفه عيسى ابن مريم ، يساعد عيسى على قتل الدجال بباب اللد يخرج في وتر من السنين ، يملك ست سنين أو سبعا أو ثمان أو تسعا ، السنة من سنه مقدار عشر سنين ، يستخرج تابوت السكينة من غار في أنطاكية وأسفار التوراة من جبل في الشام يظهر من الدين عليه في نفسه ، ما لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكم² .

ويمكن أن نستخلص أنه بعد وفاة الإمام الحسن العسكري وانتقال الإمامة إلى ابنه الإمام المهدي الذي كان عمره خمس سنوات ، صارت المرجعية - ظاهرياً - في السفراء

¹ الصدر محمد ، تاريخ الغيبة الصغرى ، ص 633 .

² سليمان كامل ، يوم الخلاص في ظل القائم المهدي ، ص 283 .

الأربعة لمدة تسع وستين سنة ، أما الإمام المهدي الذي كان مرجع الحقيقي فلم يره أحد باستثناء سفرائه وربما بعض من الناس، وبعد وفاة السفير الرابع لم يعد على هذه الأرض من يعرف ويميز الإمام المهدي ، وبالرغم من أنه لا يزال حيا حتى الآن .

إن من مشاكل الدعوات السرية أن الزعيم المختفي يفقد السيطرة على أتباعه بعد فترة من الزمن ، وبقاء المهدي على قمة التنظيم الشيعي في عصر الغيبة الصغرى يشهد لذلك التنظيم بالقوة والمنازعة ، ويشهد لوكلائه بالصدق والإخلاص ، ويشهد لشيعته بإيمان لا يتزعزع ، إلا أن هذه الغيبة سببت بدون شك الكثير من التساؤلات ، وقام الكثير من الناس يدعون أنهم يمثلون الإمام الغائب ، إلا أن سفراءه استطاعوا بفضل إيمانهم إظهار كذب هؤلاء المدعين .

وللأسف لم يصلنا الكثير عن حياة الإمام المهدي ، فلا نعلم عن طفولته كيف قضاها خاصة بعد وفاة والدته التي توفيت قبل والده بستين ، ويقول علماء الإمامية بأن المهدي (ع) أنهى طفولته بموت والده ، وكانت المراسلات التي تصل منه تمثل إرادته وفقهه كإمام لا فقه عثمان بن سعيد أو أي شخص آخر ، ونتساءل عن مشاعر هذا الإمام الذي يعلم حب شيعته له ، حاول هذا الإمام تجميع القوى للقيام بثورة تضارع ثورة بني العباس ، وتحقق الأماني المتوقعة منه ؟ ولا بد أن يكون الجواب عن هذا التساؤل بالنفي ، فالإعداد لثورة مثل هذه لن تخفى عن الناس كلية ، ولم يصلنا أي شيء يشير إلى مثل هذا الإعداد¹ .

ونستطيع القول بأن عقيدة الإمامية في المهدي بنيت على عدة عقائد أساسية ، وهي :

1. الأئمة هم المرجع والزعامة الدينية بعد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومنصب

الإمامة هو إرادة إلهية وليس انتخابا أو تعيينا من واحد .

2. يعرف الإمام من نص الإمام السابق له ، أم من نص الرسول صلى الله عليه

وسلم كما نص على إمامة علي عليه السلام ، وإمامة الحسن والحسين² .

¹ خالد صناديقي ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 90
² الفتاوي مهدي حمد ، المهدي المنتظر - من ولد الإمام الحسن أم الإمام الحسين ؟ - ص 64 .

3. لا يكون هذا العالم ولو للحظة بدون إمام، إلا أن الإمام قد يكون غائبا (متخفيا) وغير معروف³ .

4. آخر الأئمة هو المهدي عليه السلام ، وهو الذي سيجيء بالسيف ، وسيملاً الدنيا عدلا وقسطا ، ويقضي على الظلم ، ويعيد للإسلام عزه ومجده.

5. الأئمة اثنا عشر لا يزيدون وهم : علي ابن أبي طالب ، الحسين ابن علي ، والحسن ابن علي وعلي ابن الحسين ، ومحمد بن علي ، وجعفر ابن محمد ، و موسى ابن جعفر ، وعلي ابن موسى ، ومحمد ابن علي ، وعلي ابن محمد ، والحسن ابن علي ، وآخرهم محمد بن الحسن المهدي¹ .

وبالرغم من قول المهدي إلى سفيره علي بن محمد السمري بتكذيب كل من يقول إنه شاهد المهدي (إن كانت المشاهدة قبل خروج السفيناني) ، إلا أن الادعاءات بمشاهدة المهدي عند الشيعة الإمامية لا تقل عن ادعاءات الصوفيين بمشاهدة الخضر ، الذي لا يزال - حسب قولهم - حيا من عهد موسى حتى الآن ، وقصص الشيعة عن ظهور المهدي الوجيزة على مر الأجيال السابقة نجدها في المجال الشعبي ، كما نجدها - مع عدم الجزم في شخصية صاحب الظهور - في أقوال علماء النجف الشريف ، ولا يُذكر المهدي إلا بعد جملة (عجل الله فرجه) ، ويقومون وقوفا احتراماً لذكره² .

إن مجموعة الأخبار التي وصلتنا عن حياة المهدي تؤكد أنه عاش في أيام غيبته الصغرى متخفيا عن الأنظار ، وأنه قاد شيعته خلال تلك السنين ، أما عن غيبته الكبرى فهي من الأمور العقائدية التي تؤخذ دون جدال أو مقايسة ، علما بأن في الفكر الإسلامي الكثير من العقائد المشابهة كفكرة خلود الخضر ، وارتفاع السيد المسيح ، وارتفاع النبي إدريس عليهما السلام .

نستنتج مما سبق أن مما يميز هذا الإمام عن غيره من الأئمة ليس فيما تركه من كتب ، أو فيما أعده من ثورة ، وإنما في الأمل الكبير الذي تركه في قلوب المسلمين وخاصة شيعته في مستقبل مشرق ، ودولة يسود فيها الحق ، ويُنتصر فيها للضعيف .

³ محمد المهدي الحاج الشيخ ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة-، ج1 ، ص 22 .

¹ الفتلاوي مهدي حمد ، المهدي المنتظر - من ولد الإمام الحسن أم الإمام الحسين؟- ص 64 .

² المرجع نفسه ، ص 65 .

المبحث الثالث : حركة المهدوية من القوة إلى الفعل

(نماذج عن بعض المهديون وفلسفتهم في التاريخ)

القسم الأول : مهدي السبئية والكيسانية

القسم الثاني : مهدي الفاطميين والمغاربة والسودانيين

قال جمهور أهل السنة : «إنه من أهل بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، من ولد الحسن بن علي - رضي الله عنهما - يخرج في آخر الزمان ، وقد امتلأت الأرض ظلما وجورا ، فيملؤها قسطا وعدلا وهذا هو القول الصحيح الذي تشهد له الأحاديث الصحيحة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأقره كبار المُحدِّثين ، والحُفَاز ، والمُحَقِّقين في القديم ، والحديث ، إلا من لا يعتد بخلافه »¹.

هذا إذن موقف بعض السنيين من المهدي - كما أسلفت الذكر - إلا أن فكرة المهدوية راودت كثيرا من الناس ، حتى ادّعاها بعضهم لنفسه ، إما لوجود " بعض " العلامات فيه ، أو لتكلفه الاتّصاف بها ، ومن بينهم فرق ضالّة حوّرت فكرة المهدوية ، وتناولتها بالتعديل والتحريف ، لينطبق وصفها على شخص معين تمحوروا حوله على أنه المهدي المنتظر .

ومنهم من لم يدّعي المهدية لنفسه إطلاقا ، ولكنه كان متحليا بصفات طيبة جعلت مُحِبِّيه وأتباعه المبهورين به يدّعون أنه المهدي المُخَلَّص ، ومنهم من اجتمع فيه صفات طيبة، وانجازات واقعية رائعة ، في خدمة الدين ، ولم يدّع المهدية لنفسه ، ولا ادّعاها له أحد، ولكن أُطْلِقَ عليه وصف " المهدي " بالمعنى العام لا الخاص ، أي مهدي تجتمع فيه صفات حميدة من جهة ومُخَلِّص البشرية من الظلم وإعادة الحق إلى نصابه من جهة أخرى .

ومن مدّعي المهدية من طبع أثرا عميقا في أحداث التاريخ، حيث قامت له دعوة وكيان، ومنهم من خمل ذكرهم ، فعاشوا وماتوا دون أضواء ولا ضوضاء . وفي هذا القسم نستعرض أشهر مدّعي المهدية ، أو من ادّعت لهم المهدية ، وقد نبسط سيرة بعضهم ، لما فيها من أهمية تكشف لنا مدى حضور فكرة المهدي في الأشعور الإنساني وتأثيرها على الجانب السلوكي لديه :

¹المقدم محمد احمد إسماعيل ، المهدي ، ص 365 .

مهدي السبئية :

ادّعى عبد الله بن سبأ* اليهودي المُتمسِّم أن علياً رضي الله عنه هو المهدي المنتظر وأنه يرجع إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، فيملاً الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً ، ولما قُتل علي رضي الله عنه ، زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن علياً ، وإنما كان شيطاناً تصور للناس في صورة علي ، وأن علياً صعد إلى السماء ، كما صعد إليها عيسى ابن مريم – عليه السلام - ، وزعم أنه الذي يجيء في السحاب ، وأن الرعد صوته ، والبرق تبسمه ؛ وقد قيل لابن سبأ : إن علياً قد قُتل ، فقال : " إن جئتمونا بدماعه في صرة لم نصدق بموته ، لا يموت حتى ينزل من السماء ، ويملك الأرض بحذافيرها"¹ . يقول الدكتور عبد العليم البستوي : " لقد كان هدف عبد الله بن سبأ الأساسي هو إثارة الفتن والقتل بين المسلمين من كل وجه ممكن ، وإفساد عقائدهم بأي طريق ، ولقد وجد في التظاهر بحب أهل البيت منفذاً كبيراً ، ومرتعاً خصباً لتحقيق مآربه التخريبية " وهنا نكتشف الدافع الأشعوري لابن سبأ في ادعائه أن علي بن أبي طالب مهدي ومخلص ، هو إثارة الفتن وتشثيت صفوف المسلمين وتقسيمهم إلى طوائف وفرق ومن ثم ضرب الإسلام والمسلمين بطريقة غير مباشرة لاسيما وأن المسلمين كانوا ينظرون إلى أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم نظرة حب وتقدير ، لمنزلتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان من السهل جداً إثارة عواطف عامّة المسلمين ، بحجة الدفاع عن أهل البيت ، والولاء لهم وتأييدهم ، وهكذا حدث ، فقد استغلّ عبد الله بن سبأ هذه الناحية ، وكذلك الذين شايعوه ، ومشوا على فكرته في جميع العصور حسب مصالحهم وأغراضهم ، وأهوائهم السياسية والمادية ، ومن هنا نرى فرق الشيعة جميعاً على فكرة الرجعة لمن اختارته لها مهدياً مُخلصاً ، إلا أن السر في تعدد أحزابهم هو ما كانت تمليه ظروفهم السياسية ، وأهوائهم المادية وأغراضهم المختلفة ، فكلما سولت لأحدهم نفسه أن يغامر بطلب الولاية ، والرياسة ، أو المنافع الأخرى اختار له مهدياً ، وتظاهر

*نسبة إلى عبد الله ابن سبأ اليهودي ، وتُعد أول فرقة قالت بغيبية علي رضي الله عنه وعدم موته .
لزكي عادل ، المهدي – دولة الإسلام القادمة - ، ص 179 .

بالدعوة إلى إمامته ، فإذا مات ذلك المهدي المزعوم قبل أن تتحقق مآربه ، ادعى أنه غاب ، ولم يمت ، ولا بد أن يرجع قبل يوم القيامة ، فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، وظلما ، ومن هنا كثر المهديون عندهم .

مهدي الكيسانية :

أول من سمي بالمهدي هو محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بمحمد بن الحنفية* ، نسبة إلى أمه التي كانت من بني حنفية ، وقد ولد في خلافة عمر بن الخطاب ، وكان من سادات قریش ومن الشجعان المشهورين ، ولما بويح لابن الزبير رفض أن يبايعه وجرى بينهما شر عظيم ، ولما ذهب المختار بن أبي عبيد الثقفي إلى الكوفة استطاع أن يجمع حوله أهلها بعد أن أظهر التشيع والأخذ بثأر الحسين ، فطرد عامل ابن الزبير منها ، وتتبع قتلة الحسين فقتل منهم خلقا كبيرا بما فيهم زعيمهم ابن زياد الذي قتله إبراهيم بن الأشتر أحد قواد المختار في معركة جريئة ، وصار المختار يدعو لمحمد بن الحنفية وسماه المهدي ، وعندما هم ابن الزبير أن يحرق ابن الحنفية وبني هاشم معه ، أرسل المختار أبا عبد الله الجدلي في أربعة آلاف فاستنقذوا محمدا وبني هاشم¹ .

إلا أن المختار كان متقلبا في ولائه حيث قال عبد القادر البغدادي : «ثم رفع خبر المختار إلى ابن الحنفية ، وخاف من جهته الفتنة في الدين ، فأراد قدوم العراق ليصير إليه الذين اعتقدوا إمامته ، وسمع المختار ذلك فخاف من قدومه العراق ذهاب رياسته وولايته ، فقال لجنده : " إنا على بيعة المهدي ، ولكن للمهدي علامة ، وهو أن يُضرب بالسيف ضربة ، فإن لم يقطع السيف جلده فهو المهدي " ، وانتهى قوله هذا إلى ابن الحنفية ، فأقام بمكة خوفا من أن يقتله المختار بالكوفة » ، وعندما طرد ابن الزبير محمدا وشيعته من مكة المكرمة ذهب إلى القدس ، ثم حج بعد مقتل ابن الزبير وسكن في المدينة حتى توفي بها عام 81 ، وقد اتفقت فرق الكيسانية كلها على إمامة ابن الحنفية في حياته ، ولكن بعدما مات أقر قوم منهم بموته ، وحولوا الإمامة إلى غيره

* هذه الفرقة تُنسب إلى المختار بن عبيد الثقفي الملقب بكيسان
¹صناديقي خالد ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص92.

على خلاف كثير فبهم ، وقال قوم آخرون بأنه لم يمّت وأنه في جبل رضوى حي يرزق ، وعنده عين من الماء ، وعين من العسل ، يأتيه رزقه غدوا وعشيا ، تحدّثه الملائكة ، وعن يمينه أسد ، وعن يساره نمر ، يحفظانه من أعدائه ، إلى وقت خروجه وأنه صاحب الزمان يخرج ويقتل الدجال ، ويهدي الناس من الضلالة ، ويُصلح الأرض بعد فسادها ، ولم يمّت ، لا يموت حتى يملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جوراً ، وأنه سيعود في آخر الزمان*¹.

وقال الحافظ ابن كثير في " البداية و النهاية " : «وقد ذهب طائفة من الرافضة إلى إمامته ، وأنه يُنتظر خروجه في آخر الزمان ، كما ينتظر طائفة أخرى منهم الحسن بن محمد العسكري ، الذي يخرج – في زعمهم – من سرداب سامراء ، وهذا من خرافاتهم ، وهذيانهم ، وجهلهم ، وضلالهم وترهاتهم» ابن كثير البداية والنهاية ، وهذا تأكيد آخر من قبل ابن كثير على أن الحافظ الأشعوري لبعض الفرق التي تدّعي المهدوية لمحمد ابن الحنفية هو الأغراض السياسية الفاسدة ، لذا تجدهم يتسترون وراء ستار يدعى بالتظاهر بحب أهل البيت والرغبة بأخذ ثأر الحسين كل هذا من أجل مصالح شخصية ومادية لا أكثر ولا أقل .

ولم يُدخل محمد بن علي نفسه في الفتن السياسية وابتعد عنها ، ولكن ثورات العلويين ضد بني أمية التي بدأت بثورة الحسين عليه السلام لم تتوقف بموته ، بل تتابعت بعده ولكن لم يكتب لها النجاح بالرغم من التأييد المباشر أو الضمني من قبل الكثير من عامة الناس ، وهذا أدى إلى تغيير في الأسلوب الثوري من البيعة العلنية للثائر إلى بيعة (للرضى من آل البيت) ، حيث يبقى صاحب الثورة مجهول الاسم والهوية ، وعلى هذا الأساس قامت ثورة العباسيين ، إلا أن الشعب فوجئ بعد نجاح هذه الثورة بأنهم لم يكونوا يحاربون لخليفة علوي وإنما لخليفة من ولد العباس ، ويقال بأن أحد

¹ابن خلدون ، المقدمة ، دار العودة ، بيروت ، [د.ط] ، 1981 ، 157 .
*قال الحافظ ابن كثير : " وذلك عن غير أمر ابن الحنفية ورضاه ، وإنما يتقولون عليه ليرجوا على الناس به وليتوصلوا إلى أغراضهم الفاسدة .

قواد هذه الثورة عرض زعامة الثورة بعد نجاحها على الإمام العلوي جعفر الصادق، فرفض هذا العرض قائلاً بأن الثورة ليست ثورته، والذين حاربوا ليسوا جنده وبالرغم من أن الخليفة السفاح حاول أن يحتوي شعبية آل البيت ، وأن يقيم نوعاً من التحالف بين العباسيين والعلويين ، إلا أن شعور العلويين بأن العباسيين استغلوا اسمهم في الوصول إلى الحكم أفضل هذه المحاولة ، مما أدى إلى ثورة المهدي الثاني محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب في عهد الخليفة العباسي المنصور¹.

كان محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي الهاشمي أبو عبد الله المدني ، اشتهر بالعلم والزهد ، حتى لقب بـ " النفس الزكية " وكان من سادات بني هاشم علماً وشجاعة وكرماً ، كان صوّاماً ، قواماً من الصالحين ، سماه أهل بيته بالمهدي ، ولعله اقتنع بأنه المُبشر به في الأحاديث خاصة ، وأن اسمه محمد بن عبد الله ، وأنه من ولد فاطمة – عليها السلام - ، وهو يرى ظلم ملوك الدولة الأموية ، وكان النفس الزكية قد بايعه جماعة من أهل الحجاز في أواخر دولة مروان الحمار بالخلافة ، ومن جملة من بايعه آنذاك أبو جعفر المنصور الذي أصبح فيما بعد الخليفة العباسي الثاني ، بعد وفاة أبي العباس السفّاح في أواخر سنة 136هـ ، ولكن الأمر استتب للعباسيين ، وعندما صار أبو جعفر المنصور خليفة خاف منه محمد بن عبد الله وأخوه إبراهيم فاختفيا عن الأنظار هرباً في البلاد الإسلامية الشاسعة ، فصار إلى اليمن ، ثم إلى الهند ، ولكنهما كانا يحضران إلى الحج متخفيين كل سنة ، ويتصلان بأتباعهما ، واجتهد المنصور بكل طريقة على تحصيلهما فلم يقدر على ذلك ، وصار يغير نوابه على المدينة لعجزهم ويحرض على إمساكهما ويبدل الأموال في طلبهما ولكن لم يمكنه ذلك².

وأدى عجزه هذا إلى أن قبض على أبيهما عبد الله بن حسن وسجنه وصادر أمواله ،

¹صناديقي خالد ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص.93
²المرجع نفسه ، ص. 93

كما سجن جميع بني حسن بن الحسين في سجن المدينة ، ثم نقلوا وفي أرجلهم الأصفاد إلى الهاشمية بالعراق عام 143^{هـ} حيث عذبوا ، وجعلهم في سجن لا يسمعون فيه أذانا ولا يعرفون فيه وقت صلاة ، ويقال أن محمد بن عبد الله أشفق على أبيه وبني عمومته واتصل بهم عن طريق أمه التي زارتهم في السجن تخبرهم أنه يفكر في مصالحة المنصور ، فأرسلوا إليه ألا يفعل ، وأنهم سيصبرون على بلواهم ، وقد هلك الكثير من بني حسن في السجن ، ومنهم محمد ابن إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وعبد الله بن حسن ، وإبراهيم بن حسن ، وغيرهم .

فلما ضاق محمد ذرعا بالاختفاء ، تواعد هو وأخوه بالظهور في يوم واحد ، فظهر محمد بالمدينة عام 145^{هـ} ، وهجم على أمير المدينة ، وسجنه ، ثم استولى على المدينة ، كما استولى أخوه على البصرة في اليوم نفسه ، وبايعه أهل المدينة ، وتلقب بالمهدي ، وقد صرح بمهديته في بعض رسائله إلى المنصور .

ثم بعث أحد رجاله ومعه سبعون رجلا وعشرة فرسان إلى مكة ، فأخذوها ودانت له ، ثم بعث رسولا إلى أهل الشام يدعوهم إلى بيعته وخلافته ، فأبوا ذلك قائلين إنهم ضجروا من الحرب وملوا من القتال ، ولكن السبب الحقيقي هو ما قاله بعضهم : كيف أباعك وقد ظهرت في بلد ليس فيه مال تستعين به على استخدام الرجال؟¹

وقد حاول المنصور جهده أن يرضي محمد بن عبد الله ، ويتجنب الدخول معه في حرب ، فكتب إليه : إن رجعت إلى الطاعة لأؤمنك ومن اتبعك ، ولأعطيك ألف ألف درهم ، ولأدعئك تقيم في أحب البلاد إليك ، ولأقضين لك جميع حوائجك ، فرفض المهدي هذا العرض وعندها أرسل له المنصور جيشا قوامه عشرة آلاف فارس بقيادة عيسى بن موسى العباسي ، أما المهدي فقد قرر بعد أن استشار أصحابه أن يتحصنوا بالمدينة ، وحفروا حولها خندقا كما كان الحال في أيام الرسول عليه الصلاة والسلام ،

¹صناديقي خالد ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص94

وخرج أكثر أهل المدينة حتى لا يشهدوا القتال ، وقد حاول عيسى بن موسى أن يفرق أتباع المهدي ، فصار يعطيهم الأمان ويخبرهم أنه لا يريد قتالهم ، وكل ما يريد أن يأخذ محمد إلى الخليفة ، ولكنه لم يفلح في غرضه هذا ، وفي اليوم الثالث قامت الحرب بينهم ، واقتحمت خيل عيسى بن موسى الخندق ، وحارب أتباع المهدي بشجاعة فائقة وقيل أن محمد بن عبد الله قتل وحده سبعين من جيش عيسى ، إلا أن جند عيسى استطاعوا أن يدخلوا سلع وأن يرف وأن يرفعوا راية العباسيين السوداء فيها ، فتنادى أصحاب محمد بأن المدينة قد أخذت ، فهربوا ولم يبق معه إلا شردمة قليلة ، وبقي يقاتل حتى قتل ، فحز حميد بن قحطمة رأسه وأخذه إلى عيسى بن موسى ، وكان مقتله عليه السلام عند أحجار الزيت يوم الاثنين لأربع وعشرين خلت من رمضان سنة 154¹ .

المهم من هذا كله أن "النفس الزكية" كان يرى في نفسه أنه المهدي الموعود ولم ينتبه إلى السنن الكونية ، وأن ظهور المهدي لا بد له من مقدمات يستطيع فيها أن يحكم المسلمين حكما إسلاميا صحيحا ، وأن المهدي في آخر الزمان يصاحبه نزول عيسى - عليه السلام - .

وإدعى بعض "الجار ودية" أنه حي لم يُقتل ، ولا مات ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، وزعم "المُحمّدية" أنه في جبل حاجر من ناحية نجد ، إلى أن يؤمر بالخروج فيخرج ، ويملك الأرض ، ويباع له بمكة بين الركن ، والمقام . وبعد أن استتبت الخلافة للعباسيين ، وحاول الخليفة المأمون إعادة التحالف العباسي العلوي ، فجعل ولي عهده الإمام علي الرضا وزوجه ابنته ، ولكن هذا سبب الكثير من الاعتراض من الأمراء العباسيين وقواد الجيش ، وأدى على قيام ثورة ضد المأمون لم يخضعها إلا بصعوبة ، ثم حلّ هذه الأزمة السياسية موت الإمام في ظروف غامضة ،

¹صناديقي خالد ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص.94

إلا أن شيعته العلويين اعتبروا أن الإمام قد مات مسموما ، وعادت الأزمة بين العباسيين والعلويين على أشدها ، وبقي الأئمة ملاحقين مضطهدين ، إلى أن أدخل الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري في الغيبة التي لم يخرج منها¹ .

مهدي الفاطميين :

بينما كان العباسيون يركزون جواسيسهم ضد الأئمة الإثني عشر ، ويضيقون عليهم في كل المجالات ، انتشرت في البلاد الإسلامية دعوة علوية من نوع آخر ، بدأ بها إسماعيل بن الإمام محمد الباقر المتوفى عام 145 ، وتقوم على مبدأ السرية الكاملة ، وقد توفي الإمام إسماعيل في حياة أبيه عام 145 فخلفه في زعامة الدعوة السرية ابنه محمد الذي استتر عن الأنظار وتقل في الأمصار إلى أن استقر في تدمر عام 191 واتخذها مقرا له ، وأرسل إلى المغرب داعيتين من كبار دعائه هما الحلواني وأبو سفيان بمدينة كتامة، والحلواني بموقع يقال له سوق حماد ، وكان لجهد الإمام محمد الدائب الفضل في انتشار هذه الدعوة في الأمصار ، ولما توفي عام 193 خلفه ابنه الأكبر أحمد الوفي الذي توفي عام 212 فخلفه ابنه محمد التقي الذي توفي عام 265 في مصياف ، وجاء بعده ابنه عبد الله الرضي ، وهو الذي أرسل الداعية أبا عبد الله الحسين أحمد بن محمد بن زكريا إلى المغرب ، توفي الرضي عام 269 فخلفه ابنه عبيد الله المهدي² ، وكان مركزه هذه الدعوة مدينة السلمية في سوريا اليوم ، وقد نجح الدعاة في نشر هذه الدعوة في أقطار شاسعة من الوطن الإسلامي في فارس وبلاد الشام والبحرين واليمن ومصر والمغرب العربي بالرغم من بقاء مركز الدعوة وشخصية الإمام سرا لا يعلمه إلا كبار الدعاة وقد استمرت هذه الفترة السرية ما يقارب من قرن ونصف القرن ، وتاريخ هذه الفترة كان ولا يزال محاطا بالغموض ، وعندما تولى مركز الإمامة عبيد الله المهدي شكك بعض المؤرخين في كونه من نسب الإمام

¹ صناديقي خالد ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 94.

² عبد الله الأشقر عمر ، القيامة الصغرى ، دار النفائس، الأردن ، ط3، 2004 ، ص 219.

محمد ابن إسماعيل ، وقالوا : "بأنه حفيد الداعي ميمون القداح الذي كان يهوديا من بيت مجوسي ، فانتسب بالكذب والزور إلى أهل البيت ، وادعى أنه المهدي الذي بشر به النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وملك وتغلب واستفحل أمره ، إلى أن استولت ذريته الذين كانوا أعظم الناس عداوة لله ورسوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، على بلاد المغرب ، ومصر ، والحجاز ، والشام ، واشتدت غربة الإسلام ، ومحنته ، ومصيبته بهم ، وكانوا يدعون الإلهية ، ويدعون أن للشريعة باطنا يخالف ظاهرها ، وهم ملوك القرامطة الباطنية أعداء الله فتستروا بالرفض ، والانتساب - كذبا - إلى أهل البيت ودانوا بدين أهل الإلحاد ، وروجوه ، ولم يزل أمرهم ظاهرا ، إلى أن أنفذ الله الأمة منهم ، ونصر الإسلام بصلاح الدين يوسف بن أيوب - رحمه الله - ، فاستنقذ الأمة منهم ، وعادت مصر دار إسلام بعد أن كانت دار نفاق في زمنهم"¹ ، وقال شيخ ابن تيمية - رحمه الله - : «إن طوائف ادعى كلٌ منهم أنه المهدي المُبشّر به ، مثل مهدي القرامطة الباطنية الذي أقام دعوتهم بالمغرب ، وهم من ولد ميمون القداح ، وادّعوا أن ميمونا هذا من ولد محمد ابن إسماعيل ، وإلى ذلك انتسبت الإسماعيلية ، وهم ملاحدة في الباطن ، خارجون عن جميع الملل ، أكفر من الغالية ؛ كالنصيرية ، ومذهبيهم مُركب من مذهب المجوس ، والصابئة ، والفلاسفة ، مع إظهار التشيع ، وجدهم رجل يهودي كان ربيبا لرجل مجوسي ، وقد كانت لهم دولة و أتباع ، وقد صنّف العلماء كُتبا في كشف أسرارهم ، وهتك أستارهم ، مثل : كتاب أبي بكر الباقلاني ، والقاضي عبد الجبار الهمداني ، وكتاب الغزالي ، ونحوهم » .

ليس ابن تيمية وحده من شكك في نسب المهدي عبيد الله ، بل نجد ذلك الأمر حتى عند الحافظ ابن كثير- رحمه الله - قائلا : «كانت مدة ملك الفاطميين مئتين وثمانين سنة ، وكسرا ، فصاروا كأمس الزاهب (كَأَنَّ لَهُمُ يَغْنَمًا فِيهَا) ، وكان أول ملك منهم

¹ عبد الله الأشقر عمر ، القيامة الصغرى ، ص.219

المهدي ، وكان من سلمية ، حدادا اسمه عبيد ، وكان يهوديا ، فدخل بلاد المغرب ، وتُسمى بعبيد الله ، وادّعى أنه شريف علويّ فاطمي ، وقال عن نفسه إنه المهدي ، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء والأئمة ، بعد الأربع مئة ¹ .

والمقصود أن هذا الدّاعي الكذاب راج له ما افتراه في تلك البلاد ، و وزاره جماعة من الجهلة ، وصارت له دولة وصوله ، ثم تمكن ، إلى أن بني مدينة سمّاها "المهدية" ، نسبة إليه ، وصار ملكا مطاعا ، يُظهر الرفض ، وينطوي على الكفر المحض ، وهكذا استطاع عبيد الله - في نظر ابن كثير وابن تيمية - أن يستغل لقب المهدي لأغراضه السياسية الدنيئة .

إلا أن البعض يرى في أن هذا الشك لا يقوم على أي شهادات واضحة ، ومن الصعب القبول بأن أحد الدعاة يستطيع أن يأخذ مكان سيده الإمام ، كما أنه من الطبيعي أن يقوم مثل هذا الشك بعد فترة السرية الطويلة التي مرت بها الحركة الإسماعيلية ، ومن الواضح أن هذه الأقوال كانت دعاية رخيصة من خلفاء بني عباس ² .

وبعد تولي محمد المهدي الإمامة رفض زعيم القرامطة الاعتراف بإمامته ، وانشق القرامطة عن مركز الدعوة ، إلا أنه في تلك الفترة نجحت دعوة أبي عبد الله نجاحا كبيرا في نشر الدعوة بين قبائل كتامة وغيرها من البربر ، وقامت هذه القبائل بثورة ضد الأغلبية الذين كانوا يحكمون المغرب الأفريقي ، وقد شجعت هذه الأخبار عبيد الله المهدي على الذهاب إلى أفريقية فخرج من السلمية إلى سجلماسة ، ولكن الوالي العباسي اليسع بن مدرار قبض عليه ووضع في السجن ، وبقي في السجن إلى أن جاءه أبو عبد الله مع مائتي ألف فارس وراجل عام 296 فطوقوا سجلماسة ، وفتحوها وقبض على اليسع ، وزال ملك بني الأغلب من أفريقيا وملك بني مدرار بعد أن استمر 103 سنوات في سجلماسة ، وخرج الإمام محمد المهدي من السجن عام 296 فبايعه

¹ عبد الله الأشقر عمر ، القيامة الصغرى ، ص 220.

² صناديقي خالد ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 95.

الناس ، وكان الداعي أبو عبد الله يبكي ويقول مخاطبا الناس : هذا مولاكم ، ثم توجت الدعوة يوم الثلاثاء في العشرين من ربيع الثاني لعام 297 بإعلان عبيد الله المهدي إماما وأول خليفة للدولة الفاطمية الجديدة في مدينة رقادة في إفريقية ، ثم انتقل إلى عاصمته الجديدة التي أسسها بعد ذلك في (المهديّة) التي بنيت على شاطئ البحر لهذا الغرض ، وأثبت المهدي قدرته العسكرية وحنكته السياسية في إخضاعه الثورات التي قامت ضده ، ووقوفه كخليفة إسلامية صامدة على صف الخلافتين العباسية في بغداد والأموية في الأندلس ، واستطاعت بحريته غزو صقلية وكلايريا وأبوليا ، وغزت قواته مصر مرتين في حياته بقيادة ابنه أبي القاسم ، وفي كليهما تمكن أبو القاسم من فتح الإسكندرية ولكن قواته تراجعت أمام قوة الجيش المصري إلى إفريقية ، ولم تفتح مصر إلا في زمن المعز لدين الله الخليفة الفاطمي الرابع الذي نقل عاصمته إلى القاهرة ، وبقيت القاهرة عاصمة الفاطميين حتى عام 567 عندما مات آخر خلفائهم العاضد¹.

وعليه اختلفت وجهات النظر إلى المهدي عبيد الله بين مؤيد لحركته السياسية الناجحة وبين معارض لأدعائه المهديّة بغير حق كونه لا ينتسب إلى آل البيت وإنما ادعى ذلك كذبا وبهتاناً، إلا أنه في كلتا الحالتين نجد أن فكرة المهدي لها تأثير واضح وكبير على نفسية الشعوب حتى وإن كان ذلك مجرد ادعاء باطل للمهديّة.

مهد يون مغمورون :

في سنة 303 ظهر رجل ببلاد الديلم – وأصله من بغداد – وهو أبو عبد الله محمد بن الحسين من أولاد الحسين بن علي ، ويعرف بابن الراعي ، فالتف حوله خلق كثير ، ودعا إلى نفسه وتسمى بالمهدي ، وعظم شأنه في تلك البلاد ، وهرب منه ابن الناصر العلوي ، وفي السنة نفسها ظهر رجل في الكوفة ادعى أنه علوي ، وكان يتبرقع فسُمي

¹صناديقي خالد ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص.96

لمتبرقع ، وغلظت فتنته وبعُد صيته وذلك في غيبة معز الدولة عن بغداد وانشغاله بمقارعة أمير الموصل ، فلما رجع إلى بغداد اختفى المتبرقع ولم يعرف له أمر بعد ذلك¹

وقد صار النسب العلوي شرطاً لكل من يدعي المهديّة لدرجة انه في عام 357 هـ ظهر رجل في مصر ادعى أنه علوي ، وسمى نفسه محمد بن عبد الله ، وتلقب بالمهدي ، وتبعه الكثير من شيعة بغداد ، وكان من جملة المستحسنين له في بغداد " سبكتكين الحاجب " الذي كان شيعياً ، فكتب إليه أن يأتي إلى بغداد ليأخذ له البلاد ، فترك مصر قادماً العراق حيث تلقاه سبكتكين قرب الأنبار ، وفوجئ سبكتكين عندما رآه وتبين أنه محمد بن المستكفي بالله العباسي ، فحمله إلى المعز الدولة الذي سلمه إلى الخليفة المطيع لله ، فجدع الخليفة أنفه ، وتركه أنصاره عندما علموا أنه عباسي وليس علويًا ، واختفى أمره بعد ذلك ولم يظهر له خبر .

وفي سنة 483 هـ هم أهل البصرة رجل يقال له بلياً ، ويقول عنه الحافظ ابن كثير بأنه كان ينظر في النجوم ، واستغوى خلفاً من أهل البصرة وادعى أنه المهدي ، وأحرق من البصرة شيئاً كثيراً من ذلك دار كتب وفتت على المسلمين لم ير في الإسلام مثلها ، وأتلف شيئاً كثيراً من الدوايب والمصانع وغير ذلك ، ثم كتب عام 484 هـ إلى أهل واسط يدعوهم إلى طاعته ، ويذكر في كتابه أنه المهدي صاحب الزمان الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويهدي الخلق إلى الحق ، فإن أطعتم أمنتم من العذاب ، وإن عدلتم خُسف بكم ، فأمنوا بالله وبالإمام المهدي ، ولكن مهديته لم تطل ، إذ قبض عليه وجيء به إلى بغداد محمولاً على جمل ، وعلى رأسه طرطورة بودع ، وطيف به الأسواق والناس يلعنونه وهو يسبهم ، وهو يُضرب من كل جانب ، ثم صُلب بعد ذلك².

مهدي المغاربة : ابن تومرت :

¹صناديقي خالد ، اليوم الآخر ونهاية الزمان ، ص 96.
²المرجع نفسه، ص 97

كان عام 514¹ ابتداء ملك محمد ابن تومرت ببلاد المغرب الذي تسمى بالمهدي وسمى جيشه الموحدين ، ولد ابن تومرت بمنطقة سوس من قبيلة هرغة ، التي هي بطن من بطون قبيلة مصمودة الكبرى ، ويختلف المؤرخون في تاريخ مولده بين 469 إلى 474 وقال ابن القطان أنه ينتسب للرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكن الكثير من المؤرخين يشككون في هذا النسب ، وكان في أول أمره ملازما للمسجد والدرس ، محبا للعلم ، رحل إلى الأندلس وتلمذ على قاضي قرطبة أبو جعفر حمدين بن محمد بن حمدين ، ثم انتقل إلى الإسكندرية حيث أخذ عن أبي بكر الطرطوشي ، ومنها انتقل إلى مكة والمدينة ودمشق وبغداد ، ويقول ابن أبي زرع أنه أخذ عن الغزالي ، وكان في بادئ أمره زاهدا متعبدا ينتقل بين البلاد الإسلامية وليس معه إلا ركوة وعصا ، ولا يسكن إلا المساجد ، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويُقري الناس القرآن ويشغلهم بالفقه ، ويصفه ابن أبي زرع بأنه كان (عالما فقيها راويا لحديث النبي صَلَّى الله عليه وسلم ، حافظا له ، عارفا بالأصول ، عالما في علم الاعتقاد والجدل ، فصيح اللسان) ، فطار ذكره في البلدان ، ولما كان في مراكش أنكر على أهلها أن الرجال يتلثمون والنساء يمشين سافرات عن وجوههم ، حتى أنه تعرض لأخت ملك مراكش في موكبها فطرده الملك يوسف عن بلده ، فشنع عليه ودعا الناس إلى قتاله فاتبعه خلق كثير ، وجهاز إليه الملك جيشا كثيفا ولكنه هزمه ، وعندما حاول أن يأخذ مراكش قاتله أهلها قتالا شديدا ولم ينجح في مسعاه ، وقتل في تلك المعركة قائد جيشه عبد الله تومرتي ، وكان ابن تومرت كما يصفه ابن أبي زرع (مقداما على الأمور العظام ، سفاكا للدماء غير متورع فيها ولا متوقف عنها)¹ ، وكان في غاية المكر السياسي ، وبينما يقول عنه أتباعه أنه كان له الكثير من الكرامات ، يقول الآخرون بأنه كان يستعمل حيله في التأثير على الناس وإيهامهم بأنه يعرف الغيب ومؤيد بالعناية الإلهية².

المهدوية عند ابن تومرت :

¹ عبد الله علي علام ، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، دار المعارف ، مصر ، [د.ط] ، 1968 ، ص.70

² المرجع نفسه ، ص.66

لم يعمل ابن تومرت على إبراز حقيقة المهدوية ، بل سلك في ذلك الطريقة نفسها التي سلكها في العصمة حين تحدث عن الدواعي والأسباب المؤدية إلى ظهور المهدي ، إذ قال : " أن العلم ارتفع ، وأن الجهل عم ، وأن الحق ارتفع ، وأن الباطل عم ، وأن الهدى ارتفع وأن الضلال عم ، وأن العدل ارتفع ، وأن الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا ، وأن الملوك الصم البكم استولوا على الدنيا ، وأن الدجالين استولوا على الدنيا ، وأن الباطل لا يرفعه إلا المهدي وأن الحق لا يقوم به إلا المهدي " ، وهو في هذه الدواعي يسير في خط أهل السنة ، فالأسباب الموجبة لظهور المهدي اجتماعية بالدرجة الأولى ، وتعني اختلال الأحوال ، ومآل الأمور إلى غير أهلها ، وهذا الوضع يعبر عنه بآخر الزمان وعلامات الساعة ، ولهذا قال ابن تومرت عن زمن مجيء المهدي : " وأما الزمان فيأتي في آخر الزمان " ¹.

إذن المهدي ، عند ابن تومرت مصلح ومقوم للاعوجاج ، منظر الظهور ، وهو في ذلك يساير المعتقدات الشعبية الشائعة ، التي تستعمل لمقاومة اليأس وإحياء الأمل ، وانتظار معجزة من السماء ، وفي الوقت نفسه يستند إلى هذه المعتقدات لكي يؤكد حقيقة المهدي ثم يجعل منها محورا لصحة العقيدة : إذ يقول : " إن المهدي معلوم في العرب والعجم والبدو والحضر ، وأن العلم به ثابت في كل مكان ، وفي كل ديوان ، وأن ما علم بضرورة الاستفاضة قبل ظهوره ، يعلم بضرورة المشاهدة بعد ظهوره ، وأن الإيمان به واجب ، وأن من شك فيه كافر " ² ويتضح من هذا أن تصور ابن تومرت للمهدوية يختلف تماما مع الإمامية – كما سنرى لاحقا – فهي عندهم من صميم العقيدة ، ويتوقف على وجودها استمرار عقيدة الإمامة في الإيمان بالمنتظر ، حين تعذر استمرارها في الواقع المشحون بالحروب والقهر السياسي ، ومن يسوغ الإمامية عقيدتهم في المهدي بالسنة النبوية الثابتة ، بغض النظر عن الأحوال الاجتماعية إن كانت تتصف بالجور ، أم تتصف بالعدل ، ويرون أنها تدخل في باب " وما أتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا " ¹ كما رأينا .

¹المقدم اسماعيل محمد أحمد، المهدي ، ص 479.

²المرجع نفسه ، ص 480

¹ عبد الله علي علام ، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، ص 66.

فهمة المهدي عند ابن تومرت مهمة سياسية تربوية ، إنه الحاكم الكامل الذي ينبغي على الأمة أن تؤمن به لكي يقودها إلى العزة ، فهو وحده القادر على ذلك ، لأنه " معصوم فيما دعا إليه من حق ، لا يجوز عليه الخطأ فيه ، وأنه لا يُكابر ، ولا يُضاد ، ولا يُدافع ، ولا يُعاند ، ولا يُخالف ، ولا يُنازع ، وأنه فرد في زمانه، صادق في قوله. ولكن تأكيد هذه المكانة ليست هدفها لذاتها ، أو لتسوغ مذهب ، أو لقبول حاكم أو حد ، بل أن هذه المكانة تؤهله أن يزيل عن الأمة الغمة ، التي فرضها عليها الطغاة – المرابطين حسب رأيه-، وبهذا الصدد يقول عن مهمة المهدي : «إنه يقطع الجبابرة و الدجاجلة ، وأنه يفتح الدنيا ، شرقها وغربها ، وأنه يملأها بالعدل كما ملئت بالجور، وأن أمره قائم إلى أن تقوم الساعة»² .

إذن فهمة المهدي مهمة سياسية حضارية تقوم على قطع دابر من كان سببا في ضعف الأمة ، وضياع حقوقها ، وحدود الله ، ويتم ذلك عن طريق تحريرها مشرقها ومغربها أن المهدي هو الأمل الذي ينبغي الاتفاق حوله من أجل تحقيق عزة الأمة . ومسألة بعث الأماني وتحديد طموح الأمة في الانبعاث والانعقاد تتكرر عبر التاريخ ، ولعل هذا ما جعل أحد الأنثروبولوجيين الألمان يرى في حركات التحرير المعاصرة في الشعوب المستعمرة حركات مهدوية ببعدها الميتافيزيقي وليس حركات ذات بعد اجتماعي اقتصادي فقط .

وقبل هذه الحركات بقرون كان ابن تومرت ، قد عرف كيف يصوغ نظرية الإنسان الكامل ، الذي تقوم على عاتقه مهمة بناء الأمة والدولة ، بعد انحطاط كل من العقيدة

والمجتمع ، ويصور لنا هذا الانحطاط تصويرا عميقا، حتى يهيئ الأذهان لقبول فكرة الحاكم المُخْلِص من هذه الأوضاع ، ففي مجال انحطاط العقيدة يقول : " انقلبت الحقائق، وعطلت الأحكام ، وفسدت العلوم ، وأهملت الأعمال ، وماتت السنن ، وذهب الحق ، وارتفع العدل ، واضلّمت الدنيا بالجهل والباطل ، واسودت بالكفر والفسوق والعصيان

² المرجع نفسه، ص. 67.

وتغيرت بالبدع والأهواء " ، أما عن انحطاط المجتمع فيقول : " وامتألت الحياة الاجتماعية بالجور والظلم والهرج والفتن ، وامتد الأمر على ذلك ودام وعدم الناصر والقائم بالحق ، وغلب أهل الباطل، واستولوا حتى انتهوا بالباطل والجور إلى شأو المطالب " .

هذا إذن حال العقيدة والمجتمع، فمن المنقذ؟ لا أحد يملك القدرة على علاج الأحوال ، إلا من هيا الله واختاره لذلك ، وأيده بنصر من عنده ، وهو : " المؤيد المنصور القائم بالحق بعد ذهابه وانهدامه ، والناصر لدين الله بعد إماتته وتعطيله ، والقائم بالعدل في الدنيا حتى يملأها ، والمُظهر للحقائق بعد تعطيلها " .

إن أحوال العقيدة والأمة المتردية هي المقدمة الضرورية لظهور المهدي ولذلك فهو رجل استثنائي يأتي " في زمان الغربة " وأهليته للحكم مدد إلهي ، إذ خصه الله بالفضل كله " بما أودع فيه من معاني الهداية ، ووعد قلب الأمور عن عاداتها ، وهدمها بهدم قواعدها ، ونقلها إلى الحق وينهدم الباطل من قواعده ، وتنهدم بانهدامه فروعه ، ويثبت الحق من أصله ، وتثبت بثبوت فروعه " ¹ .

هذه الأمانى التي يحملها المهدي إلى الأمة، قابلة للتحقيق، لأنها وعد الله الذي قطعه له، وذلك حين يقول: " هذا ما وعد الله تعالى للمهدي وعد الحق الذي لا يخلفه " .

لقد كان ابن تومرت مبتكرا في أسلوب الثورة على الأوضاع القائمة حين لم يترك أية فرصة لخصومه لكي يتهموه بالخروج عن إجماع الأمة ، فاهتدى إلى إضفاء الشرعية الإلهية على حركته إذ ليس له سبب آخر غير ذلك ، عكس ما فعل بنو العباس الذين

اعتبروا الإمامة حقا وراثيا لهم ، أو الفاطميون الذين اعتبروا إمامتهم حقا مغتصبا ، فاسترجعوه ، أما ابن تومرت فلم يدع الإمامة إلا بوصفه المهدي الذي خصّه الله بالهداية ، ولهذا نراه يوظف الأحاديث النبوية الدالة على ظهور المهدي بمهارة ، مبينا أن زمانه آخر الزمان ، وأن مكانه المغرب الأقصى وأن نسبه من ذرية فاطمة ¹ .

¹المقدم اسماعيل محمد أحمد، المهدي ، ص 481.

¹عمارة محمد عمارة، قصة النهاية ، ص.156

فالمهدوية إذن تمثل ، عند ابن تومرت ، الشرعية الثورية ، في مقابل الشرعية السياسية التي كان المرابطون قد اكتسبوها ، فما أهمية ، هذه الشرعية من الناحية العملية ؟ إنها تضمن طاعة الأمة له ولتعاليمه ، بل تصبح تلك الطاعة واجبة ، لأنه لا يستطيع أن يفرض أية واجبات على الأمة نحو الأمام في غياب الشرعية ، ولذلك حين أعلن أنه المهدي ، وبايعه أصحابه على ذلك ، حدد واجب الأمة نحو المهدي قائلا : " فالعلم به واجب ، والسمع والطاعة له واجب ، وإتباعه والاقتراء بأفعاله واجب ، والانقياد لكل ما قضى واجب ، والرجوع إلى علمه واجب ، وإتباع سبيله واجب ،

والاستمساك بأمره ورفع الأمور إليه بالكلية واجب لازم " . هذه الواجبات التي يحددها ابن تومرت نحو الإمام المهدي بترتب عنها حقوق للأمة ، وهي نيل السعادة ، ولذلك تراه يحدد هذه الحقوق بقوله : وبموافقته (أي المهدي) تنال السعادة ، وبطاعته تنال البركات ، وفي مسابقة الناس إلى ما بحبه مسابقة إلى ما يحبه الله ورسوله "2 .

وهكذا استطاع ابن تومرت أن يضع أركان الإمامة التي يسرت له وضع أسس الدولة الموحدية ، وقد كان بارعا في الاقتباس والانتقاء ، ولم يكن مقلدا لأحد ، أو متبنيا لطريقته ، أو منتصرا لمذهبه ، بل درس عقلية الأمة عامتها وخاصتها ، وعرف طبعها بسبر أغوارها ، أو كما يقال بلغتنا المعاصرة كان خبيرا بسيكولوجية القيادة ، وقد اكتشف من خلال تفقّه ديناميكية العقيدة الإسلامية ، وقدرتها على تجديد همة الأمة وطموحها ، إذا وجدت من ينفذ عنها غبار فقهاء الدنيا ، وقد استشعر في نفسه القدرة

على ذلك ، فعمل على تحقيق توحيد الألوهية بنشر الأصول ، وتوحيد الأمة بإرشادها إلى العقيدة الصحيحة ، وتوحيد القيادة تحت راية العصمة والهداية الإلهية .

مات المهدي محمد بن تومرت بعد محاولة فتح مراكش الفاشلة بوقت قصير ، فخلفه في زعامة دولة الموحدين عبد المؤمن بن علي الذي تلقب بأمر المؤمنين ، واستمرت الحروب بينه وبين مملكة المرابطين في مراكش إلى أن استطاع عبد المؤمن سنة (

²الإدريسي علي ، الإمامة عند ابن تومرت ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، [د.ط] ، 1988 ، ص171 .

539) من فتح مراكش ، والقضاء على اسحق بن علي آخر ملوك المرابطين ، وصار حاكم المغرب دون منازع ، وتوسع ملك الموحدين حتى شمل معظم شمال أفريقيا والأندلس .

وكانت دولة الموحدين في أول عهدها تتبع العقائد والتعاليم التي وضعها ابن تومرت ، وكانت العادة في رسائل الخلفاء الموحدين التنويه بابن تومرت على أنه الإمام المعصوم والمهدي المعلوم¹.

وجوبية الإمامة وعصمة الإمام عند ابن تومرت :

تميز ابن تومرت عن غيره ممن ادّعوا المهدوية هو قوله بأنه الإمام المعصوم و بوجوب التأكيد على أهمية دور الإمامة في إماتة البدع ومحاربة الفساد وإحياء السنة وإقامة العدل ، وفكرة الوجوب تحظى بالاتفاق عند جميع الفرق الإسلامية من الناحية الصورية ، ولكنها تختلف في طبيعة هذا الوجوب فما طبيعة هذا الوجوب عند ابن تومرت ؟ يقول في أول كتاب الإمامة : " هذا باب في العلم وهو وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة " ثم ويوضح طبيعة هذا الاعتقاد على الكافة فيقول : " وهي ركن من أركان الدين وعمدة الشريعة "² ، فالإمامة عنده ركن من أركان الدين ، وعلى هذا فهي من الأصول وليست من الفروع ، في حين عدها الأشاعرة من الفروع ، بل فرض من فروض الكفايات كالجهاد والقضاء ، وفي الوقت الذي يبتعد فيه عن الأشاعرة نراه

يقترّب من الإمامية الإثني عشرية ، ذلك أن الإمامة عندهم " أصل من أصول الدين ، لا يتم الإيمان إلاّ بالاعتقاد بها ، ولا يجوز فيها تقليد الآباء والأهل والمربين ، مهما عظموا أو كبروا ، بل يجب النظر فيها كما يجب النظر في التوحيد والنبوة " ، المهم أن ما يجمع ابن تومرت والإمامية الإثني عشرية هو أن الدين يسود إذا سادت الإمامة ويتعطل ، وتمحى أثره إذا تعطلت ، وأن هذا التعطيل لن يحدث أبداً لأن الوجود لم يخل في أي زمن من إمام ، قال ابن تومرت : " ما من زمان إلا وفيه إمام قائم بالحق في أرضه " ،

¹ الإدريسي علي ، الإمامة عند ابن تومرت ، ص.172

² عبد الله علي ، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، ص.138

وهنا يتأكد الالتقاء أيضا مع الإمامية الإثني عشرية ففي حديث رواه جعفر الصادق مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن ربه أنه قال : " لم أترك الأرض إلا وفيها عالم يعرف طاعتي وهداي ولم أكن أترك إبليس يضل الناس وليس في الأرض حجة وداع إليّ وهدا إلى سبيلي " ¹ .

ومنه يمكن أن نخلص إلى أن ابن تومرت مثله مثل الإمامية يعتبر الأمة غير قادرة على الاهتداء إلى الحق والصواب من تلقاء نفسها ، ولا حيلة لها في صلاحها إلا بالرجوع إلى علم الإمام في كل دقيقة وجلييلة ، من غير حرج ولا ضيق ، وإذا لم يفعلوا فسدت العقيدة واختل نظام الأمة " ، فعلم الإمام ، إذن نور تهتدي به الأمة نحو الحق والعدل ، ولولا الإمام لما كان العلم ، وفي هذا الصدد يقول : " ويظهر العلم من معانده (الإمام) ويشرق نوره في الدنيا بظهوره " .

والواقع أن ابن تومرت في علم الإمام ، ليس له إلا تفسير واحد ، وهو اعتقاده أن فساد أحوال الأمة ، وظهور المناكر فيها والبدع ، كان بسبب تولي حكام جاهلين بحقائق العقيدة والشريعة قيادة الأمة وهو لا يخفي هذا بقوله : «إن الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا» ، وهو رأي يعارض أيضا ثنائية الغزالي ، القائمة على وجود أئمة يفتون ،

وأئمة يحكمون ، لأن ذلك لم يؤد إلا إلى البلبلة ، وإلى مزيد من الفتن وضياع الحقوق والحدود ، وخاصة أنه عاين أحوال المغرب والمشرق معا ، عن كثب ، وربما رأى أن الحل يكمن في ظهور أئمة يمتازون بكمال العلم وحسن الساسة في آن واحد ، فيقودون الأمة بالعدل الرباني ¹ .

ولذلك يرى ابن تومرت ضرورة الرجوع إلى علم الإمام دون سواه ، وأن من عمل

¹ عبد الله علي علام ، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، 139 .
¹ عبد الله علي علام ، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، ص 146 .

بغير علمه وقع في التلبس، وبعد عن الحق ولهذا يقول: «التأويل دون تأويله بُعد، والسبيل دون سبيله بُعد، والعمل بغير سنته بعد» ، وهكذا تكون نجاة الأمة في الاستمسك بعلم الإمام لأنه " أعلمهم بالله وأقربهم إلى الله "2.

إلى هنا يبدو ابن تومرت مسائرا لخط الإمامية الإثني عشرية في علم الإمام ، ولكنه يذكر الإمام كامل العلم ، ولا يذكر شيئا عن مصدر ذلك الكمال ، أهل هو من الوراثة كما يقول الإمامية أم الكسب ؟

الواقع أن ابن تومرت ، لم يول أي اهتمام لهذا الجانب في ما كتب عن الإمام و الإمامة، ربما لاعتقاده أن سابقه من مفكري أهل السنة والشيعة ، قد قتلوا الموضوع بحثا وجدلا ، ولكن هل نفعت آراؤهم الأمة في شيء ؟ على العكس من ذلك ، زادت مجادلاتهم حدة في بث البلبلة في أذهان الخاصة قبل العامة ، ولأنه كان يرمي إلى إيجاد إمام عملي يصحح ما فسد ، ويقوم ما اعوج ، وذلك لا يتم إلا بإرجاع الاعتبار إلى العلماء في قيادة الأمة بصفتهم " ورثة الأنبياء" ولا ينبغي أن يرثوا الأنبياء في الإرشاد إلى الحق فقط ، بل في الملك أيضا ، لأن حين أزيح ورثة الأنبياء عن مكانتهم الحقيقية اختل الميزان، وعلى هذا فهم وحدهم القادرون على إرجاع الأمور إلى نصابها

مرة أخرى ، لأنهم أكثر الناس خشية لله بدليل قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء)¹.

المهم أنني سأناقش مسألة الإمامة بتمعن عند الشيعة الإمامية ، لذا أحاول الاختصار فقط لأوضح مدى ارتباط فكرة المهدي المخلص بالإمام المعصوم عند ابن تومرت ، ولهذا خلفيات نفسية واجتماعية لدى ابن تومرت لا أود الخوض فيها لأن الحديث حولها سيطول ، وعليه أركز هنا على مسألة هامة جدا ، تتمثل في أن ابن تومرت تميز عن

² المرجع نفسه ، ص 146.
¹ الآية 28 - سورة فاطر -

سواء ممن ادعوا المهدوية لأنفسهم بأنه بشر معصوم من كل زلل أو خطأ ، إلا أن هذا التنويه بعصمة ابن تومرت ومهديته انقطع في عهد المأمون وعادت عقيدة دولة الموحدين إلى مذهب الإمام مالك ، لكن لا نختلف في القول أن ابن تومرت استطاع تأسيس دولة لا يستهان بها لمجرد أنه ادعى أنه المهدي المنتظر ، فتصور معي مدى تأثير هذه الفكرة على عقول الشعوب ، وتواصلت مسألة ادعاء المهدية والعصمة مع زعماء آخرين كما سنكتشف ذلك مع مهدي السودان .

مهدي السودان ومشروعه المهدي:

ولد محمد أحمد بن عبد الله في السابع والعشرين من رجب سنة 1260² الموافق للثاني عشر من أغسطس 1844م ، وأن مولده كان بجزيرة " لبب " ، إحدى جزائر الأشراف ، بدنجلة في السودان .

وكان أبوه نجارا يصنع القوارب ، درس العلوم الدينية واتجه في بادئ أمره اتجاهها صوفيا وكان زاهدا محبا للعلم ، انضم إلى حلقة الشيخ محمد شريف نور الدائم حفيد مؤسس الطريقة السمانية في السودان ، ثم تركه وانضم إلى الشيخ القرشي ولد الزين ، ثم أسس مركز حركته الإسلامية في جزيرة أبا في النيل الأبيض ، واشتهر بزهده وإخلاصه ، فانضم إلى حركته الكثير ، وفي عام 1881 انضم إليه عبد الله بن محمد من عرب دارفور ، الذي صار فيما بعد ثقته ، وخلفه في زعامة دولة المهدية² .

وأعلن أنه المهدي في عام 1881 ، وأول ما أعلن ذلك لتلميذه عبد الله بن محمد ، ثم لأتباعه المقربين ، ثم أظهر دعواه في 29 حزيران 1881 وذلك بإرسال رسائل إلى الأعيان يطلب فيها تأييده ، كما أرسل تلغرافا بهذا الموضوع إلى حاكم السودان العام ، وأعلن أن هدفه إعادة الإسلام والأمة الإسلامية إلى الحق والخير ، وسمى نفسه (خليفة رسول الله) بينما سمي كبار أتباعه خلفاء الصحابة ، فكان عبد الله بن محمد خليفة الصديق ، وعلي ولد حلو خليفة الفاروق ، وصهره محمد شريف بن حامد خليفة الكرار (أي الإمام علي) ، وسمى أتباعه بالأنصار ، إلا أن العلماء الشرعيين لم يقبلوا ادعائه لأنه لم يحرز - حسب رأيهم - الشروط اللازمة لهذا اللقب.

²المقدم اسماعيل محمد أحمد، المهدي ، ص 481.

أظهر " محمد أحمد " في هذه الفترة إخلاصا شديدا للدين ، وراض نفسه حتى يكبح جماعها ، واشتهر بالزهد والتقوى وبالورع ، والولاء الخالص للأستاذ ، كما أظهر تبرما مبكرا من علاقة المشايخ بالحكومة ، وقبولهم الجرايات* التي تنفقها عليهم ، كان يرى أن ذلك مال حرام ، يُجبى بلا شريعة تُسنده ، وبأسلوب من العسف شديد .

أسباب الثورة المهدية :

لا شك أن حركة المهدي السوداني كانت حركة دينية في أساسها الفكري ، وغايتها ووسائلها ، ولا شك أيضا أن التصديق بأنه المهدي الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم خلع على زعامته نوعا من القداسة ، وجعل الناس يتسابقون إلى لقائه ، والدخول في طاعته ، وهذا لا يعني إغفال العوامل الأخرى التي دفعت حركته إلى " الثورية " ونخص العامل الثقافي بالذكر ، إذ أن الصوفية هي التي شكلت ، وصاغت صورة المهدي المنتظر ، لما كانت تمثله من مرجعية بالنسبة للمجتمع السوداني عامة ، ولشيوخ الطرق خاصة¹ .

وهذا التصور لم ينبثق من مصادر السنة الصحيحة المحضنة ، وإنما اختلط به زيادات

أضفتها عليه ، وأضافتها إليه مصادر أخرى للتلقي ، لا يسلم بها أهل السنة والحديث ، كالأحاديث الضعيفة والموضوعة ، والكشف ، والإلهام ، والرؤى ، وحكايات الأولياء ، واللقاءات المزعومة والموضوعة بالخضر ، والأقطاب والأوتاد ، بل التلقي المباشر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة ، أو النقل عن اللوح المحفوظ مباشرة .

لقد كان الشعب السوداني يتطلع إلى " المهدي المنظر " (الذي يخلصه من المظالم، الذي أناحت على كاهله بشدة، والتي جعلت من الحكام وحوشا مفترسة، فالضرائب باهظة، والرشوة متفشية، والدماء مهدرة، والأعراض مستباحة، والعدالة مفقودة، وفي مثل هذا الجو يشطح الخيال ، ويستبد الأمل بالناس ، فيتمنون الخلاص بأية طريقة ،

* الجرايات : جمع الجراية ، وهي الجاري من الرواتب .
المقدم إسماعيل محمد أحمد، المهدي ، ص461

وينتظرون طلوع الفجر من أية ناحية ، وقد لعبت الطرق الصوفية دورها في هذه المحنة ، وهيات أذهان الناس لقدوم ذلك البطل وقد كان لابن عربي وكتبه دور كبير في هذه الناحية ، فقد تكلم عن المهدي كثيرا في " الفتوحات المكية " وغيرها من كتبه ، وكانت أقواله وكتاباته متداولة في السودان بكثرة ، وقد أخذ عنه مهدي السودان كثيرا وسار على المنوال الذي اختطه ، وكانت مهديته تجسيدا للمعنى الذي أشار إليه ابن عربي في كتبه ومؤلفاته)¹ .

لقد كان من عادة محمد أحمد " المهدي " السوداني أن يخرج سائحا مع بعض أصحابه لإنذار الناس ودعوتهم ، " وقد جال في جميع البلاد ، ورأى بعينه وجد الناس - خاصيتهم وعاميتهم- على الحكومة ، وشدة رغبتهم في التخلص منها ، حتى كان الكثيرون يتمنون ظهور المهدي الموعود ، لإنقاذهم من الحال التي كانوا عليها ، وكلما رأوا رجلا يفضلهم درايةً وعقلا متصفا بالغيرة على الدين ، ظنوه المهدي المنتظر " .
لقد ترك هذا كله أثرا في نفس " محمد أحمد " فانصرف إلى التأمل والدراسة ، واتجه إلى الاعتكاف والخلوة ، ولقد تافت نفسه أن يكون هو هذا الرجل الذي ينتظره الناس ،

وبات يحلم بهذا المنصب الذي يحكم بين البشر بالعدل ، والقسطاس ، لقد لعبت العوامل النفسية والشخصية دورها في نفس محمد أحمد ، واضطرت في قلبه جذوة الشوق والوجد ، إنه صوفي عريق في التصوف ، والصوفية يعتمدون على الذوق والإلهام والكشف ، وفي عالم الصوفية مجال فسيح للتزقي والسمو ، ولشيخه " محي الدين ابن عربي " في ذلك كلام جميل وحلو ، فإذا نظرنا إلى المناخ العام في أفريقية وجدناه أيضا مشحونا بفكرة ترقب خروج " المهدي المنتظر " ، إذ كانت بلاد العالم الإسلامي قد سقطت فريسة بيد الاستعمار الصليبي، وعانت ما اتسم به من تعصب وكراهية وحقد فبدأت تغلي مراحل السخط والثورة والانفجار¹ .

¹ المقدم إسماعيل محمد أحمد، المهدي ، ص 462
¹ المقدم إسماعيل محمد أحمد، المهدي ، ص 462

إذن عاش محمد ابن أحمد أوضاع سياسية مضطربة ، أين شهد الانحطاط والتراجع الذي أعقب ضعف الدولة العثمانية ، حيث تراجعت قوة العثمانيين مقابل نهضة الأوربيين ، واشتدت المواجهة بين "دار الإسلام" و"دار الحرب" ، بين الأتراك العثمانيين ، وخلفهم العالم الإسلامي في مواجهة الكنيسة البابوية ، ومنه يمكن تلخيص عوامل الثورة المهدية في ما يلي :

1. فساد الأوضاع الداخلية في السودان : فقد شاهد محمد أحمد فيما شاهد أرواحا

مهجرة ، وحرقات مغتصبة ، وأملاكا منهوبة ، وبلادا مخربة ، والناس بين أثرياء ساقطهم تيارات النعيم إلى الشهوات والعواية ، بل الحكومة نفسها كانت لعنة ، ونظام الحكم في القاهرة أصبح فاسدا ، رشوة وظلم وحكام جهلة .

2. الثورة العرابية في مصر : لقد لبث حركة "أحمد عرابي" في مصر دورا بارزا

في الثورة المهدية ، فهي التي أعطت المهدي السوداني الإشارة ، وفتحت أمامه الطريق إلى الثورة ، وهتفت بالسودانيين أن هيا حطّموا قيود الذلّ والعبودية والدليل على ذلك :

أ – أن الثورة المهدية قامت بعد أشهر قليلة من الثورة العرابية .

ب- أن الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة العرابية هي نفس الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة المهدية .

ج- أن نظام الحكم الذي ثار عليه الشعب المصري هو نفسه نظام الحكم الذي ثار عليه الشعب السوداني¹ .

د- أن الفتوى التي أصدرها علماء الأزهر بمروق الخديوي عن الدين الإسلامي ، بسبب خيانتة، وانحيازه إلى الجيش البريطاني ، قدّمت إلى " المهدي " أكبر حجة لتسوغ ثورته ضد ممثلي هذا الحاكم، ونوابه في القطر السوداني.

ه- أن الجيش المصري ، الذي كان مفروضا أن يقضي على حركة المهدي ، كان مشغولا في القاهرة بحربه ضد الإنجليز والخديوي ، فلما أخفقت الثورة العرابية ،

¹المقدم إسماعيل محمد أحمد، المهدي ، ص.465

وسيطر الإنجليز على مقاليد الحكم في القاهرة ، أرسل الخديوي فرقا من الجيش بقيادة الإنجليز لإخماد حركة المهديّة ، فكان الضباط والجنود المصريون يفرون بأسلحتهم وعتادهم إلى صفوف المهدي ، وكانوا يقولون : إنهم لم يرسلونا إلى السودان إلا لقتلنا ، بسبب أننا من جنود عرابي ، وهذا مكسب جديد للمهدي كونه أنه أحسن استغلال الظروف السياسية لصالحه .

ومنه يمكن القول أن الميدان كان خاليا أمام المهدي، فمضى في طريقه إلى الجهاد والثورة والتحدي، بل الأهم من هذا كله أن أهل السودان – خاصتهم وعامتهم – صدّقوا دعوة المهدي ، وتوافد إليه الزعماء ، وشيوخ القبائل مبايعين من كل حذب وصوب ، قائلين : " نبايعك على المهديّة ، وإن لم تكن مهديا ، نبايعك على قتال الحكومة ، وخلق طاعتها " .

إذن كان " البطل " الذي يبحث عنه السودان قد استكمل كل عناصر الثورة ، وكانت الظروف قد هيأت المناخ العام للتجاوب معه ، لقد بدأ الطوفان ، ولا أمن ولا أمان إلا

في سفينة إمام الزمان .

إن مما يلفت النظر أن " إعلان المهديّة " اقترن بدعوى خطيرة لا خطام لها ، ولا زمام ، والعجيب أن الناس في غمرة التعطش لخروج القائد المنتظر انقادوا انقيادا أعمى لتلك الدعوى العريضة التي صرخ بها المهدي في قوة ، وعنف ، وحماس وإصرار ، وها هو ذا يخاطب شعبه المقهور قائلا :

«فإلى قاطبة العلماء، والتجار، والعمد والفقراء، والمساكين، من عبد ربه محمد المهدي بن عبد الله :

اعلموا - وفقني الله وإياكم إلى اتباع الكتاب والسنة- أن قد أيدني الله - تعالى بالخلافة الكبرى ، وأعلمني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأنني المهدي المنتظر، وخلفني بالجلوس على كرسيه مرارا ، بحضرة الخلفاء والأقطاب والخضر ، وأوتيت سيف النصر من حضرته صلى الله عليه وسلم ، وأعلمت أنه لا يُنصر عليّ معه أحد ، و

أيدني الله - تعالى - بالملائكة المقربين ، وبالأولياء من لدن أبينا آدم -عليه السلام - إلى وقتنا هذا ، وكذلك الجن إلى وقتنا هذا ، بعد أن أسلموا ، وصدقوا بمهديتي (...) وفي حال الحرب يحضر مع الجميع أمام جيشي سيد الوجود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذاته الكريمة .¹

هذا اعتراف صريح من المهدي بإمامته وعصمته ، وقدرته على تخليص البشرية من المظالم والمفاسد وانتهاك الحرمات ، فبالرغم من مبالغته وهذيانه أحيانا إلا أنه وجد الأرضية خصبة لتقبل وجوده كمُخْلِصٍ للشعب السوداني ، بل العالم بأسره من بطش الاستعمار .

مشروع المهدوية من القوة إلى الفعل :

يُعد أول اصطدام بين أنصار المهدي والحكومة عام 1881 هاجر محمد المهدي وأصحابه إلى جبل قدير في منطقة النوبة، وقد أعطت تلك المنطقة المعزولة حماية

طبيعية للمهدي وأنصاره، مما مكنهم من هزم حملتين شنتهما عليه الحكومة عام 1881 و عام 1882، وقد استفاد المهدي من هاتين الحملتين بأن ضم الأفراد الذين من أصل سوداني إلى جيشه بأسلحتهم، وصار يغزوا المناطق المحيطة به ، واستطاع أن يضم له مديرية العبيد وجعل عاصمتها عاصمة له وفي هذه الأثناء ضعفت سلطة الخديوي واحتل الإنجليز مصر ، فأرسلوا ضده حملة ولكن المهدي قضى عليها ، وخضعت له دارفور و بحر الغزال وكان ذلك عام 1884م بعد استسلام الحاكم الإنجليزي " لبتون" والذي مات في الأسر بعد أربع سنوات¹.

والواضح أنه كان لهذه الانتصارات الأثر العميق في نفسية الإنجليز ، لاسيما وأن الإنجليز كانوا يرتاعون لانتصارات المهدي ، لأن ذلك يعني انهيار إمبراطوريتهم في الشرق ، وسيثور المسلمون عليهم في أفريقيا والهند ، وسيحاول الكثيرون تقليده في

¹المقدم إسماعيل محمد أحمد، المهدي ، ص.482
¹المقدم إسماعيل محمد أحمد، المهدي ، ص.490

الثورة على الغرب ، إن أمر السودان لا يهم ، ولكن العبرة من أحداثه تُثير في القلوب الفرع والرعب ، وقد تساءلت جريدة " البال مال جازيت " عن السبب في عدم إرسال ضابط كفاء ، ليتولى إجهاض هذه الثورة في المهدي ورشحت لهذا الغرض جوردون الجنرال الذائع الصيت .

وصدرت القرارات في القاهرة بتعيينه حاكماً على السودان ، لم يكن للقاهرة في هذا الترشيح أمر أو نهى ، وكان على الخديوي فقط أن يسمع ويطيع ، لقد سقط في شرك الخيانة ، وتآمر مع الإنجليز على الثورة العرابية ، وأصبح - منذ ذلك الوقت - في يد الإنجليز العوبة² .

ولرغبة الخديوي في إعادة بلاد المهدي إلى حكمه ، علماً بأن بلاده هو كانت تحت حكم الإنجليز ، وافق على تعيين جوردون ، أحد العسكريين الإنجليز ، حاكماً للسودان ، الذي كان مركز إدارته مدينة الخرطوم ، إلا أن سلطة المهدي اتسعت شمالاً فأخذ أم

درمان ونقل إليها عاصمته ، ثم حاصر الخرطوم وشدد عليها الحصار إلى أن سقطت عام 1885 وقتل الحاكم الإنجليزي جوردون ، وبهذا صار حاكم السودان بلا منازع .

أصداء الدعوة المهدية خارج السودان :

لاشك أن انتصارات الثورة المهدية على الحكم التركي المصري ، وما أفرزته من مقاومة القوى الاستعمارية ، قد أحدثت دويماً عظيماً في كثير من الأقطار الإسلامية ، الأمر الذي دفع المهدي إلى التطلع للخروج بالدعوة من إطارها المحلي إلى رحاب العالم بعد فتح الأبيض مباشرة ، فقد جاء في منشور بتاريخ 10 ربيع الأول 1300هـ الموافق لـ 19 يناير 1883م ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم : قد بشر " المهدي " بأنه سيصلي في مسجد " بربر " ، ثم المسجد الحرام بمكة ، وفي مساجد المدينة المنورة ، ومصر ،

² المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

وبيت المقدس ، وبغداد والكوفة ، وفي هذه البشرى حثُّ المهدي على ضرورة نشر دعوته على نطاق عالمي¹.

الدولة المهدوية أضحت مشروعاً واقعياً في السودان:

أقام المهدي في "أم درمان" يجمع الجموع ، ويجند الجنود ، لأجل التغلب على الديار المصرية ، وأرسل مكاتيب من طرفه للخديوي ، والسلطان عبد الحميد ، ومملكة إنجلترا يشعرهم بدولته ، ومقر سلطنته ، وضرب النفوذ ، وأصدر بعض المنشورات يبين فيها كيفية أداء الوضوء ، والصلاة ، والمناجاة ، وتناول فيها بعض القضايا الاجتماعية ، كالمساواة بين الغني والفقير ، فألزم أنصاره لبس الجبة المرقعة ، ومنع النساء من لبس الحلي ، وأمر البدو بحلق شعر الرأس ، ودعا إلى تخفيض نفقات الزواج ، وإبطال الغناء والرقص ، ومنع البكاء وراء الميت ، وأبطل السحر وكتابة الأحجية ، وحرّم زيارة أضرحة الأولياء ، وشرب الخمر ، وتعاطي التبغ ، ونهى عن خروج النساء إلاّ

لحاجة ، وحثهن على طاعة أزواجهن ، وستر أنفسهن ، وقضى بعقوبة من تقف حاسرة الرأس تعزيراً¹.

وفي عهد الخليفة عبد الله طبق نظام قضاء المظالم ، وعرف نظام الحسبة الذي يعتمد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحث الناس على أداء الشعائر ، وشدّد على صلاة الجماعة لبث روح الوحدة والإخاء بين أتباعه .

وأقام المهدي حكومة أحياء فيها أجهزة خلافة الراشدين ، من بيت مالٍ ، ودارٍ للقضاء ، وقام بجمع الزكاة ، وجبي العشور ، وتوزيع الفيء ، والغنيمة على أساس شرعي ، ثم إنه قسّم وحدات الجيش ، أو راياته ، على نمط إسلامي ، وأصبح هو على رأس الدولة باعتباره خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يليه خلفاؤه الأربعة ، وعماله ، وأمراء الجيش ، وغيرهم من العمال الذين رتبت وظائفهم على نهج إسلامي .

¹المقدم إسماعيل محمد أحمد، المهدي ، ص505
¹المقدم إسماعيل محمد أحمد، المهدي ، ص508

لم يعمر المهدي طويلاً بعد فتح الخرطوم ، فقد دخل خلوة ، وداهمه المرض وقضى نحبه في " أم درمان " في التاسع من رمضان 1302هـ الموافق لـ 22 يونيو 1885م ، وعمره إحدى وأربعون سنة ، ودفن في المكان الذي قبض فيه ، وكان قد أوصى بالخلافة من بعده لعبد الله التعايشي ، الذي تابع العمليات العسكرية بهدف التوسع ، فقام بغزوات ضد الحبشة بهدف المغام ، كما قام بحملات ضد مصر التي كانت تحت حكم الإنجليز ، ولكن عندما هاجمت قواته مصر عام 1889 هُزمت وقضى عليها شمال وادي حلفا ، وبعد هذه الهزيمة استقرت الحكومة المهدية مقتصرة على المنطقة العربية من السودان الشمالي .

إلا أن الإنجليز لم يتركوه ، فقاموا عام 1896 بحملة ضده بقيادة سير كيتشنر ، وكانت حملة مخططة بعناية ، إذ بنا الجيش الإنجليزي سكة حديد في طريق الحملة لتأمين

تزويدهم ، واحتلوا دنجولة عام 1896 ، ثم سقطت أمامهم أبو حمد في العام التالي ، ثم اشتبكوا مع قوات الدولة المهدية في أبترة عام 1898 ، وبعدها جاءت الضربة القاضية في معركة أم درمان عام 1898 ، إذ قضى على جيش حكومة المهدية ، وهرب الخليفة ولكنه قتل بعد سنة مع مجموعة أصحابه¹ .

إلا أن حركة الأنصار لم تنته بانتهاء دولتهم، بل استمرت بعد ذلك بقيادة عبد الرحمن بن المهدي (1885- 1959) مؤسس حزب الأمة السوداني، الذي كان لزعامته الوطنية وقدرته السياسية أهمية كبرى في تاريخ السودان، وتاريخ حركة الأنصار.

نستكشف من خلال هذا العرض الوجيز لمهدية محمد أحمد أنها استطاعت أن تحقق انتصارات لا تحصى ، فسبب دعاه المزعوم بأنه المهدي المنتظر الذي اصطفاه القدر لهذه المهمة الصعبة، هو أنه أدرك مدى تأثير هذا الاعتقاد على نفسية البشر، فوجد في هذا الادعاء - ادعاء المهدية- سبيل يوحد من خلاله صفوف كافة المسلمين للثورة ضد الظلم ، ونجح في ذلك - بالطبع - إلى حد بعيد لأن التاريخ يشهد على انتصاراته

¹المقدم إسماعيل محمد أحمد، المهدي ، ص509.

ونجاحاته الملموسة بالرغم من تكذيب البعض له ورفضوا أن يكون هو المهدي المنتظر الذي نصت عليه الأحاديث الشريفة .

المبحث الرابع: قراءة للمهدوية المُخلصة المزعومة

القسم الأول : لا منطوق المهدوية المُزيفة وراهنيتها

القسم الثاني : ضوابط الحكم على مُدعي المهدوية

قراءة للمهدوية المُخلصة المزعومة :

ذكرنا فيما سبق أن المهدوية كان لها تأثير بالغ وبلغ على نفسية الشعوب الأمر الذي فتح الباب واسعا أمام المغرضين والمزورين لحقيقة المهدي ، واستغلوها كما رأينا بطريقة دموية تنثير الألم والاشمئزاز عوض أن تكون المهدوية مظهر من مظاهر الخلاص كما كان يأمل الناس ويحلمون باليوم السعيد .

فظهر خلال القرون الماضية أفراد نسبت إليهم المهدوية أو سوّلت لهم أنفسهم أن يدّعوا المهدوية كذبا وزورا ، وقد أحصاهم بعض المؤرخين فبلغوا خمسين رجلا ، والجدير بالذكر أن بعضهم مجهول النسب والهوية والاتجاه والدين والمذهب ، وبعضهم كانت له تصرفات المجانين ، وبعضهم هلك وأتباعه في أوائل دعوته ، وأزيلوا عن الوجود ولم تبق منهم بقية ، وبعضهم مات وبقي اسمه وذكره ، كما فعل اليهودي المتسلم عبد الله بن سبأ ، والمهدي الملحد عبيد الله بن ميمون القّداح ، وعلي محمد الشيرازي (ت180م) الذي ادّعى أنه " باب المهدي المنتظر " ، ثم ترقى فادّعى أنه " المهدي " نفسه، ثم قرر - موافقة لطائفته - نسخ دين الإسلام ، وشيوع المرأة ، والمال ، وإلغاء التكليف ، وكان يسانده ، ويسلحه ، الإنجليز والروس ، وبعد إعدامه سنة 1266هـ ، ادّعى حسين علي

الملقب ببهاء الله إلغاء الأديان ، وأنه مظهر الله الحقيقي ، وأن جميع الأنبياء إنما جاءوا ليبشروا به ، ومن المعلوم أن البهائية كانت عملية للإنجليز والروس، وربيبة للصهيونية العالمية¹ .

ومن هذا الصنف غلام أحمد القادياني الذي ادّعى أنه المجدد ، ثم المهدي ، ثم المسيح الموعود ، ثم النبي المستقل ، وكان للإنجليز دور ضالع في نصرته وتأييد دعوته . كما لوحظ في بعض حالات ادّعاء المهدوية وجود شخصية أخرى إلى جوار المتمهدي تدعمه ، كعبد المؤمن مع ابن تومرت ، والتعايشي ، مع السوداني ، أو تؤثر عليه

وتوجهه ، وتسيطر عليه ، كما حصل من الملائ حسين البشروئي مع علي محمد الشيرازي ، وكما فعل جُهيمان العتبي مع محمد بن عبد الله القحطاني .

من خلال استقراء أحوال مدعي المهدوية ، أمكن رصد حالات يبدو أن أصحابها كانوا مضطربين نفسياً ، فمثلاً "تمرتاش بن النوين" (خفّ عقله ، فزعم أنه المهدي)، " وأحمد بن عبد الله المثلث " : (حصل له انحراف مزاج ، فادّعى في سنة 689 هـ دعاوى عريضة) ، وذكر أنهم حبسوه عند المجانيين¹ .

وربما وُصف بعضهم ، اعتذاراً عن دعواه المهدوية ، أنه كان " في حالة جذب أو " في غلبة الحال ، ولكنه تاب عن ذلك القول في حالة الصحو والإفاقة ، كغيره من الصوفية² .

وجاء في سيرة "نظام الدين السندي" أنه ادّعى أنه المهدي الموعود ، « وشاع ذلك الأمر وذاع ، فوضع في البيمارستان القيّمري بالصالحية مدة ، وسكن عن التخليط ، وقُلل من التخليط ، فأمر القاضي بإخراجه »³ .

فالظاهرة النشاز التي تركت تأثيراً نفسياً وفكرياً على الإيمان بعقيدة المهدي الموعود الحقيقي في النصوص الإسلامية هي تكرار حالات الادّعاء " بالمهدي " ورغبة بعض الأفراد في المجتمع الإسلامي – ومنذ تاريخ بعيد – تقمص شخصية المهدي والتشبهه

¹المقدم محمد احمد إسماعيل ، المهدي ، ص580 ، ص 581.

¹المقدم محمد احمد إسماعيل ، المهدي ، ص 582 .

²المرجع نفسه ، ص583

³المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

بالأدوار الجهادية التي يؤديها بعد ظهوره ، وظلت هذه الحالة تظهر وتختفي وهكذا ، حتى برزت كمشكلة تواجه الفكر الإسلامي على امتداد عصور متتابعة ، الأمر الذي اضطرنا إلى إعطاء قراءة لهذه الظاهرة .

نقول أن البشائر – وبالذات البشارة الخاصة بالمهدي الحقيقي- قد لعبت دورا سياسيا ضخما في دوائر التاريخ السياسي للمجتمع الإسلامي منذ بدء تكوينه ، حيث جنح بعض الأفراد الذين عانوا من وطأة الشعور بالاضطهاد السياسي إلى توظيف الجوانب النفسية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والتاريخية والدينية، والفكرية ، لتلك البشائر في ميدان العمل السياسي بل العسكري كذلك ضد قوى الاضطهاد ، والثابت بمقتضى حركة تاريخ هذه الظاهرة – ظاهرة المهدوية المزيفة – أن بعض هؤلاء نجح ولو مؤقتا في إقامة كيانات سياسية قويّة لا يمكن تجاهل وجودها عند كتابة التاريخ كدولة الموحدين في بلاد المغرب على يد المهدي المزيف محمد ابن تومرت على سبيل المثال* .

وعلى الرغم من كون ظاهرة المهدي المزور تتخذ في أغلب حالاتها طابعا سياسيا ، فإنها نشأت دونما شك في أجواء اجتماعية و نفسية بعضها ينبع من وضوح عقيدة المهدي في الذهنية العامة للمسلمين ، وقوة رسوخها في المجتمع الإسلامي لقرون عديدة وحتى الآن ، وهذا القول ينطبق حتى على الذين أنكروا وجود المهدي لأن إنكار وجود المهدي هو في حد ذاته اعتراف ضمنى بوجوده في عقول عامة المسلمين .

وبعضها يخصّ شخصية المهدي المزيف وظروف تكوينه الثقافي وتربوي والسياسي وليس بإمكان الباحثين والناقدین التغافل عن أثر هذه العوامل التي أسهمت في تكوين حالات الادعاء بالمهدي منذ القرون الأولى للإسلام ، وعلى ضوء ذلك فإن كثيرا من أنماط السلوك السياسي " للمدعين " مصدرها دوافع سياسية خفية ، وهي التي صنعت

* أنظر المبحث الثالث من الفصل الثاني .

حالة المهدي المزيف في ذهنية بعض مرضى النفس المولعين بحب السلطة ، ومحاولتهم تقمص شخصية العظماء وهنا نحاول طرح سؤال : ما الدوافع والعوامل الشعورية والأشعورية التي تختفي وراء نشأة المهدوية المزيفة ، واستمرارها إلى القرن الخامس عشر الهجري رغم وضوح زيفها ، ونفور الذهنية العامة للمسلمين منها ؟ الواقع أن دوافع هذه الظاهرة وعوامله يعود بعضها إلى الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والنفسي والتاريخي للمسلمين ، والآخر خاص بسيكولوجية شخصية المدّعي بالمهدوية ، وسوف نبدأ بما يخص " المدّعي " ثم ما يخص " الواقع النفسي والسياسي والاقتصادي للمسلم وتراكم خبراته الإحباطية " :

أولاً : الاستغلال السيئ للمهدوية :

عرفنا من خلال تاريخ فكرة المهدوية أن بعض الكذابين جنحوا عمدا لاستغلال وهجها وحرارتها الفعالة في النفوس ، استغلالا سيئا يحقق مآربهم الشخصية ، وقد سبب ذلك موقفا سلبيا إزاء عقيدة المهدي والإيمان بها ، وتنفير الشعور الجمعي منها ، حيث دعا بعض العلماء والمفكرين إلى إلغاء هذه العقيدة تماما من الذهنية العامة للمسلمين كي لا تتكرر مآسيها في حياة المجتمع المسلم حاضرا ، ومستقبلا . ومما لاشك فيه أن قوة الفكرة وشدة رسوخها وتأثيرها في نفوس المسلمين خلال تاريخ طويل هو أحد الأسباب التي أدت إلى استغلالها بطريقة مؤسفة ، منحطة ، هو الذي سبب المتاعب لمؤيديها ، وتسفيه عقولهم ، بالرغم من أن قضية المهدي لم تأت من فراغ ، بل انطلقت من النص الإسلامي النقي الذي شدد عليها في مصادر السنة ، وظلت منذ صدر الإسلام الأول فكرة متداولة في الحياة العقائدية العامة للمسلمين ، وبلغت من قوة رسوخها ، وثباتها لدى الناس أن أحاول المستغلون توظيف جوانبها العقائدية والنفسية في العمل السياسي – بل العسكري أحيانا – ضد خصومهم ، وأن بعضهم نجح في إنجاز ما يرغب في تحقيقه بمقدار نجاحه في استثمار هذه الجوانب¹ .

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار – دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، دار الهادي ، بيروت ، ط1 ، 2002 ، ص70

فبين فترة وأخرى يظهر في أوساط المجتمع الإسلامي " مهدي كاذب " يثير ضجة ثم ثم تنتهي بفشل ذريع ويتصدى له الناس ويفضحونه لعدم تطابق المواصفات الشخصية

المحددة " للمهدي الحقيقي " في الأحاديث الدالة على ذاته ، فلا يسود العدل ولا ينتهي الظلم وتضيق دائرة الأول وتتسع دائرة الآخر ، لأن هؤلاء المهديين المزورين يشكلون ركاما آخر من المظالم التي تعاني منها البشرية ، ويتكرر هذه الحالة الهستيرية مرّات عديدة ، وفشل المهدي المزيف في تحقيق أهداف هذه العقيدة ، اقترن هذا الفشل المتكرر بياس إزاء الفكرة ، لأن كل استجابة فاشلة في سلوك المدعي - فردا أو جماعة - يتبعه دائما فشل في تحقيق الآمال ، ونشوء مظالم جديدة تقترن بها ، وهكذا عان المسلمون في أدوار مختلفة من تاريخهم من أذى ظاهرة المهدي الوهمي ، وسبب لهم قلقا وكرهية عميقة لعقيدة المهدي الحقيقية .

وليس بمستبعد أبدا أن يكون الخائفون من انتشار الفكرة هم الذين يدفعون بعض الناس إلى تقمص شخصية المهدي الحقيقي واستغلالها ، وذلك لتكوين مواقف عقلية واتجاهات سلوكية مضادة لها وتنفير الناس منها وبذلك يشعرون - ولو مؤقتا - براحة واستقرار ، فالإتجاه المعادي لهذه العقيدة يحاول جاهدا تخفيف مخاوف المستبدين الذين استهدفتهم عقيدة المهدي وتوعدتهم بالانتقام ، فلو نجح هؤلاء في فصل الجماهير المؤمنة عن هذه العقيدة يكونوا قد أزالوا مخاوفهم ، وصنعوا مواقف أفضل من التكيف مع الفكرة ، ومع الجماهير التي تؤمن بها ¹ .

ولنجاح حالة واحدة من حالات الإدعاء تأثير نفسي على جماهيرنا المسلمة بتكوين مواقف الإحباط والياس في سلوك أفرادها ، فلن تتعلق آمالها بالبشارة الإسلامية ، أو تضعف على الأقل استجاباتهم العامة تجاه هذه العقيدة هذا من جهة .

ومن جهة ثانية يعود الظلم وقواه ، وأعوانه ليستأنف الفساد في الأرض أكثر مما مضى ، فيزداد همّ الجماهير المستضعفة ، ويزول الشعور بالخوف من نفوس حكام الجور

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص 71 .

المستبدين ويحس أعوانهم بالطمأنينة والأمان لأن الملف التاريخي للقضية قد أغلقت حالة تزوير واحدة وأغلق على أثره الملف النفسي الحزين الذي يتهددهم ، وهكذا فإن إخماد جذوة الفكرة في نفوس المستضعفين وتحطيم هيبتها في نفوس المستكبرين يسمع بتسوية السلوك الاستبدادي الصادر عن الحكام الظالمين .

ثانيا : فلسفة التسلط و حب الذات :

فلسفة التسلط على الآخرين بأنانية مفرطة وحب الرئاسة إحدى عوامل الادعاء بالمهدوية ، وقد نجح البعض منهم في تحقيق مؤقت لهذه الفلسفة وبطريقة غير شرعية من خلال تقمص مؤقت ونفعي لشخصية المهدي ومع ذلك يمكن القول بأن اتجاه السلوك نحو رغبة التسلط هو ليس سمة في شخصيات أدعياء المهدوية فحسب بل هو القاسم المشترك بين المتسلطين والمتعطشين للتربع على كرسي السلطة سواء ادّعوا فكرة المهدي أو لم يدّعوها .

فالإنسان يميل بطبعه الفطري إلى الزعامة ، وإلى أن يكون هو الأقوى ، ولا اعتراض على محاولة الذات إشباع رغباتها بطريقة صحيحة تستهدف إشباعا موضوعيا يتلاءم مع مبدأ الاستخلاف ، لكن ما يثير الاشمئزاز ، وتستقبحه العقول هو التعبير عن هذه الحاجة بإدعاء كاذب ، فقط من أجل الوصول إلى مطامح شخصية وتحقيق مصالح فردية¹ .

وإذا ما تأملنا البعد التاريخي للظاهرة فإننا نجد بعض أفرادها تمكنوا فعلا من بلوغ أهدافهم في التسلط السياسي ، وتأسيس دول أو قادوا بعض حركات المقاومة تحت ضغط وهم الشعور بالمهدوية ونشوته ، لكن حقيقة الأشعور تقوم على رغبة في التسلط وإعجاب الذات على حساب شخصية يؤمن بها عامة المسلمين ، ونذكر على سبيل المثال محمد ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، ومحمد أحمد بن عبد الله مهدي السودان الذي ذاع صيته بالانتصارات التي حققها ضد الإنجليز والأتراك والحكام الفاسدين² - كما أشرت إلى ذلك سابقا - .

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص 74 .

² المقدم محمد احمد إسماعيل ، المهدي ، ص 136

ولكن الرغبة في تحقيق "الإشباع الموضوعي" لا تتطلب تسلطاً مريضاً وحباً شاذاً للرئاسة ، لا يتردد أصحابه في انتحال الصفات الحسنة للآخرين ، وقد أثبت تاريخ " ادعاء المهدوية " أن الرغبة لدى المهديين المزعومين في التسلط ، وحب الرئاسة ، قد يدفعهم إلى محاولة تقمص شخصية الإمام المهدي الحقيقي ، والتوحد لا شعورياً بصفاته الحسنة ، إذ نسبوا لأنفسهم العدالة و الصلاح والكفاءة السياسية والقيادية ، ونسبوا لأنفسهم الاستقامة والورع والشجاعة والكفاءة العلميّة وسائر مؤهلاته الشخصية بل حتى اسمه لم يسلم من استغلالهم كما ذكرت بعض النصوص مثل الحديث " المهدي اسمه اسمي " ، ومثل استغلال الحديث المروي من طرق أهل السنة عن الرسول الكريم ، بأن " لا تذهب الدنيا أو لا تنقضي الدنيا ، حتى يملك العرب ، رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً"¹ . ، وعلق الكنجي الشافعي* على متن هذه الرواية فقال «: قلت : وقد ذكر الترمذي الحديث ولم يذكر قوله " واسم أبيه اسم أبي " وذكره أبو داود ، وفي معظم روايات الحفاظ والثقة من نقلة الأخبار " اسمه اسمي " فقط ، والذي رواه " اسم أبيه اسم أبي " فهو زائدة ، وهو يزيد في الحديث ، وإن صح فمعناه : واسم أبيه اسم أبي الحسين ، فجعل الكنية اسم كناية عنه من ولد الحسين دون الحسن ، ويحتمل أنه قال " اسم أبيه اسم ابني " أي الحسن ، ووالد المهدي اسمه حسن ، فيكون الراوي قد توهم قوله ابني فصحفه فقال أبي، فوجب حمله على هذا جمعا بين الروايات ، وهذا تكلف كله في تأويل الرواية ، والقول الفصل في ذلك أن الإمام أحمد مع ضبطه واتقانه روى هذا الحديث في مسنده في عدة مواضع واسمه اسمي»².

¹ الكنجي الحافظ الشافعي ، البيان في أخبار صاحب الزمان ، ص 26.

*موقف الكنجي – بالرغم من أنه سني - مؤيد لموقف الشيعة الإمامية ، التي ترى بأن المهدي المنتظر هو من ولد الإمام الحسن العسكري .
² المصدر نفسه ، ص 26 ، ص 27 .

وينطوي السلوك التوحدي في شخصية المهدي المزيف على عقدة نقص واضحة، وعلى إحساس بالعجز أمام الشخصية الحقيقية للمهدي ، وهذا اعتراف واضح بعدم قوة إرادته وقدرته على تغيير الأوضاع إلا بالتخفي وراء شخصية تحمل سمة العظمة فهي بمثابة الثوب الجاهز الذي يلبسه المدعي كي يظهر في صورة القائد المؤهل لتغيير الأوضاع الفاسدة ، ولولا هذا الثوب ما أمكنه التأثير على عقول الناس وكسب تأييدهم ودعمهم ، وعليه عبروا عن ذلك بموقف تسلطي ، كما فعل الخليفة العباسي المنصور عندما عين ابنه " المهدي " لتغطية الإحساس بالنقص وليسوغ لنفسه ولابنه افتعال العظمة.

إذن هؤلاء المدعين مارسوا التسلط من خلال إعجابهم بكمال ذواتهم ، ومن خلال شعورهم الوهمي بأنهم الرجال المنقذين المُخلصين الذين استبقاهم الله لتصحيح العوج في حياة البشر ونشر الأمان والمحبة ، لكن الواقع أثبت أنهم زرعوا الرعب والخوف وسفكوا دماء البشر بغير ذنب فجعلوا تاريخ المهدوية تاريخ دموي يشهد على أحداثه التاريخ البشري¹.

ثالثا : الوقائع الاجتماعية والسياسية الفاسدة :

تعرض المسلمون لأساليب شتى من الظلم والاضطهاد، وفرض عليه الظالمون القهر بمختلف أشكاله ، وقد اتسعت هذه الممارسات تدريجيا كلما قويت شوكة الظالمين وضعفت في الوقت ذاته قدرة المظلومين على المقاومة .

وبسبب هذه العلاقة القهرية بين الظالمين والمظلومين نشأ واقع سياسي واجتماعي واقتصادي مريع ، وساد اليأس والإحباط في حياة المسلمين حتى أصبحت الحاجة إلى تغيير الواقع المأسوي مطلبا جماهريا عاما تنشده كل الفئات المضطهدة وحتى أعوان الظلمة الذين قبلوا طواعية المذلة و الإهانة سئموا هذا الوضع وضاقوا ذرعا به، فتاقت نفوسهم إلى خلاص المُخلصين .

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص 76 .

ومن المؤكد أن هذا الواقع السياسي لم يصنعه فقط ظلم الظالمين وفساد المنحرفين بل صنعه كذلك سوء التوجيه التربوي لفئات المجتمع المسلم وضعف توعيتها بتعاليم الإسلام ، إذ تعرضت جماهير المسلمين منذ ذلك الوقت حتى الآن إلى عملية اغتراب عقائدي ، وابتعاد عن الأصول الصحيحة للإسلام فضعت قواهم ، ويئسوا وعانوا من كل أشكال الإحباط والتهيه والحيرة ونكوص الشخصية المسلمة عن استقامتها ، والتشكيك في بعض العقائد ، وتقلب المشاعر ، ويلاحظ أن هذه الجموع المسلمة تواجه هذه الحالات كلما اشتدت ضغوط الظلم فتزداد تمسكا بانتصار قوى الخير على قوى الشر في يوم من الأيام ، بدليل أنهم ما لبثوا أن سمعوا عن قائد إلا وسعوا حبوا على نصرته حتى وإن أدركوا يقينا أنه ليس المهدي الحقيقي .

لكن الواقع السياسي والاجتماعي للمسلم ليس دائما مجموعة من إحباطات مُعيقة لنمو قواه وتعطيل حركاتها الطبيعية ، بل يضم هذا الواقع كذلك بعض المتغيرات الإيجابية ، كالبشائر وأثرها في النفوس ، وبالرغم من أن المُدعين وأتباعهم تحركهم الآمال النفسية المستوحاة من البشائر النبوية وتثير حماسهم لمواجهة الواقع وتغييره ، إلا أنهم يتعاملون مع هذه الآمال بنظرات خاطئة لا تخلو من الاستغلال ، فهم أحاطوا أنفسهم بالتشبه بالمهدي ، ورجعوا بطريقة لا شعورية في حب الظهور والتمركز حول الذات بعد سلسلة طويلة من المواقف والخبرات الإحباطية الصعبة ، والاستعجال في تحقيق الأمور قبل بلوغها بما فيها مسألة تغيير الواقع الفاسد وتحطيم معاقله على يد القائد المُخلص "المهدي

11

وإذا كانت العجلة والتشكيك، واليأس والإحباط والنكوص والظلم هي أبرز ظواهر الواقع السياسي والاجتماعي الفاسد في عالم المسلمين فإن هذه الظواهر كما نلاحظ

متشابهة ،متداخلة ، فالمشكلة الواحدة منها سبب للأخرى ونتيجة لغيرها ، فالظلم يقود إلى استعجال تغيير الواقع ، واليأس من تغييره يحدث حيرة وإحباط يفرز معه تشكيكا

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص 79 .

ونكوصا عن الاستقامة الإسلامية المطلوبة وهكذا تكون المشكلة الاجتماعية سببا ونتيجة لغيرها¹ .

واتخذ الناس إزاء هذا الواقع المرير مواقف عديدة فمنهم صابر عامل بمنهج الله تعالى ضد الظلم والظالمين ، ومتيقن بأنه لم يحن بعد موعد الظهور المبارك ، فإذا أتى لن يؤخر الله ذلك ولن يستقدم ، ومنهم من انتابته حيرة في معرفة إمام زمانه ، ومنهم شك وارتاب في وجود المهدي ومنهم من استعجل الأمور قبل أوانها ، وبالغ في استعجاله حتى يتجاوب مع أية حركة تغييرية حتى ولو كانت ضالة انتحل زعمائها "المهدوية" كذبا وزورا ، ومنهم من بلغ به استعجاله واستطالته للأمر إلى اليأس والشك والارتياب والتردد في إمامة المهدي والعودة عنها ، فهذه جميعا حالات نفسية واجتماعية من ضغط الواقع الفاسد الظالم ، وهيأت الأجواء لمهدي تلو آخر دون أن يظهر فيهم المهدي الحقيقي .

وسنقف في عجالة على بعض المظاهر التي كونت مجتمعة نسيج هذا الواقع السياسي والاجتماعي للإنسان المسلم التي جعلت بعض النفوس مهياة لمؤازرة "كل مهدي" يظهر في المجتمع دون التحقق الفعلي من المهدي الحقيقي ، ودون التدقيق في العلامات المصاحبة للظهور أو السابقة عليه ، ومن بين هذه المظاهر ما يلي :

أ_ اليأس والحيرة والتشكيك :

ولدت الحيرة فاليأس في نفوس الكثير من المسلمين لفشلهم في تغيير الواقع الظالم ، ولفشل تجربة " المهدي المزور" الواحد تلو الآخر وأتباعه المحبطين في تغيير هذا

الواقع ، فاحترار البعض في تحديد المهدي الحقيقي ، وقادهم ذلك العجز إلى اليأس من التغيير ، ومن وجود مهدي حقيقي موعود ، وقد تكون الحيرة -حسب الشيعة الإمامية-

¹مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص.80

بسبب طول غيبة الإمام المهدي وبالرغم من أنه من مات بغير إمام مات ميتة الجاهلية¹ ، لكن الحيرة وقعت واستغلها أذعياء المهدوية ، وحفروها في نفوس فقدت الرؤية الواضحة ، وتاهت عن معرفة القيادة ، وعاجزة عن ممارسة دور تاريخي يصنع التغيير المأمول ، وجرب أذعياء المهدوية حظهم مع هذه النفوس التائهة فنجحوا معهم مؤقتا ، لكنهم فشلهم في تحقيق أهدافهم لأنهم اعتمدوا نفوس قتلها اليأس والحيرة وخضوع العزيمة والتشكيك المؤلم ، وهو الذي جعلها تتعاطف مع "المهدي المزور" في كل مرة ، فالنفوس المحبطة العاجزة عن تحمل مسؤوليات الانتظار العبادية لا تكون قادرة على تغيير الواقع الفاسد بقيادة زعيم مُزَيَّف² .

الحيرة واليأس مظهران لحالة صراع الذات الذي يعترى الأفراد الذين لا مرشد لهم ، ولا إمام يُفَرِّق الحلال والحرام ، ويرشدهم إلى الحق ويحدد لهم مواقع الباطل ومواطنه وهو صراع بين اليأس في معرفة إمام زمانه وعجزه عن تحديده بدقة ولهذه الحيرة تأثير سلبي واضح على نمو الشخصية ، فالازدواجية وتناقض المواقف ، والتبعية للآخرين وتقبل الذلة وضعف الثقة بالذات وعدم وضوح الرؤية أمام الذات ، والإحساس بعدم الأمان ، والشعور بالمخاطر والتهديد ، هذه بعض سمات التائه اليأس. لذا نجد في النصوص الشيعية – الشيعة الإثني عشرية – تحذر من وقوع اليأس ولفتت النظر إلى أثرها في التمسك العقائدي بالإسلام خلال فترة الغيبة الكبرى للمهدي المنتظر، ومن هذه النصوص ما يلي :

" إن لصاحب هذا الأمر غيبة إحداها تطول حتى يقول بعضهم مات ، ويقول بعضهم قتل ، ويقول بعضهم ذهب ، حتى لا يبقى عل أمره من أصحابه إلا نفر يسير"¹ .

" ستطول غيبته حتى يرجع عنه أكثر القائلين به "²

¹ محمد المهدي الحاج الشيخ ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة-، ج 1 ، ص 19 .
² مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار – دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص 82
¹ محمد المهدي الحاج الشيخ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة-، ص 93

وينكره المرتابون ، ويل للمرتاب ³

" إنما يجيء الفرج بعد اليأس " ⁴

هذه النصوص شخصت جزءا من سلبيات الواقع المسلم ومشكلاته ، فعندما يحتار الإنسان في التفاعل مع عقيدة الاعتقاد بالمهدي وتسيطر عليه نظرة السوداء تستبطن الشك بعقيدة المهدي ، وهو تشكيك ينظر إليه ابن حجر وغيره من الرواة على أنه كفر بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم – حسب الشيعة الإثني عشرية-.

ب- الاستعجال والقلق النفسي:

ليس خافيا على المرء أن الاستعجال من طبائع النفوس قد جبلت النفس الإنسانية على العجلة وتسرع الأمور قبل أوانها، وأكد القرآن الكريم هذه الحالة النفسية لدى الأفراد في قوله تعالى: (خلق الإنسان من عجل) ⁵ كما أكدت نصوص السنة على ذلك .

الاستعجال وشعور الجماهير المسلمة الدائم باستطالة أمر خروج المهدي قد أوحى لبعض الأعداء المبطلين باستغلال هذه الحالة النفسية ورأوا جدوى استثمارها وتوظيفها في خدمة أهدافهم وتحقيق مآربهم ، فما دامت بعض طبائع النفوس المنتظرة تستعجل في أمر ظهوره وتتطلع إلى قيادته الحكيمة لتغيير واقعها الفاسد ، فإنه يمكن أن يلحق بها ضررا ، ويمكن أن يؤدي هذا الاستعجال القلق الذي لم يسترشد بالعقل إلى حدوث نتائج معاكسة محبطة لأمال الجماهير المسلمة ، كالأستجابة المتسرفة لكل مهدي يظهر

بخاصة إذا كان قادرا على هدهة أحلام التغيير لديها دون وعي صحيح بسنن الله في الحياة الاجتماعية.

ويثبت الواقع السياسي والتاريخي لحالات ادعاء المهدوية أن الاستعجال قد يكون بصورة جادة مما تنهياً الأجواء لتفاعل بعض البسطاء والمستعجلين مع كل دعوة مزعومة ، ذلك

²المرجع نفسه ، ص 93

³المرجع نفسه ، ص 90

⁴المرجع نفسه ، ص 92

⁵الآية 37 ، سورة الأنبياء .

أن الاستعجال البعيد عن التعقل يربك تفكير الإنسان ، فيتوهم أحلاما ، ثم تفشل حركته ، ويلحق بأدعياء المهدوية وأتباعهم ضرر نفسي واجتماعي كبير يجثم عليهم فيعوق تعاونهم عن الحركة التي يقودها المهدي الحقيقي .

فالاستعجال تعبير عن قلق الإنسان من الأوضاع الفاسدة واضطرابها، وهو شعور محفوف بالمخاطر ما لم يخضعه الإنسان إلى التحكم والسيطرة فيمنع الشعور باليأس من تغير واقع الظلم السياسي والاجتماعي الموجه ضد جماعات المعارضة وبخاصة المؤمنة منها، كما أن النفس تظل دائما في حالة شعور بالخطر مادام الطغاة وأعدائهم يحكمون بالحديد والنار ، والتهديد بقطع الأرزاق ، وتظل هذه المشاعر حبيسة في نفوس المسلمين فالشعور بالقهر والغبن والظلم والحقد على الطغاة ، والرغبة في الانتقام منهم ، ومن بطانتهم بطانة السوء ، يثير التوتر ، والقلق والضيق¹ .

وإذا نجحت بعض النفوس المضطهدة في تحقيق أنماط من تكيف مع ظروف الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وتحقيق درجة مقبولة من التوافق النفسي والاجتماعي ، فإن بعض الأفراد ليست لديهم القدرة على الصبر و تحمل الأذى ، والتحرك في الحياة بمفهوم إيجابي للانتظار ، وليس لديهم الاستعداد العقلي للمقاومة لهذا تكون الشعوب مهياة لاستقبال أي مهدي مزور، يستعجلهم فينساقون مع دعواه الباطلة .

اكتشفنا من خلال تحليلنا للعوامل التي أدت إلى ادعاء المهدوية أن الأرضية كانت مهياة للمدّعين من جميع الجوانب سواء النفسية أو الأوضاع السياسية والاجتماعية المُرزية أو الأوضاع العسكرية ، ومن هنا تورط كثير من الناس في فتن أشعل نارها مدّعوا المهدوية ، لأن عاطفتهم ركبت عقولهم ، وحماستهم أخضعت فكرهم ، ومن هنا مسّت الحاجة إلى محاولة استنباط ضوابط تحكم موقفنا من كل من يدّعي المهدوية مستقبلا ، أو

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص 86 ، ص 87 ، ص 88

تُدعى له ، حتى نضع النقاط على الحروف ، مستهدين في ذلك باستقراء تجارب التاريخ البعيد والقريب ، متحررين من ضغوط الاستعجال .

ضوابط الحكم على مدعي المهدوية المُخلصة:

ليس في وضع هذه الضوابط قتل للآمال، ولا وأد للطموحات، ولكنها تجذبنا إلى الواقع لنحسن تقديره ، ونعرف كيف ننطلق منه لأخذ الأسباب التي تحقق لنا هذه الطموحات ، إذ لا يليق بالمسلم أن ينساق وراء الأمانى ، فالسما لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وسنن الله لا تحابي أحداً ومن نصرة الدين أن تُحترم سنن الله في الكون .

إن " المهدي " شخص واحد لا يتكرر ، والتصديق بمدعي المهدوية يستلزم التكذيب بالمهدي الحقيقي ، ومن ثم يجب الفحص والتحري قبل قبول دعوى المهدي ، ومن لوازم هذا الفحص محاولة استقراء أحوال مدعي المهدوية ، واستنباط ضوابط تضبط تعاملنا مع مدعي المهدوية :

1. يجب التفريق في مسألة المهدي بين تصديق خبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم بشأن المهدي ، -وهذا واجب على كل مسلم -، وبين الحكم على فلان بأنه المهدي على سبيل التعيين -وهذا غير ملزم لكل مسلم - إلا أن يأتي دليل قاطع على تعيينه .

2. جميع علامات المهدي إنما تعرف من خلال أخبار الوحي المعصوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا حجة في أي مصدر آخر ، سواء أكان الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة ، أو الرؤى أو الكشف أو الإلهام ، أو ادعاء لقيا

النبي صلى الله عليه وسلم يقظة بعد وفاته ، أو لقيا الخضر عليه السلام ، أو الأولياء

3. لما كان المهدي مجدداً من المجددين ، لزم أن يكون مستقيماً على منهاج النبوة متمسكاً بالعقيدة السلفية ، بريئاً من البدع ، فإذا كان مدعي المهدوية منتسباً إلى إحدى الفرق الضالة الزائغة عن أهل السنة والجماعة ، فإنه ينادي على نفسه

بالكذب والتدليس ، وإذا كان العلماء قد نبذوا من فرط في أدب من الآداب ، فكيف بمن انحرف في أصول الدين¹؟

4. ليس في الأحاديث الثابتة – حسب جمهور السنة – ما يدل على أن المهدي سوف يطالب الناس بالإقرار بمهديته ، أو يمتحنهم على ذلك ويقهرهم ، فضلا عن تكفيرهم ، واستباحة دمائهم ، فالمهدي الحقيقي لا يتمحور حول إثبات مهديته للآخرين ، واعترافهم بأنه المُخلص الموعود ، ولا يقول : " فإن شهدوا بمهديتي فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم " ، وإلا أراق دماءهم ، وسبي نساءهم ، وسلب أموالهم ، كما فعل ابن تومرت والسوداني ، والجونبوري ، وغيرهم ، وليس التصديق بعين المهدي أو شخصه من أركان الدين كما هو الحال مع الأنبياء – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -² .

5. إن علامات المهدي المنتظر نوعان :

النوع الأول: أمارات متشابهة : وهي الصفات المشتبهة القابلة للتكرار في غير المهدي الحقيقي ، فيمكن أن يتصف بها بعض الناس فعلا ، أو يتكلف الاتصاف بها أو يدّعي ذلك كذبا ، وهذه العلامات – وإن اجتمعت كلها في شخص ما – فإنه لا تكفي لإثبات أنه صادق في دعواه المهدوية ، حتى ينظم إليها النوع الثاني ، وهو الأدلة المحكمة القاطعة بأن فلانا بعينه هو المهدي المنتظر ، وهي العلامات غير

القابلة للتكرار مع غير المهدي الحقيقي ، ولا يستطيع مدعي المهدوية أن يفتعلها ، أو يتكلف إيجادها ، وهي نزول عيسى عليه السلام في زمانه من السماء واجتماعه به ، وصلاته خلف المهدي ، ثم قتله الدجال ، قال البرزنجي – رحمه الله - : " ومن العلامات التي يُعرف بها المهدي أنه يجتمع بعيسى ابن مريم – عليه السلام، ويصلي عيسى خلفه " وروى الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد

¹المقدم محمد احمد إسماعيل ، المهدي ، ص 573 .
²المرجع نفسه ، ص 574 .

المقدسي ، أخبرنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثنا إبراهيم بن عقيل ، عن أبيه قال : قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم المهدي تعال صل بنا فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمه الله لهذه الأمة " ¹ . وقال الشيخ حمود بن عبد الله التويجري - رحمه الله تعالى - : " من ادّعى من المفتونين أنه المهدي المنتظر ، ولم يخرج الدجال في زمانه ، فإنه دجال كذاب " .

6. يجب نبذ الصورة الأسطورية التي خلعتها على المهدي بعض الفرق الضالّة مدعي المهدوية ، ونخص بالذكر الرافضة وغلّة ، والوضاعين الكذابين ، كما يلزم الاقتصار على الصورة الواقعية لشخصيته كما أخبر بها من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم ، والذي وصف المهدي بأنه " رجل من عترتي " ، " رجل منا " ، " خليفة من خلفائكم " ... إلى آخر صفاته التي تبرئه من غلو الضالين وإفراط الدجالين ، يقول الشيخ عبد المحسن العباد - حفظه الله تعالى - : " المهدي عند أهل السنة لا يعدو كونه إماما من أئمة المسلمين ، الذين ينشرون العدل ، ويطبّقون شريعة الإسلام ، يولد في آخر الزمان ، ويتولى إمرة المسلمين ، ويكون خروج الدجال ، ونزول عيسى ابن مريم - عليه السلام - من السماء في زمانه وهو غير معصوم " ² .

نخلص مما سبق أن الفرق الإسلامية على اختلافها سنية كانت أم شيعية وجدناها تنبذ نبذا قاطعا كل من تُسول له نفسه استغلال فكرة المهدوية للتوصل إلى مآربهم الخبيثة ، ومقاصدهم الشريرة بأمة الإسلام ، بل اجتهدوا - الفرق السنية والشيعية الإمامية- في توضيح أهم مميزات المهدي الحقيقي الذي تُعول عليه أمة الإسلام في إصلاح أحوالها وإنقاذها من الفساد والظلم الذي تكابده على مر التاريخ .

¹ الكنجي الحافظ الشافعي ، البيان في أخبار صاحب الزمان - ، ص 66 .
² المقدم محمد احمد إسماعيل ، المهدي ، ص 578 .

لكن رغم كل هذه الادعاءات للمهدوية إلا أننا اكتشفنا مدى تجلي المهدي كمخلص في الفعل الإنساني على مرّ التاريخ ، بل هذا التجلي كان سببا في تغيير مجرى التاريخ وتحقيق انتصارات لا حصر لها ، بل تأسيس دول ، ورفع راية التحدي أمام الاستعمار ، فكل ادعاء - أقصد ادعاء المهدوية - سلبيات في ظاهره ، وإيجابيات يحملها بين طياته ، هاته الإيجابيات هي تعبير عن لا منطوق المهدوية .

وهنا نفتح المجال في الفصل الموالي للحديث عن فلسفة انتظار المهدي، ومدى تأثير هذا الانتظار على مجرى التاريخ .

الفصل الثالث: فلسفة انتظار المهدي

1. المبحث الأول: قصة انتظار الفرج

القسم الأول: لماذا ينتظر الإنسان البطل وعاشق للبطل

القسم الثاني: ماهية الانتظار من زاوية سيكولوجية ودينية

القسم الثالث: الحيرة و انتظار الفرج

2. المبحث الثاني: شخصية المجتمع وطبيعته

القسم الأول: موقف القرآن من حركة التاريخ

القسم الثاني: تفسير تكامل التاريخ وعلاقته بفلسفة الانتظار

- الطريقة الديالكتيكية أو الآلية

- الطريقة الإنسانية أو الفطرية

3. المبحث الثالث: الانتظار الكبير

القسم الأول: الانتظار المُخرب و الانتظار البناء

القسم الثاني: نتائج الانتظار السلبي وشروط الانتظار البناء

(النية وفلسفة الاستعداد)

القسم الثالث: الولاية والافتداء

4. المبحث الرابع: مكونات الانتظار والوعي بالمستقبل

القسم الأول: مكونات الانتظار

القسم الثاني: الانتظار والوعي بالمستقبل

المبحث الأول: قصة انتظار الفرج

القسم الأول: لماذا ينتظر الإنسان البطل وعاشق للبطل؟

القسم الثاني: ماهية الانتظار من زاوية سيكولوجية ودينية

القسم الثالث : الحيرة وانتظار الفرج

ذكرنا في الفصول السابقة، أن فكرة المهدي أقدم من الإسلام وأوسع من إطار الشرائع السماوية ، لكنّ تفاصيل هذه الفكرة في الإسلام ، - خاصة في مدرسة أهل البيت - «جاءت أكثر إشباعاً لكل الطموحات التي أنشئت إلى هذه الفكرة منذ فجر التاريخ الديني، وأغنى عطاء ، وأقوى إثارة لأحاسيس المظلومين والمعذبين على مرّ التاريخ ، وذلك لأن الإسلام حوّل الفكرة من غيب إلى واقع ، ومن مستقبل إلى حاضر ، ومن التطلع إلى منقذ تتمخض عنه الدنيا في المستقبل البعيد ، المجهول إلى الإيمان بوجود المنقذ فعلاً ، وبطلعه مع المتطلعين إلى اليوم الموعود ، واكتمال كل الظروف التي تسمح له بممارسة دوره العظيم»¹ - هذا هو موقف الشيعة الإمامية- لكن ماذا ينتظر جمهور أهل السنة ؟

يتفق السنة مع الشيعة الإمامية في مسألة انتظار المهدي لكن قضية وجوده وغيبته فيها اختلاف شاسع بينهما ، فالمهدي المنتظر - حسب جمهور أهل السنة - رجل شاب من المسلمين من آل بيت النبي صلّى الله عليه وسلّم ، من ولد الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه محمد بن عبد الله أي اسمه على اسم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، «وليس بالمنتظر الذي تزعمه الرافضة (الشيعة) وترتجي ظهوره من سرداب (سامراء) فإن ذلك لا حقيقة له ولا عين ولا أثر فإنهم يزعمون أنه محمد ابن الحسن العسكري وأنه دخل السرداب وعمره خمس سنين وينتظرون خروجه من السرداب ولن يخرج»²

فمهدي السنة، أمر قدرني قد قدره الله وإنه لكائن لمحالة، تواترت بذلك الأخبار، وتضافرت الآثار واجتمعت على ذلك كلمة الأمة³.

¹ مُطهري مرتضى ، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ ، ترجمة : محمد علي آذرشب ، المكتبة الإسلامية الكبرى ، طهران ، ط2 ، 1401هـ ، ص 6 .

² ابن كثير أبي الفداء إسماعيل ، النهاية في الفتن والملاحم ، ص 28 .

³ السفاريني محمد ابن أحمد بن سالم ، العلامات الكبرى لقيام الساعة ، ص 48

إذن السنة والشريعة، بل كل الفرق الإسلامية على اختلافها تجمع على مسألة وجود المهدي المُخلص الذي يملأ الأرض عدلاً وخيراً، كما تؤمن بحتمية انتصار قوى الحق والعدالة والسلام وصراعها مع قوى الباطل والظلم والعدوان في نهاية المطاف ، وتؤمن بغد يشع فيه نور الإسلام على جميع ربوع المعمورة ، وتسود فيه القيم الإنسانية سيادة تامة ، ويتحقق ظهور المدينة الفاضلة والمجتمع الأمثل ، هذه الفكرة تتطوي قبل كل شيء على نظرة تفاؤلية تجاه المسيرة العامة للنظام الطبيعي وتجاه مسيرة التاريخ ، وتبعث الأمل في المستقبل ، وتزيل كل النظرات التشاؤمية بالنسبة لما تنتظره البشرية في آخر تطلعاتها¹ .

قصة انتظار الفرج :

قصة الانتظار لا تختلف عن قصة الخلاص بحيث أن انتظار الفرج بعد الشدة غايته الخلاص، لهذا وجدنا الأمل باستقرار السلام والعدل الخالد بعد شيوع الظلم والفساد ، والاعتقاد الراسخ بالمصلح والمُخلص العالمي العظيم ، لا يختص بقوم أو أمة أو مذهب معين ، بل هو هدف البشرية جمعاء وعقيدة لها جذورها العميقة وشوق عميق وانتظار قديم وبشرى سارة لدى كل أمم العالم² - كما وضعنا ذلك في الفصل الأول - .

يقول "جولزيهير" المستشرق اليهودي والمتعصب عن عالمية الانتظار عند الأمم المختلفة لظهور المُخلص الكبير : «لا يختص الاعتقاد بعودة وظهور المُخلص الموعود بالإسلام فقط وبإمكاننا أن نجد أفكاراً متشابهة لدى الأمم الأخرى كثيراً... كما يعتقد الهندوس ، أن " ويشنو " وهو راكب على جواد أبيض وبيده سيف من شعلة النار يظهر في نهاية هذه المرحلة العالمية يوصفه " كال كي " ويُخلص بلاد آريا، من يد الغاصبين الظالمين - ومقصده الأمم الإسلامية الفاتحة - »³ .

¹EL- SADR MOHAMED , AL – MAHDI ,TRADUIT PAR : ABBAS AHMAD AL BOSTANI , BIBLIOTHEQUE AHL – EGBEIT , PARIS , 1^{er} EDITION , 1983 , P 19 , P20.

² EL- SADR MOHAMED , AL – MAHDI , IBID , P 20

³داود إلهامي ، بشرى اليوم السعيد ، الإمام المهدي الوعد المحتوم ، ترجمة حسن الهاشمي ، دار النبلاء، بيروت ، ط1 ، 1994 ، ص132.

وشاعت بين "المغول" حتى اليوم (1910م) عقيدة أن "جنكيز خان" وعد قبل موته بأنه سيأتي بعد ثمانية أو تسعة قرون ، وسيظهر ليُخَلِّص المغول من سلطة الصينيين . وهكذا توجد بين أمم الشرق والغرب ، وحتى بين "زنوج أمريكا الحمر" عقائد مشابهة حول عودة أو ظهور (المُخَلِّص الموعود) و وجود هذا (الشوق) لدى أتباع الأديان العظيمة¹ .

جاء في (قاموس الكتاب المقدس) حول شيوع هذا الشوق بين اليهود :
كان (العبريون) ينتظرون قدوم (المسيح) جيلا بعد جيل، وتكرر الوعد بمجيئه في الزبور وكتب الأنبياء بالخصوص في (أشعيا) ، حتى جاء (يحي) وبشر بقدمه ، لكن اليهود لم يفهموا تلك النبوءات ، وكانوا يتصورون أن (المسيح) سيكون سلطان الزمان وينجيهم من جور الظالمين ويرفعهم إلى أعلى درجات المجد والجلال .

يشتكي مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس) وهو من اليهود ، من أنهم لم يقبلوا دعوة (عيسى المسيح) بعد كل ذلك الشوق والانتظار ، ولم يعتبروه المسيح الحقيقي ولم يجدوه مطابقا للمسيح الموعود الذي سيكون سلطان الزمن والمُخَلِّص الأخير ، وقد وعد به كتابهم المقدس ، وكانوا ينتظرونه بحرارة سنين طوال ، لهذا أبغضوه وعادوه حتى اعتبروه خائنا لأمة إسرائيل ، وأن تعاليمه مضادة لأهداف كتاب "العهد العتيق" المقدس فعمدوا إلى محاكمته ، وحكموا عليه بالإعدام ، وهكذا عادوا إلى انتظار (المسيح الموعود) ومُظهر النصر والمُخَلِّص من الظلم والجور² .

ورغم أن المسيحيين كانوا يعتبرون عيسى عليه السلام هو المسيح الموعود لليهود ، لكنهم أدركوا عدم انتصاره الكامل ، لهذا انقطع أملهم عن الحال الحاضر ، فبدأوا قصة الانتظار مرّة أخرى ، وباتوا بانتظار المسيح ، و بانتظار عودته من السماء في نهاية العالم وفي آخر الزمان .

¹ داود إلهامي ، بشرى اليوم السعيد ، ص 133
² المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

حتى الانتظار في المعتقد الإسلامي له دلالاته، فمنذ أن بزغ الإسلام حتى الآن وهو يبشر أتباعه بما سيحدث وبما سيكون، وأملهم بالغد الأفضل، وفي الوقت الذي لم يستطع فيه الخلاص من ظلم وتعذيب قريش كان يبشر المسلمين "بحسن العاقبة" في المستقبل القريب ، والخلاص من نير الظالمين وجورهم ، ووصولهم إلى أعلى درجات المجد والحرية والجلال .

كان ذلك في زمن سيطرة المشركين على رقاب المسلمين وظلمهم لهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم آنذاك ضعيفا وفاقدا للسلاح ، رغم أنه كان من أسرة قوية وشجاعة ، لكنه كان وحيدا ، والشيء الوحيد الذي كان يفعله هو مواساة المسلمين الذين كانوا يتعرضون للتعذيب كل يوم ، وليس لهم ملجأ إلا الله والإيمان بنبيهم ، وكانوا يُعذبون تعذيبا وحشيا بواسطة الظالمين ، ولا يستطيع النبي أن يعترض أو يقوم بفعل ، بل كان يذهب للقاء من يعذب بسبب عشقه لله كل يوم ويواسيهم ، وفي حالة اليأس تلك والظلم والظلام الحاكم على الجميع كان يبشرهم بالسعادة واليوم السعيد ويقول : إنكم ستملكون مصير التاريخ وستحكمون العالم وترثون الملوك والقوى العظمى ، إنكم أنتم الذين تحكمون الدنيا كلها لا العالم العربي فقط ، تحكمون مكة وقريش ، بل إيران والروم واليمن ومصر وشرق الأرض وغربها¹.

كان هذا هو الوعد الوحيد الذي يقدمه القائد لأصحابه الذين يموتون تحت التعذيب والذين اضطروا لأجل الحفاظ على حياتهم والتخلص من ظلم قريش أن يهاجروا إلى الحبشة . ولم تمر فترة من الانتظار حتى تحققت الوعود واحدا تلو الآخر، سيطر على المدينة ، ثم فتح مكة ، وخضع له العرب وأسلموه قيادهم ، واجتاز كل العقبات ، وكان يطمئن أصحابه في كل تلك المراحل بأن النصف المنتظر هو كالنصف السابق ، الذي تحقق،

كان المخالفون يسخرون ويستهزئون، وكلما تحقق وعد رأي المسلمون أن نظرة المستهزئين تتحول إلى نظرة احترام .

¹داود إلهامي ، بشرى اليوم السعيد ، ص135.

والآن يؤمل القرآن المسلمين بالمستقبل ، ويعددهم بالنصر والسعادة ، يخبر عن المستقبل الغامض على الجميع ويقول بصراحة تامة : (وَمَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)¹ ، يصرح القرآن بأن إرادة الله قد تعلقت بأن يرث الصالحون والطاهرون الأرض في المستقبل ويحكمون العالم ، وتُطهر الأرض من الفاسقين والظالمين (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)² ويُستفاد من هذه الآيات أن العالم بانتظار يوم يحكم فيه الصالحون كل العالم ، وطبقا للروايات ، فإن ذلك العصر الوضاء هو يوم قيام مُخْلِص البشرية ، المهدي الموعود ، بطل المسلمون.

فلسفة انتظار البطل :

الأبطال الأسطوريون والأبطال التاريخيون توفروا على الوجود في كل الأمم ، وكل الثقافات ، وقد كان هؤلاء الأبطال في الثقافة والدين منبع الإلهام للمعاني الإنسانية الكبرى لدى الجماهير ، ولدى أجيال الشعوب المتعاقبة .

ذكرت سابقا أن الإنسان بطبعه ينتظر الخلاص والنجاة أملا في حياة سعيدة ، هذا الفكر السامي يدعو إلى مجيء شخصية متميزة ومنفذ عظيم غيبي " إنسان ما فوق " أو "ما فوق الإنسان" فيأخذ بيد الإنسان إلى طريق النجاة ، لذا تدعو الأديان -على الدوام الوضعية منها والسماوية- لإتباع هؤلاء العظام ، والتوسل بهؤلاء المنقذين المُخْلِصين الكبار ليأتوا ويحرروا الإنسان من السجن الذي يعيشه ، والوضع المأسوي الذي يحياه ، لينقلوا الإنسان من الانحطاط والمادية والجهل والظلم والعبودية والضياع إلى الحرية ، والفضائل ، والكمالات المرجوة وبكلمة دينية مشتركة " الجنة " ، وهذا فعلا ما وجدناه في الديانة الطوطمية و الزرادتشية واليهودية والنصرانية والإسلامية ، لكن العكس نلاحظه لدى المذاهب الهندية ، فدعوة هذه المذاهب - كما رأينا سابقا* - هي : أن لا

¹ الآية 55 - سورة النور-

² الآية 105 - سورة الأنبياء -

* أنظر الفصل الأول - قصة الخلاص - .

ينتظر الناس الخارج ، ولا ينتظروا خروج المنقذين ، المُخْلِصين ، فليس هناك قوة غيبية ستخرج وتُنقذهم ، إنما سبيل النجاة هو أن يذهب الإنسان مع نفسه فيكشف إمكاناتها ، ويبنيها بالرياضة الروحية ، فيصنع نفسه حيث يصبح مؤهلاً للنجاة، وبعبارة أخرى : أن يغرق الإنسان في ذاته ويبحث إمكاناتها ، بحيث يبدأ سبيل النجاة من الداخل .

إن المذاهب الهندية لا تدعوا الناس للانتظار والقُدوة ومثال الفضائل الإنسانية ، فلا تدعوا لشخصية عظيمة يلزم انتظارها لتُخلص وتُهدي إلى سبيل النجاة ، ولا تدع الإنسان لينتظر مثل هذه الشخصية ، بل توجهه إلى ذاته ، فالخلاص في الذات ومن الذات لا خارجها .

لكن الملاحظ أن عبادة الأشخاص – حسب علي شريعتي – برزت في المذاهب التي تقول للإنسان " لا تنتظر أحدا ولا حاجة لإنسان كامل تقلده ، ويلزمك بناء ذاتك وإنقاذها في الداخل " أكثر من أدياننا ، فرغم أن المذاهب الهندية – وخصوصا المذهب البوذي – الذي لم يطرح "الله" طرعا محددًا ، فالبوذيون أكثر منا عبادة للأشخاص – رغم أن ديننا يصور الله بوصفه موجودا شخصا ، ورغم أننا ننتظر منقذا ونتطلع إلى بطل إنساني كبير – فكل بوذي يضع صنما لبوذا إلى جنبه حين الصلاة ليعبده ، أما في معابدنا ومساجدنا ، ونحن نقلد الإمام ونستلهم النبي ونتطلع إلى عالم ما وراء الطبيعة لنجاتنا ونحتاج في كل وجودنا وحياتنا إلى الوجود المتعالي الذي نسميه "الله" ، فليس هناك وجود لأية شخصية ولأية ذات ، في نفس الوقت الذي تمتلأ معابد الهنود بأصنام بوذا وقديسيهم . يطرح علي شريعتي السؤال لم ؟

يجيب قائلا : إن أساس ومحور المذاهب الهندية يقوم على قاعدة : إن كل شخص مسؤول عن ذاته ، ولا حاجة به إلى قائد ومنجي ، لكن نجاة الفرد عهدت عمليا للأقطاب والأبدال ، والشيوخ والمرشدين ، فإمام الفرد الهندي سلسلة طويلة في الشخصيات تنقله من هذه

الدنيا " Samsava " ، التي هي دنيا مادية منحطة إلى دنيا النجاة والخلاص والحرية والاطمئنان¹.

هناك الكثير من الدلائل تشير إلى أن هذا الطراز الفكري حينما دخل الإسلام جلب معه عبادة الأشخاص وسلسلة المراتب والمقامات الصوفية ، ولذا نجد أن الصوفية أكثر الفرق الإسلامية عبادة الأشخاص ، كما نلاحظ ذلك عند " جلال الدين الرومي " الذي يعشق "شمس التبريزي " ويراه يتلك الرؤية التي تؤدي به إلى القول: " شمسي وإلهي " فيرى أنه عبد لشمس ، و شمس هو المنقذ الوحيد ، ومتابعة لهذا اللون من التفكير يقول حافظ الشيرازي : "طهر المسجد بالخمير ، ولا بذلك من ذلك لأن المرشد أشار عليك به، أي أن الإنسان إزاء مرشده وهاديه ومراده يسلم كل التسليم ، حتى لو دعاه إلى ممارسة أخط الذنوب ، فعليه أن ياتمر دون تقويم وبلا تعقل، فحتى إذا أمر المرشد المسلم بتطهير محل صلاته بالخمير يجب عليه أن يعمل ذلك .

هذا المثال يذكرني بما يفعله الناس حين يلجئون إلى المشعوذين والعرافات ، وينصاعون بكل سذاجة لما يقولونه ويأمرون بفعله من طلاس غريبة ومربكة طمعا في أن يُخلصه من ما يشكو منه ذلك الشخص الذي يطلب النجدة والخلاص ، وهذا ما يقصده علي شريعتي بعبادة الأشخاص¹.

فالعقل والإرادة والتصميم الشخصي أمر أجنبي هنا ، وهذه الحالات المفرطة في الانحراف - خصوصا في المذاهب التي تدعو إلى الذات - تحكي عن أساس خاص

من أسس الشخصية الإنسانية ، وهو أن الإنسان لا يستغني على الإطلاق على القدوة والنموذج والمثال ، فإذا لم يكن لهذا النموذج واقعا خارجيا يخلق في ذهنه نماذج خرافية وموهومة¹.

لماذا كان الإنسان ينتظر البطل ، وعاشقا للبطل ؟

¹ علي شريعتي ، الأمة والإمامة ، ترجمة أبو علي ، مؤسسة الكتاب الثقافية ، مصر ، [دط ، دت] ، ص 77 .

¹ المصدر نفسه ، ص 77 .

¹ المصدر نفسه ، ص 78 .

يجيب -علي شريعتي - قائلاً : " لقد طرح علماء النفس تحليلات في هذا المجال ، وأهم هذه التحليلات وأكثرها تحديدا نظرية "آدلر" ، وتشبهها نظرية نيتشه ، وشيلر ، وهيكل - الذين يؤمنون جميعا بالبطل ، وقبلهم أفلاطون الذي أشار إلى الحاكم النموذجي المثالي الذي ينبغي أن يقتدي به كل أفراد الدولة - وتقول نظرية "آدلر" : " إن الإنسان يسعى خلف البطل باستمرار ، ويثنى عليه ويتغنى به ، لأنه يعشق ويحتاج القوة ، وحيث يجد نفسه ضعيفا ويشعر بالنقص ، يعوض هذا الإحساس بالنقص قهرا بالتغني وعبادة الأبطال الذين هم تجلي للعظمة والقوة ، ومن هنا فالتغني بالأبطال عبر التاريخ وبحث الإنسان الدائم عن البطل والتغني به وعبادته في المذاهب والأديان يوحى بإحساس الإنسان بالنقص² .

يرى "علي شريعتي" أن هذه النظرية صحيحة إلى حد ، وغير صحيحة إلى حد كبير أيضا ، إذ أن الإنسان ليس بحاجة إلى القوة فقط ، فهو بحاجة قبل ذلك أيضا إلى الفضائل والجمال والقداسة أو بتعبير آخر بحاجة إلى قدوة يحتذي بها .

وخير دليل اعتمده علي شريعتي في إثبات أن الإنسان يفكر ويتطلع للجمال والعلو المطلق والطهارة والقداسة ، قبل تعلقه بالقوة وحتى الحياة المادية ، فأدل تصنيف للعالم المادي مارسه الإنسان البدائي ، والذي يمتلك لغة بل يمتلك حفنة من الأصوات في القبائل البدائية التي درسها "برول واسبنسر" وأمثالهما هو تصنيف العالم إلى : مقدس وغير مقدس ، وتقسيم الأشياء إلى : مادي ومقدس .

هذا التقسيم يحكي عن حاجة الإنسان لعبادة القداسة وهذا ما أكده "إميل دوركايم" قائلاً أن بناء كل المجتمعات والأديان يقوم على أساس عبادة القداسة ، كما نجد ذلك عند أولى بداية المجتمعات من خلال عبادة "الطوتم"^{*} .

وهذا هو أكبر العوامل والدوافع للاتجاه صوب المقدسين والظواهر المقدسة والتغني بها في هذا الضوء فليس الضعف الإنساني وإحساس الإنسان بالحاجة للقوة وحده الذي

²علي شريعتي ، الأمة والإمامة، ص78
*أنظر الفصل الأول ، مبحث طوتم الخلاص لدى المجتمعات البدائية .

يدعو الإنسان لإضفاء طابع القوة والاقترار على أبطاله لكي يعوض عن ضعفه بعبادة الأبطال المقتدرين ، ليس ذلك وحده إطلاقاً .

بل يسعى الإنسان ويتطلع إلى بلوغ الجمال والحب باستمرار ، ويتغنى بعظمة المطلق الغيبي ، وقد أدى هذا السعي بالإنسان ليعوض عن نقصه عن طريق حمد ومعرفة والتوكل على هذه الموجودات المقدسة ، سواء كانت وجوهاً إنسانية أو غير إنسانية ، أو ينقل نفسه من هذه الحياة غير المقدسة أو الناقصة أو المنحطة إلى حياة غير المقدسة أو الناقصة أو المنحطة إلى حياة ما ورائية كاملة تستحق التغني بها .

من هنا نجد أن الحاجة إلى البطل لا تنحصر بالقبائل البدائية والأمم السابقة ولا تنحصر في الأديان فحسب ، بل نجدها حتى بين المفكرين والفلاسفة المحدثين إبان القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين ، فعبادة الأبطال والإيمان بهم من زاوية روحية وفكرية ، لا تزال قائمة ، من بين هؤلاء مفكرين القرن التاسع عشر هيجل ، ونييتشه ، شيلر ، كارليل رولان ... وهؤلاء جميعاً يؤمنون بالبطل ويرون أن الإنسان لأجل أن يحيا حياة أفضل ويرتفع ويتعالى على مستنقع الحقارة والذلة والاستضعاف إلى عالم متعال وعظيم يلزمه أن يتوفر على "الرجل السوبرمان" إنسان ما فوق ، أي يلزم أن تكون له نماذج ومظاهر متعالية ومقدسة ، وينتقل من خلال الاهتداء والتوسل بهم إلى ما هم عليه من مستوى رفيع ومتعال¹ .

إذن مما سبق نكتشف أن مسألة انتظار البطل أو المُخلص مسألة في غاية البدهية كون أن هذا الانتظار نابع من الفطرة الإنسانية ، لكن ما جدوى هذا الانتظار؟، هل الانتظار بدون حركة أو جهد أو اجتهاد لتغيير ولو جزء بسيط من الفساد الموجود يُعد انتظار إيجابي ، هل البطل المُخلص يحتاج إلى منتظرين جامدين أو منتظرين مُغيرين؟، وللإجابة على هذه التساؤلات نفتح المجال للحديث عن فلسفة انتظار المهدي المخلص،

¹ علي شريعتي ، الأمة والإمامة، ص 80 .

قبلا، يجب أن أُنوه في البداية أن مسألة الانتظار أخذت بعدا شاسعا في الدراسات الشيعية ، وبالأخص عند الشيعة الإمامية الإثني عشرية الذين أسسوا لفلسفة الانتظار، وأعطوها أبعدا مختلفة سأتى على ذكرها في حينها .

ماهية الانتظار من زاوية سيكولوجية ودينية:

تمثل كلمة الانتظار معنى إسلاميا واسعا يمتزج فيه شعور الإنسان المؤمن بفكره ، وعمله ، وقيادته الحقيقية ، وإذا جمعنا دلالة اللفظ بمعنييه اللغوي والاصطلاحي فسوف نجد تكامل وظيفتيهما في تكوين الشخصية المؤمنة وإعدادها لمواجهة واقع الانحراف خلال زمن الغيبة الكبرى – حسب الشيعة الإثني عشرية- إلى يوم الخلاص أو يوم الفتح كما جاء في دعاء الندبة .

وبتأمل مصادر عقيدة الانتظار نجد أن أول ما حرصت عليه هو تأكيدها على أهمية الشعور بالمسؤولية وتوظيفه لتحقيق الأهداف الإسلامية خلال الغيبة الكبرى ، فالانتظار ممارسة عبادية للواجبات التكليفية ، وتهيؤ نفسي وعقلي لأداء هذه المسؤوليات ، وبهذا فإن تجربة الانتظار ليست فقط شعورا وجدانيا ، بل هي كذلك وعي في عقل الفرد المؤمن وانضباطه الكامل بأحكام الإسلام وتشريعاته ، لذلك انبعثت عن هذا الإحساس الفطري سلوكيات ومشاعر وأفكار الشيعة الإثني عشرية كمنتظرين، وهو قطب تكوينهم العقائدي التربوي فالانتظار يغمر قلب الإنسان المنتظر بحياة أفضل يسودها العدل ، وبيوم سعيد لا ظلم بعده¹ .

هذه القوة النفسية – الشعور بأمل أفضل للغد – عامل مؤثر في حركة المجتمع وتنشيط قواه لمواجهة الصعوبات ، وهذا يعني بأنه ما يزال هناك أمام الإنسان فرصة تاريخية لإقامة مجتمع جديد يتولد من أمل الانتظار ، وبخاصة أن ثمة أمراض متنوعة تواجه الإنسان في عصر الغيبة الكبرى تجعل التغيير ضرورة إنسانية ، وتلبية لمطلب النفس ملح ، فالإنسان يشعر بعقم حياته ، وخلوها من المعنى والهدف ما لم يتحقق هذا الطموح.

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار – دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص 30 .

لكن الانتظار كأمل عظيم لا ينشأ كما قلنا من قدر غيبي ، بل ينشأ من أسباب موضوعية قائمة على اعتبارات عملية تنبع دائماً من جهد يصنعه البشر أنفسهم ، فالفساد الشامل الذي يغلف حياتنا يجعل النفوس يائسة ، مثقلة بالأحزان ، متأهبة للتجاوب مع كل وميض أمل و إشراق ، وهكذا نجد النفس المعذبة ، الخائفة من ثقل مأساتها يشدها وتر المستقبل وتندفع -بتخبط أحياناً- بين شعابه ودوائره تبحث عن الأمل الذي يمدّها بالحيوية والنشاط ، ويغمرها بالطمأنينة والثبات القلبي ، لكن أمل الانتظار هذا لا يكون موضوعياً إلا إذا فهمه المسلم المعاصر المنتظر في إطار عملي ، نطاق التعامل مع الواقع ، نطاق التشخيص والتغيير القائمين على وعي كامل بالقوانين الإلهية التي تحكم الحياة ، وبالسنن التي تحكم حركة التاريخ وتضبط مساراته¹.

ويقوم هذا الواقع والتعامل معه على أساس جهد إنساني ، وهو جهد ينبع من اعتبارات عقائدية وروحية ومادية تكشف أمراض الواقع وتعالجها أولاً ، وتربي البشرية على هدي الكتاب والسنة كمنهج حياة ثانياً ، وذلك من أجل ترتيب حركة السير نحو المستقبل بوعي ودراية ويعني هذا أن ضمان تحقق هذا الأمل – رغم أنه وعد إلهي تنتظره البشرية بشوق- مرتبط بالعمل البشري ، فهو عنصر هام جداً لتحقيق بشارة الانتظار الموعود ، والفساد والإصلاح التربوي للإنسان وجهان لهذا الجهد ، وإن كان

أحدهما وجه إيجابي لحركة التغيير، والآخر وجه سلبي، لكنهما يوجهان التاريخ والمستقبل الإنساني نحو تحقيق كامل للبشارة الإسلامية، بشارة ظهور الإمام المهدي. إن انتظار الإمام عليه السلام أمل جماعي لمستقبل أكثر إشراقاً وأقل عذاباً أو مستقبل مليء بالأمان ، يخلو من كدر الظالمين ، إن هذا الأمل يستند إلى وعد إلهي ، فهو إذن ليس مغامرة في المستقبل ، وإنما هو سير نحو المستقبل على بصيرة ، وهو أمل يرفض الهزيمة وظلمة الإحباطات المتشائمة بمستقبل إنساني ، إنه عمل مخلص يوفر الشروط الموضوعية للتغيير ويركز على بناء الحياة وعمارة الأرض وإصلاح المجتمع، كما أن

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار – دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص 31.

هذا المستقبل مشروط بالصبر على الأذى في جنب الله ، والصدق في تناول الحياة والتعامل معها ومع المجتمع ، و الرضا بقضاء الله تعالى وقدره¹ . وهذا هو مفهوم الانتظار من الوجهة الشيعية ، هذا المفهوم الذي يبعث الأمل بإقامة مجتمع جديد تسوده عدالة السماء ، وهذا الذي يجعل " الأمل " موضوعيا قائما على عناصر الوعد الإلهي ، والعمل البشري ، وفهم السنن الاجتماعية . فانتظار القائد بهذا المعنى يمهد الأرضية الصالحة للمصلح المنتظر أو المهدي ، حتى إذا انتفض لا يجد نفسه غريبا يبني ابتداء من الحجر الأساس ، وإنما يجد نفسه يرفع البناء على من سبقه من المجاهدين العاملين في حقل العمل الإسلامي وهذا ما يعرف بالانتظار البناء .

وقد ورد في النصوص الشيعية ما يمجّد هذا المعنى منها :

روى الإمام الصادق (ع) : «انتظار الفرج بالصبر»²

وعن أمير المؤمنين : « انتظروا الفرج ، ولا تيأسوا من روح الله ، فإن أحب الأعمال إلى الله عزّ وجل ، انتظار الفرج »³.

وفي الإكمال عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قيل له : « يا رسول الله ، متى يخرج القائم من ذريتك ، فقال مثله مثل الساعة لا يجليها لوقتها إلاّ الله عز وجل ، لا تأتیکم إلاّ بغتة »¹.

وفي منتخب الأثر عن إكمال الدين أنه أخرج عن الإمام الرضا (ع) قوله : « ما أحسن الصبر وانتظار الفرج ، أما سمعت قول الله عز وجل : فارتقبوا إني معكم رقيب ... فانتظروا إني معكم من المنتظرين ، فعليكم بالصبر ، فإنما يجيء الفرج على اليأس . » وأخرج الترمذي عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلوا الله من فضله ، فإن الله يحب أن يسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج » ،

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص 32

² الصدر محمد ، تاريخ الغيبة الكبرى، دار التعرف للمطبوعات ، بيروت ، [د.ط] ، 1992 ، ج2 ، ص 361

³ المصدر نفسه ، ص 361

¹ الصدر محمد ، تاريخ الغيبة الكبرى ، ص 361

وفي الكافي عن أبي الجارود قال: قلت لأبي جعفر: «يا ابن رسول الله، هل تعرف مودتي لكم وانقطاعي إليكم وموالياتي إياكم، قال فقال: نعم... إلى أن يقول: والله لأعطينك ديني ودين آبائي الذي ندين الله عز وجل به: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله... إلى أن يقول: وانتظار قائمنا والاجتهاد والورع»².

إن انتظار الفرج الذي يكون مهما إلى هذا الحد، ومشددا عليه في لسان أئمة أهل البيت عليهم السلام بهذا المقدار، حيث نسمع أنه أحب الأعمال إلى الله عز وجل، وأنه أفضل العبادة، وأنه أساس من أسس الدين، هذا لا يمكن أن يكون انتظار الفرج من مشكلة معينة أو صعوبة فردية، فإن غاية ما يطلب من الفرد إسلاميا خلال المصاعب هو الصبر، وعدم الاعتراض على الله في ذلك، وأما انتظار ارتفاع الصعوبة، فلا يعطي مزية زائدة بحسب ما هو المفهوم من القواعد العامة في الإسلام – حسب الشيعة الإمامية الإثني عشرية – وإنما هذا الانتظار الكبير ليس إلا انتظار

اليوم الموعود، باعتبار ما يستتبعه من الشعور بالمسؤولية والنجاح في التمهيد الإلهي، والمشاركة في إيجاد شرط الظهور، في نهاية المطاف، كل ذلك لمن يشعر بهذا الانتظار ويكون على مستوى مسؤوليته، بخلاف من لا يشعر به، بل يبقى على مستوى المصلحة و الأنانية، فإنه لن ينال من هذه العبادة الفضلى شيئا¹.

ونستطيع بكل وضوح أن نعرف أنه لماذا أصبح هذا الانتظار أساسا من أسس الدين، لأنه مشاركة في الغرض الأساسي لإيجاد البشرية، ذلك الغرض الذي شارك فيه ركب الأنبياء والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

إذن هذه الأخبار، لا يمكن أن يكون لها معنى، إلا المشاركة في هذا الهدف الكبير.

الحيرة وانتظار الفرج :

²المصدر نفسه، ص362
¹الصدر محمد، تاريخ الغيبة الكبرى، ج2، ص363

قال الرسول صلى الله عليه وسلم « تكون له غيبة – أي الإمام – وحيرة تضل فيها الأمم ، ورؤى عن أمير المؤمنين (ع) مختوما بقوله : يضل فيها أقوام ويهتدي آخرون ، وعن الحسين (ع) بلفظ آخر تراه في محلّه ... وجاء عنه صلى الله عليه وسلم: كائن في أمّتي ما كان في بني إسرائيل حذو النعل والقذّة بالقذّة ، وإن الثاني عشر من ولدي يغيب حتى لا يرى ، (والذي كان في بني إسرائيل هو حيرتهم لما غاب عنهم لاوى بن برخيا – أول الأسباط- غيبة طويلة ، ثم عاد ، فأظهر الله به شريعته بعد اندراسها ، وقاتل قرسيطاء الملك وانتصر عليه ، مضافا إلى أنه كان فيهم أشياء كثيرة تشبه ما صار في الإسلام ، يكفي أن نذكر منه أكبر انتظار في الإنسانية ، وهو انتظار السيد المسيح (ع) من قبلهم منذ الوعد به حتى اليوم »².

وقال أمير المؤمنين (ع) : «يكون لغيبته حيرة يضل فيها أقوام ويهتدي آخرون ، أولئك خيار الأمة مع أبرار العترة»³.

و الشيعة هنا لهم تعقيب على ذلك حيث يرون أن الذي نحن فيه اليوم كلّ من أمر الجاهلية ، بل بعضه أخط من أمر الجاهلية الأولى ، فقد حادت الأمة الإسلامية عن كتابها وسنة نبيها ، ومن عصم الله ورحم فقليل ما هم ، وسنرى أن كل ما يأمرها بها الإمام من الأحكام الدينية تراه جديدا عليها ، يدل على ذلك ما نراه في إيران من الاحتجاج الصارخ على تحريم الخمر وتحريم السفور الوقح ومظاهر الخلاعة التي يحرمها الإسلام ، فقد ابتعدت الأمة الإسلامية عن قواعد الدين بعدا كبيرا يجعلها حريّة بقولك لنا يا سيدي وقد قلت للمسلمين منذرا : (تهتمُّ كما تاهت بنو إسرائيل على عهد موسى ، وبحق أقول : ليضعفن عليكم التيه من بعدي باضطهادكم ولدي أضعاف ما تاهت بنو إسرائيل) ، "وليس الضّعف هنا مقدار المثل أو المثليين ، بل يعني الأكثر ،

² سليمان كامل، يوم الخلاص في ظل القائم المهدي، ص 209
³ المرجع نفسه ، ص 210.

لأن الضعف بلغة العرب زيادة غير محصورة أقلها المثل ، وعليه فلم يُرد الإمام أن يقول : تاهت بنو إسرائيل أربعين سنة ، وأنتم ستتيهون ثمانين ، بل ستتيهون أكثر"¹ .
 إذن مسألة انتظار الإمام المهدي تكون مصحوبة بآلام وحيرة وصبر على المظالم ، لأن من قواعد خروج المهدي أن يشند البأس ، ويكثر الهرج والمرج ويمرق الناس من الدين ، وقد ورد في مجمع الزوائد : " لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم الهرج ثلاثا ، قالوا وما الهرج ؟ قال القتل "² .

فسر الهرج في هذه الأخبار ، والتي تأتي بعدها بالقتل ، ولا يحصل القتل إلا بالحروب والفتن ، ولكن هذا القتل إنما يكون بعد تقارب الزمان – أي بعد ذهاب بركة الزمان – فتري بعض الوقت قريب من الآخر ، ينطوي طيا ، فالصبح قريب للظهر جدا ، والظهر قريب للمغرب ، وهكذا ، وهذه علامة واضحة لأولي الألباب ، كما ينقص أهل العلم ، ولذا قال في الخبر الثاني : ويُرفع العلم ، لأن رفعه وذهابه بذهاب حملته ، وعند ذلك إذا ذهب حملة العلم والعلماء فيكون مجالا للجهل وأهل الجهل ، فينزل

الجهل لأن مثل العالم كالنور والضيء الذي يضيء الطريق للناس في الليلة الظلماء ، فإذا أطفئ وذهب النور بقي الناس في ظلام الجهل يعمهون ، وفي الغي يترددون ، ومن آثار الجهل حدوث الشح – أي البخل – في أنفس البشر ، فلا ترى إلا نحيلاً أو لئيماً ، وظهور الفتن والحرب ، وبأسبابها يكثر الهرج وهو القتل "¹ .

إذن يأتي على الناس زمان "يصيبهم فيه سبطة ، يأزر العلم فيها (أي ينقبض) كما تأزر الحية في جحرها ، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم نجمهم ، فقيل له : فما السبطة ؟ فقال : فترة النعاس والضعف ، كونوا على ما أنتم عليه حتى يُطلع الله نجمكم"² .

¹ سليمان كامل، يوم الخلاص في ظل القائم المهدي، ص 209

² محمد المهدي الحاج الشيخ ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة-، دار الحجّة البيضاء ، بيروت ، ط2 ، 2003 ، ج2، ص111

¹ محمد المهدي الحاج الشيخ ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة-، ص 112.

² سليمان كامل، يوم الخلاص في ظل القائم المهدي، ص.212

النجم هنا هو المهدي القائم المنتظر، فلا يجوز الاستعجال على ظهوره كما قال الإمام الصادق (ع): "كذب الوقاتون، وهلك المستعجلون، ونجا المسلمون، وإلينا يصيرون ما وقتنا فيما مضى، ولا نوقت فيما يُستقبل"³.

فلقوم القائم علامات تكون من الله عز وجل واستدلوا يقول الله تعالى (ولنبلونكم بشيء، من الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين) الآية 155 - سورة البقرة-

ولنبلونكم: يعني المؤمنين، قبل خروج القائم بشيء من الخوف من ملوك بني فلان في آخر سلطانهم، والجوع: بغلاء أسعارهم، ونقص من الأموال: بكساد التجارات وقلة الفضل، ونقص من الأنفس: موت ذريع، ونقص من الثمرات: قلة ريع ما يزرع، وبشر الصابرين: عند ذلك بتعجيل خروج القائم، وذلك بعد فتنة صماء صيلم، يسقط فيها كل وليجة وبطانة، فيثب الجار على جاره فيضرب عنقه، فالزموا الأرض ولا تُحركوا يدا ولا رجلا"⁴.

إنها بالفعل حيرة، متبوعة بالآلام، فلو عُيّن لهذا الأمر وقت لقتت القلوب ولرجع عامة الناس عن الإسلام، ولكن قالوا: ما أسرع، وما أقرب، تألفا لقلوب الناس، وتقريبا للفرج، وهذا ما أكدته الإمام الجواد (ع) في قوله: "أجل إنه ليقسوا قلبي حين أعرف أن الحجة سيخرج بعد ألف سنة مثلا، فأياس من لقائه شيئا ما، ثم يزيد ابني من بعدي ياسا، ويتزايد ياس حفيدي لذلك، فيبتدئ البعد عن الدين جيلا فجيلا... أما بهذا الشكل فإني أهفوا للقاء الميمون، ويهفوا إليه غيري، ونحس بأننا مطالبون بين يدي إمام يحاسب سيفه على التفريط، ومحاسبون على التقصير، فنشعر بالمسؤولية ونتمسك بعقيدتنا ونقوم بواجباتنا، ونرى هيبة الإمام مسيطرة علينا، فتستقيم أعمالنا وتحسن

³المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴المرجع نفسه، ص. 213.

عبادتنا ، ويتحسن سلوكنا ومعاملتنا مع سائر الناس " ¹. فهذا الانتظار الكبير ليس إلا انتظار اليوم الموعود.

من الأسئلة الشائعة حول إمام العصر -المهدي المنظر - السؤال عن فائدة وجود الإمام المنتظر .

الشيعة الإثني عشرية يؤكدون أن الأثر البارز لوجود الإمام هو الهداية والإمامة والسؤال الذي يطرح نفسه هو : كيف يمكن للإمام الغائب عن الأنظار أن يهدي العباد ، وبعبارة أخرى بالنظر إلى أن القرآن يعتبر الهداية من خصوصيات الإمام ويقول (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) ² ، كيف ننتظر أداء هكذا تكليف ثقيل من الإمام الغائب، إن الإمام المهدي

هو القائد والزعيم والإمام ، ووجود القائد لا يكون مفيدا إلا أن يكون متصلا بشكل مستمر بأصحابه ، فكيف يمكن للإمام الغائب عن الأنظار أن يؤدي دوره القيادي ؟ وبعبارة أخرى : إن حياة الإمام المهدي في زمن الغيبة هي حياة خاصة وليس حياة اجتماعية وفي موقع الزعيم والقائد ، ومع هذا يجوز لنا أن نسأل ما

الأثر العام لهذا الإمام المُدخِر للناس ؟ وما هي الفائدة التي يجنيها الناس من وجوده؟ يجيب الشيعة الإثني عشرية أن المهدي كنبع ماء الحياة الزلال الموجود في الأعماق حيث لا أحد يصل إليه.

إضافة إلى ذلك هل مفهوم غيبة الإمام المهدي هو أن وجوده تبدل إلى روح لا مرئية أو أمواج خفية أو أشعة وأمثالها، وهل هذا يوافق العلم ؟ يرى الشيعة "أن من الخطأ أن لا يجيبوا على هذه التساؤلات التي أصبحت سببا في سوء فهم بعض الجماعات لاسيما جمهور السنة.

إذ ليس مفهوم غيبة الإمام المهدي كما ذكرنا هو وجوده في الغيبة بشكل لا مرئي يشبه الوجود الخيالي ويخالف الوجود العيني ، بل إن له حياة طبيعية وعينية ووجودا خارجيا

¹ سليمان كامل، يوم الخلاص في ظل القائم المهدي ، ص 215.
² الآية 73 - سورة الأنبياء-

، إلا أنه يعيش مع الناس وفي المجتمعات ، وفي مناطق مختلفة ، وإن كان في حياته استثناء فهو عمره طويل فقط ، إنه يعيش في المجتمع البشري بشكل خفي ، ولم يدع أحد بشأن غيبته غير هذا وفرق كبير بين المجهول واللامرئي"¹ .

إذن الإيمان بوجوده حافظ كبير لانتظاره حسب الشيعة الإثني عشرية ، لأن الاعتقاد بوجوده ، دلالة على الأمل في الخلاص من الآلام والظلم السائدين في مختلف المجتمعات أو في العالم بأسره ، هذا الظلم الذي لن ينتهي إلا بقدوم هذا القائد البطل " المهدي المنظر" الذي سيثمن ثورة عالمية على مختلف الأصعدة ، وتتمثل فيها كل ثورات الموحدين و الأنبياء على طول التاريخ ، وهي الهدف النهائي للثورات البشرية المقدسة ، لذا فإنها تحتاج حتما إلى فلسفة للاستعداد.

المبحث الثاني : شخصية المجتمع وطبيعته

القسم الأول : موقف القرآن من حركة التاريخ

القسم الثاني: تفسير تكامل التاريخ وعلاقته بفلسفة الانتظار

¹ السبحاني جعفر ، (أثر الانتظار في بناء المجتمع الإسلامي) ، الإمام المهدي الوعد المحتوم ، ص 39 .

- الطريقة الديالكتيكية أو الآلية

- الطريقة الإنسانية أو الفطرية

قبل الخوض في غمار فلسفة الاستعداد يجدر بنا الإجابة عن تساؤل طرحناه في البداية حول أنواع الانتظار.

فانتظار الفرج ، والتطلع إلى مستقبل أفضل، على نوعين :

الأول: انتظار مُثمر ببناء يبعث على الالتزام ويمنح القوة والتحرك، ومثل هذا الانتظار يمكنه أن يكون نوعاً من العبادة وطريقاً لطلب الحق.

الثاني : انتظار محرم وهدام يؤدي إلى الوقوع في الأغلال وإلى شل الطاقات ، ويمكن اعتباره نوعاً من " الإباحية " كما سنوضح ذلك بعد حين¹.

¹مُرْتَضَى مطهري ، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ ص 20 .

هذان النوعان من الانتظار ينطلقان من انطباعين مختلفين عن ظهور المهدي الموعود، وهذان الانطباعان بدورهما ناشئان عن رؤيتين متباينتين للتطورات والتغيرات التاريخية ، من هنا يجب أن نلقي الضوء على طبيعة مجرى الأحداث التاريخية .

شخصية المجتمع وطبيعته :

يطرح المفكرين " باقر الصدر و مُرتضى مطهري " تساؤل حول فيما إذا كانت التطورات التاريخية سلسلة من الأمور الطبيعية أم مجموعة من الأحداث التي تتحكم فيها الصدفة والاتفاق ؟

يجيبان: الطبيعة خالية من الصدفة الواقعية، أي خالية من بروز أو حدوث ظاهرة ليست لها علة ، لكن الصدفة موجودة بشكل نسبي قطعاً² .

فالصدفة تطلق على كل ظاهرة لا تتسجم علتها مع الطبيعة العامة لعلة تلك الظاهرة، فما يحدث بالصدفة لا يخضع لضوابط عامة ولا لقوانين علمية ، إذ أن القوانين العلمية تعبر عن الأحداث العامة للطبيعة.

نعود إلى السؤال الذي طرحناه آنفاً : رُب قائل : أن أحداث التاريخ هي سلسلة من

الصدف والاتفاقات ، أي أنها لا تتضبط تحت قاعدة عامة ، هذه المقولة تعني : أن المجتمع عبارة عن مجموعة من أفراد ذوي طبائع فردية شخصية ، وما يقوم به هؤلاء الأفراد من نشاطات نابعة من دوافعهم الفردية الشخصية ، يؤدي إلى سلسلة من المصادفات والاتفاقات وهذه بدورها تؤدي إلى التغيرات التاريخية ، وهذه النظرة الأولى .

أما النظرة الأخرى ، ترى أن للمجتمع وجوده وشخصيته المستقلة عن الأفراد وله مسيرته التي تقتضيها طبيعته وشخصيته ، فشخصية المجتمع هي غير شخصية الأفراد والشخصية الواقعية والحقيقية للمجتمع تركيب مكون من التفاعل الثقافي للأفراد كسائر التراكيب المشهودة في الطبيعة الحية والجامدة ، وهذا الموقف يؤيده العلامة ابن خلدون

² المصدر نفسه ، ص 21 .

الذي يرى أن الحوادث التاريخية يمكن دراستها دراسة علمية تجريبية ، وموضوعية من خلال البحث عن علل وأسباب الحوادث الإنسانية ككل ¹ .

فالمجتمع-بناء على هذا- له طبيعته وقواعده وضوابطه الخاصة التي تؤطر مسيرته ، وهذه المسيرة بكل ما فيها من أفعال وردود أفعال إنما تقوم على أساس قوانين كلية عامة .

فلا يمكن أن تكون للتاريخ فلسفة ولا قواعد ولا ضوابط عامة ، ولا بمقدوره أن يكون موضوعا للفكر وأساسا للدراسة والتذكر والاعتبار ما لم يكن للمجتمع شخصية مستقلة وطبيعة خاصة ² .

وإن افنقد المجتمع هذه الشخصية المستقلة تحول التاريخ إلى تعبير عن حياة مجموعة من الأفراد وفقد عطاؤه التربوي، وإن كانت في مثل هذا التاريخ عظة وعبرة، اقتصرت العبرة والعظة على الحياة الفردية ولا تتعداها إلى حياة الشعوب والجماعات.

إذن يجب أن نتفق حول مسألة مهمة تتمثل في أن الحوادث الإنسانية تاريخية كانت أم اجتماعية تخضع لمبدأ الحتمية أو مبدأ السببية ، هذا إذا سلمنا بأن للمجتمع شخصية

مستقلة عن شخصية الفرد ، كون أن هذا التفاعل الاجتماعي قصدي وليس عفوي ، له دوافع وأسباب ، من المحتمل جدا أن تتكرر في المستقبل القريب ، وهذا أمر يؤكد حتى القرآن الكريم .

موقف القرآن الكريم من حركة التاريخ :

مسألة "انتظار الفرج" التي نريد معالجتها في هذا البحث دينية إسلامية ، ذات جذور قرآنية ، إضافة لما لها من طابع فلسفي واجتماعي ، ينبغي على هذا أن نوضح رأي القرآن في المجتمع وأحداثه وتطوراتها قبل البحث في مسألة الانتظار ¹ .

ليس ثم شك في أن القرآن الكريم يذكر التاريخ على أنه مصدر للتذكر والتفكير ولتلقب العبر والدروس والمواعظ ، لكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد يدور حول

¹ زروخي إسماعيل ، دراسات في الفلسفة السياسية ، دار الفجر للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 2001 ، ص 122 .

² مرنضى مطهري ، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ ، ص 22 .

¹ المصدر نفسه، ص22 .

طبيعة النظرة القرآنية للتاريخ ، أهي نظرة فردية أم اجتماعية ؟ هل ينطلق القرآن في طرح العبر والدروس من حياة الأفراد أم من حياة الجماعات ؟ ، وإذا كان القرآن يتجه في سرده للتاريخ إلى حياة الجماعات لا الأفراد، فهل هذا يعني أن القرآن يعتبر المجتمع شخصية مستقلة مدركة، ذات قوة وشعور ، ومستقلة عن حياة الأفراد ؟ وإذا كان جواب السؤال الأخير إيجابيا ، فهل نستطيع أن نستنبط من القرآن الكريم السنن والقوانين التي تحكم المجتمعات؟² نستطيع هنا أن نشير بشكل موجز جدا إلى أن القرآن ينطلق في قسم من دروسه وعبره - على الأقل - من حياة الأمم والجماعات .

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت وألهم ما كسبت ولا تسئلون عما كانوا يعملون)³. القرآن يطرح مرارا مسألة حياة الأمم وأجالها فيقول مثلا : (ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)⁴ ، واضح أن القرآن الكريم يرفض بشدة

النظرة العبثية على التاريخ وشدد على وجود قواعد ثابتة دائمة لمسيرة الأمم والجماعات فيقول : (فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً)¹ ، القرآن يُشير إلى مسألة تربوية هامة في حقل القوانين التي تحكم التاريخ حين يؤكد أن البشرية هي التي ترسم بيدها مصيرها عن طريق ما تقوم به من أعمال صالحة أم طالحة ، وهذا يعني أن النظرة القرآنية تذهب إلى أن القوانين المُسيرة البشرية ما هي إلا سلسلة من ردود الفعل لما تفعله الأقوام والجماعات . من هنا نفهم أن النظرية القرآنية تؤكد على وجود قوانين ونواميس كونية ثابتة لمسيرة التاريخ ، كما تؤكد في الوقت ذاته على دور الإنسان وحرية واختياره.

²المصدر نفسه ، ص 23 .
³الآية 134 ، الآية 141 - سورة البقرة -
⁴الآية 34 ، - سورة الأعراف - .
¹الآية 43 ، - سورة فاطر - .

وهذا ما أكدته العلامة ابن خلدون في قوله أن التفاعل البشري ، تفاعل مقصود ينبني على أساس أن الإنسان مدني ، اجتماعي بطبعه يحتاج إلى غيره ويحتاجه غيره ، وهذا هو أصل العمران البشري² .

تفسير تكامل التاريخ وعلاقته بفلسفة الانتظار:

المدرسة الفكرية التي تنظر إلى المجتمع باعتباره موجودا ذا شخصية مستقلة وطبيعة خاصة ، لها نظرتها المعينة أيضا إلى تكامل المجتمع ، ولها تفسيرها الخاص لطبيعة المسيرة البشرية ولمسألة التكامل .

ذكرنا أن القرآن الكريم يؤكد شخصية المجتمع وواقعيته ، كما يؤكد أيضا على الاتجاه الارتقائي التكاملي للمجتمع .

ومن جهة أخرى نعلم أن ثمة مدارس فكرية أخرى تذهب أيضا إلى أن مسيرة البشرية تسير سيرا ارتقائيا تفرضه حتمية التاريخ .

من هنا كان لزاما علينا أن نلقي الضوء على الفرق بين النظرة القرآنية في هذا المجال

ونظرة بعض المدارس الفكرية الأخرى ، وأن نفهم من خلال ذلك دور الإنسان ومسؤوليته لنستجلي من ذلك كله طبيعة "الانتظار الكبير" وكيفيته .

يمكن تفسير تكامل التاريخ بطريقتين مختلفتين : إحدى هاتين الطريقتين نطلق عليها اسم التفسير " الآلي " أو الديالكتيكي ، والطريقة الأخرى : التفسير "الإنساني " أو "الفطري" ، ومن هاتين الطريقتين المتباينتين لتفسير تكامل التاريخ ، ينبثق اتجاهان فكريان مختلفان شكلا وماهية¹ .

نستعرض فيما يلي هاتين الطريقتين بقدر ما يتعلق الموضوع بمسألة الانتظار والأمل بالمستقبل .

الطريقة الديالكتيكية أو الآلية :

² ابن خلدون ، المقدمة ، الدار التونسية للنشر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، [د.ط] ، 1984 ، ج1 ، ص 34 .
¹ أمرضى مطهري ، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ ، ص24

هذه النظرة تفسر تكامل التاريخ على أساس الصراع بين النقيض ، وأولئك الذين يتخذون من هذه الطريقة وسيلة لتفسير تكامل المسيرة البشرية لا يقتصرون على التاريخ بل يفسرون كل أجزاء الطبيعة على هذا الأساس .

نشير فيما يلي بشكل موجز إلى التفسير الديالكتيكي للطبيعة باعتباره أساسا للتفسير الآلي للتاريخ .

يقوم التفسير الديالكتيكي للطبيعة على الأسس التالية :

أولا : الطبيعة في حركة مستمرة ودائمة، وليس فيها ما هو ساكن وثابت ، فالنظرة الصحيحة للطبيعة إذن هي أن نرى الأشياء في حالة حركة وتغير دائمين والفكر هو أيضا متغير باعتباره جزءا من الطبيعة يقول إنجلز : " فما هو إذن نفي النفي ، إنه قانون لتطور الطبيعة والتاريخ والفكر ، عام للغاية ، ولذا له أهمية ومدلول بالغين ، إنه قانون على مملكة الحيوان والنبات وعلى الجيولوجيا والرياضيات والتاريخ والفلسفة"².

ثانيا : كل جزء من أجزاء الطبيعة يتأثر بأجزاء الطبيعة الأخرى ويؤثر فيها ، فهناك

ارتباط عام بين جميع الأجزاء ، وعلى هذا فالنظرة إلى الطبيعة لا تكون صحيحة ما لم تدرس جميع الأشياء وهي مرتبطة مع بعضها ، لا مفككة ومجزأة .

ثالثا : الحركة ناشئة عن صراع النقيض ، فكما قال "هرقليطس" اليوناني قبل خمس وعشرين قرنا الصراع أساس كل تطور¹.

وصراع النقيض يأتي عن طريق اتجاه كل ظاهرة نحو ضدها ونقيضها ، وهذه الظاهرة تحمل نقيضها معها ، فكل ظاهرة موجودة ومعدومة في آن واحد لأنها تحمل عوامل عدمها وفنائها معها قال إنجلز : " ... الحركة نفسها هي تناقض ، إن أبسط تغير ميكانيكي في المكان لا يمكن أن يحدث إلا بواسطة كينونة جسم ما ، في مكان ما في لحظة ما وفي نفس تلك اللحظة كذلك ، في غير ذلك المكان ، أي كينونته وعدم كينونته

²باقر الصدر محمد، فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، ط12 ، 1982 ، ص 228 .
¹مُرْتَضَى مطهري ، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ ، ص25

في مكان واحد ، في نفس اللحظة الواحدة ، فتتابع هذا التناقض تتابعا مستمرا ، وحل هذا التناقض حلا متوقتا مع هذا التتابع ، هو ما يسمى بالحركة " ² .

ومع نمو النقيض يحتدم الصراع بين الظاهرة الأصلية التي نريد الحفاظ على وضعها ووجودها، وبين نقيضها الذي يريد أن يبدلها إلى ضدها .

رابعا : الصراع بين النقااض داخل الظواهر يزداد شدة باستمرار حتى يبلغ ذروته ، أي أن التغيير الكمي يزداد ليبلغ أقصى حد ممكن ، وحينئذ تحدث طفرة ثورية في التغييرات الكمية لتتحول إلى تغييرات كيفية وينتهي الصراع لصالح القوى الجديدة ، وتندحر القوى القديمة ، ويتبدل الشيء إلى نقيضه يقول ستالين في هذا الصدد : " إن الديالكتيك - خلافا للميتافيزيقا - لا يعتبر حركة التطور حركة نمو بسيطة ، لا تؤدي التغييرات الكمية فيها إلى تغييرات كيفية ، بل يعتبرها تطورا ينتقل من تغييرات كمية

وضئيلة وخفية إلى تغييرات ظاهرة وأساسية ، أي تغييرات كيفية ، وهذه التغييرات الكيفية ليست تدريجية ، بل هي سريعة فجائية ، وتحدث بقفزات من حالة إلى أخرى" ¹ .

فهذه الطريقة لفهم الوجود تتلخص إذن في افتراض قضية أولى وجعلها أصلا وهي ما يطلق عليها اسم " الأطروحة " ثم ينقلب هذا الأصل إلى نقيضه وهو " الطباق " بحكم الصراع في المحتوى الداخلي بين المتناقضات ، ثم يأتلف النقيضان في وحدة وهي " التركيب " وتصبح هذه الوحدة بدورها أصلا ونقطة انطلاق جديدة ، وهكذا يتكرر هذا التطور الثلاثي وبهذا الشكل تطوي الطبيعة مراحل تكاملها .

فالطبيعة ليست هادفة ولا تنشد كمالها ، بل تتجه نحو انهدامها ، لكن هذا الانهدام يحمل بدوره عنصر انهدامه ، وكل نقيض يتجه بدوره نحو نقيضه ، ونفي النفي نوع من التركيب الذي يؤدي إلى دفع التاريخ نحو التكامل بشكل حتمي وجبري .

² باقر الصدر محمد، فلسفتنا، ص236، ص637 .

¹ باقر الصدر محمد، فلسفتنا، ص279 .

والتاريخ جزء من الطبيعة وهو لذلك يطوي نفس مسيرة الطبيعة على الرغم من أن العناصر المسألة التاريخية هم أفراد البشر .

أي أن التاريخ تحرك مستمر وارتباط متبادل بين الإنسان والطبيعة ، والإنسان والمجتمع ، وهو مواجهة وجدل دائم بين المجموعات الإنسانية الفتية ، والمجموعات التي تتجه نحو الزوال ، وهذه المواجهة تؤدي في نهاية الأمر إلى حركة حادة ثورية لصالح القوى الفتية النامية² .

بعبارة أخرى : التاريخ مسرح لصراع الأضداد ، حيث تتجه كل ظاهرة نحو ضدها ثم يتم التكامل على أثر تركيب الأضداد ، هذه النظرية تذهب بعد ذلك إلى أن العمل الإنتاجي هو أساس حياة البشرية والعامل المحرك للتاريخ³.

فالعامل الاجتماعي في أية مرحلة من مراحل التاريخ يخلق نوعا خاصا من العلاقات

الاقتصادية بين الأفراد وهذه العلاقات الاقتصادية تؤدي إلى انبثاق مجموعة من العلاقات الأخرى كالعلاقات الخلقية والسياسية والقضائية والعائلية ونظائرها¹.

والعمل الإنتاجي لا يتوقف على شكل معين ، إذ أن الإنسان مزود بقدرة على تطوير وسائل الإنتاج ، وتكامل وسائل الإنتاج ، وتكامل وسائل الإنتاج يؤدي إلى زيادة الإنتاج وإلى خلق جديد يحمل أفكارا جديدة متكاملة ، أي أن هناك تأثيرا متبادلا بين الإنسان والآلة ، الإنسان يخلق الآلة ، والآلة تخلق الإنسان الجديد ، ومن جهة أخرى ، زيادة الإنتاج تؤدي إلى إيجاد علاقات اقتصادية جديدة ، ومن هذه العلاقات الاقتصادية الجديدة تنبعث مجموعة أخرى من العلاقات الاجتماعية ، وهذا هو المقصود من مقولة: الاقتصاد يشكل البناء التحتي للمجتمع ، وكل ما عداه فهو بناء فوقي ، أي أن جميع الأوضاع الاجتماعية معلولة للوضع الاقتصادي ، قال إنجلز : "إننا نرى للظروف الاقتصادية القول الفصل في تحديد التطور التاريخي ، وعليه فالأصل هو نفسه عامل اقتصادي

²مُرْتَضَى مطهري ، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ ، ص27

³علي شريعتي ، العودة إلى الذات ، ترجمة : إبراهيم الدسوقي شتى ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ط1، 1986 ، ص91.

¹ باقر الصدر محمد، فلسفتنا ، ص27

(...)، إن التطور السياسي والحقوقى والفلسفي والديني والأدبي والفني (...) يستند إلى التطور الاقتصادي².

وعندما يتغير البناء التحتي على أثر تطور وسائل الإنتاج تتغير كل الأبنية الفوقية ، وفي هذه الحالة تحاول القوى التي ترتبط مصالحها بالوضع الاقتصادي القديم أن تحافظ على هذا الوضع بشكله الموجود ، لكن الطبقة الفتية المرتبطة بوسائل الإنتاج الجديدة ، ترى أن مصالحها تقتضي تغير الأوضاع وإحلال نظام اقتصادي جديد ومن هنا تسعى إلى تغيير المجتمع وتطويره وإلى إيجاد نوع من التناسق بين المسائل الاجتماعية من جهة ووسائل الإنتاج المتكاملة ومستوى الإنتاج الجديد من جهة أخرى³.

ويستمر الصراع بين الفريقين: فريق رجعي ومرتبطة بالماضي، والآخر تقدمي يرتبط

بالمستقبل، أحدهما: يرى ضرورة بقاء الأوضاع الموجودة من أجل استباق وجوده ، والآخر : يسعى نحو أجواء جديدة وأوضاع جديدة ، إذن أحدهما يتجه نحو الزوال والآخر يتجه نحو النمو .

ويشند هذا الصراع ويحتدم ليلبغ ذروته حيث يحدث الانفجار ويتبدل المجتمع في خطوة ثورية تبداً يتمثل بتغير النظام القديم وإحلال النظام الجديد وانتصار القوى الجديدة وفشل القوى القديمة .

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل التاريخ، وهذه المرحلة الجديدة تتطور أيضاً إلى مرحلة جديدة أخرى بنفس الطريقة السابقة.

فالتاريخ في مفهوم هذه النظرية يطوي مسيرته عبر الأضداد ، وكل مرحلة من مراحل التاريخ تحمل في أحشائها المرحلة التالية، وبعد صراع مستمر تترك المرحلة السابقة مكانها للمرحلة التالية .

هذا الاتجاه الفكري لتفسير الطبيعة والتاريخ يسمى الاتجاه الديالكتيكي وهذا ما أكده ستالين من قوله : " تعتبر الطريقة الديالكتيكية أن حركة التطور من الأدنى إلى الأعلى،

²الصدر محمد ، اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، [د.ط] ، 1992 ، ج4، ص 100 .

³ المصدر نفسه، ص 101 .

لا تجري بتطور الحوادث تطورا تدريجيا متناسقا ، بل بظهور التناقضات الملازمة للأشياء والحوادث بـ " نضال " الاتجاهات المتضادة التي تعمل على أساس هذه التناقضات " ¹.

ولما كان هذا الاتجاه يعتبر كل القيم والأوضاع الاجتماعية في جميع مراحل التاريخ مرتبطة بوسائل الإنتاج وتابعة لها ، فقد أطلقنا عليه اسم " التفسير الآلي " ومتى ما ذكرنا مصطلح "التفسير الآلي" فإننا نقصد به هذا اللون من التفكير .

الواضح مما سبق أن الاتجاه الديالكتيكي يجعل للنضال قدسية خاصة ، فلما كان الصراع بين القديم والجديد شرطا أساسيا الانتقال التاريخ من مرحلة إلى مرحلة

أخرى، وركنا ضروريا من أركان تكامل المجتمع البشري ، فالصراع بين القديم والجديد هو نضال مقدس مهما كان لونه.

فالقديم يستحق الفناء لا لكونه معتديا، بل لأنه قديم، ولأن زواله يدفع بالمجتمع نحو التكامل.

من هنا فقدسية النضال لا تنطلق من كونها دفاعا عن حق أو ردا لهجوم وإنما يصبح نضالا آليا وعليه يمكن أن نستنتج طبيعة الانتظار في هذه الحالة، إنه انتظار للخلاص بطريقة سلبية ومخرية -وسآتي على شرحه بالتفصيل لاحقا-.

الطريقة الإنسانية أو الفطرية :

الطريقة الإنسانية أو الفطرية لتفسير التاريخ تقف في النقطة المقابلة للتفسير الآلي، هذه الطريقة تمنح الإنسان والقيم الإنسانية أصالة سواء على المستوى الفردي أم على مستوى المجتمع ¹.

هذه الطريقة تنظر إلى الكائن الإنساني – في إطار علم النفس – بأنه مكون من مجموعة غرائز مادية يشترك فيها سائر الحيوانات ، ومجموعة من الغرائز السامية التي تميزه

¹ الصدر محمد ، اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني ، ص.70
¹ الصدر محمد ، اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني ، ص. 397.

عن غيره من الحيوانات كالغريزة الدينية والغريزة الأخلاقية وغريزة البحث عن الحقيقة " حب التطلع" والغريزة الجمالية .

وفي الإطار الفلسفي تنظر هذه الطريقة إلى المجتمع "من حيث ارتباط أجزائه وأفراده بأنه تركيب حقيقي كما تنظر إلى المجتمع من حيث خصاله بأنه مجموعة من الخصال الدانية والسامية للأفراد لإضافة إلى مجموعة خصال باقية مستمرة في المجتمع ،هذه الخصال الباقية المستمرة تتحكم في المجتمعات دون أن تتأثر بفناء الأفراد ،على أن تكامل الإنسان والمجتمع الإنساني يمنح هذه الخصال الباقية نظاما أفضل² .

مسيرة التاريخ – انطلاقا من هذه النظرة – متحولة متكاملة كالطبيعة ذاتها ، والحركة باتجاه الكمال ضرورة لا تنفصل عن ذات أجزاء الطبيعة بما فيها التاريخ ، فتحول التاريخ وتكامله لا يقتصر على الجانب المدني ، بل أنه يعم و يشمل جميع الشؤون المعنوية والثقافية للإنسان ويتجه نحو تحرير الإنسان من القيود البيئية والاجتماعية . والإنسان بفعل تكامله الشامل يتحرر تدريجيا من ارتباطه ببيئته الطبيعية والاجتماعية ويتجه نحو توثيق ارتباطه بالعقيدة والإيمان والأيدولوجية وسيصل في المستقبل إلى الحرية المعنوية التامة المتمثلة في الارتباط التام بالعقيدة والإيمان والمدرسة الفكرية . الإنسان في الماضي كان أسيرا وعبدا لقوى الطبيعة والإنسان في المستقبل سيتحرر من قيود الطبيعة وستزداد سيطرته عليها في نفس الوقت الذي سيزداد استثماره للطبيعة إلى أقصى حد ممكن .

لا ينبغي تفسير التكامل بآلات الإنتاج ، ولا ينبغي اتخاذ المعلول مكان العلة ، كون أن تكامل وسائل الإنتاج هو بدوره معلول اندفاع الإنسان الفطري نحو الكمال والتنويع والاستزادة ، وناتج عن قوة الابتكار لدى الأفراد .

²المصدر نفسه ، ص 399.

هذه القوة وذاك الاندفاع يتسعان باستمرار جنباً إلى جنب في جميع جوانب الحياة الإنسانية¹.

وهذه الطريقة ترى أن من خصائص الإنسان انطواءه على صراع داخلي بين الجانب الأرضي أو الترابي ، والجانب السماوي المتعالي ، أي بين الغرائز الهابطة ذات الهدف الفردي المحدود المؤقت ، والغرائز السامية التي تتجاوز حدود الفردية وتتسع لجميع البشرية وتستهدف تحقيق القيم الخلقية والدينية والعلمية والعقلية ، هذا الصراع أطلق عليه القدماء اسم النزاع بين العقل والنفس .

هذا الصراع الداخلي في نفس الإنسان سينجر إلى صراع بين المجموعات البشرية ،

ويتخذ صورة حرب بين الإنسان المتكامل المتحرر روحياً ، والإنسان المنحط المغلول بقيود حيوانية .

هذا الاتجاه الفكري يقبل مبدأ الصراع الاجتماعي ويؤمن بدوره هذا الصراع في تغيير التاريخ وتكامله ، لكنه يرفض أن يكون هذا الصراع طبقياً دائراً بين الفئة المرتبطة بوسائل الإنتاج والنظم الاجتماعية القديمة ، وبين الفئة المرتبطة بوسائل الإنتاج الجديدة¹. فالصراع الذي يؤمن بهذا الاتجاه الفكري ويؤمن بدوره في تطوير التاريخ هو الصراع بين الأفراد الملتزمين المؤمنين الهادفين المتحررين من قيود الطبيعة والغرائز الحيوانية، والأفراد المنحطين المتسافلين الراسفين في أغلال الشهوات الهابطة.

فوقائع التاريخ تشهد أن كثير من الثورات التي قامت من أجل تأمين الاحتياجات المادية للمجتمع تصدر قيادتها أو دعمها على الأقل رجال متحررين من قيود الشهوات الهابطة، كما أن التخطيط العام للبشرية سبب غير اقتصادي تماماً ، ولا يربط تطور المجتمع

¹ الصدر محمد ، اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني ، ص. 407
¹ الصدر محمد ، اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني ، ص. 408

بالعلاقات الاقتصادية ، كما تحاول المادية التاريخية أن تفعل ، حتى تكاد تصبح من نظريات ذات العامل الواحد²

وبين الطريقتين " الآلية والإنسانية" اختلاف في تفسير طبيعة الثورات والنهضات : فالطريقة الآلية : ترى أن تكامل وسائل الإنتاج يخلق طبقة محرومة تنهض بالثورات من أجل تأمين احتياجاتها المادية ، فتعتمد هذه الطبقة إلى تغيير الأنظمة و القوانين الموجودة وتستبدلها بأنظمة وقوانين جديدة ، وتدعي أيضا أن المحتوى الداخلي لأي إنسان يعكس مكانته الطبقيّة ، والطبقة الحاكمة تسعى دوما إلى حفظ النظام القائم وصيانتته . أما الطريقة الإنسانية : فتقدم أمثلة تاريخية للثورات التي لم تقتصر على الطبقة

المحرومة ، بل نهض فيها أفراد نشئوا في الطبقات المرفهة ، ووقفوا بوجه النظام الحاكم بقوة وبسالة كنهضات إبراهيم وموسى ومحمد صلى الله عليه وسلم والحسين ابن علي ، ولم تكن أهداف الثوار مادية دوما ، وخير دليل على ذلك ما شهده التاريخ الإسلامي من نهضات في سبيل الله ، وخاصة صدر الإسلام ، فيصف علي بن أبي طالب - عليه السلام - الرعيل الأول من المسلمين المجاهدين فيقول : حملوا بصائرهم على أسياقهم¹ . والثورات والنهضات لم تكن دوما مرافقة لتطور وسائل الإنتاج ، كانهضات التي شهدتها الشرق والغرب خلال القرون الأخيرة من أجل مقارعة الاستبداد والطغيان ، فأى تطوير لوسائل الإنتاج حدث في إيران -مثلا- إبان النهضة الدستورية .

ولم تكن الفوضى الاجتماعية دوما وليدة نقص القوانين الموجودة ، بل كانت أحيانا وليدة عدم تنفيذ القوانين النظرية المقبولة فانطلقت الحركات الاجتماعية من أجل تطبيق هذه القوانين وتنفيذها عمليا كحركات الشعبوية وثورات العلويين في التاريخ الإسلامي. وأخيرا فالإنسان ليس بالموجود الذي لا يملك أية قدرة في التحكم بنفسه ، وليس بالكائن المدفوع دوما بدوافع غرائزه المادية ومصالحه الذاتية الآنية² .

نتائج الاتجاه الإنساني أو الفطري لتفسير التاريخ :

² المرجع نفسه ، ص 408 .

¹ مُرتضى مطهري ، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ ، ص 38 .

² مصدر نفسه ، ص 39 .

1. **المعارك الراححة** : معارك التاريخ اتخذت أشكالاً وماهيات مختلفة وانطلقت من علل وأسباب متباينة ، لكن المعارك التقدمية التي دفعت بعجلة التاريخ والإنسانية على سلم الارتقاء هي المعارك التي دارت رحاها بين الإنسان العقائدي الملتمزم المُمؤمن المتسامي والإنسان العابث المنحط المغلول بقيود شهواته الحيوانية والبعيد عن خط الالتزام والهدف والتعقل ، فالمعارك التقدمية التكاملية ليست بذات صفة طبقية

وليست بالمجابهة بين القديم والجديد بالمفهوم الذي ينص عليه الاتجاه الآلي ، فالمعارك البشرية تتجه على مرّ التاريخ بالتدرّج نحو اتخاذ صفة أيديولوجية ، ويتجه الإنسان بالتدرّج نحو التكمال في قيمه الإنسانية ، أي يقترب من الإنسان المثالي ومن المجتمع المثالي .

ستكون نهاية المسيرة الإنسانية إقامة حكومة العدل وحكومة سيادة القيم الإنسانية، أو بالتعبير الإسلامي "حكومة المهدي"، كما ستزول حكومة قوى الباطل والطغيان والضلال المنساقاة بدوافعها الحيوانية والأنانية¹.

2. **حلقات التاريخ** : التسلسل المنطقي لحلقات التاريخ ليس له أساس من الصحة كما يصوره أصحاب التفسير الآلي ، وقائع التاريخ عامة وما شهدته القرن الماضي خاصة تؤكد زيف هذه النظرية ، ففي القرن الماضي اتجهت بلدان إلى الاشتراكية دون أن تطوي المرحلة الرأسمالية نظير الإتحاد السوفيتي والصين وبلدان أوروبا الشرقية ، ومن جهة أخرى ثمة بلدان بلغت فيها الرأسمالية ذروتها كالولايات المتحدة وبريطانيا لكنها بقيت في هذه المرحلة دون تغيير أو انتقال يقول آرون: "أكثر الماركسيين تفاؤلاً لا ينتظر حادثة من هذا القبيل - يقصد تغيير المجتمعات الرأسمالية إلى اشتراكية- ولو بعد مائة سنة" ، وثبت خطأ كل التوقعات التي أعرب عنها زعماء

¹ مُرتضى مطهري ، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ ، ص40

الاتجاه الآلي حين أكدوا على قرب اندلاع الثورة العمالية في البلدان الصناعية كبريطانيا ، وفرنسا².

أحداث التاريخ أوضحت زيف ادعاءات الجبر وأثبتت إمكان وصول طبقة البروليتاريا إلى درجة معينة من الرفاه بحيث لم تعد تخامرها فكرة الثورة ، كما أثبتت إمكانية انتقال مجتمع من الحالة البدوية إلى أسمى مراحل الحضارة الإنسانية على أثر انبثاق أيديولوجية معينة وانتشار إيمان ديني بين أفراد المجتمع كما حدث في صدر الإسلام³.

3. **قدسية النضال** : مشروعية النضال وقداسته لا تنحصر في إطار الوقوف بوجه الاعتداء على الحقوق الفردية والوطنية ، بل أن إطار هذه المشروعية والقداسة يتسع لكل نضال يستهدف الدفاع عن إحدى المقدرات البشرية المهددة بالخطر ، فالنضال مشروع متى تعرض حق لخطر ، خاصة إذا كان ذلك الحق يتعلق بالمجتمع الإنساني ، كالنضال من أجل التحرير ، ومن أجل إنقاذ المستضعفين ، كما أن النضال على طريق التوحيد مشروع متى ما تعرض التوحيد للخطر – أي كان هذا الخطر- إذ أنه أهم مقومات سعادة البشرية¹.

4. **الإصلاحات** : الإصلاحات الجانبية والتدرجية لا يمكن إدانتها بأي شكل من الأشكال فالتاريخ لا يطوي مسيرته عبر الأضداد ومن هنا فالإصلاحات الجانبية والتدرجية لا تمنع مسيرته التكاملية ولا تقف بوجه انفجار أحداثه ، فالإصلاحات الجانبية التدرجية تساهم بدورها في دعم الحق خلال صراعه مع الباطل كما تساعد في دفع مسيرة التاريخ لصالح دعاة الحق ، ومقابل ذلك ، فأعمال الفسق والفجور تساعد قوى العدوان ، وتعيق حركة التاريخ لما فيه ضرر أصحاب الحق ، فتطور الأحداث – بناء على هذا الصور- هو كنضج الفاكهة على غصن الشجرة ، لا كانفجار القدر

² علي شريعتي ، العودة إلى الذات ، ص 88.

³ مصدر نفسه ، ص 88.

¹ أمرتضى مطهري ، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ ، ص 40 .

الكاتم كما في التصور الآلي ، فالشجرة تعطي فاكهة أفضل وأسلم وربما أسرع لو اهتمنا برعيانها وسقيها وكافحنا آفاتها² .

5. إثارة الفوضى : الدليل على شرعية الإصلاحات الجزئية التدريجية هو ذاته الدليل على عدم شرعية أعمال التخريب وإثارة الفوضى والاضطرابات من أجل خلق الأزمات ، بخلاف النظرية الآلية التي تضيي صفة الشرعية على مثل هذه الأعمال .

6. تأرجح منحنى التاريخ : المسيرة التاريخية في خطها الكلي العام تتجه نحو التكامل إلا أن الخط المتصاعد لا يسير سيرا تكامليا جبريا في جميع نقاطه ، فليس من الضروري حتما أن يكون المجتمع في مرحلة معينة من تاريخه أكثر تكاملا من مرحلته التاريخية السابقة ، لأن العامل الأساسي في حركة التاريخ هو الإنسان، والإنسان موجود مختار ذو إرادة حرة .

منحنى المسيرة البشرية يتأرجح بين الهبوط والارتفاع ، وبين السرعة والبطء والسكون أحيانا ، وتاريخ الحضارات البشرية ليس سوى سلسلة من حالات الازدهار والهبوط والسقوط والانقراض ، وكما يقول "توينبي": «انحطاط الحضارات أمر لا يمكن رفضه لكن تاريخ البشرية يطوي بمجموعه مسيرة تكاملية»¹ .

7. التحرر من أغلال الطبيعة : المسيرة التكاملية للبشرية تتجه نحو التحرر من أغلال الطبيعة المادية والظروف الاقتصادية والمصالح الفردية والجماعية لتتخذ طابع الالتزام والإيمان الفكري ، فإرادة الإنسان الابتدائي كانت محدودة غالبا بتأثيرات بيئته الطبيعية والاجتماعية وغرائزه الحيوانية ، لكن إرادة الإنسان المتطور تحررت بالتدريج من أسر البيئة والغرائز الحيوانية ، بل وأضحت تتحكم في عوامل البيئة والغرائز تبعا لتكامل ثقافة الإنسان واتساع آفاقه وازدياد التزامه بالأيدولوجيات التقدمية² .

² مصدر نفسه ، ص 41 .

¹ مُرتضى مطهري ، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ ، ص 41 .

² مصدر نفسه ، ص 46 ، ص 47 .

وعليه نكتشف أن إرادة الإنسان هي المحرك الأساسي للتاريخ البشري وليست مسيرة التاريخ مجرد حركة آلية كما ادّعى الماركسيين ، لكن السؤال المطروح هنا ما محل الانتظار من حركة التاريخ هذه ؟

المبحث الثالث : الانتظار الكبير

القسم الأول : الانتظار المُخرب و الانتظار البّناء

القسم الثاني : نتائج الانتظار السلبي وشروط الانتظار البّناء

(النية وفلسفة الاستعداد)

القسم الثالث: الولاية والاقْتداء

الانتظار الكبير:

تحدثنا سابقا عن موضوع انتظار الفرج الذي قسمناه في بداية هذا الحديث إلى قسمين :
انتظار بناء حركي ملتزم عبادي ، بل من أفضل العبادات ، و**انتظار مخرب معوق** يبعث
 على الخمود والخمول والكسل والتفacs ، ذكرنا أن هذين اللونين من الانتظار ينطلقان
 من نوعين من التصور حول الحدث التاريخي العظيم المتمثل بظهور المهدي الموعود ،
 الانتظار البناء ينتمي إلى الاتجاه الإنساني أما الانتظار المُخرب ينتمي إلى الاتجاه
 الديالكتيكي .

وهذا التصوران ينتجان بدورهما نوعين من التصور بشأن تطور التاريخ ، نوضح الان
 هذين النوعين من الانتظار :

الانتظار المُخرب :

بعض المؤمنين بظهور المهدي يتصورون أن نهضة هذا المُنجي ذات طابع انفجاري
 محض ، وناتجة فقط عن انتشار الظلم والجور والفساد والطغيان ، أي أن مسألة الظهور
 نوع من الإصلاح الناتج عن تصاعد الفساد .

هؤلاء يتصورون أن مسيرة البشرية تتجه إلى انعدام العدل والقسط، وإلى زوال أنصار الحق والحقيقة، وإلى استفحال الباطل¹.

وحينما يصل هذا الانحدار إلى نقطة الصفر يحدث الانفجار المرتقب، وتمتد يد الغيب إنقاذ الحقيقة – لا أنصار الحقيقة – إذ لن يبقى للحقيقة أنصار آنذاك، هذا التصور يُدين كل إصلاح، لأن الإصلاح يُشكل نقطة مضيئة على ساحة المجتمع العالمي، ويؤخر الإمداد الغيبي، كما يعتبر هذا التصور إجحاف مباحاً لأن مثل هذه الظواهر تمهد للإصلاح العام وتقرّب موعد الانفجار².

هذا التصور يميل إلى مذهب الذرائع الذي يذهب إلى أن الغاية تبرر الوسيلة، فأشاعة

الفساد – بناء على هذا التصور – أفضل عامل على تسريع ظهور المهدي وأحسن شكل الانتظار فرج ظهوره، وهؤلاء هم الذين يتصورون المهدي كْمُخْلِصٍ، و أصحاب هذا التصور ينظرون إلى الذنوب نظرة تفاؤل واستبشار ويعتبرونها عاملاً مساعداً على انطلاق الثورة المقدسة الشاملة وهو طبعاً شكلاً من أشكال التواكل.

هؤلاء ينظرون إلى المصلحين والمجاهدين والأميرين بالمعروف والناهين عن المنكر بعين الحق والعداء، لأنهم يعملون على تأخير ظهور المهدي، علماً أن أصحاب هذا التصور – إن لم يكونوا هم من زمرة العاصيين – ينظرون إلى أصحاب المعاصي بعين الارتياح والرضي لأنهم يمهدون لظهور المهدي المنتظر.

هذا الاتجاه المُخرب في فهم قضية ظهور المهدي يشترك مع الاتجاه الديالكتيكي في معرضته للإصلاحات وفي تأييده لأنواع الظلم والفساد باعتبارها مقدمة لانفجار مقدس مع فارق بين الاتجاهين هو أن الاتجاه الديالكتيكي يعارض الإصلاحات ويؤكد على ضرورة تشديد الفوضى والاضطرابات انطلاقاً من هدف مشخص يتمثل في تعميق الفجوات والتناقضات لتصعيد النضال.

¹مُرْتَضَى مطهري، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ، ص 48

²المصدر نفسه، ص 48

لكن هذا التفكير المبتذل في مسألة ظهور المهدي وهذا النوع من الانتظار للفرج لا يرتبط على الإطلاق بالموازن الإسلامية والقرآنية إذ أنه يؤدي إلى التعمد في تعطيل الحدود والأحكام الإسلامية بل إلى نوع من الإباحية¹.
 بناء على ما سبق نستنتج أن مبدأ الديالكتيكي مبدأ آلي يؤمن أن التناقضات الكثيرة والظلم المُستفحل عاملان كافيان لحدوث ثورة بطريقة آلية ، وهذا إلغاء فعلي للإرادة الإنسانية ، وفتح باب للخمول والتكاسل ورفض أي إصلاح أو تغيير للأصلح ، وهذا هو الانتظار السلبي والمُخرب ، وهو بالطبع مرفوض .

الانتظار البناء :

الآيات الكريمة التي تشكل أرضية التفكير حول ظهور المهدي المنتظر تتجه إلى جهة معاكسة للنظرة السابقة .
 هذه الآيات تشير إلى أن ظهور المهدي حلقة من حلقات النضال بين أهل الحق وأهل الباطل ، وأن هذا النضال سيسفر عن انتصار قوى الحق ، وتتوقف مساهمة الفرد في تحقيق هذا الانتصار على انتمائه العملي إلى فريق أهل الحق .
 هذه الآيات التي تستند إليها الروايات في مسألة ظهور المهدي تشير إلى أن المهدي تجسيد لآمال المؤمنين العاملين ، ومظهر لحنمية ، انتصار فريق المؤمنين (محمد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، ولئيمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني ، لا يشركون بي شيئا) ، ظهور المهدي الموعود تحقيق لمنة الله على المستضعفين ، ووسيلة لاستخلافهم في

¹مُرْتَضَى مطهري ، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ ، ص 48 ، ص 49 .

الأرض ووراثتهم لها (وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ، وَنُكَفِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَنُزَيِّجَنَّهُمْ نَارًا وَمِمَّا رَحِمْنَا وَنَمُوتُ وَنُحْيِيهِمْ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ)¹.

ظهور المهدي الموعود تحقيق لما وعد الله به بالمؤمنين والصالحين والمُتقين في الكتب السماوية المقدسة: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) وهناك ثمة حديث معروف في هذا المجال يذكر أن المهدي " يملأ الأرض قسطا وعدلا بعدما مُلئت ظُُلما وجورا " هذا الحديث شاهد على ما ذهبنا إليه في مسألة لظهور لا على ادعاء أرباب الانتظار المُخرب .

هذا الحديث يركز على مسألة الظلم ويُشير إلى وجود فئة ظالمة وفئة مظلومة وإلى أن المهدي يظهر لنصرة الفئة المظلومة التي تستحق الحماية .
ولو كان الحديث يقول أن المهدي " يملأ الله به الأرض إيمانا وتوحيدا وصلاحا بعدما مُلئت كفرا وشركا وفسادا " لكان معنى ذلك أن نهضة المهدي الموعود تستهدف إنقاذ الحق المسحوق لا إنقاذ أصحاب الحق ، وإن كان أنصار الحق أقلية.
كما تحدثت الروايات الإسلامية – كما ذكرنا ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني – عن نخبة من المؤمنين يلتحقون بالإمام فور ظهوره .

ومن الطبيعي أن هذه النخبة لا تظهر معلقة في الهواء بل لا بد من وجود أرضية صالحة تُربي هذه النخبة على الرغم من انتشار الظلم والفساد ، وهذا يعني أن الظهور لا يقترن بزوال الحق والحقيقة ، بل أهل الحق – حتى ولو قلوا فرضا – يتمتعون بكيفية عالية تجعلهم في مصافي المؤمنين الأخيار ، ومرتبة أنصار الحسين بن علي عليه السلام ، وهؤلاء يسعون إلى تخليص أنفسهم من الظلم تمهيدا لظهور المهدي المنتظر وبالتالي فهم لا يتصورون المهدي على أنه مُخْلِص .

¹ الآية 5 – سورة القصص –

كما أن الروايات الإسلامية تتحدث أيضا عن سلسلة من النهضات يقوم بها أنصار الحق قبل ظهور المهدي ، منها نهضة اليماني* ، مثل هذه النهضات لا يمكن أن تبتدئ بساكن ، ولا تظهر دون أرضية مسبقة .

بعض الروايات تتحدث عن قيام دولة أهل الحق التي تستمر حتى ظهور المهدي ، حتى أن بعض العلماء أحسنوا الظن بدولة بعض السلالات الحاكمة فظنوها أنها الدولة التي ستحكم حتى ظهور المهدي .

هذا الظن – وإن كان ينطلق من سذاجة في فهم الوقائع السياسية والاجتماعية – يدل على استنباط هؤلاء العلماء من الروايات والأخبار المتعلقة بظهور المهدي ما يُشير إلى أن الظهور لا يقترن بفناء الجناح المناصر للحق والعدل والإيمان ، بل يقترن بانتصار جناح العدل والتقوى والصلاح على جناح الظلم والتحلل والفساد¹ .

الآيات والروايات المرتبطة بظهور المهدي المنتظر تدل على أن ظهوره يشكل آخر حلقة من حلقات الصراع الطويل بين أنصار الحق وأنصار الباطل منذ بدء الخليقة، فالمهدي المنتظر تجسيد لأهداف الأنبياء والصالحين والمجاهدين على طريق الحق.

إذن تعرضنا فيما سبق إلى مفهوم الانتظار من زاوية سيكولوجية ودينية ، كما تطرقنا إلى أنواع الانتظار من زاوية فلسفية ، وذكرنا أن الانتظار الإيجابي يستدعي فعل وحركة إرادية لا حركة آلية بقي الآن توضيح نتائج الانتظار السلبي و شروط الانتظار الإيجابي .

نتائج الانتظار السلبي :

وجدنا أن المقهورين الكسالى ينتظرون المهدي أن يُهدم قواعد الظلم ويؤسس مجتمع العدل من فراغ ، وهم لا يفهمون أن التخلي عن مقاومة الظلم سواء صدر من ذات الإنسان أو من الآخرين ، إنما يؤخر حركة الظهور ، لذلك ورد في النص الشريف " كذب المتمنون ، وهلك المستعجلون ونجا المسلمون " ، لهذا يعبر المنتظرون بالسلبية ، وعدم فهم مشكلة الواقع الإنساني وبعجزهم عن معرفة سنن تغييره ، فالمسلمون

* سنتحدث عن نهضة اليماني و السفيناني بالتفصيل في الفصل الرابع .

¹ EL- SADR MOHAMED , AL – MAHDI ,P65.

منقسمون في التعامل مع مشكلة الواقع على فريقين أحدهما يفترض أنه أية مشكلة تخضع لقوانين وينبغي فهمها وكشفها للسيطرة عليها وتسخيرها.

ويميل فريق آخر - وهم عامة الأمة - إلى موقف آخر غامض إزاء المشاكل ، فلا يُحدّد بوضوح عقيدته الموقفية ، هل أن للمشكلة سنن ؟ وهل يمكن كشفها ؟ وهل يمكن على أساسها السيطرة على المشكلة وتسخيرها بجهد الإنسان ؟

هؤلاء بهذا الفهم كالذين ينتظرون المهدي أو أشراط الساعة ، يُجيبون سلبا عن هذه الأسئلة فيرون أنه لا سنن للمشكلة ، ولا جدوى من جهد الإنسان للبحث عن هذه القوانين ، لأن القوانين التي تخضع لها المشكلة تعمل في حياة البشر بطريقة سحرية ، خارقة ، غامضة الأسباب ، لقد رسخ في أذهانهم أن المشكلة ليس لها من دون الله كاشفة ، وأن سعي العالمين ضلال .

من هنا تعرض المفهوم بمعناه السلبي لنقد الباحثين الشيعة - الشيعة الإثني عشرية - ، وهو نقد ذاتي لسلوك بعض جماعة المنتظرين ، لأن حركة الانتظار على حد تعبير العلامة " فضل الله " تحركت في اتجاهين كمتناقضين في الخط العملي لحركة الإنسان في الحياة ، لتتجمد هنا وتتحرك هناك .

وقد استوجب هذا التناقض في فهم " المعنى " الصحيح للانتظار القيام بتجربة نقد ذاتية لسلوك من يمارس هذا المفهوم بسلبية ، وضعف واستسلام للظلم ، ويراها حركة انكماش واسترخاء ، وانكفاء عن الذات تجنباً للمتعاب التي تنشأ عن المواجهة للظالمين والمنحرفين، وهذا الذي جعل الأستاذ " جودت سعيد " ينظر إلى الناس الذين يرون أن المشكلة لا تخضع لقوانين كأولئك الذين ينتظرون المهدي أو أشراط الساعة ، أمليين تغيير الواقع دون فهم للقوانين التي تحكم حركة الواقع وتفسر حوادثه ومشكلاته¹ .

وقد أدى هذا الفهم المريض لعقيدة الانتظار إلى عدة سلبيات في حياة هذا النوع من الناس ، ولخصها العلامة " فضل الله " في النقاط التالية :

أولا : تجميد الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي في دائرته العامة ، والبقاء في الدائرة الفردية التي تمثل الحالات الخاصة للإنسان المسلم ، مما جعل الفقه محصورا في

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص 36 ، ص 37 .

هذه الزاوية المعينة ، الأمر الذي عطل نمو النظرية الإسلامية من خلال الإجهاد والممارسة حتى أصبحت الذهنية الفكرية الشرعية ، ذهنية فردية ، مما ترك انعكاساً سيئاً على الصورة الإسلامية العامة في ذهن الإنسان المسلم² .

ثانياً : عزل الطاقات الإسلامية عن حركة التغيير في الواقع الإسلامي ، في مواجهة الظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، والاكتفاء بالتحرك من أجل دفع الضرر عن

النفوس ، من دون أي طموح كبير على مستوى التفكير بالبدل لحساب الإسلام ، بحيث أن كل ما يفكر به الثائرون الذين قد تحركهم الظروف الصعبة التي تفرض عليهم الثورة مع الآخرين ، ضد الحكم الظالم ، هو أن يحملوا غيرهم إلى المسؤولية ، ليصعدوا على أكتافهم ، وليعلنوا الظلم من جديد والثورة لحساب الآخرين من جديد ، والانكماش في زاوية معينة يجترونها في داخلها أهمهم بهدوء ، ويُصعدون صلواتهم لله أن يعجل لهم الفرج من خلال الغيب .

ثالثاً : الحالة الانفعالية البكائية في مواجهة حالات الظلم بالاستغراق في داخل المشكلة على أساس أن الحل لها ، لا يكمن في إرادة الأمة الباحثة عن الحل ، من صنعها ومن تجربتها ومعاناتها بل من خلال ما تنتظره من الحل الشامل الذي يحصل على يد الإمام المهدي أو المُخْلِص الموعود ، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً ليحتوي العدل الشامل هذه المشكلة ، فيما يحتويه من حلول¹ .

في ضوء ذلك كانت الآلام التي تثيرها المشاكل تتحول إلى دموع تتسرب في أعماق الذات بدلا من أن تتحول إلى ثورة تتحرك في آفاق الفكر ، وفي حركة الواقع كما أن التطلع إلى المنفذ قد أصبح لونا من ألوان الارتباط بذاته كشخص عجيب ، بعيدا عما هو الارتباط بالدور الرسالي الذي يتمثل في حركته ورسالته ، كقائد مُصلح ثائر ، مما جعل المسألة استغراقا في الشخص أكثر مما هي استغراق في الفكرة وفي الحركة ، وهذا

² المرجع نفسه ، ص 38

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص 38.

الاستغراق لا نجده عند المسلمين فقط بل عند كل الشعوب التي تعتقد في وجود مُخَلِّص - كما رأينا ذلك سابقا- مما جعل من مسألة الانتظار تجسيدا للعجز المشلول ، وشلا للحركة المُتوثبة ، تماما كما هو الإنسان الخانع الذي ينتظر أن يأتي الآخر ليلقي عليه باللقمة في فمه فلا يحرك جسده للبحث عن اللقمة ، أو للسعي في سبيل تحضيرها فيبكي إذا تأخر إذن الجوع سوف يُدمّر حياته².

وقد تحولت الحالة البكائية إلى معنى في داخل الشخصية فأصبحت المأساة لديه منطلق دمه ، ومثار صراخ ولطم حتى عندما تكون نتيجة ثورة في التاريخ ، أو انطلاقة في الحاضر، فلا تثير لديه إحساس الثورة في قلب المأساة بل تثير بدلا من ذلك دموع الثورة في عمق المأساة وهكذا رأينا وعي هؤلاء لثورة الإمام الحسين عليه السلام دموعا تبكي على الشخص البطل الحبيب ، لا لثورة تلتهب اعتزازا وفخرا بالتضحيات التي قد تمثل المأساة في مظاهرها ، ولكنها تمثل معنى التمرد على الألم في قمة الشهادة، بحيث لا تعود المأساة حالة في شعور الباكي ، بل تعود حركة في الإحساس المتمرد الثائر¹.

إن المشكلة هي أن العقل الفعال هو الذي يغير صورة الأشياء لدى الإنسان في الواقع من خلال ضبط علل وعوامل أية ظاهرة فيها ظلم وعنف وجور حتى يتسنى للإنسان العاقل التحكم في سائر الأمور عن تعقل وروية - وهذا ما أكده ابن خلدون في كتابه المقدمة - وليس توظيف العقل المنفعل المشحون بالعواطف والمشاعر والأحاسيس التي سرعان ما تنطفئ لمجرد مرور تلك الحالة الهستيرية .

وهكذا نجد هذه النماذج مشكلة كبيرة لكل حركة الإسلام في الحياة ، فيها تخطيط له من أهداف ، وفيها تواجه من تحديات في ساحة الصراع ، لأنهم الذين يسمحون للقوى المضادة أن تجعل منها ، بطريقة و بأخرى ، وقود الثورة المضادة للإسلام ، فيما

²المرجع نفسه، ص39

¹أمدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص 39

يثيرونه من قضايا التخلف في الفكرة والحركة والمنهج ، وفيما تربك خطوات الأمة السائرة نحو التغيير .

إن مشكلة هؤلاء هي أنهم استغرقوا في انتظار الشخص ولم يستغرقوا في انتظار الرسالة ، فلم يلتقوا بالرسالة في حياتهم فيما يمثله انتظارها من جهد في سبيل الارتباط بها ، بل التقوا بالشخص الذي سيأتي من خلال الغيب بعيدا عن إمكاناتهم وإرادتهم ، فلم يكلفوا أنفسهم عناء السير نحو اللقاء به في منصف الطريق .

وانتقد عالم مسلم آخر حركة الاتجاه السلبي في سلوك بعض المنتظرين فقال : " وأولئك المتشائمون الذين يندبون الزمان وأهله ، ويقرأون العزاء على واقع المسلمين ثم يقعدون ويثبطون الناس عن العمل ، بل يشتغلون في انتقاد العاملين وعرقله عملهم¹ .

إن النزعة المتشائمة التي لا ترى الخير في الأمة لا تأمل بنصر الله تعالى إنما هي ناتجة من ضغط مفاهيم الثقافة الغربية والسيطرة ، ومن التخلف ، والشعور بالنقص الذي يغرسه في نفوسنا الغربيون ، وصاحب هذه الحالة غربي الروحية حتى لو كان بزي علماء المسلمين أو كان من أريافنا البعيدة عن الشرعية الاجتماعية المتغربة الموجودة عادة في العواصم والمدن² .

لذلك ردّ علماء الإسلام والعاملون من أجله على هذه السقطات ، فليس في عقيدة الانتظار تغييرا بالمعجزة يأتيها من خلف الغمام دونما جهد إنساني منسجم مع قوانين الله في حركة المجتمع ، وليس في هذه العقيدة نصوصا تصوغ الانحراف بتفسيرات انهزامية ، بل قالت النصوص خلاف ذلك : " جدّوا وانتظروا " ، وليس فيها نزعة تشاؤمية ، واستعجال وعود عن العمل ، بل هي انضباط الذات على أحكام الإسلام كلّها قدر ما تطيقه الفطرة ، فإن الإنسان في نظر المشرع الإسلامي مكلف وليس خانعا يستسلم للظروف تحركه كما تحرك الريح الريش .

إنه على العكس من ذلك دواء ناجع لكل منتظر ، إنه الدافع العقائدي والرصيد الروحي الذي يحرك فيه قواه من الداخل ، ويعينه على استعادة ما استنزفه من طاقات ، وما أهدره

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص 40

² المرجع نفسه ، ص 40

من وقت ، ليحافظ على وجوده ، وكيانه ، وهويته العقائدية ، والحضارية المتميزة في وسط عالم على تذويب هذه الأصالة³ .

شروط الانتظار البناء:

ليس الانتظار معاناة شخصية فحسب ، بل هو كذلك تجربة اجتماعية مشتركة تترك أثرها في سيكولوجية عدد كبير من المنتظرين ، لهذا فإن هذه الممارسة محكومة بعدد من العناصر ، وطالما أن مفهوم الانتظار هو وعي الفرد المسلم بالإسلام وتربية شخصيته على ضوابطه ، ومعاييره ، وتوجيه المنتظر نحو ذاته وخارجها ، فإن عناصر الانتظار هي نفسها عناصر السلوك الإسلامي ، ولكن في إطار الاعتقاد بالمهدي والإيمان بولايته خلال فترة غيبته عن الأنظار¹—حسب الشيعة الإثني عشر-ويمكن إيجاز هذه العناصر فيما يلي :

أولا / النية :

ويقصد بها -هنا- التوجه الداخلي الحاسم للنفس نحو الإيمان الكامل بهذه العقيدة دونما تردد أو حيرة أو قلق بحيث يوجه المؤمن المنتظر عمله العبادي كلّ الله عز وجل، وأن تكون ممارسة عقيدة الانتظار ، شعورا وفكرا وسلوكا ، وفي نطاق هذه القاعدة الأساس التي تستقيم عليها جميع الأفعال العبادية ، وإلا أصبحت هذه الأعمال رياء وشركا خفيا ياباه الله عز وجل ، لأن ذلك يخرج سلوكه من دائرة السلوك العبادي .

إن النية روح العمل ، والفقهاء وعاء العمل ، وكلاهما يحققان مواعمة بين الذات والمنهج على هدي الإسلام وقيمه وتعاليمه ، لهذا تتطلب ممارسة الانتظار توجهها داخليا نظيفا للنفس نحو بارئها ، حتى يأذن الله في أمر وليّه ، ولا ينبغي أن تتأرجح النفس عن هذا التوجه حتى لو استغرقت عملية الانتظار عمر الفرد المسلم كله ، لأن الإسلام كما يهتم

³المرجع نفسه، ص 41

¹مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام ، ص 42

بالنتائج الخارجية الملحوظة للسلوك يهتم كذلك ببواعثه الداخلية ، ف " من ثبت على ولايتنا في غيبة قائمنا أعطاه الله أجر ألف شهيد مثل شهداء بدر وأحد" ، وفي نص آخر " من سره أن يكون من أصحاب القائم ، فلينتظر وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق

وهو منتظر ، فإن مات وقام القائم بعده كان له من الأجر مثل أجر من أدركه"¹ .

ثانيا / التهيؤ وفلسفة الاستعداد :

الاستعداد ليس مجرد حالة تآهب نفسي مستمر ، بل هو عمل متقن يؤديه المؤمن كأداء الواجبات وإعطاء الحقوق للآخرين ، فلا يكفي في ضوء المعنى الصحيح للانتظار أن تستعد النفس فحسب ، وإنما لابد أن يتجسد الاستعداد النفسي والفكري في سلوك عبادي متكامل ، وبما أن ثورة المهدي المنتظر هي الثورة الإسلامية على أثر أعلى وأعمق مستوى ، وبما أن هذه الثورة مكتملة لثورة نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم ، فإننا نشير إلى عشر عوامل كان لها الأثر العظيم في ثورة الإسلام بقيادة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، للاستعداد للحكومة الإسلامية ، حتى نُعدّ الأرضية لثورة المهدي المنتظر ، بإتباع هذه العوامل في أبعاد مختلفة وعالمية ، ونحقق مفهوم الانتظار الحقيقي الواقعي .

1.جاذبية القرآن وحقانية الإسلام: بالاعتماد على حقائق القرآن والإسلام الوضاعة والمحكمة والمنطقية ، هذا المذهب الحي والغني والبنّاء ، الذي هو أحد عوامل الانتصار ، في صدر الإسلام فقد كان للأمانة والواقعية وموافقة أوامر الإسلام للعقل والوجدان والإنسانية ومحاربة الإسلام لكل أنواع الفساد والفقير والظلم ، كان لذلك جاذبية قوية تجذب الناس نحوها لا إراديا ، وقد حقق الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الطريق انتصارات عظيمة ، حتى أن ألد أعداء الإسلام كالوليد بن المغيرة عندما سمع عدة آيات من القرآن تتحدث عن قوانين الإسلام عاد إلى مجلس إقامة قبيلته كالمجنون وقال : والله سمعت من محمد صلى الله عليه وسلم ، أنفا كلاما لا يشبه كلام الإنس وكلام الجن ، إن

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام- ، ص 41

له لحلاوة وإن عليه لطراوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه ، فالاعتماد على هذا المذهب المحكم اليوم ، ومقارنته العلمية والمنطقية بسائر المذاهب والأديان ، يكون من الناحية المعنوية أكبر عامل للحركة والاستعداد لحكومة العدل العالمية ، ويكفي وحده لتحقيق حاجات الإنسان المادية والمعنوية¹.

2. العلم والتفكير والعمل بهما : مما لا شك فيه أن العلم أدى إلى تيسير وتسهيل كثير من الأعمال ، وتقريب كثير من الطرق ، وحل كثير من التعقيدات في المجالات المختلفة ، وقد يُطوى طريق مائة عام في ليلة واحدة بواسطة العلم والمعرفة ، وأحد الطرق الثابتة للاستعداد لحكومة الإسلام العالمية بقيادة المهدي المنتظر ، هو تحصيل العلم والمعرفة واستخدامهما عمليا في الأعمال الإيجابية العادلة ، وقد ورد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " لكل شيء دعامة ودعامة هذا الدين الفقه ، والفقيه الواحد أشد على الشيطان من ألف عابد" ، وقال علي رضي الله عنه : " قوام الدين والدنيا بأربعة عالم مستعمل لعلمه " لذا يجب على كل المسلمين أن يبذلوا الجهد في تحصيل العلم واستعماله عمليا في المجتمع ، وبذلك يعدّون الأرضية الفكرية والعلمية في كل المجالات لحكومة المهدي المنتظر العالمية².

3. الاستقامة والثبات والشجاعة: من عوامل انتصار المسلمين في صدر الإسلام على العواصف والحوادث، الاستقامة والثبات والقدرة، ونحن بحاجة الآن إلى الصبر والثبات لتحقيق النصر في إكمال مسيرة الإسلام على يد المهدي المنتظر.

ما أكثر نماذج صبر المسلمين واستقامتهم في صدر تاريخ الإسلام وتوضح معنوياتهم العالية في الحروب الإسلامية جيدا ، فكانوا يدحضون أكبر عدد من أعدائهم بأقل المقاتلين وأبسط الأجهزة والمعدات الحربية³.

¹الاستنهادي محمد المهدي ، إعداد الأرضية لحكومة الهدي (عج) العالمية ، الإمام المهدي الوعد المحتوم، دار النبلاء ، بيروت، ط1 ، 1994، ص. 98

² الاستنهادي محمد المهدي ، إعداد الأرضية لحكومة الهدي (عج) العالمية ، ص. 99

³المرجع نفسه، ص. 99

ومن أمثلة ذلك جعفر الطيار أخو الإمام علي (ع) في حرب "مؤتة" (الحرب مع الروم)، فرغم أن يديه قطعتا ، وحدث في جسمه تسعين جرحا ، لكنه بقي يحمل الراية بيديه المقطوعتين ويحارب .

وقرأنا الكريم زاخر بالآيات الي تحفز الإنسان على الصبر والاستقامة، تصل إلى حد 104 مرة ، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا وابطلوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)¹، ومن البديهي أن تنطبق هذه الأوامر للاستعداد لحكومة عالمية .

4. الزهد ومراعاة الأخلاق والحقوق: كان أهم العوامل في نشر الإسلام الزهد والالتزام بالأخلاق الحسنة من قبل المسلمين في تعاملهم في مختلف جوانب الحياة، ومراعاة الحقوق المالية والنفسية والعرضية ، التي لها أكبر الأثر في جذب الآخرين والنفوذ في قلوبهم .

إن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، والصحابة والأئمة الحسنة وأخلاق تلاميذهم ، جذبت كثيرا من العصاة إلى أحضان الإسلام المليئة بالعطف والصفاء والرحمة، وقوت بذلك الإسلام والمسلمين ، لذلك الإنسان ملزم بأن يراعي كل الأخلاق الإسلامية ، لتتحقق أفضل استعداد معنوي لظهور المهدي المنتظر .

5. الإيمان والتوكل على الله : المعنويات العالية واطمئنان القلب والاعتماد على النفس من عوامل البناء والدافعة والمحركة والمزيلة للموانع المعيقة للتقدم ، ولا تتحقق معنويات كهذه واطمئنان وثبات للقلب إلا في ظل الإيمان بالله والتوكل عليه ، وإن الدعاء والمناجاة والصلاة والصوم من المقويات لهذا الإيمان والتوكل² .

بعد فتح مكة على يد الجيش الإسلامي بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم كان أبو سفيان يراقب جيش الإسلام القوي ويقول : ليت شعري بماذا غلبني ؟

وضع الرسول صلى الله عليه وسلم يده على كتفه وقال : بالله غلبتك .

أجل ، إن الإيمان والتوكل على الله ، يصنع الوحدة والانسجام والمعنويات العالية الثابتة

¹ الآية 200 – سورة آل عمران - .

² الاشتهاردي محمد المحمدي ، (إعداد الأرضية لحكومة الهدي (عج) العالمية)، ص 101

ويصنع الممكن من المستحيل ، وينصر القبضة على المدرّعات ويمكن القول : إن أثر الإيمان والتوكل في الحروب أكثر بكثير من أثر المُعدات الحربية والأجهزة والوسائل .
وعلينا أيضا أن نتقدم بظل الإيمان والتوكل على الله ، ونعدّ العدة فكرا وعملا لمستقبل زاهر، كما نال مُسلموا صدر الإسلام الانتصارات الإعجازية في ضوء الإيمان والتوكل – وهذا الأمر يؤكد عليه جمهور السنة والشيعة الإثني عشر على حد سواء-.

6.التعاون: التعاون الاقتصادي والاجتماعي ، على أساس الأخوة الإسلامية وحل المشاكل الاجتماعية ، وتأسيس دوائر لهذا الأمر ، أمر مهم بنفسه لإيجاد الانسجام والترابط الوثيق ، ومعدّ لمستقبل زاهر ، وأثر اجتماعي كبير في تحقق الأهداف السامية .

قال الإمام الصادق (ع) : " مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحِمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضُو تَدَاعِي لَهُ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى " ، فلو كان هذا الشعور سائدا في مجتمعنا حقا ، لنال تقدما كبيرا في الجوانب المختلفة¹.

7.تعامل الناس مع بعضهم والأساليب المنطقية بينهم : كان النبي صلى الله عليه وسلم يناظر ويباحث الفرق غير الإسلامية المختلفة على أساس العلم والمنطق .

وكان لهذه البحوث والمناضرات أثر كبير في نشر الإسلام ، واتساعه، نقرأ في القرآن في سورة النحل الآية : (وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتتي هي أحسن) ، الحكمة هنا هي الأساليب الاستدلالية والمنطقية ، والموعظة الحسنة مقصود بها المواعظ والنصائح التي لها جانب عاطفي، أما المجادلة الحسنة تعني المناظرة والمباحثة المتقابلة على أساس الاتصاف وحسن النية.

قال علي رضي الله عنه : " حضر أتباع خمسة أديان مختلفة عند النبي صلى الله عليه

¹الاشتهاردي محمد المحمدي ، (إعداد الأرضية لحكومة الهدي (عج) العالمية)،ص 102

وسلم للبحث والمذاكرة ، وبدأوا بالمناظرة ، وتقدمت جماعة اليهود ثم المسيح ثم الماديين ثم الثنوية ثم المشركين ، أصغى النبي صلى الله عليه وسلم بوقار إلى كلامهم ، ثم أجابهم ، ولم تمض أكثر من ثلاثة أيام على هذه المناظرة ، حتى اقتنعت الجماعات الخمس وأعلنت إسلامها ، وقالوا في الختام : " ما رأينا مثل حجتك يا محمد نشهد أنك رسول الله " ¹ ، فعلا أسلوب المناظرة من الأساليب التي نواجه بها المتعلمين والمثقفين غير الإسلاميين وإدخالهم في دين الإسلام .

8. الاهتمام بالطبقة المستضعفة: إن الثورات – بنحو عام – تنتصر على يد المستضعفين ، لأن المستكبرين والرأسماليين راضون بوضعهم وهم يناوون الثورة ، فالإسلام لم يذكر هؤلاء المستكبرين والطغاة بخير أبدا ، وقد كان حماة الإسلام منذ البداية هم أفراد مستضعفون أمثال بلال بن رباح ، وسلمان وجويبر ، والخباب ، وعمار ، وياسر وسمية الخ ² .

اهتم الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بهذه الجماعة اهتماما خاصا ، حتى أنه صرف كل أموال زوجته خديجة رضي الله عنها في هذا السبيل ، وكان يعيش مع المستضعفين ومثلهم .

فالاهتمام بالمستضعفين ، وقضاء حاجاتهم ، واستقرار العدالة الاجتماعية ، والوقوف ضد الاستعمار والاستغلال ، هو عامل آخر من عوامل الاستعداد لحكومة أمل المستضعفين ، المهدي الموعود ، يقول الإمام الخميني : " أنا لا أعطي شعرة واحدة من سكان المنخفضات والبدو مقابل كل ملوك وسكان القصور " ³ .

9. إتحاد المسلمين وانسجامهم : مما لا شك فيه أن الإتحاد أثر كبيرا ومعجزا في تحقيق الأهداف ، إن الجمع والإتحاد يضاعف القدرة مئات بل آلاف الأضعاف ، مثل

¹ الاشتهاردي محمد المحمدي ، إعداد الأرضية لحكومة الهدي (عج) العالمية ، ص102

² المرجع نفسه، ص 103

³ المرجع نفسه، ص103

الاتحاد كالسد العظيم الذي يعتبر مبدأ لكثير من القوى الصناعية وسقي الأراضي الواسعة ، وإضاءة مدن كثيرة ، إن تحقيق قوة كهذه هو نتيجة اتحاد قوى بسيطة وضعيفة واجتماع قطرات المطر ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً" ، والآن لو اتحد المسلمون وانسجموا مع بعضهم حول محور الإسلام ، لأصبحوا كالبحر الخضم ، الذي يثبت مقابل العواصف العنيفة .

إن لاتحاد المسلمين وانسجامهم أثرا كبيرا وأساسيا في الاستعداد لظهور المهدي المنتظر، وتشكيل حكومته العالمية، وعلى المسلمين الابتعاد عن كل الاختلافات الجانبية والوقوف بوجه العدو المشترك، بالاتحاد والوحدة والتوافق، ليعبدوا الطريق لظهور المصلح لكل العالم.

10.الولاية والقائد الصالح : أكد الشيعة على الولاية كثيرا وأكد أنها لو لم تكن لم يكن أي شيء ، بل يجب أن تكون كلّ برامج الإسلام ومخططاته تحت ظل الولاية ، وبعبارة أخرى لا يدور محور الثورة إلا بواسطة الولاية فهي علم الطريق وزعيم الأمة، ويحرك كل الفرق الإسلامية في خط واحد .

ذكرنا سابقا أن أفضل عبادة هي انتظار الفرج ، ذلك أن انتظار الفرج يعني الإيمان بالإمام المنتظر ، ويعني بالتالي الإيمان بالوحدانية والعدل والرسالة ، والعمل الصالح المقبول الجامع للشروط التي فرضها الله تعالى ... والإيمان شرط في صحة قبول العمل إذ جاء في الحديث الصحيح السند عن الصادق (ع) قوله بخصوص الولاية:

" يُبنى الإسلام على خمس : على الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، والولاية ، ولم يُنادَ بشيء ما نودي بالولاية"¹ .

ويؤكد الإمام الصادق أن الناس أخذوا بأربع وتركوا هذه – أي الولاية - ، فلو أن أحد صام نهاره ، وقام ليله ، ومات بغير ولاية ، لم يقبل منه صوم ولا صلاة ، فبهذا المعنى يكون الاعتراف بالولاية باعثا على انتظار الفرج ، ويكون انتظار الفرج مع العمل الصالح المقبول .

¹ سليمان كامل، يوم الخلاص في ظل القائم المهدي، ص 220.

فالولاية تعني الحكومة وتولي أمور الناس الدينية والدنيوية ، وهي مقام عظيم المسؤولية ولا يتعهده إلا الصالحون والمتكاملون من الناس .

كما كان في صدر الإسلام أثر كبير لمواعظ القائد والإمام الصالح في التقدم والتطور ، فيجب أن يحفظ هذا الخط اليوم أيضا في طريق انتظار ظهور المهدي المنتظر ، والاستعداد لحكومته العالمية ، ليعرف المسلمون طريق الاستعداد الصحيح في نظام وانسجام خاص ، وفي ظل إرشاد القائد الصالح الذي يعبر عنه اليوم بولاية الفقيه¹ ، على ذكر القائد نتحدث عن مفهوم أوسع يتمثل في الاقتداء، فما معنى الاقتداء وما علاقته بالانتظار ؟

الاقتداء عبارة عن اعتقاد أبناء الإنسانية بفرد مؤهل للقيادة ، يمكنه أن ينقلهم من وضعهم السيئ إلى الهدف الذي يتطلعون إليه ، ومن هنا يلتف أبناء الإنسانية في مرحلة أو بقعة في الأرض حول شخصية يجدون فيها صورة البطل أو القائد السياسي، فيعتقدون بإمكانية الوصول إلى هدفهم عن طريق استمداد العون منه أو طاعته ومتابعته ، وهذا القائد هنا ، سواء كانت مقاليد الحكم ومصير المجتمع بيده واقعا وحقيقا أم لا ، فهو بطل تطيعه وتعتقد به جماعة من أبناء الإنسانية² .

البطل والقوة هنا هو عين الاقتداء من حيث الأساس ، فنفس العلاقة التي تربط الآخرين به ونهج رؤيتهم لشخصية يستبطن معنى القدوة والبطل ، فهو ملتزم عمليا بالبلوغ بهذه الجماعة إلى ما يتطلعون إليه من أمل وانتصار .

البطل الذي هو قدوة -على مستوى الحياة السياسية والاجتماعية- والذي تتطلع الناس إليه وتلتمسه في كل حال ولكل مشكلة ، هو عمليا : أليق أفراد الأمة ، وهذا البطل

¹الاستهاري محمد المهدي ، (إعداد الأرضية لحكومة الهدي (عج) العالمية)، ص104

²علي شريعتي ، الأمة والإمامة ، ص65 .

السياسي أو الوطني أو القومي أو الديني ، أو البطل الاجتماعي لقطاع من الأمة ، يهدف – سواء مسك بزمام الحكم أم لا ، وسواء امتلك مصير حياة الناس أم لا : صنع مستقبل الجماهير والانتقال بها من الوضع السيئ الذي هي عليه إلى وضع أفضل تتطلع إليه .

لون آخر من القيادة :

وهو أشبه الأوان – حسب علي شريعتي – بالإمامة في فهم وعقيدة الشيعة الإمامية ، ولون حساس ودقيق وهام في الغاية ، يستدعي كثيرا من التمعن ، وهو عبارة عن التجلي المثالي لتطلعات أبناء الإنسانية بغية تجسد كل الكمالات المطلوبة في الإنسان .

في بحث تحت عنوان "علي حقيقة على نسق الأساطير" قلت : أن الإنسان يحس على الدوام أنه أكبر وأشرف وأعلى من حياته ومن الطبيعة والموجودات والظواهر الطبيعية التي يشاهدها ، وإنه متعال على ما هو موجود – ويلزم أن يكون أعلى – ويحس أيضا أن جميع الأشخاص الذين حوله ناقصون وليسوا أناسا كما يجب أن يكون الإنسان ، وهذا الإحساس بالنقص هو الذي دفعه للالتفات إلى " ما وراء الطبيعة" حيث عالم الكمال الذي لا نقص ولا قصور فيه¹ .

وقد تجسد " الإنسان الكامل " في حياة الشعوب من خلال الآلهة ، وأرباب النوع ، وعبادة الأشخاص ومن خلال إخراج " البطل " بوصفه إلها أو ربا للنوع ، وقد كانت هذه الصور تلبي على الدوام حاجة الإنسان إلى "الإنسان الكامل" [إنسان جامع لجميع الكمالات والفضائل الإنسانية التي لا يمتلكها الإنسان ، أو لا يتوفر عليها جميعا] .

ولا زال سعي الروح الإنساني قائما إلى الحركة باتجاه "الكامل" ، وقد استمر هذا السعي إلى القرن التاسع عشر حيث طرح بشكل علمي في علم اجتماع القرن التاسع عشر² . يتكامل المجتمع ، ويكتمل العلم والثقافة والمدنية والتقنية ، إلا أن الإنسان يفقد أبعاد شخصيته المختلفة ويصير ذا " بعد واحد" فتضعف الكثير من قواه وفضائله المعنوية والروحية ، تتحطم، وينسلخ عنها .

¹ علي شريعتي ، الأمة والإمامة ، ص 66 .

² المصدر نفسه ، ص 66 .

يطرح علي شريعتي تساؤلاً مهماً يتمثل في : هل يلزم الإنسان المعاصر الذي توفر على منطق في قمة العظمة أن يكون له قدوة ، لكي يبني ذاته على أساسها ، ويربي نفسه على هديها ؟

إذا كانت عقولنا محصورة في عيوننا وبصرنا فالإنسان المعاصر ليس بحاجة إلى أي شيء ، إذ لو ألقينا نظرة على الشرق والغرب نجد الإنسان الغربي مستغنياً ، فمع عظمة التقنية والفن والعمارة والقدرة الصناعية والعسكرية لا يحتاج الغربي لأي شيء.

أما إذا نظرنا إلى الواقع نظرة المفكر الثاقب الذي يعيش داخل الأرض الغربية ويلاحظ من الداخل البنية العملاقة ونفس مبدع هذه العظمة والقوة المدنية الحديثة ، نجد أن الإنسان المعاصر بحاجة إلى نموذج إنساني أكثر من سائر أبناء الإنسان في كل مراحل التاريخ ، أنه بحاجة إلى من يشير له ويوجهه ، أي بحاجة إلى قائد يُحتذى به¹ .

فعلي شريعتي يرى أن ضياع المدنية الحديثة يعود إلى فقدان القدوة الحياتية والمعنوية والإنسانية وعلى حد تعبير "أمرسون" فقدان معرفي الإنسان ، ويقول "كنون" أحد مفكري فرنسا المعاصرين إذ يقول : "إن معاناة الإنسان المعاصر تعادل فقدان البطل" البطل هنا بمعناه المعاصر ، إذ من المقطوع به أن بطل كل مرحلة يرتبط بمرحلته ، وبطل كل ثقافة وشعب يتناسب مع حاجة وذوق ومستوى ثقافة ورؤى ذلك الشعب الخاصة²، فما هي مشكلة الإنسان المعاصر وما هي متاعبه ؟

يُجيب علي شريعتي ببساطة : أن الإنسان المعاصر لا يعرف كيف يكون بالرغم من أن الإنسان المعاصر -حسب جون ديوي - أكثر اقتداراً في كل الجهات من الإنسان على مر التاريخ ، أي يمكن له أن يبني ذاته حسب ما يريد لكنه لا يعلم كيف يكون ، حتى على مستوى علم الأخلاق الذي هو العلم كيف يجب أن يكون الإنسان، نلاحظ ضياع لا نظير له للمبادئ الأخلاقية.

حتى جون بول سارتر يهاجم أعز وأقدس المسائل الأخلاقية التي يعتقد بها الجميع على الدوام ، ويعدها غير قابلة للتحليل المنطقي ، حيث يتحدث في مسرحية الجدار عن

¹ علي شريعتي ، الأمة والإمامة ، ص72

² المصدر نفسه ، ص73

شخصية سجيبة ، تطرح الاستفهام التالي : ماذا يعني إخلاصي لأصدقائي وبقائي الدائم في هذا العذاب أسيرا ؟ لم أبقى في هذه المعاناة ؟ لأجل ماذا ، ومقابل ماذا ؟ لأجل أن يتمتع جمع بالحرية والاطمئنان ؟ ماذا يعني ذلك ؟ بعد ذلك يتهياً للاعتراف على عنوان أصدقائه وهو مقبرة المدينة ، فتهاجم الشرطة المقبرة ويقبضون صدفة على زعيم الجماعة ، وبعد أن يرى السجين صديقه بقبضة الشرطة يفقهه ضاحكا ، ثم تفرج الشرطة عنه ، لم ؟ لأن التضحية والفداء بما له من عظمة وإنسانية ليس له أي توجيه منطقي اليوم ، والإنسان متردد حتى أمام الفضائل والإيمان بالأصول الإنسانية التي كانت على الدوام أصولا بديهية ومقدسة ، فالإنسان لا يدري واقعا ومنطقا : هل أن الصيرورة والحياة على هذه الفضائل أمر حسن أم لا ؟¹.

يوحي " ألبير كامو" أحد كبار مفكري وكتاب القرن العشرين المشهورين في فرنسا في ثلاثة من كتبه : الغريب ، والطاعون والإنسان المتمرد : بأربع أو خمس خصائص أخلاقية .

يتغنى "كامو" ببطل في موضع من كتبه ، هذا البطل الذي لا يفكر إلا بالأكل والشرب والنوم واللهو وعبادة الذات واللذات الفردية الغريزية ، أما في الممارسات لا معنى ولا مضمون لها² .

فقد انتهى -من زاوية الأخلاق وفلسفة الحياة- إلى أن مسائل الفكر والأخلاق مجرد كلام موهوم ، لا أساس له ، لأن واقع الأمر هو : أنني سأواجه مصيري

المحتوم وسأنتهي إلى العدم ، إذن في هذه الفسحة بين الوجود والعدم الذي هو مصيري المحتوم ، على أن أسلك طريقي المنطقي والمعقول هو التمتع فيها بلذات الدنيا ما أمكنني ، وعلى حد تعبير حافظ الشيرازي : أغتتم الفرصة ما أمكنني ، إذ سوف يعود كل شيء على العدم واقعا ، والعالم عبثا ولا بداية ولا نهاية له ولا حساب ولا كتاب فيه ، ولا أحد في السماء أيضا ، والوجود لا شعور ولا إحساس له ، وعلى حد تعبير "ديستوفسكي"

¹ علي شريعتي ، الأمة والإمامة ، ص.75

² المصدر نفسه ، ص 75 .

"الذي يتكأ عليه سارتر ويقبله" : " حينما لا يكون هناك إله في الطبيعة تضحي كل ممارسة جائزة" فنتساوى الخيانة والخدمة ، الأريحية والأنانية .

إذن كيف يمكن أن يقتنع الإنسان بحرمان نفسه والتضحية لكي يسعد الآخرون وكيف يمكن تحليل ذلك بطريقة منطقية؟¹

إن التضحية والإيثار، إذا لم يكن تفسير معنوي غيبي فلها تفسير اجتماعي لا شعوري ، يعني أن المجتمع يحل الفرد القاعدة والعرف بوصفه عرفا مقدسا لأن المجتمع بحاجة إليه ، صحيح إذا فُقدت الرؤية الإلهية للكون ويُلغى الإيمان تُفرغ الأخلاق من المضمون ، لذا يحاول كل مفكر معاصر أن يصل إلى بناء أسس أخلاقية ، ويصنع كل واحد منهم قاعدة فلسفية للأخلاق لكنه يأتي على نقضها في كتابه التالي، وهذا الضياع في عالم الأخلاق ، يرجع إلى فقدان الأصل ، ما هو الأصل ؟ " هو كيف يجب أن تكون " إن ضياع هذا الأصل أدى على أن يكون الإنسان أكثر ضياعا في الموقع الذي هو أقدر عليه من سائر المواقع ، وكان العامل الرئيس في آلامه ومتاعبه² .

لِمَ؟ لأنه ليس أمامه إمام -حسب علي شريعتي - ، نموذج وقدوة وكيف يحيا وكيف يكون ، وعلى حد تعبير " شاندل " : " أننا حططنا كل الأبطال السابقين ، حططنا كل الوجوه العظيمة والمقدسة التي نتكامل عن طريق التطلع والإعجاب بها ، الذين كان التعلق والإعجاب بها ، الذين كان التعلق بهم يزرع أمل النجاة من الضياع والحيرة و الآلام ، ونقترب من الفضائل الكبرى بواسطة عشقهم والإعجاب بهم ، ونربي أنفسنا على تلك الفضائل " .

أما الآن فلا وجود لتلك الشخصيات والوجوه التي حُطمت، أي أننا نسينا الأنبياء المرسلين ، وألغينا شعوريا أو لا شعوريا الاعتقاد بهم ، ولم نُحل الثقافة المعاصرة أبطالاً يحلون محلهم بالشكل الذي يتناسب مع حاجة وإحساس الإنسان المعاصر¹ .

¹ علي شريعتي ، الأمة والإمامة ، ص 86 .

² المصدر نفسه ، ص 87 .

¹ علي شريعتي ، الأمة والإمامة ، ص 89 .

حاول أحد الباحثين النفسيين الإجابة على الأسئلة التالية: ما أسباب الضياع الذي يعيشه الشباب في كل أنحاء العالم وفي العالم الإسلامي؟ لماذا لم تستطع النساء الإفادة الحسنة من الحرية التي حصلن عليها؟، لماذا كل هذا الضياع والتمزق والانحراف؟ فيجيب: لا زالت الثقافة الجديدة والجيل الجديد يفتقد البطل، فقد كان أسلافنا متوفرين على أبطال، وعن طريق التطلع والتوسل بهؤلاء الأبطال – إن لم يستطيعوا الاقتراب الكامل منهم – يعرفون على الأقل يجب عليهم أن يكونوا مثل هؤلاء، وهذه المعرفة نفسها لون من الاطمئنان النفسي واليقين والإيمان الروحي، مثلا كانت السيدة "زينب" بطلة للنساء السالفات تتجلى أمامهن كبطلة ونموذج متعال، وتنفخ بأجيالهن روح الحياة وتحدد لهن اتجاهها، أما الجيل الجديد الذي أخفينا عليه هذه البطلة فليس لدينا أية سيدة أخرى يمكن أن نجعلها المثل المعاصر للنساء بدل السيدة "زينب"، وليس لدى الجيل المعاصر من الشباب أبطال نظير النبي صلى الله عليه وسلم، وعلي وبعض الصحابة².

دور الإمام:

تحدثنا في السابق عن البطل في التاريخ ومذاهب الفكر، ومدى حاجة الإنسان لهذا النموذج، وهذا الأمر دلت عليه دلائل اجتماعية ونفسية وعلمية، أما إذا ما أطلق لقب "الإمام" فهو ليس من جنس ونوع تلك الشخصيات التي وُجدت على طول التاريخ تحت اسم الأبطال والأقطاب وأرباب الأنواع، والإمام ليس "ما فوق الإنسان" بل هو "إنسان ما فوق" يتناغم مع حاجة الإنسان الأخلاقية والحياتية الفردية والاجتماعية، وحاجته الفكرية والنفسية، التي تشيعها المعرفة، والتطلع للأقطاب والنماذج وأرباب النوع الكبرى – الذين كانوا موهوبين في الأغلب – ويؤدي الإمام الدور الذي مارسته هذه الشخصيات في تربية الأفراد وتلطيف الروح والفكر الإنساني على طول التاريخ، فالإمام مثل ذلك الدور رغم اختلاف شخصيته عن كل تلك الشخصيات¹.

² المصدر نفسه، ص. 90.
¹ علي شريعتي، الأمة والإمامة، ص. 90.

وفي ضوء مفهوم الإمام ، وسيرة ونهج الأئمة العملي ، وفي ضوء إطلاق مصطلح الإمام حتى على الأنبياء مثل سيدنا ابراهيم ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يكون الإمام أعم من القائد السياسي ، ومن المدير الاجتماعي والبطل والرجل " السوبرمان " الذي يوجه مجتمعه في حياته ، اتجاها خاصا ، ويحكمه ويديره ويتزعمه ويقوده ، بل الإمام عبارة عن موجود إنساني تشكل روحه وأخلاقه ونهج حياته دلالة لبني الإنسان على كيف يجب أن يكونوا ، وكيف يجب أن يحيوا ؟

فالإمام الدور التربوي الذي لعبه - على طول التاريخ - الأبطال والأمثلة والنماذج وحتى أرباب النوع الأسطورية الموهومة ، فهو التجسيد العيني للقيم العقائدية ، والتحقق الإنساني للمفاهيم الفكرية ، والنموذج المحسوس والمرئي ، للحقائق التي تدعوا لها الرسالة ، وتسعى لتربية الإنسانية ، على أساسها ، فتتجسد في وجوده أيديولوجية واقعية ، وطرح واقعي أي أن القيم والمثل والفضائل والالتزامات تحولت إلى لحم ودم وجدل حي في وجوده² .

على هذا الأساس فالإمام شخص يدل بني الإنسان في وجوده وفكره وطرار حياته إلى الحد الذي يمكنهم أن يكونوا عليه ، ويدعوهم إلى الرقي والمسير على هذا الصراط وبناء الذات على تلك الطريقة ليسلكوا السبيل الصحيح .

من هنا لا تنحصر مهمة الإمام بقيادة بني الإنسان في بعد من الأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولا تنحصر حتى في زمان محدود كقائد وأمير وخليفة، بل يطرح الإمام نموذجا للإنسان في أبعاده الإنسانية المختلفة ، والإمام بهذا المعنى لا ينحصر في زمانه بل حاضر في كل مكان وشاهد على كل ما يجري .

²المصدر نفسه، ص 91

وأكد علي شريعتي أن الإمام هو إنسان "ما فوق" وليس "ما فوق الإنسان" لأن ما فوق الإنسان لا يمكن أن نقلده أما الإمام يمكن أن نرتقي بأنفسنا إلى مستواه الأخلاقي والحياتي ، باعتبارنا ما دونه¹ .

واضح أن للإمام دور هام في المجتمع والحياة ككل ، فالشيعة الإثني عشرية تجعل الإمامة ركن من أركان الإسلام ، فالإيمان بالإمام معنى عظيم جدا في حياة المفكرين والعلماء وخصوصا الباحثين في قضايا المجتمع البشري ، وعلى الأخص أولئك الذين يهتمون على الدوام بمصير ومستقبل المجتمع البشري ، فقد صنع المجتمعات الطوباوية أو المدن الفاضلة مفكرون لم؟ فقط لأجل الاستجابة لحاجة نفسية إنسانية دائمة ، فالإنسان يتطلع باستمرار لأن يكون له مجتمع مثالي يعيش سعيدا ، كاملا متعاليا فيه ، وليتوفر من خلاله على علاقات مقدسة² .

والتاريخ الفكري يشهد على المدن المثالية التي افترضها مفكرون كبار أمثال أفلاطون بل حتى قبله بكثير إلى اليوم افترضوا مدنا ، إحدى نماذجها مدينة أفلاطون " الجمهورية الفاضلة " ، والأخرى مدينة توماس " مدينة الله " ، والفارابي "المدينة الفاضلة" ، فقد بنى المفكرون باستمرار مجتمعات خيالية أرادوها أن تكون نموذجا ، حتى كارل ماركس - الذي تحدثنا عنه سابقا - صنع مجتمعا خياليا يتمثل في المجتمع اللاتبقي الذي يأمل بتحقيقه في المستقبل .

وأجاب المفكرون على تساؤلات يطرحها الناس دائما : ما شكل المجتمع الواقعي ،

والحياة الحقيقية والإنسانية النموذجية التي يجب أن تتوفر عليها ، وافترضوا في مدنها خصائص لأبناء تلك المجتمعات ، حتى "كونفوشيوس وبوذا " صنعا مجتمعا خياليا . ومع ذلك لم تتحقق هذه المجتمعات النموذجية ، لم؟ .

يُجيب علي شريعتي : لأن المدينة الفاضلة عبارة عن دين لا إمام فيه ، أي أنها عبارة عن طروحات وأفكار مقترحة لا يمكن أن تتحقق خارجها ، فهي جيدة وعظيمة ، أما

¹ علي شريعتي ، الأمة والإمامة ، ص 92.

² المصدر نفسه ، ص 93 .

كيف يمكن الدلالة عليها ؟ أمر غير معلوم ، عظيم جدا أن يكون الإنسان كهرقل في قوته وعدم انكساره ، أو كنفينوس في جماله ، ولكن كيف يمكن أن يكون الإنسان أن يكون كذلك ؟ أمر غير معلوم ولا إمكان له ¹.

من هنا فالمدن الفاضلة والجنات الخيالية والمجتمعات الفرضية لا محل لها إلا في المكتبات ، أو الآثاريون لدراسة ما كتبه كتاب القرن الرابع قبل الميلاد، دون أن يكون لتصحيح وتحقيق هذه الآثار أدنى تأثير على الشخصية الإنسانية وبناء إنسان واحد ، لأن أصحابها لم يستطيعوا أن يثبتوا للتاريخ وللإنسان أن هناك واقعا لما اقترحه من مجتمع مثالي ، ومن إنسان متعال ، ومن أسلوب للحياة والأخلاق ، علما أن الدين استطاع أن يصنع تاريخا وثقافة ، ويربي أجيالا من بني الإنسان على الطريقة التي يريد ، في حين لم نجد لمدينة فاضلة على طول التاريخ منذ أفلاطون بل منذ حضارة ما بين النهرين حتى اليوم ، فلم تتحقق المدينة التي صنعها خيال فلاسفة المجتمع ، بل لم يربي حتى كتاب المدينة الفاضلة أنفسهم على الطريقة التي اقترحوها للحياة .

لهذا الإمام في رسالة الدين يُجيب على هذا الاستفهام ، فيقول أن هذا القرآن ، وهذا الكتاب وهذا الدين الذي جئتم به لأجل أن ينتقل بنا عمليا من الذلة والاستضعاف والجهل إلى الحرية والعظمة والعزة والرحمة والتضحية ، أمر عملي يمكن أن يتحقق ، ونموذجه الإمام ².

نستنتج مما سبق أن وجود الإمام -بالنسبة للشريعة الإثني عشرية- تذكير الناس بنظام الولاية والحكم في الإسلام وبقائه خطأ أصيلا ممتدا في الحياة الدينية والسياسية للمسلمين ، وقد عبّرت عبارات الإمام المهدي في أدعيته عن ضرورة إشباع الحاجة للرئاسة وحثت على التفكير في أمر الدولة الإسلامية .

¹ علي شريعتي ، الأمة والإمامة ، ص.94

² المصدر نفسه ، ص 95

المبحث الرابع: مكونات الانتظار والوعي بالمستقبل

القسم الأول : مكونات الانتظار

القسم الثاني: الانتظار والوعي بالمستقبل

إن على أمل العمل بالعوامل العشر الأساسية والمؤسسة لفلسفة الاستعداد ، يمكننا التقدم كمسلمي صدر الإسلام ، لتهيئ العالم لاستقبال حكومة المهدي العالمية ، وهذا يعني استمرار الثورة ، ونهايته هي المستقبل الزاهر ، وارتفاع راية لا إله إلا الله في كل ربوع العالم ، وهذا الأمل بالمستقبل الزاهر هو العامل الباطني ، وهو الانتظار الذي يجب أن يختلط بالعلم والعمل ، ويصل إلى نتيجة واقعية .

تحدثنا عن عناصر الانتظار المتمثلة في النية وفلسفة الاستعداد بقي الآن الحديث عن مكونات الانتظار :

أصبحت إذن فكرة الانتظار واقعا تاريخيا وسيكولوجيا يحمل بين طوياه آمال الأمة وآامها على امتداد تاريخ طويل عاشه المنتظرين المسلمون، ولكن إذا نظرنا إلى مفهوم الانتظار و ما يحمله من دلالات اجتماعية ونفسية وسياسية ودينية في معناه وجدناه وثيق الصلة بموضوع الاتجاهات وهو محور سيكولوجي هام في الدراسات السيكلوجية ، إذ توجد بين الانتظار والاتجاه علاقة سيكلوجية واضحة ، فالاتجاه في نظر علماء النفس حالة تهيؤ واستعداد ، وترقب عقلي وعصبي تنظمها الخبرة المعرفية الوجدانية التي يمر بها الفرد ، وهذه الحالة توجه استجابات الفرد بشكل معين يؤدي إلى تفاعل دائم أو مؤقت بحسب حالة التهيؤ النفسي¹ .

وعلى أساس ذلك يمكن فهم تجربة " الانتظار " التي يعيشها المنتظرون كاتجاه واستعداد، وتهيؤ نفسي وإدراكي كونته مجموعة عوامل مؤثرة في استجابات المنتظرين ، بحيث يقفوا موقفا معينا نحو شخص "المنتظر" نفسه ، ونحو الأفكار التي تشكل نسيج ثقافة الانتظار، فيترتب عن هذا التهيؤ قبول تام أو جزئي لعقيدة " المهدي " ولثقافة الانتظار وقيمه المستمدة من نصوص المشرع الإسلامي .

وطالما أن قضية "الانتظار" ترتبط بالفكر والعقيدة ، ويتخذ التعبير عنها صورة الرأي

والاعتماد والممارسة العملية للسلوك الانتظاري ، فإنه يمكن النظر إلى هذا المفهوم كاتجاه يتكون من ثلاثة مكونات هي :

1. **المكون المعرفي:** ويعني ثقافة الانتظار وأحكامها و ضوابطها المعرفية وتراثها الروائي الذي ملأ كتب الحديث ، كذلك يتضمن المكون المعرفي معتقدات المنتظرين وأفكارهم وما لديهم من حجج وأدلة وبراهين لتأييد عقيدة المهدي المنتظر أو معارضة من لا يؤمن بها .
2. **المكون الوجداني:** ويتضمن الآثار والهموم ، والآمال والآلام ، وكل المشاعر السيكلوجية المؤثرة سلبا وإيجابا في المنتظرين للمهدي المنتظر ، ويتمثل هذا الجانب كذلك في الاستعدادات النفسية والذهنية لدى المنتظرين لليوم الموعود ،

¹ مدن يوسف ، سيكلوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام- ، ص45 ، ص46 .

واستعدادهم لقبول التحديات ومقاومة المتاعب النفسية الناجمة عن هذه التجربة الوجدانية ، ويدخل في نطاق هذا الجانب من الانتظار كل الأحاسيس المترتبة على الوقائع التاريخية في عصر الغيبة - حسب الشيعة الإثني عشرية - سواء حملت في طواياها بشائر أو فتن .

3. **المكون السلوكي:** معناه نزوع الإنسان المنتظر " للمهدي " نحو تطبيق الإسلام ومناهجه المختلفة في الحياة ما أمكن ، وممارسة جماعات المنتظرين للأحكام والأعمال العبادية¹ .

الانتظار والوعي بالمستقبل :

لا يكون الفرد المؤمن واعياً بحقيقة انتظار الإمام "المهدي " حتى يكون على دراية استشراف المستقبل وبالحوادث التي يتوقع أن تقع فيه ، وأهمية هذا الوعي تتوقف عليها المواقف الشرعية التي ينبغي أن يتخذها المؤمن عند مواجهته للأحداث الهامة

وبخاصة ما يحق خطرهما به ، ومن المعتذر أن تنسجم عقلية المنتظر مع مفهوم الانتظار ، وهو بعيد عن روح النص الذي حدّد الموقف الشرعي لكل حدث مرتقب ، فالمنتظر يتلازم وعيه " بالانتظار" بمضامين النصوص التي حدّدت الموقف الشرعي المطلوب لكل حدث في عصر الغيبة .

ولأهمية هذه النصوص في رصد الحوادث المستقبلية* وتعيين المواقف الشرعية المطلوب اتخاذها ، نرى ضرورة أن يتعرف الفرد المؤمن عليها للوقوف على أوضاع واقعا الراهن ، واستشراف مستقبل لم تقع حوادثه بعد ، ويستهدف هذا المنهج تهيئة أذهاننا - كمسلمين- على مواجهة الحوادث المحتملة في المستقبل وفق الموازين الإسلامية .

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام- ، ص 47.
* سأتي على رصد هذه الحوادث بالتفصيل في الفصل الرابع ، من وجهة سنية و وجهة شيعية .

إن عددا كبيرا من النصوص الإسلامية الواردة في مسألة الانتظار قد رصدت حركة الحوادث في مستقبل العالم وبخاصة الإسلامي ، وعلى امتداد الزمن الفاصل بين بدء الغيبة الكبرى ، وحركة الظهور نفسها ، فيلاحظ أن هذه النصوص تقرأ تاريخ الإنسان – وخصوصا ما يجري في عالمنا المسلم - ، حيث توضح النصوص الإسلامية أهم الملامح العامة لهذه الحوادث وتفصيلاتها في بعض الأحيان ، وكأن المؤمن يشعر بأن رصد النصوص للأحداث التي يعيش في وسطها سواء كانت البشائر أو الفتن والانحرافات ، قد تم تحيده في فترة أقل من الشهور . ويكاد يكون من الصعوبة بمكان على المؤمن المنتظر أن يتفاعل مع مسؤولية الانتظار بدرجة معقولة وصادقة إذا كان وعيه بالأحداث التي أنبأت عنها هذه النصوص ضعيفا هابطا ، وهذا يعني أن الوعي بالانتظار مرتبط بفهم الحوادث واستيعاب دلالتها في إطار المواقف المطلوبة شرعا ، والمعينة في النصوص نفسها ، وفي ضوء فهمه لقوانين التاريخ وحركة المجتمع¹ . ونحن لا يهمنا – بالطبع – تفاصيل هذه المسألة ودقتها بقدر ما يعيننا لفت نظر المنتظر

إلى أهمية الصلة بين النصوص والحوادث التي تقع في غيبة الإمام المهدي ، والتي تعين مسيرة الإنسانية نحو الإسلام أو بالبعد عنه ، فبعض هذه النصوص تكشف عن مسيرة انحراف العالم – والمسلمين خاصة – عن الإسلام ، وتكشف كذلك عن خطر البشائر والتحويلات الإيجابية المؤثرة في سيكولوجية الشخصية المؤمنة ، كما تحدّد الأدوار والمواقف المطلوبة في مواجهة التغيير أو مساندته¹ .

ومما لا شك فيه أن النفس المؤمنة تتأثر بالحوادث العامة السلبية التي تسود العالم كلّه وتشمل جوانب واسعة من حياتنا حتى أنها تنفذ إلى أجزاء خفية منها ، فتؤدي هذه الانتكاسة الحضارية إلى تزايد القلق النفسي عند الفرد المنتظر ، وتزايد عليه ضغوطات القهر الاستكباري سواء عاش في بيئة مسلمة أو في بيئة غير مسلمة ، فالاستجابات العدوانية الموجهة ضده موجودة وإن كان الفارق بين البيئتين اختلافا في الدرجة .

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار – دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام- ، ص 48
¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار – دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام- ، ص 52

وكما أن انحرافات البشرية وضغوطها تُنشئ التوتر في النفس المؤمنة ، فإنها تستعيد توازنها الداخلي بظهور البشائر وهي عبارة عن مجموعة وقائع وتحولات إيجابية تتم في المجتمع المسلم ، فهذه البشائر تمثل انتصارات إسلامية تساعد على استعادة أصالتها الحضارية المفقودة في وسط التناقضات الدولية ، وهي في مقابل ذلك تجعل المنحرفين يشعرون بأن الانتصار على الحق ليس ممكناً في كل حين ، وأنه لا بد من يوم يحسم فيه الإسلام صراعه مع أهل الباطل فيصفي أوضاعها ، ولهذا بالتأكيد مغزى نفعي على المؤمن وغير المؤمن ، فيغمر الأمل قلب المؤمن بالانتصار ، ويبأس الظالمون من هزيمة الإسلام² .

وتشكل هذه النصوص نسقا متكاملا لأئمة أهل البيت عن تصوراتهم في استشراق

المستقبل ، على امتداد الزمن الفاصل بين عهد الرسالة وحتى عهد الظهور المبارك ، ولكن ما يهمننا هنا في دراستنا عن عقيدة الانتظار أن نشير إلى أهمية النصوص في تشخيصها لحوادث فترة الانتظار ، والملاحظ - حسب الشيعة الإثني عشر- أن الإمام المهدي حدّد بعض التصورات المستقبلية ، التي دخل في صياغة بعض المفاهيم الإسلامية التي تسهم في تكوين نفسيات المنتظرين ، ففي رسالته الأولى للشيخ المفيد قال : " يحدث في أرض المشرق ما يحزن ويقلق ، ويغلب من بعد على العراق طوائف من الإسلام مرّاق - خارجين عن الدين- تضيق بسوء أفعالهم على أهل الأرزاق ، ثم تنفجر الغمة من بعد بوار طاغوت من الأشرار ، ثم يسهر بهلاكه المتقون الأخيار ". ففي هذا النص نجد نبوءة ربما وقعت في عهد الشيخ المفيد ، وقد تعني هذه النبوءة حدثاً يتم في فترة أبعد عن عصره بقليل أو بكثير ، وخاصة أن التاريخ أهمل ذكر الحوادث التي حدثت في تلك السنة(410هـ) ونجد أن الاحتمال في فهم النصوص مشكلة تاريخية ومنهجية ، فليس بإمكان أحد أن يجزم أن المقصود من الطاغوت المذكور في نص

²المرجع نفسه ، ص 53.

الرسالة هو (طغرل بك) أول ملوك السلاجقة كما ذكر أحد الباحثين ، وإن كان ذلك ممكنا كفرضية تقبل الصواب أو الخطأ¹ .

والمهم في النص أن الإمام الغائب - حسب الشيعة الإثني عشر- كالأئمة السابقين حاول تعيين بعض الحوادث ، وتعيين المواقف المناسبة كقوله في الرسالة ذاتها : " اعتصموا بالتقية من شب نار الجاهلي " ، أو قوله في رسالة ثانية : " فلتطمئن بذلك من أوليائنا القلوب ، وليتقوا بالكفاية منه وإن راعتهم بهم الخطوب " وهو يقصد حادثة تقع بالحرم ، بالمسجد الحرام " من رفس منافق مذموم مستحل للدم المحرم ، يعمد بكيدة أهل الإيمان ولا يبلغ بذلك غرضه من الظلم والعدوان .

ويقينا لا نستطيع تحديد الحادثة التي وقعت في الحرم المعظم ، هل هي اعتداء

القرامطة ، وصاحب الزنج على المسجد الحرام ، أم الحادثة التي وقعت قبل هذا التاريخ أو بعده ؟

إنه يعين حدثا ، ويعين موقفا كما فعل الأئمة من قبله ، فلا تنساق القلوب وراء " مدع كاذب " أغرى بعض البسطاء بانطباق علامات " المهدي المنتظر " على ذاته ، فخدع نفسه وأوهم الآخرين وتقمص زورا شخصية " المهدي " .

وقد أدان أئمة أهل البيت في نصوصهم الكثيرة من ادعى الإمامة واعتبروا كل راية ترفع قبل القائم فصاحبها طاغوت ؟

ويمكن أن نعین الأثر النفسي لمسألة الوعي بالمستقبل واستشرافه:

1. إبقاء حالة الاستعداد في الذهن العامة للمسلمين شرط أن يكون التخطيط هو

طريق الاستعداد وأسلوب العمل.

2. تنبيه الذهن المسلمة بحوادث مستقبلية كي لا تحتار في تعيين الموقف الشرعي

إزاء الحدث ويضطرب تفكيرها إزاءه.

3. المحافظة على الحماس واستثمار أثره التربوي الإيجابي دائما .

¹ مدن يوسف ، سيكولوجية الانتظار - دراسة للأبعاد النفسية في عقيدة المهدي المنتظر عليه السلام- ، ص54.

4. تأمين حالة من الاطمئنان للنفس المسلمة من غوائل المستقبل ومقاومة نمو الإحساسات غير التوافقية طالما أنه يُغير نفسه على هدي "الكتاب والسنة" فاليعمل كل امرئ منكم بما يقرب من محبتنا ، ويتجنب ما يدينه من كراهيتنا وسخطنا " .

واضح مما سبق أن الانتظار وحده ، دون ظهور آثاره في المجتمع ، لا يعتبر أبداً من أفضل الأعمال ، ولا يكون بمنزلة المحاربة وحمل السيف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أن مفهوم كلمة العمل والمحاربة تحت لواء الرسول صلى الله عليه وسلم تعني الحضور في الميدان والعمل والسعي والاستعداد العيني وليس مجرد النية بدون العمل أو الأمل الذهني دون الآثار العملية .

فالانتظار بمعنى ، بُعد النظر ومشاهدة المستقبل ، وبمعنى عدم الرضا بالوضع الموجود ، بل توقع مستقبل أفضل ، كالمريض الذي ينتظر الصحة والسلامة ، أي يأمل بالخلاص من الوضع الفعلي ، ليصل إلى وضع أفضل ومن الواضح أن هكذا تغيير وتحول يحتاج إلى الاستعداد .

وبما أن ثورة المهدي العالمية تحتاج حتماً إلى استعداد، وتهيئة الأرضية بشكل أعمق وأوسع كان لابد أن يدخل الإنسان التاريخ من أوسع أبوابه ويساهم في تغيير مجرى التاريخ بإرادته والتزامه بقضايا مجتمعه لأنه في النهاية هو المسؤول الأول والأخير على هذا التغيير لتمهيد الأرضية للمهدي من جهة ، ومساهمته في تأسيس مشروع الدولة العالمية - وهذا ما سيكون محور الفصل الرابع - ، وبهذا يخرج من دائرة السلبية والتواكل الذي يعيش فيه ، ويعتقد اعتقاداً جازماً بأن المهدي ليس مُخلص بقدر ما هو مؤسس ، بينما الخلاص الحقيقي هو خلاص الإنسان من ذاته (خلاص من نزواته وشهواته)، أولاً ، ومن الظلم المحيط به ثانياً.

الفصل الرابع: مشروع حكومة المهدي العالمية

1. المبحث الأول : تبيئة الموضوع

- القسم الأول : علاقة الانتظار الإيجابي بتأسيس الدولة العالمية
 القسم الثاني : الواقع السياسي قبيل ظهور المهدي - من وجهة سنية-
 القسم الثالث: الوضع السياسي العالمي وعلاماته - من وجهة شيعية-

2. المبحث الثاني : مخطط الدولة العالمية وأهدافه

- القسم الأول : الأهداف الرئيسية للمشروع
 القسم الثاني: مهدي الإتيقا وفلسفة التربية
 القسم الثالث : مهدي الفلسفة السياسية
 القسم الرابع : مهدي الاقتصاد و العمران

3. المبحث الثالث : خصائص المجتمع المعصوم

- القسم الأول : هل تزول الدولة عند بلوغ المجتمع الطور الأعلى؟
 القسم الثاني : هل توجد طبقة في الدولة العالمية ؟
 القسم الثالث : ما محل الديمقراطية من الحكومة العالمية ؟

4. المبحث الرابع: فلسفة الإنسان في الدولة العالمية

- القسم الأول : علاقة انتظار الشعوب المضطهدة بالمشروع
 القسم الثاني: مسؤولية المفكر لا المثقف إزاء الدولة
 القسم الثالث : رجعة المواطنين والغرباء إلى المجتمع المعصوم
 القسم الرابع : نزول سيدنا عيسى (ع) ومساهمته في بناء المجتمع

المبحث الأول : تبيئة الموضوع

القسم الأول : علاقة الانتظار الإيجابي بتأسيس الدولة العالمية

القسم الثاني : الواقع السياسي قبيل ظهور المهدي -من وجهة سنية-

القسم الثالث: الوضع السياسي العالمي وعلاماته -من وجهة شيعية-

علاقة الانتظار الإيجابي بتأسيس الدولة العالمية

مسألة نهضة "المهدي" قضية اجتماعية فلسفية كبرى ، هذه المسألة لها أركانها وعناصرها المختلفة ، بعض هذه الأركان و العناصر فلسفي عالمي يشكل جزءا من التصور الإسلامي ، وبعضها ثقافي تربوي ، وبعضها سياسي وبعضها اقتصادي ، وبعضها اجتماعي وبعضها إنساني أو إنساني - طبيعي .

سبق وأن تحدثنا عن الانتظار ومدى تأثيره في التمهيد لتأسيس حكومة المهدي العالمية لذا نحاول في هذا المجال أن نوضح أهم خصائص هذه البشري الكبرى للكشف عن ماهية الانتظار الكبير :

1. التفاؤل بمستقبل البشرية ، فحول مستقبل المسيرة البشرية اختلف الآراء والنظرات، فاعتقد بعض المفكرين أن الشر والفساد والتعاسة صفات لا تفارق الحياة البشرية ، وذهبوا إلى أن الحياة لا قيمة لها على الإطلاق ، وأفضل ما يستطيع أن يقوم به الإنسان هو أن يضع نهاية لهذه الحياة ، والبعض الآخر ذهب إلى أن الحياة البشرية براء ، حيث قيل أن الحياة البشرية تحفر قبرها بيدها بفعل تطورها التكنولوجي وتقدمها في صنع وسائل التخريب والدمار ، وهي على شفا السقوط والانهيار .

يقول "رسل" في " الآمال الجديدة" : «ثمة أفراد - منهم أنشأتين - يزعمون أنه من المحتمل جدا أن يكون الإنسان قد طوى دورة حياته ، ويستطيع خلال السنوات القليلة القادمة أن يبني نفسه بما يتمتع به من مهارة علمية فائقة » ، واستنادا إلى هذه النظرية، تواجه البشرية الفناء الآن وهي في ريع عمرها ، وعلى أبواب نضجها الثقافي¹ .

وإذا اكتفينا بالشواهد الظاهرية ، فإننا لا نستطيع طبعاً أن ننفي هذا الاحتمال، أما النظرية الثالثة فترفض المقولتين السابقتين ، فلا الشر ولا الفساد والتعاسة صفات تلازم البشرية ، ولا تطور المدني المادي بقادر على إبادة البشرية ، بل أن البشرية تتجه نحو

مستقبل مشرق سعيد تنقل فيه جذور الظلم والفساد ، هذه النظرية يبشر بها الدين ، ونهضة المهدي ترتبط بهذه البشري .

¹مُرْتَضَى مطهري ، نهضة المهدي الكبرى في ضوء فلسفة التاريخ ، ص46.

2. انتصار الحق والتقوى والسلام والعدل والحرية على الظلم والدجل والاستكبار والاستعباد.
3. قيام حكومة عالمية واحدة .
4. عمران الأرض بحيث لا تبقى بقعة خربة غير عامرة .
5. بلوغ البشرية حد النضج والتكامل يلتزم فيه الإنسان طريق العقل والعقيدة ، ويتحرر من أغلال ظروف الطبيعة والغرائز الحيوانية .
6. استثمار ذخائر الأرض إلى أقصى حد ممكن .
7. إحلال المساواة التامة بين البشر في حقل الثروة .
8. اقتلاع جذور الفساد كالزنا والربا والخيانة والسرققة والقتل وشرب الخمر ، وخلو النفس من العقد والأحقاد .
9. زوال شبخ الحروب وسيادة السلام والحب والتعاون والصفاء .
10. المواءمة بين الإنسان والطبيعة¹ .

هذه الأهداف تلقي الضوء على ماهية مسألة المهدي ، وعلى مشروعه العالمي وكل واحد منها يحتاج إلى استدلال وتحليل ودراسة وهذا ما سنحاول إبرازه في هذا الفصل.

الواقع السياسي قبيل ظهور المهدي :

تحدثنا في الفصل السابق عن فلسفة الانتظار ومدى أهمية الاستعداد في تهيئة الأرضية لحضور المهدي ، فلا يصح أن نقول أن الإنسان ينتظر الفرج ولا يتحمل في هذا السبيل المرارة والأذى ، وهل يصدق الانتظار مع الغفلة واشتغال البال وعدم ترقب ظهور المهدي ومتابعة علائمه والأحداث التي تسبق ذلك الظهور ؟

فلا يسع المنتظرون للمهدي والمترقبون للفرج الذي يكون بفرجه دعوى ذلك حتى يشاهد في وجناتهم ويعرف من حالهم ذلك الانتظار وعدم الاستقرار ، وأجلى مصاديقه هو

¹مُرْتَضَى مطهري ، نهضة المهدي الكبرى في ضوء فلسفة التاريخ ، ص47.

متابعة العلام والأحداث التي تدل على ظهوره ، بعد الاطلاع عليها ومعرفتها من الكتب التي تبين تلك العلام من أحداث وفتن تسبق ظهور المهدي المنتظر .
فمن بين هذه الأحداث الظلم والجور والفتن الداخلية والخارجية ، والنزاعات ، والاعتداءات والاقنتال على المُلْك ، والتحالفات والمعاهدات ، والبلابل والمعامع والأزمات السياسية ، وبروز بعض الحركات الثورية التمهيدية ، هذا هو الواقع السياسي للعالم الذي يظهر عنده المهدي ، أو قل إن شئت الواقع الذي يسبق مرحلة النهاية بالنسبة لجمهور السنة ويسبق مرحلة البداية بالنسبة للشيعة .

والذي ينظر إلى واقع العالم السياسي اليوم يتعجب من هذه التطورات السريعة الإيقاع الغامضة الهدف ، أعني بالطبع غموضها على الأمم المهزومة التابعة ، أما الأمم المنتصرة ، أي الذئاب البشرية التي تعوي - بغير منازع - في البرية فالأمر عندهم واضح والهدف محدد وبرامج العمل للسيطرة ، والتحكم مخطط ومدروس .

من يستطيع أن يفسر ما يحدث في العالم اليوم ، خاصة في الفترة الأخيرة من تحالفات واتفاقيات وتحركات عسكرية وإشعال نار حروب في بلدان معظمها إسلامية ؟

- الصين وروسيا قد تحالفتا - كما يقولون - غير مسبوق ، وتعاقدتا على النصره ومالت إليهما إيران .

- دول أوروبا أصبحت الإتحاد الأوروبي

- تركيا -العلمانية- تحالفت مع إسرائيل بعلانية متبجحة ، تحت رعاية ومباركة أمريكية .

- تحالف أمريكي - ياباني¹ .

- تقارب عربي موجه غير مسبوق على طريق " ولماذا لا نتحالف نحن أيضا "

- نار الحرب في أفغانستان لن يدعوها تطفأ .

¹ جمال الدين محمد أمين ، القول المبين في الأشراف الصغرى ليوم الدين ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ط1 ، 1997 ، ص121

- العراق سيضل محاصرا ، بل محتلا ، والفلسطينيون لابد أن يبحثوا لهم عن ملجأ آخر وليبيا مقاطعة ، وسوريا وإيران إرهابيتان ، والسعودية ودول البترول (البقرة الحلوب) في جيب أمريكا ، والأردن في الجيب الآخر ، والسودان تصدّر الإرهاب ولا بد أن تظل مشغولة بحرب الجنوب حتى يشاء لها أن تقسم ، الجزائر وحروبها والإرهاب تأتي على الأخضر واليابس ، مصر كبيرة العائلة هي الثور القوي الأحمر آخر من يؤكل¹ .

هذا الذي يظهر لبادي الرأي إذا نظر إلى واقع العالم اليوم ، وإلا فما يحدث في البوسنة والهرسك ، وفي كشمير والصين والفلبين والهند وغيرها ليدل على أن الأمر خطير وأنياب الليث غدت بارزة ، ونحن نظن من سذاجتنا أن الليث مبتسم .

المهم ، أن المهدي يظهر على حين فرقة في المسلمين ، ليس لهم جماعة ولا إمام وإن كانت الأرض لا تخلو من الطائفة الظاهرة المنصورة التي لا يضرها من خالفها ولا من خذلها حتى يأتي أمر الله ، وهنا نحاول اكتشاف الواقع السياسي إبان ظهور المهدي:

للأسف فإن معظم المعنيين بهذه المسألة لا يزالون يعنون من عدم وضوح الرؤية في هذا الموضوع ، لاسيما وأنا لا نجد فلسفة واضحة لمسألة الانتظار والاستعداد لدى إخواننا السنة ، والذي نريد أن نبرزه ونقرره هو : إن الحرب القادمة ليست بيننا وبين اليهود...كلا وإنما هي حرب عالمية يعقبها ملاحم كبرى دينية .

أولا / الحرب العالمية الثالثة (هرمجدون)*:

هرمجدون هي الواقعة العظيمة ، والحرب النووية المُدمرة ، والنازلة الضخمة ، كما

إنها حرب تحالفية ينتظرها جميع أهل الأرض اليوم ، إنها المواجهة الدينية السياسية ، إنها الحرب الصليبية الجديدة ، إنها معركة التنين "DRAGON WAR" متعددة الأطراف ، فهي أعنف وأشرس حروب التاريخ ، إنها بداية النهاية – حسب جمهور

¹جمال الدين محمد أمين ، القول المبين في الأشراف الصغرى ليوم الدين ، ص122
* أنظر الفصل الأول – شرح معنى هرمجدون -

السنة - ، كما أنها الحرب التي يعم قبلها " السلام المشبوه" فيقول الناس : حلّ السلام حلّ الأمن¹ .

وهي ما ينتظره أهل الأرض اليوم المسلمون واليهود والنصارى ، هذه الحرب أخبرنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : " ستُصالحون الروم صلحا آما فتغزون أنتم وهم عدوا من ورائكم فتتصرون وتغنمون وتسلمون ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذى ثلؤل فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب فيقول ، غلب الصليب ، فيغضب رجل من المسلمين فيدقّه فعند ذلك تغدر الروم وتجمع للملحمة " ^{2**} .

وفي رواية زيادة : " ويثور المسلمون إلى أسلحتهم فيقتتلون فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة " .

هذه الحرب التحالفية العالمية سيكون المسلمون «فيها حلفاء الروم (أمركا وأوربا) وهو نص الحديث الصحيح ، أما عدونا فلا نعلمه حتى الآن ، هو عدو " من ورائكم " أو من "ورائهم" ، وإن كان الواقع يُحتمُّ أنه إما شيوعيون أو شيعة*** ، أو يتحدون فيكونون الطرف الآخر أو العدو الخاسر»³ .

ويعتقد جمهور السنة أن هذه الحرب قد بدأت مقدماتها فعلا ، فنحن والروم في صلح

أمن والدول التي يضمن فيها أنها المعسكر الآخر قد اتحدت أيضا في تطور سريع وغير مسبوق كما هو معلوم في اتفاق الصين وروسيا ، ومن ورائهم إيران فنبرة المواجهة قد ارتفعت و جدّة التوتر زادت ، وكأني بطبول الحرب قد تعالت دقاتها وأسرع إيقاعها ،

¹ جمال الدين محمد أمين ، هرمجدون - آخر بيان ... يا أمة الإسلام - ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، [د.ط. ، د.ت] ، ص59. ^{**} حديث صحيح رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة وابن حبان عن دى مخبر رضي الله عنه وصححه الألباني في تحقيقه لأحاديث المشكاة برقم 5424 ، وفي صحيح الجامع أيضا وله روايات منها " فيقتله " بدل من " فيدقه " ومنها " من ورائهم بدل " من ورائكم " ، ومنها " فيجتمعون لكم في ثمانين غاية مع كل غاية اثنا عشر ألفا " .

² الجميلي السيد ، علامة القيامة وأشراطها ، دار وكتبة الهلال ، القاهرة ، [د.ط. ، د.ت] ، 2000 ، ص 53. ^{***} يوضح أمين محمد جمال الدين: " أنه لا يعادي الشيعة فهم مسلمون وإن كانوا فرقة ظالة بين السلف وعندما نتوقع أن قتالا ، قد يكون معهم ، لا يعني أننا نستدعيهم أو أننا ندعو لقتال المسلمين بعضهم بعضا ، كما يفهم بعض المشوشين ، كلا وإنما هو إخبار - فيما نضن- عما سيكون ، وهذا ليس مستغربا ، فقد قاتلنا نحن المسلمين - (في جيش تحالف- قريبا العراق المسلمة ، فما العجب في أننا سنكون في جيش تحالفي يقاتل إيران ، سبحان الله لو سكت الذين لا يعلمون من أصحاب الذهن الفقير لقلّ الخلاف . ³ جمال الدين محمد أمين ، القول المبين في الأشرط الصغرى ليوم الدين ، ص 123 .

ولكن لا يزال البعض يجادلون ويمارون ، فما تفعل صيحات الإنذار مع مَنْ بأذنيه صمم ؟

إن هذه الحرب التي قال عنها رسولنا صلى الله عليه وسلم ، أنها "تحالفية" ، يسميها أهل الكتاب : "هرمجدون" كما جاء في أناجلهم : " وجمعت الأرواح الشيطانية جيوش العالم كلها في مكان يسمى "هرمجدون" سفر الرؤيا 16/16¹ .

فنحن نسميها حربا تحالفية أو عالمية ثالثة أو كبرى أو هرمجدون ، فالذين يشغلون أنفسهم – أو قل يشغلهم الشيطان بالجدال في التسمية ، فيصرفهم عن أصل الموضوع الخطير .

لكن جمال الدين يريد أن يوضح أن كلام جمهور السنة عن قرب النهاية هو ليس ضد النهوض ومواكبة التقدم الحضاري اليوم واللاحق بركب الأمم المتقدمة، بل هي دعوة للاستعداد للنزال والصمود في ساحة القتال لو كانوا يعلمون .

قد يكون ما دعا إليه جمال الدين صحيح من الوجهة النظرية لكن الواقع يشهد بدوره على خمول الشعوب ويأسها وإحباطها، فكان من الأجدر به أن يوضح لنا طريقة للاستعداد ، بدل هذه الأحكام السطحية .

ومنه يمكن أن نخلص إلى أن جمهور السنة يتفق مع جمهور الشيعة في مسألة الاستعداد على المستوى النظري على الأقل التي سبق وأن تحدثنا عنها في الفصل الثالث لاسيما ما يخص تكوين شخصية الإنسان المؤمن وما ينبغي فعله ضد العدو المحقق به لكن يبقى استعداد ناقص ما لم يدخل دائرة الفعل والممارسة.

ثانيا / غدر الروم :

هذا هو المشهد الثاني من مشاهد " الفتن الأخيرة " أو الملاحم الكبرى أو " فتنة الدهيماء" أو الحالة السياسية إبان ظهور المهدي .

¹ جمال الدين محمد أمين ، هرمجدون – آخر بيان ... يا أمة الإسلام - ، ص 61.

ينتصر المسلمون والروم " أمريكا " في هرمدون " ويغنون ويسلمون وأثناء مرجعنا من " هرمدون" يغدر الروم بنا ويستديرون علينا ، مستغلين شغبا أو احتكاكا يثور بين بعض أفراد الجيشين المسلم والأمريكي فيرجعون إلى بلادهم وقد نوا الغدر بنا فيجمعون لنا ملوك الروم خفية ، ونحن آمنون مقيمون على الصلح¹ .

وإذا نظرنا إلى لفظة " ستصالحون الروم " و" يجمعون ملوك الروم " ، وقلنا: كيف يجمع الروم ملوك الروم ؟ لا نملك إلا نقول : صدقت وبررت يا رسول الله ن فالروم اليوم ليسوا أمة واحدة ، وإنما دول متفرقة ، بل بدأ التنافر والأزمات في الظهور على سطح العلاقات بينها ، ففرنسا اليوم وألمانيا في أسوأ حالاتها وعلاقتها مع أمريكا ، أي أنهم (أمريكا) ستستغرق وقتا في تجميع ملوك الروم² .

كم من الوقت سيستغرقونه في التجميع للقدر ؟

سيستغرقون تسعة أشهر قبل أن يأتونا للملحمة الكبرى جاء ذلك في حديث مسند أحمد : **" يجمعون لكم تسعة أشهر قدر حمل المرأة "** ، والحديث وإن كان في إسناده مقال إلا أننا نأخذ به لأننا ليس عندنا غيره في هذه المسألة ، أعني فترة الغدر التي يجمع لنا الروم فيها جحافلهم ، وقد كان الإمام احمد ابن حنبل يقدم الحديث الضعيف على رأيه .

وجدير بالذكر أن نقول : إن حرب " هرمدون" ستكون في أرض فلسطين ليست بيننا وبين اليهود كما يعتقد بعض الناس ، فالأمر أكبر من ذلك ، فهي حرب عالمية تجمع فيها الأرواح الشريرة جيوش دول كثيرة ، فتكون بينهم مقتلة عظيمة ، وحرب مدمرة ، ولا أضن هذه الأرواح الشريرة إلا أرواح اليهود ، فهم منذ قديم الأزل دائما يحاولون إشعال نار الحروب والفتن كما قال الله تعالى فيهم : (**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ**)¹ ، وهم في هذه الأيام جادون في إشعال نار الحرب ، ولكن هذه المرة لن يطفئها الله لأنها قدره المقدر ، فاليهود سيشعلون نار هذه الحرب ثم يصلونها ويهلك فيها كثير منهم لأنها ستكون على الأرض التي اغتصبوها ظلما وعدوانا² .

¹ جمال الدين محمد أمين ، القول المبين في الأشراف الصغرى ليوم الدين ، ص 124

² المرجع نفسه ، ص 125 .

¹ الآية 64 ، سورة المائدة .

² جمال الدين محمد أمين ، القول المبين في الأشراف الصغرى ليوم الدين ، ص 126 .

ثالثا/ فتن داخلية ونزاعات على السلطة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هاربا إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبأيعونه بين الركن والمقام " .

الاختلاف واقع في هذه الأمة كما وقع في الأمم السابقة ، وهو أهون صور العذاب التي يعاقب الله بها الأمم المُقصرة ، ويبلغ هذا الاختلاف مداه وذروته إبان ظهور المهدي حيث تملأ الأرض ظلما وجورا واختلافا واقتتالا على الملك فيأذن الله تعالى حينئذ في ظهور المهدي عليه السلام فتسكن على يديه الفتن³ .

والحديث الذي معنا : " يكون اختلاف عند موت خليفة" وإن كان في إسناده ضعف فهو ضعف قريب ، بل قد صححه الهيثمي وحسنه ابن القيم فمثله يعتبر ، وهو يبين جانبا من الحالة السياسية الداخلية التي تسبق ظهور المهدي ، وتفصيل ذلك أنه سيكون اختلاف بعد موت خليفة ، واقتتال على الملك فيخرج المهدي حينئذ ويباع له بين الركن والمقام ، هذا الاختلاف على الملك بعد موت ذلك الخليفة (الاعتباري المجازي) يفسره حديث الفتن (فتنة الأحلاس ، فتنة السراء والدهيماء) فإنه يبين أن المسلمين بعد فتنة السراء التي نعيشها الآن سيصطلحون على رجل كورك على ضلع فلا يمكث إلا قليلا حتى تكون فتنة الدهيماء والتي تبدأ بمعركة " هرمدون " وهذا ما رواه عبد الله بن عمر قال : " كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قعودا نذكر الفتن فأكثر من

ذكرها ، حتى ذكر فتنة الأحلاس* ، فقال قائل : وما فتنة الأحلاس ؟ قال هي فتنة هرب وحرَب ، ثم فتنة السراء ، دخلها أو دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي ، يزعم أنه مني ، وليس مني ، وإنما ولي المتقون ، ثم يصطلح الناس على رجل كورك على ضلع ، ثم فتنة الدهيماء ، لا تدع أحدا من هذه الأمة إلا لطمته ، فإذا قبل انقطعت تمادت ، يصبح

³المرجع نفسه، ص 127.

*فتنة الأحلاس فتنة طويلة بدأت منذ عهد الصحابة وقد كان الفاروق عمر ابن الخطاب حائلا بين المسلمين والفتنة كما جاء في حديث حذيفة المشهور عند البخاري ومسلم ن وفيه أنه قال لعمر : " ... إن بينك وبين الفتنة بابا يكسر ... وفعلا ما إن قتل عمر ، وكسر الباب حتى فتحت الفتنة على المسلمين ، وما انقطعت إلى اليوم وصدق فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها فتنة " الأحلاس " ، الأحلاس جمع جلس وهو الكساء الذي يوضع على ظهر البعير ، وقال الإمام الخطابي في معالم السنن : " فتنة الأحلاس إنما أضيفت إلى الأحلاس لدوامها وطول لبثها ، فتنة الأحلاس صفتها أنها طويلة مستمرة بدأت أيام " عثمان بن عفان " وهذه الأخيرة تكون بابا إلى فتنة " الدهيماء " ، فتنة الملاحم التي تبدأ بمعركة هرمدون وتنتهي بمقتل الدجال على يد عيسى عليه السلام .

الرجل فيها مؤمنا ، ويمسي كافرا ، حتى يصير الناس على فسطاطين : فسطاط إيمان لا نفاق فيه ، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه ، إذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من اليوم أو الغد"¹ ما تعني فتنة السراء ؟ فتنة السراء أو المال والكنوز والخيرات : أي فتنة بسبب ذلك ، وهي فتنة تكون في أعقاب فتنة الأحلاس – سبق شرحها على الهامش – وتؤدي إلى فتنة الدهيماء – الأتية- ، ولم نر من تكلم في شرح هذه الفتن لا قديما ولا حديثا مكتفين بذكر أسمائها وصفاتها ، وذلك أنها ما وقعت وتكاملت وأعلنت عن نفسها إلا في أيامنا، ولذلك نقول -والعلم عند الله – إعمالا لكل الأدلة واصطحابا لما سبق وقرب ظهور المهدي عليه السلام ، من أن النهاية قريبة ، وأن هذه الفتن المذكورة في الحديث الذي معنا يؤدي بعضها إلى بعض إلى أن يكون في آخرها ظهور " الدجال " كما جاء في آخر هذا الحديث " ... فإذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غده " ².

يقول جمال الدين من جامعة الأزهر: إن "فتنة السراء" بدأت بغزو العراق للكويت عام 1990م ، وهذا كان مبدأ تلك الفتنة ، وذلك – والله أعلم – للآتي:

أولا : إنها فتنة سماها النبي صلى الله عليه وسلم : "فتنة السراء" ، وقد كان غزو العراق للكويت سببه المال والكنوز وبتروال الكويت " السراء " – حسب حمال الدين -
ثانيا : أن المتسبب فيها هو " صدام حسين " وهو رجل ادّعى أنه من أهل بيت النبي ، وليس هو كذلك – في الحقيقة - : وقد أعلن " صدام حسين " أنه من نسل الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قالوا في مصر – متهمين- ماذا نفعل مع رجل يزعم أنه من أهل البيت ؟

ثالثا : أن صدام العراق قد تسبب بحمقه في هذه الفتنة (فتنة السراء) والتي استهلت بجلب الروم إلى بلادنا وتمكين قواعدهم بأرضنا بحجة الحفاظ على الأمن والسلام وحماية المصالح المشتركة والدفاع عن الأوغاد الذين استغاثوا بهم وتذرعوإ إليهم لحمايتهم .

¹ عبد الله الأشقر عمر سليمان ، القيامة الصغرى ، دار النفائس ، الأردن ، ط3 ، 2004 ، ص211 .

² جمال الدين محمد أمين ، القول المبين في الأشراف الصغرى ليوم الدين ، ص 112.

رابعا : ترتيب الحديث ينص على أنه يعقب فتنة السراء هذه اصطلاح الناس على رجل) يكون ملكا أو رئيسا أو قد يسمونه خليفة كما يحلو لأهل السعودية أن يسموا ملكهم بذلك (هذا الرجل لا يثبت ولا يستقيم ، أمره فهو ليس حقيقا بالملك ولا خليقا للإمارة ولا جديرا بالسلطان ، فلا يمكث إلا قليلا ، وهذا هو معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ثم يصطّح الناس على رجل كورك على ضلع" وهذا مَثَلٌ للأمر الذي لا يستقيم ولا يثبت ، لأن الورك لا يتركب على الضلع ولا يستقيم معه ، ويعقب ذلك مباشرة ظهور المهدي ومبايعته ، وبدء فتنة " الدهيماء " والمقصود بها الداهية التي تدهم الناس بشرها¹.

وبنظرة سريعة على واقعنا اليوم نجد أن الخلافة غائبة ولن تقوم لها قائمة إلا على يدي المهدي وليس على ظهر الأرض اليوم من يُتَسَمَّى بخليفة إلا ما كان من أهل السعودية فإنهم يحلو لهم أن يسموا ملكهم بالخليفة ، ولا تخفى الحالة الصحية لخليفتهم اليوم كما لا يخفى تطلُّع المتربصين إلى المُلْك وولاية العهد ، فمن يا ترى سيكون هو ذاك الرجل الذي سيصطلحون عليه بعد اختلاف وتنازع على الملك ، فإنه لن يمكث على كرسيه

إلا قليلا لأنه كورك على ضلع أي لا يستقيم أمره ولا يثبت فهو ليس جديرا بالملك ولا خليقا للإمارة¹.

هذه الإمارات تبقى وجهة نظر خاصة بجمال الدين محمد أمين من جامعة الأزهر، قد لا أوافق عليها لكن تبقى كطرح قابل للنقاش .

ورد في كتاب العلامات الكبرى لقيام الساعة ، للعلامة السفاريني ، فتن أخرى تسبق ظهور المهدي منها :

ما ذكره في "الإشاعة" أنه يحسر الفرات عن جبل من ذهب فإذا سمع به الناس ساروا إليه واجتمع عليه ثلاثة كلهم ابن خليفة يقتتلون عنده ثم لا يصير إلى أحد منهم فيقول كل واحد : والله لئن تركت الناس يأخذون منه ليذهبن بكله ، فيقتتلون عليه حتى يقتل من كل

¹ عبد الله الأشقر عمر سليمان ، القيامة الصغرى ، 213 .
¹ جمال الدين محمد أمين ، القول المبين في الأشراف الصغرى ليوم الدين ، ص 127.

مائة تسعة وتسعون ، وفي رواية : فيقتل تسعة أعشارهم ، وفي رواية : من كل تسعة سبعة ، فيقول كل رجل : لعلي أكون أنا أنجو².

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى يخرج المهدي من ولدي ، ولا يخرج المهدي حتى يخرج ستون كذابا كلهم يقول: أنا نبي " ³.

وقال جعفر الصادق بن محمد الباقر " لا يظهر المهدي إلا على خوف شديد من الناس وزلزال وفتنة وبلاء يصيب الناس والطاعون قبل ذلك وسيف قاطع بين العرب واختلاف شديد في الناس وتشتت في دينهم وتغيير في حالهم حتى يتمنى المتمني الموت صباحا ومساء من عظيم ما يرى من كلب الناس وأكل بعضهم بعضا فحينئذ يخرج - أي المهدي- ، فيا طوبى لمن أدركه وكان من أنصاره ، والويل كل الويل لمن خالفه وخالف أمره⁴"

خروج السفيناني :

ومن أقوى علامات خروج المهدي - حسب جمهور السنة- خروج من يتقدمه من الخوارج و الأبقع والأصهب والأعرج والكندي .

أما السفيناني فاسمه عروة ، واسم أبيه محمد ، وكنيته أبو عتبة ، قال العلامة الشيخ مرعي في " فوائد الفكر" و في " عقد الدرر" : أن السفيناني من ولد خالد بن يزيد بن أبي سفينان ملعون في السماء والأرض ، وهو أكثر خلق الله ظلما* .

قال علي رضي الله عنه : " السفيناني من ولد خالد بن يزيد بن أبي سفينان ، رجل ضخم الهامة بوجهه أثر جدري بعينه نكتة بياض يخرج من ناحية دمشق وعامة من يتبعه من كلب ، فيقتل حتى يبقر بطون النساء ويقتل الصبيان ويخرج إليه رجل من أهل بيتي في الحرم فيبلغ السفيناني فيبعث إليه جندا من جنده فيهزم فيسير إليه السفيناني بمن معه حتى

²السفارينى محمد ابن أحمد بن سالم ، العلامات الكبرى لقيام الساعة، ص 39

³المصدر نفسه ، ص 40

⁴المصدر نفسه، ص40

* أصل السفيناني على أنه من جنس خالد بن يزيد ، أمر فيه اتفاق بين السنة والشيعة .

إذا جاز بيداء من الأرض خسف بهم فلا ينجو إلاّ المخبر عنهم¹. أخرج الحاكم في مستدركه وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه .

خروج الأبقع والأصهب :

الأبقع يخرج من مصر ، والأصهب يخرج من بلاد الجزيرة ، ثم يخرج الجرهمي من الشام .

قال كعب الأحبار : أول من يخرج ويغلب على البلاد الأصهب يخرج من بلاد الجزيرة ، ثم يخرج من بعده الجرهمي من الشام ، ويخرج القحطاني من بلاد اليمن ، وقال كعب : فبينما هؤلاء الثلاثة قد تغلبوا على مواضعهم وإذا خرج السفيناني من دمشق من واد يقال له وادي اليابس يؤتى في منامه فيقال له : قم فاخرج ، فيقوم فلا يجد أحدا ، ثم يؤتى الثانية ثم الثالثة ويقال له فيها : فانظر إلى باب دارك ، فينحدر في

الثالثة إلى باب داره فإذا بسبعة أنفار أو تسعة معهم لواء فيقولون : نحن أصحابك ، ومع رجل مهم لواء معقود لا يرى ذلك اللواء أحد إلاّ انهزام ، فيخرج إليه صاحب دمشق ليقاتله فإذا نظر رايته انهزم فيدخل دمشق الشام في ثلاثمائة وستين راكبا وما يمضي عليه شهر حتى يجتمع عليه ثلاثون ألفا من كلب وهم أخواله ، وعلامة خروجه خسف يقرية حرسنا ويسقط جانب مسجدها الغربي ، ثم يخرج الأبقع والأصهب فيخرج السفيناني من الشام ، والأبقع من مصر والأصهب من جزيرة العرب¹.

خروج الأعرج الكندي :

يخرج الأعرج الكندي بالمغرب ويدوم القتال بينهم سنة ثم يغلب السفيناني على الأبقع والأصهب ويسر صاحب الغرب فيقتل الرجال ويسبي النساء ثم يرجع حتى ينزل الجزيرة في قيس إلى السفيناني عليه ويحوز ما جمعوا من الأموال ويظهر على الرايات

¹ السفاريني محمد ابن أحمد بن سالم ، العلامات الكبرى لقيام الساعة ، ص 41 .

¹ السفاريني محمد ابن أحمد بن سالم ، العلامات الكبرى لقيام الساعة، ص 42 .

الثلاث ثم يقاتل الترك فيظهر عليهم ثم يفسد في الأرض ويدخل الزوراء فيقتل من أهلها

خروج الحارث والمنصور :

ثم يخرج وراء النهر خارج يقال له : الحارث ، على مقدمته رجل يقال له : المنصور يُمكن لآل محمد واجب على كل مؤمن نصره ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث بن حران على مقدمة رجل يقال له المنصور يوطئ أو يمكن للآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت على كل مؤمن نصرته أو قال إجابته " ² .

وهذا الرجل يحتمل أن يكون الهاشمي الآتي ذكره ويلقب بالحارث كما يلقب المهدي بالجابر ، ويحتمل أن يكون غيره .

ويثور أهل خراسان بعساكر السفيناني فتكون بينهم واقعات فإذا طال عليهم قتاله بايعوا رجلا من بني هاشم بكفه اليمنى خال سهل الله أمره وطريقه هو أخو المهدي من أبيه أو ابن عمه وهو حينئذ بأخر المشرق بأهل خراسان وطالقان .

ومعه الرايات السود الصغار وهي غير رايات بني العباس على مقدمته رجل من بني تميم الموالي ربعة أصفر قليل اللحية كوسج .

لابن كثير رأي حول الرايات السود فيقول في شأن الحديث القائل : " يخرج من خراسان رايات سود فلا يرد لها شيء حتى تنصب بإيلياء " * ، يقول : " هذا حديث غريب وهذه الرايات السود ليست هي التي أقبل بها أبو مسلم الخراساني فاستلب بها دولة بني أمية في سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، بل رايات سود أخر تأتي بصحبة المهدي وهو محمد بن عبد الله الفاطمي الحسن بن رضي الله عنه يصلحه الله في ليلة ، أي يتوب عليه ويوفقه ويفهمه ويُرشده بعد أن لم يكن كذلك ويؤيده بناس من أهل المشرق ينصرونه ويقيمون سلطانه ويشدون أركانه وتكون راياتهم سود أيضا وهو زي عليه الوقار لأن راية رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت سوداء يقال لها العقاب وقد ركزها خالد بن الوليد على الثنية

² بن كثير أبي الفداء اسماعيل ، النهاية في الفتن والملاحم ، ص 27 .

* رواه قبيصة بن ذؤيب عن أبي هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

التي هي شرقي دمشق حين أقبل من العراق فعرفت الثنية بها فهي الآن يقال لها ثنية العقاب وقد كانت عذابا على الكفرة من نصارى الروم والعرب ووطدت حسن العاقبة لعباد الله المؤمنين من المهاجرين والأنصار ولمن كان معهم وبعدهم إلى يوم الدين والله الحمد" ¹ .

خروج شعيب بن صالح :

واسمه شعيب بن صالح التميمي يخرج إليه في خمسة آلاف فابلغه خروجه صيره على مقدمته لو استقبلته الجبال الرواسي لهداها ، يمهده الأرض للمهدي .

فيلتقي الهاشمي بخيل السفيناني فيقتل منهم مقتلة عظيمة بيضاء اصطخر حتى تطأ الخيل الدماء إلى أرساغها ثم تأتيه جنود من قبل سجستان عليهم رجل من بني عدي فيظهر الله أنصاره وجنوده ، ثم يجتمع مع المهدي وبيايعة .

الواضح مما سبق أن العلامة سفاريني خطّ لنا طريق المهدي وما يسبقه من فتن ، بل ذكر لنا حتى عصبة المهدي التي ستحمل معه لواء الخلاص من الفتن ، وكأن السفاريني يصور لنا المهدي وعصبته على أنهم المخلصون الذين على أيديهم تبدأ النهاية، نهاية الفتن والمفاسد الموجودة ، فالمهدي هو من تفتح على يديه القسطنطينية* ، وهذا الفتح يسبق مباشرة خروج الدجال ¹ .

هذا ما ذكره أحمد في المسند أن صلى الله عليه وسلم قال : " عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال" ² .

بيعة المهدي وما يتصل بها:

بياع المهدي بمكة المشرفة بين الركن والمقام ليلة عاشوراء ، وإذا هاجر المهدي من المدينة إلى بيت المقدس تخرب المدينة بعد هجرته وتصير مأوى للوحوش ، كما ورد في الحديث السابق " عمران بيت المقدس خراب يثرب" ، وفي حديث قتادة : " يخرج

¹ ابن كثير أبي الفداء اسماعيل ، النهاية في الفتن والملاحم ، ص 28 .

* وجدت في بعض المراجع أن القسطنطينية يراد بها بلاد الروم أي الغرب المعادي للإسلام والمسلمين ، وفي كتب أخرى ، وجدت أنها تعني منطقة الترك ، المهم أن كلا المعنيين صحيح باعتبار أنهما يمثلان أعداء الإسلام والمسلمين .

¹ جمال الدين محمد أمين ، هرمجدون - آخر بيان ... يا أمة الإسلام - ، ص 101

² الجميلي السيد ، علامة القيامة وأشراتها ، ص 55

المهدي من المدينة إلى مكة" وفي حديث ابن عباس : " يستخرجوه من بطن مكة من دار عند الصفا " وفي خبر أبي جعفر : " يظهر المهدي بمكة عند العشاء " .
وفي الخبر يبعث السفيناني جيشا إلى مكة فيأمر بقتل من كان فيها من بني هاشم فيقتلون ويتفرقون هاربين إلى البراري والجبال حتى يظهر أمر المهدي بمكة فإذا ظهر اجتمع كل من شذ منهم إليه بمكة ويأتي سبعة علماء من آفاق شتى على غير ميعاد قد بايع

لكل منهم ثلاثمائة وبضعة عشر فيجتمعون بمكة ، ويقول بعضهم لبعض: ما جاء بكم ؟ فيقولون : جننا في طلب هذا الرجل الذي ينبغي أن تهدأ على يديه الفتن وتفتح له قسطنطينية قد عرفناه باسمه واسم أبيه وأمه فيطلبونه فيصیبونه بمكة فيقولون : أنت فلان ؟ فيقول : بل أنا رجل من الأنصار ، فينفلت منهم فيصفونه لأهل الخبرة والمعرفة به فيقولون : هو صاحبكم الذي تطلبونه وقد لحق بالمدينة ، فيطلبونه بالمدينة فيخالفهم إلى مكة ، وهكذا ثلاث مرات ، فيصیبونه بمكة في الثالثة عند الركن فيقولون: إثمنا عليك ودمائنا في عنقك إن لم تمد يدك نباعك ، وقد أقبل عسكر السفيناني في طلبنا ، فيجلس بين الركن والمقام فيمد يده فيبايع له فيلقي الله محبته في قلوب الخلق ، فيصير مع قوم أسد بالنهار رهبان بالليل"¹ أخرجه نعيم بن حماد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
على ذكر هذا الحديث نطرح تساؤل ... لماذا لم يستجب المهدي بادئ الأمر للعلماء الذين طلبوا منه قبول البيعة، بل لاذ بالفرار منهم مؤثرا العزلة وراحة البال ؟

لا شك أن الأمر عظيم أخطر مما يتحملة إنسان ، خاصة وإن الهداية وصلاح الأمر الذي يمن الله تعالى به عليه في ليلة لم يكن بعد ، - حسب جمهور السنة - ، ولذلك تمحل الأعدار وآثر الفرار المرة تلو الأخرى بل اضطر إلى أن يخدعهم ليهرب منهم فتاب الله عليه من هذه النقائص وهذاه وأصلحه في إحدى ليالي هذه المرات التي زاغ منهم فيها ، فثبت قلبه وألقى فيه نورا من نوره ملأ قلبه وفاض حتى غمر وجهه فصار كأنه كوكب

¹ السفاريني محمد ابن أحمد بن سالم ، العلامات الكبرى لقيام الساعة، ص.45

دري يضيء لا يملك أحد أن يخرج من فلكه ويشذ عن مداره ، فيصير كالشمس تجذب إليها أفراد مجموعتها فيدورون في فلكها في نظام بديع وإحكام هائل² .
وجدت في رواية أخرى " فيأتونه وهو ملصق وجهه إلى الكعبة يبكي ، قال عبد الله بن عمرو راوي الحديث : كأي انظر إلى دموعه " ، الواضح من هذا الحديث أن المهدي

كان يبكي على حال المسلمين وما هم فيه من يأس وفتن خاصة وإن الدماء التي سالت على جمرة العقبة لا تزال صورتها عالقة بذهنه تطارد خياله ، فينخرط في بكاء شديد فترتعد فرائصه وترجف بواده ولكن قلبه لا يزال موصولاً بربه تعالى متعلقاً بجانبه أملاً في فرجه القريب .

إذن تردد المهدي في قبول البيعة كان نتيجة إدراكه للمسؤولية الضخمة الملقاة على عاتقه ، والأصعب من هذا أن العلماء الذين بايعوه أو سيبايعونه حملوه مسؤولية حمايتهم وخلصهم من السفيناني بشكل خاص وخلصهم من الفتن والمفاسد بشكل عام وكأنهم يتنحون عن مسؤولية مساعدته في إنقاذهم ، وهنا أجزم بأن نظرة جمهور السنة إلى المهدي هي نظرة تواكلية ، لأنهم لم يحركوا ساكناً في تغيير بعض الأوضاع وألقوا بالمسؤولية كاملة على عاتق المهدي ، الأمر الذي ألقاه وجعله متردداً في قبول البيعة وبالتالي المهدي في نظر هؤلاء العلماء - حسب ما ورد في الحديث- هو مُخْلِصٌ، ولم أجد أدنى إشارة -في كتب جمهور أهل السنة- إلى فلسفة تحضير أو استعداد نفسي يمهدان الأرضية الخصبة للمهدي ومشروعه العالمي من أجل القضاء على بعض الفتن والمظالم وكأن الأمر خارج عن قدرة الإنسان العادي ويستدعي قوى خارقة بدلاً من ذلك متمثلة في المُخْلِصِ المهدي المنتظر- وهذا ما هو حاصل اليوم بالفعل - فبات انتظارنا انتظاراً سلبياً لا محالة ما لم نغير سلوكياتنا الراضخة إلى سلوكيات فعالة لا مجرد انفعالات ثائرة سرعان ما تزول لمجرد زوال الحدث .

راهنية الفتن :

² جمال الدين محمد أمين ، هرمجدون - آخر بيان ... يا أمة الإسلام - ، ص 83 ، ص 84 .

سيق وأن أشرنا إلى واقعية بعض الفتن ويظل الواقع يشهد على ذلك بدليل تحرك جيوش الغرب للحملة الصليبية الجديدة ، وقد صرح قائدهم ورئيسهم " بوش " بذلك ، ثم اضطر لسحب كلمته أمام غضب المسلمين إزاء هذه الكلمة، لكنه لم يسحب قواته ، فالذي يضره القلب لا يزال في القلب قال تعالى : (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تُخفي صدورهم أكبر)¹.

لقد تحركت الجيوش الصليبية صوب المشرق في وقت قصير يخطط وأهداف كانوا قد أعدوها مسبقا لتنفيذها في أقرب فرصة ، بحجة ضرب أفغانستان وقواعد الإرهاب وما هي إلا حجة واهية ومبرر دبلوماسي مفضوح وإنما هدفهم الحقيقي هو السيطرة على العالم أجمع والقضاء على كل من هو ليس بمسيحي سواءا كانوا شيوعيين أو هندوس وبوذيين أم كانوا مسلمين .

فالجميع عندهم أشرار ، فلا بد في عقيدتهم المسيحية أن يقضوا على كل الأشرار ويُخَلَّصُوا الأرض منهم حتى يمهدوا لنزول "الرَّب" – كما يزعمون- من السماء إلى الأرض فيحكمها ويعيشون هم بعد ذلك " الألفية السعيدة " ، وإلا فما معنى مجيئهم بقوات ضخمة تكفي لغزو العالم كما يقول الخبراء العسكريون .

وهم يعلمون أن هذا أوان المجيء الثاني " المسيح " المُخَلَّص ولهذا حشدوا قواتهم وتحركت جيوشهم الصليبية تحت راية رئيس الأركان للقوات المشتركة " الأعرج الكندي " للقضاء على الأشرار بدءا بالتحالف معنا في " هرمدون " وانتهاء بالعدو في " الملحمة الكبرى " .

لقد عبرت القوات الصليبية قنطرة مصر (قناة السويس) وتمركزت في المنطقة كلها لضرب أصحاب الرايات السود " الأفغان بقيادة الطالبان " (، ولن يبرحوا مكانهم حتى يستجيش المشرق والمغرب في أعظم لقاء ، وأشرس وقعة وأشد حرب عالمية ، وذلك أن الشرق الشيوعي (الصين وروسيا) ومعهم الشيوعيون (إيران) والعراق المختلطة (سنة وشيعة) ، لن يرضوا عن بقاء القوات الرومية الصليبية تحيط بهم وتشكل خطرا

¹ الآية 118 ، - سورة آل عمران -

عليهم وهي تعربد في المنطقة يضرب هذا ويهدد ذلك ، وهنا يبدأ النزاع وتنفجر الحرب التي طالما مهد لها الصليبيون ومن ورائهم اليهود الذين يشاركون النصارى في

عقيدة مجيء " المُخَلِّص " مع اختلاف في التفاصيل* ، ولذلك هم في شأن هذه الحرب التطهيرية ملة واحدة وأمة واحدة .

وما نرى أوان انفجار الحرب إلا قد اقترب بل هو على الأبواب ولا يعلم توقيت ذلك على وجه اليقين إلا الله رب العالمين .

هذه هي الفتن – باختصار- التي تسبق ظهور المهدي من وجهة جمهور أهل السنة، بقي الآن تسليط الضوء عن الواقع السياسي من وجهة الشيعة -الإثني عشرية- .

*أنظر الفصل الأول – قصة الخلاص -

تصور عام لظهور المهدي (عليه السلام) من وجهة شيعة :

سبق وأن تحدثنا في الفصل السابق عن فلسفة الانتظار ومدى أهمية الاستعداد في تهيئة الأرضية لحضور المهدي ، فلا يصح أن نقول أن الإنسان ينتظر الفرج ولا يتحمل في هذا السبيل المرارة والأذى ، وهل يصدق الانتظار مع الغفلة واشتغال البال وعدم ترقب ظهور المهدي ومتابعة علائمه والأحداث التي تسبق ذلك الظهور ؟

الساحة الجغرافية للحدث :

تتركز الساحة الجغرافية للحدث في بلاد الشام وفلسطين وفي إيران والعراق وفي الحجاز فهذه المناطق بالتحديد هي مصدر الموج الإسلامي الهادر الذي نتحدث عنه النصوص الشيعية ، وهي ملتقى الصراع السياسي والعسكري بين ثورة المهدي وبين الاتجاه العميل للغرب – حركة السفينائي* -أولا ، ثم بينها وبين اليهود والغرب مباشرة وكل الأحداث التي تحصل في البلاد القريبة من هذه المنطقة كمصر والمغرب الإسلامي واليمن ، أو البعيدة عنها كبلاد الروم وشرق الأرض وغربها ، على حد تعبير الأحاديث الشريفة ، تكون امتدادا وانعكاسا لموج وأحداث هذه الساحة التي يصنع فيها مستقبل العالم وتصاغ فيها أوضاعه الجديدة .

وهذه الحقيقة تساعد عليها اعتبارات حركة الصراع الحضارية التاريخية والفعلية في هذا العالم ، فإن مركز الثقل السياسي منذ عهد إبراهيم – عليه السلام- ، لم يبتعد عن هذه الساحة وما حولها ، فهو لم ينتقل من بلد منها إلا ليحل في بلد آخر ، ولم يبتعد عن المنطقة إلا ليعود إليها¹.

لقد كانت هذه المنطقة قلب العالم القديم والقوة الفاعلة في حضارته ، ولذلك تركزت جهود الأنبياء (عليهم السلام) على شعوبها لكي تحمل رسالتهم ، فكانت تينوى قاعدة

* الواضح أن هناك اتفاق بين جمهور أهل السنة والشيعة أنني عشوية على أن عدو المسلمين هو الغرب أو الروم الراض للإسلام ، ممثلا بالسفينائي .

¹ الكوراني علي ، الممهدون للمهدي ، الدار الإسلامية للطباعة والنشر ، لبنان ، ط3 ، 2003 ، ص 46

العالم الجديد على يد نوح عليه السلام ، وفلسطين والحجاز ومصر قاعدة لرسالات موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، ولأمر ما أقسم الله تعالى بجغرافية هذه المنطقة في قوله تعالى : (والتبين والزيتون وطور السنين وهذا البلد الأمين)¹ ، بل نلاحظ في مطلع الدعوة الإسلامية أن إفريقيا كانت حقلاً سهلاً أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه اكتفى بأن اتخذ منها ملجأً للمسلمين من الاضطهاد ، وأبقاهم لعدة سنوات بعد إقامة الدولة الإسلامية في المدينة قاعدة احتياطية ووجه جهوده للامتداد بالإسلام نحو آسيا ، وبالذات نحو هذه المنطقة ذات القابلية الخاصة في حمل الرسالة إلى العالم .

إن ما يبداً مستغرباً من تركيز أحداث ظهور المهدي في هذه الساحة الجغرافية هو الطبيعي في المنطق الإسلامي، ومنطق التاريخ ، ومنطق الصراع الحضاري في عصرنا ، والذي يضطر للاعتراف به كل الباحثين في تاريخ الحضارة .

وليس جديداً أن نشير إلى أن الغربيين يدركون أهمية المنطقة مادياً واستراتيجياً وحضارياً ، ولذلك يعملون إبقاء سيطرتهم وقمع مقاومة أهلها بكل ما أوتوا من قوة ووسائل ، بحجة أنها منطقة المصالح الحيوية لبلدانهم .

وفي هذه الساحة الجغرافية نقرأ عن مدينة تمثل مركز الثقل ونقطة الهدف في أحداث الظهور ، هي القدس ، أو بيت المقدس ، أو إيلياء كما تسميها النصوص .

فمكة المكرمة وإن كانت مركز الانطلاقة لتحرك المهدي فإن القدس هي الهدف وهي الميزان الفصل في الصراع الحضاري الذي تصفه الأحاديث ، لأن الانتصار في معركتنا يعني الانتصار الشامل في كل العالم ، خاصة وأن عيسى عليه السلام ينزل في القدس – بعد أن يدخلها المهدي ويؤدي دوره الهام في حسم المعركة لصالح الإسلام .

فمستقبل العالم يتقرر في الانطلاق من المسجد الحرام والوصول إلى المسجد الأقصى ،

¹ الآية 3 – سورة التين - .

ولكن هذه الحركة - كما تدل النصوص لا تكون ابتدائية ، وإنما تأتي تنويجا لحركة الأمة باتجاه القدس ، فالأمة الممزقة المغلوبة على أمرها تتحرك بالإسلام من جديد ، فهي في بلاد الشام وفلسطين تتحرك لرفض الخضوع ، وفي إيران تحطم قيودها وتتجه نحو القدس مُصيرة على إزالة العقبات التي تعترض طريقها ، وفي اليمن يظهر قائد مسلم يتوجه نحو القدس . وفي المقابل فإن حركة أعداء ، الأمة تكون كذلك باتجاه القدس ، فالروم واليهود ينزلون فلسطين ، وتأتي قواتهم ، " تحت ثمانين راية" في شواطئ عكا وصور وأنطاكية .

والحركة الوحيدة الناشئة عن الاتجاه إلى نقطة الهدف ، هي حركة السفيناني التي هي الواقع حركة اعتراضية لزحف الأمة تتجه من بلاد الشام نحو العراق وإيران ، لكنها سرعان ما تنتهي .

الوضع السياسي العالمي :

تصف الأحاديث الشريفة الوضع السياسي العالمي في عصر الظهور بفقدان الاستقرار وكثرة الاختلافات والحروب الجزئية التي تنتهي بحرب عالمية يقع أكثر دمارها على دول الغرب " وتشب في الحطب الجزل في غربي الأرض" وتكون عاملا مساعدا في انتصار حركة المهدي ودخوله إلى القدس ونزول المسيح عليه السلام .

"أبشركم بالمهدي يُبعث في أمتي على اختلاف من الناس وزلزال "، " ويومئذ يكون اختلاف كثير في الأرض وفتن " ، وتحدد النصوص سبب هذه الحرب بمشكلة بلاد الشام وفلسطين ، التي تبدأ في أولها صغيرة ثم تكبر وتتعدد وتعجز كل المحاولات عن حلها ، وتفشل كل المبادرات المطروحة لها ، وتشير بعض الأحاديث إلى أن هذه الحرب تكون بعد دخول جيش السفيناني وجيش الإيرانيين إلى العراق ، ونذكر أن خسائرها كبيرة جدا تبلغ في بعض الأحاديث الثلثين من سكان الأرض وأكثر وأما عبارة " يُقتل فيها ثلاثة آلاف ألف" الواردة في بعض الأحاديث فالظاهر أن المقصود بها الكناية عن الكثرة وليس التحديد بثلاثة ملايين ، لأن عامة الأحاديث الأخرى تذكر أن خسائرها أكثر من ذلك .

على ذكر حركة السفيناني نحاول عرض بعض الحركات تمثل علامات، سيكون لها فاعلية في النشاط المهدي :

العلامة الأولى/ حركة الخراساني* :

جاء التركيز في الأخبار على منطقة الشرق التي تعني إيران وما حولها يوم صدور الأخبار على أنه أرض البشارة والدعوة إلى الحق والمطالبة بحقوق المظلومين في نقاط العالم المختلفة.

فيخرج ذلك الخراساني من أقصى المشرق ، ويقوم بتجهيز الجيوش وتحريك العساكر ، ويجعل على مقدمته رجلا من بني تميم اسمه شعيب بن صالح منعوت بالشجاعة والحنكة ، فيسير بتلك الجيوش للسيطرة على جميع أرض إيران واسترجاعها من أنصار السفيناني وقلوب بني العباس ، ويكون أول مشروع له خارج إيران هو الانقضاض على حكومة العباسيين في بغداد وفي المرحلة الثانية مواجهة عساكر السفيناني في الكوفة وحدث المعارك الضارية التي تنتهي بانكسار جيش السفيناني واستخلاص الأسرى والمسجونين من أهل الكوفة من يده¹.

وهناك أخبار عديدة تذكر تحركات الخراساني وجيوشه الواسعة التي تشمل العراق والشام وحتى بيت المقدس في مجال التمهيد لحكومة الإمام المهدي .

أهل المشرق والرايات السود :

تكرر ذكر أهل المشرق في الأخبار التي تعكس تحركاتهم وحضورهم الفاعل في الساحة السياسية قبل ظهور المهدي ، وإن كان لتحقيق عدم إرادة طائفة معينة أو بلاد خاصة فهي في الغالب تعني أهل خراسان وإيران عامة ، وقد تعني أهل العراق أو من في العراق من القوات المجتمعة ، وحتى قد تعني أهل مشرق الأرض².

* الخراساني له أسماء متعددة ، وهي تحمل معنى رجل من آل البيت عليهم السلام ، ، وهي الخراساني والهاشمي والحسني والحسيني ، المهم معرفة فيما إذا كانت هذه الأسماء متعددة لرجل واحد ، أو هي أسماء لأشخاص متزامنين أو غير متزامنين ؟ يقال في بعض الروايات أن الخراساني هو الهاشمي والحسني لكنه ليس الحسيني ، وبعض الروايات الأخرى لم يمكن لها الفصل فيما إذا كان الخراساني من أصل الحسني أو الحسيني ، لكن من أهم صفاته ، أنه دال على الخير وانتسابه إلى بني هاشم ، وثاني صفاته : خروجه برايات سود ، وثالث صفاته المهمة : خروج شعيب بن صالح معه كقائد لقواته .

¹ تبريزيان عباس ، العد التنازلي في ظهور المهدي آخر أوصياء الرسول المصطفى ، دار الأثر ، بيروت ، ط1 ، 2004 ، ص 101.

² المرجع نفسه ، ص 107.

فمن الروايات التي يراد بها أهل خراسان أو إيران الحالية المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في حديث: "تجيء رايات سود من قبل المشرق كأن قلوبهم زبر الحديد، فمن سمع بهم فليأتهم ولو حبوا على الثلج"¹، فالرايات السود يكون لهم وجود كتلوي أو جبهوي أو كياني قبل ظهور المهدي، بل هم الأمة التي تظل ظاهرة بدينها، ممانعة بأمرها إلى يوم ظهور المهدي، فهم الموطؤون لظهور المهدي، يعملون بكتاب الله وسنة رسوله، لا يرضون به بديلا، يملكون من وسائل الحرب، ما يعزز وجودهم من جهة، ويحفظ حقوقهم، أو على الأقل ذلك الذي يتصل بإقامة حكم الله وطلب الحق².

ورواه ابن ماجة بنحو آخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونكم قتلا لم يقتله قوم"³، ومعلوم أن الرايات السود هي رايات الخراسانيين كما سيأتي، ويؤكد إرادة أهل خراسان رواية حذيفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال بعد ذكر دخول السفيناني الكوفة: "فعند ذلك تخرج راية من المشرق يقودها رجل من بني تميم يقال له شعيب بن صالح فيستتقذ ما في أيديهم من سبي الكوفة ويقتلهم"⁴.

وشعيب هو قائد جيش الخراساني على ما سيأتي تفصيله، دلت هذه الرواية على اشتباكه مع جيش السفيناني في العراق واستنقاذ سبي أهل الكوفة من يده، ومنه يُعلم أن المراد من أهل المشرق في رواية ابن حماد عن ابن مسعود قال في الحديث: "السفيناني بالعراق يقاتل أهل المشرق" هم الخراسانيون.

ومهما يكن من ذلك فإن صح هذا الحديث فمن العسير فهم المراد من أهل المشرق وهل

¹ تبريزيان عباس، العد التنزلي في ظهور المهدي آخر أوصياء الرسول المصطفى، ص 107
² الشيخ عنتريسي جعفر، ما قبل نهاية التاريخ ظهور المهدي المنتظر، دار الحجة البيضاء، بيروت، ط 1، 2003، ص 266، ص 267.
³ تبريزيان عباس، العد التنزلي في ظهور المهدي آخر أوصياء الرسول المصطفى، ص 107.
⁴ المرجع نفسه، ص 107.

هم أهل خراسان أو من عداهم ، أو هي حروب في أزمنة متفاوتة تكون الغلبة فيها لأهل المشرق مرة وللسفياي مرة أخرى .

لكن ما يهمنا في هذا المقام أن أصل الحركة الخراسانية هي حركة ثانية ترتبط بظهور المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد حركتهم الأولى التي انتهت بتأسيس دولة بني العباس الظلمة الذين ملأوا البلاد ظلماً وجوراً ، وإن كانت هي نهاية لحكومة الأمويين الجابرة ، فهذه الحركة الخراسانية الأخرى ستجابه الحركة الأموية الشامية بقيادة السفياي تنزع منه الملك لتسلمه إلى أهله من آل بيت الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم .

إذن الأساس من هذا هو أصل الخروج و التغلب على خراسان نفسها وإقامة دولة تحمل الفكرة المهديوية وتُكن العدا للحرمة الأموية ، وتتجهز شيئاً فشيئاً لخوض غمار الحروب الضارية، فحركة الخراساني وخروجه هي علامة على خروج المهدي المنتظر – كما ذكرت بعض الأخبار-¹

العلامة الثانية / حركة شعيب بن صالح* :

يعد خروج شعيب بن صالح العلامة الثانية على ظهور الإمام المهدي وليس هو ملكاً ولا ملكاً ولا رئيساً ، وإنما هو أحد القادة العسكريين الذين يقودون الجيوش ويخوضون المعارك ، وقد جاء التأكيد عليه من أجل انصباب تحركاته في مصب التمهيد والتوطئة لظهور الإمام المهدي قبل ظهوره ، وليكون بعد ظهوره أحد قواده ، بل وزيره في بعض الشؤون العسكرية والسياسية على ما يبدو² .

ينبع شعيب بن صالح من الطالقان أو طهران ، ويتزعرع وينشأ هناك ، ثم يخرج في

¹ تبريزيان عباس ، العد التنزالي في ظهور المهدي آخر أوصياء الرسول المصطفى ، ص 111 .
* هو شعيب بن صالح التميمي الذي يعي أنه من بني تميم الموالي ، رجل ربة أسمر الوجه أصفر كوسج ، خفيف اللحية ثيابه بيض وقلنسوته سوداء ، يمتاز بالشجاعة الفائقة والصبر والاستقامة في الحروب بحيث لو قاتل الجبال لهدأها واتخذ فيها سبلاً ، والروايات تزخر بالتعابير الممجدة به حتى تقرنه بجبرائيل وميكائيل . - سبق الإشارة إلى شعيب بن صالح عند جمهور السنة -
² المرجع نفسه ، ص 143 .

خراسان مرة مع الخراساني وفي طهران مع الحسنى من نحو الديلم ، يقاتل فلول العباسيين مرة ويشتبك مع جيوش السفىاني في حوالي الكوفة فينتصر عليها ويقتلهم ليستنقذ الأسرى من أيديهم تارة أخرى - كما سبق الذكر - ، حتى يلتقي جيش الحسنى وجيش الإمام المهدي فيسلمها الحسنى ويكون شعيب بن صالح قائدا للإمام المهدي ووزيرا له ، كما تشهد الأخبار بتواجهه في العراق والشام والحجاز سواء كان تواجدا عسكريا أو غيره في مجال التمهد للمنتظر ودولته ، ويستشعر منها دوره الفاعل في تحرير بيت المقدس ، وفتح فلسطين وغيرها ، وهناك قرائن حاكية عن اتصاله المسبق بالإمام قبل التقاء الجيشين ، أي اتصال شعيب بالمهدي قبل ظهوره - حسب الشيعة الإثني عشرية-¹ .

العلامة الثالثة / حركة اليماني *

تعتمد حركة المهدي على ظهور قطبين في البلاد الإسلامية واحد في إيران والآخر في اليمن .

فالخليفة اليماني يخرج من اليمن عندما يكون قائدها ورئيسها القحطاني الظالم قد خرج بالجيش إلى الشام في مهمة قتالية ، وواقعة تجتمع فيها الجيوش من مختلف البلدان الإسلامية ، لينتهد اليماني الفرصة ويتغلب على مقعد الحكم في اليمن ، حتى إذا رجع ذلك القحطاني الظالم نشب بينهما القتال ، فيتغلب اليماني ويقتل القحطاني ويستتب الأمر لليماني الخارج ، وهو من أبناء زيد بن علي واسمه حسين أو حسن أبيض الوجه أو السريرة يخرج في نفس السنة التي يخرج فيها الخراساني والسفاني وتكون رايته أهدى الرايات لأنه يوالي عليا ، ويهدي إلى الحق ، ويدعو إلى صاحب الأمر ، المهدي المنتظر .

¹ تبريزيان عباس ، العد التنازلي في ظهور المهدي آخر أوصياء الرسول المصطفى ، ص 144
* لم تتعرض الروايات للحديث عن صفات اليماني وأحواله كثيرا غير أنها أشارت إلى نقطتين أساسيتين ، الأولى موالاته أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه ، والنقطة الثانية التأكيد على راية اليماني هي أهدى الرايات ، ورد ذلك في الخبر الدال على تزامن خروج السفاني والخراساني واليماني .

مما يبدو أن خروجه يكون بعد حصول التغيير في اليمن التي يغلب فيها مذهب الزيدية، فيكون خروجه على أثر ميول أهلها إلى التشيع والأئمة من أهل البيت خصوصا الإمام المهدي ، ولا أقل من حصول الدعوة إلى الحق مهما كان من دون تعصب ، بخلاف الملحوظ عند أكثر سكان الحجاز .

ثم أن اليمني بعد سيطرته على اليمن يعبئ الجيوش ليكون له حضور في الشام والجزيرة من أجل الدفاع عن الإسلام والأمة الإسلامية مقابل الجيوش التي تبغي السيطرة عليها ومحو معالم الدين ، عندها يظهر السفيني ويقع بينهما القتال ، فيتراجع اليمني ، ويدخل السفيني الكوفة ، ثم المدينة ، يكون بينه وبين اليمني استباق عليها يسبق إليها السفيني¹ .

ولما يخسف بجيش السفيني يكون بين اليمني والخراساني سباق آخر ، ولكن لا لأجل القتال هذه المرة ، بل لأجل نصرة الحق والإمام المهدي ، يستبقان إلى الكوفة ، حيث تُقبل خيل اليمني والخراساني كأنها فرسي رهان، وهم شعث غير جرد يقول أحدهم : لا خير في مجلسنا بعد يومنا هذا ، اللهم فإننا التائبون ، عندها يكون اليمنيون والإيرانيون هم الأبدال الذين وصفهم الله في كتابه العزيز ، وخاطب العرب : (إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُم

عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا خَيْرَكُمُ)² .

العلامة الرابعة / حركة المرواني :

لعل المرواني هو رئيس إحدى دول الشام الأربع الذي يقاتلهم السفيني قبل توجهه نحو العراق ، في مجال بسط السيطرة على جميع دول الشام . والمستفاد من الأخبار أن المرواني المتحدث عنه رجل قوي وله أعوان من عشائر بني مروان ، بحيث يقاوم هجوم جيوش السفيني لمدة ثلاثة أشهر بعد التعب المفرط ،

¹ تبريزيان عباس ، العد التنازلي في ظهور المهدي آخر أوصياء الرسول المصطفى ، ص 166

² الآية 39 - سورة التوبة .

والإنهاك الذي أصابه في ملحمة قرقيسياء العظيمة التي له فيها السهم الأكبر ، غير أن السفيناني ينتصر عليه بالنتيجة ويقتلهم ، ثم يتبع بني مروان فيقتلهم ، ويُقبل بعدها على أهل المشرق والعباس ، كما يقتل ابن ذلك المر واني الذي يؤهل نفسه للقيام مقام أبيه بعد ما يقتل ، كي يصفو له الجو في الشام ، ولا يبقى له منازع .

لم تعط الأخبار تفصيلاً عن حركة المرواني ولا ماهيتها ولا حقيقتها ، غير أنها جعلتها من العلائم على ظهور القائم من بين الأحداث التي تحدث قبل قيامه من دون تعليل لذلك ولا بيان لوجه الأهمية بدقة¹ .

غاية ما بلغنا عن ذلك أمور نعرض لها بالتدرج :

أولها : خروجه قبل قيام القائم كما جاء في الخبر المعتبر الذي يرويه النعماني عن أبي الحسن الرضا أنه قال : " قبل هذا الأمر : السفيناني ، واليماني ، والمرواني ، وشعيب بن صالح ، وكف تقول : هذا هذا " بناء على أن المراد بهذا الأمر هو القائم كما هو منصرف إلى الذهن عند استعماله في أخبار العلائم أي من العلامات التي تسبق ظهور المهدي .

العلامة الخامسة/حركة السفيناني* (طاغوت اليوم الآخر) :

إن خروج السفيناني هو أهم العلائم على ظهور الإمام المهدي بحيث لا يقاس معه شيء من العلائم الأخرى ، ولعل العلائم الأخرى تكسب علائمتها منه ، فلا يكون الخارج من خراسان هو الخراساني إلا إذا قاتل السفيناني ، ولا يكون الخارج من اليمن هو اليماني إلا إذا قاتل السفيناني ، وكذا لا يكون الخسف في البيداء علامة على ظهور القائم إلا إذا كان هو الخسف بجيش السفيناني ، ولا تكون الصيحة والنداء هي العلامة

¹ تبريزيان عباس ، العد التنازلي في ظهور المهدي آخر أوصياء الرسول المصطفى ، ص 182 ، ص 183 .
* السفيناني هو عثمان بن عنبسة ، يرجع نسبه إلى أبي سفيان ، وقيل : هو من ولد يزيد بن معاوية ، وقيل من نسل عتبة بن سفيان ، والمسلم ان أمه من بني كلاب وهم العشائر المنتشرة في الشام ، وهو رجل ربيعة وحش الوجه ضخم الهامة وبوجهه أثر الجدري وفي عينيه خلل إذا رأته حسبته أعور ، فهو قبيح المنظر ، بشع الصورة رغم أنه أحمر أشقر أزرق العينين ، وما فائدة ذلك وخبثه يظهر على وجهه وفي جميع أفعاله .

إلا إذا أعقبها النداء باسم السفيناني ، وهكذا المرواني وشعيب بن صالح ، ولا يكون المبايع بين الركن والمقام هو القائم المهدي إذا لم يخرج قبله السفيناني ¹.

ولعلنا ندرك مدى أهمية خروج السفيناني والسر في التأكيد على خروجه في الأخبار ، بعد معرفة أن العلامة التي يتميز معها صدق المدعي للمهدوية وكذبه ، وبه نتحقق صدق الخارج باسم الخراساني والحسني واليماني وغيره .

المهم يكون في أرض الشام بعد ذلك ثلاث دول غير دولة السفيناني يعرف رئيس أحدها بالأبوع والثانية بالأصهب ، والثالثة بالمرواني ، فيتجه السفيناني إلى قتال الأبوع ، ويقع بينهما القتال ، فينتصر عليه السفيناني ويقتله ومن تبعه ، ثم يتوجه إلى الأصهب ، وينتصر عليه ويقتله وهكذا المرواني حتى يسيطر على جميع بلاد الشام ، المعبر عنها بكور الشام الخمس ، ويقوم بإخراج جميع القوات المجتمعة فيها كقوات اليمن وأهل المشرق والقوات الأجنبية ².

ثم لا يكون له أهمية بعد ذلك سوى التوجه نحو المشرق ، أي العراق حيث اجتمعت فيه قوات متعددة من الروم والترك بالإضافة إلى تواجد قوات مشرقية إيرانية أو غيرها يعطف عليها ويقع القتال بينهم ، فتراجع أمامه تلك القوات ، حتى تجتمع جميعها في قرقيسياء الواقعة عند ملتقى نهر الخابور والفرات ، التي تنشب فيها الحرب المعروفة بمعركة قرقيسياء ويكون السفيناني أحد المساهمين وأحد الأطراف المتنازعة فيها ³.

وقد تحدثت الأخبار عن حدوث حرب لم يكن مثلها منذ خلق الله تبارك وتعالى السماوات والأرض ، ولا يكون مثلها ما دامت السماوات والأرض ، فتكون مآدبة للطير تشبع منها سباع الأرض وطيور السماء من لحوم الجبارين ، إنها الملحمة الكبرى ، أو حرب "هرمجدون" ، التي سبق والحديث عنها سابقا ، -من وجهة سنية-

¹ الشيخ عتريسي جعفر ، ما قبل نهاية التاريخ ظهور المهدي المنتظر ، دار الحجة البيضاء ، بيروت ، ط1 ، 2003 ، ص 250

² المرجع نفسه ، ص 265 .

³ تبريزيان عباس ، العد التنازلي في ظهور المهدي آخر أوصياء الرسول المصطفى ، ص 191

فبيلي السفيناني في هذه الحرب بلاء عظيمًا ، وتظهر قوته وقسوته لجميع العالم ، يقوم فيها بقتل الترك والروم وجنود المشرق ، فيداخل الناس عنده الجزع والخرف ، ثم يرجع إلى دمشق وقد دان له الخلق ، واعترف به العالم¹ .

حتى أنه يرسل إلى رؤساء الدول الغربية ويطالبهم باسترجاع من هرب إلى بلادهم من العلويين وغيرهم فيحصل عندهم التردد في تسليمهم ثم يسلمونهم إليه فيأخذهم فيقتلهم . وتستحكم الروابط بينه وبين الدول الغربية ، خصوصا بعد ما يحاول الدخول إلى العراق وتتصدى له جنود المشرق والرايات السود الخراسانية ويقع القتل في قواته حتى يعجز أمام تلك القوات مما يضطره إلى الذهاب إلى الدول الغربية ويطلب منهم المساعدات والأسلحة ، وإذا به يرجع من تلك الدول وقد صار نصرانيا وفي عنقه الصليب ، ليكشف عن حقيقته وعمالته المسبقة² .

ثم يتجه نحو العراق ولا يعبر الفرات وهو كافر قد سلب الله الرحمة من قلبه فيأتي إلى مدن العراق واحدة فيخربها ويكثر فيها القتل حتى يدخل بغداد ، فكم من قتيل وقتيلة ومال منهب وفرج مستحل ، وقتل نساء حوامل ، فكان يبقر بطون الحوامل ولا يقدر أحد أن يغير ذلك ، وتضطرب الملائكة في السماء ، فيأمر الله عز وجل جبرائيل عليه السلام ، ليصيح على صور دمشق ، ألا قد جاءكم الغوث يا أمة محمد ، قد جاءكم الخلاص وهو المهدي عليه السلام³ .

إذن يدعى ذلك اليوم بيوم الخلاص،" فقالت أم شريك : فأين العرب يومئذ يا رسول الله ؟ قال : هم يومئذ قليل ، وجلهم ببيت المقدس ، إمامهم المهدي ، رجل صالح ، قالت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم ، إذا كثر الخبث " .
نلاحظ في هذا الخبر الشريف أن الأخبار كثيرا ما تذكر العرب بدلا من ذكر المسلمين،

¹ الشيخ عنريسي جعفر ، ما قبل نهاية التاريخ ظهور المهدي المنتظر ، ص 252

² المرجع نفسه ، ص 253.

³ سليمان كامل ، يوم الخلاص ، ص 280

لأنها تتكلم بلسان عصرنا الحاضر ، ولأن قائلها يعلمون اندراس الإسلام في آخر الزمان ، ويعرفون نشوء القومية العربية في مقابل العنصريات الأخرى ، مما يكون سببا في تخاذل المسلمين وضعفهم أمام الصهيونية العالمية وغيرها من غزاة الإسلام الشرقيين والغربيين .

جيش الخسف واشتهار أمر المهدي :

يرسل السفيناني جيشه العراقي من جهة الشام إلى مكة ليقاتل المهدي ويند أمره في أوله ، فيسير الجيش البنيس حتى إذا جاوز المدينة المنورة قاصدا مكة ، فإذا استوى بببباء المدينة **خسف** الله الأرض بهذا الجيش المغبون ، ولم يبق منه إلا رجل واحد يخبر الناس بهذا الخسف ، وهنا يشتهر أمر المهدي في الناس ويأتيه من كل حدب وصوب من استطاع لمبيعاته ونصرته ، فيجتمع له اثنا عشر ألف رجل أو خمسة عشر ألف رجل يقاتلون بين يديه (أكثرهم أصحاب الرايات السود) ويأتيه أيضا عصابب العراق وأبدال الشام ونجائب مصر وهذا ما ورد في الحديث السني الشريف : ذكر أبو داود عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، عن النبي قال : " ... يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هاربا إلى مكة ، فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره ، فيبايعونه بين الركن والمقام ، ويبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالببباء ، بين مكة والمدينة ، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام ، وعصابب أهل العراق ، فيبايعونه ، ثم ينشأ رجل من قريش ، أخواله من كلب فيبعث إليهم بعثا فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب ، والخبيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب فيقسم المال ، ويعمل في الناس بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ن ويلقي الإسلام بجرانه إلى الأرض ، فيلبث سبع سنين ، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون " ¹ .

¹ ابن كثير أبي الفداء اسماعيل ، النهاية في الفتن والملاحم ، ص 27 .

الواضح من هذا الحديث أن السفيناني لا يتعظ ولا يعتبر بآية خسف الجيش الذي أرسله، فيستعين بأحواله من قبيلة كلب ويرسل جيشاً آخر إلى المهدي فيهزمه المهدي هزيمة نكراء ، ويغنم غنائم كثيرة -كما هو موضح في الحديث الشريف- ، وينطلق بعدها مشروع الدولة العالمية فيما بعدها .

بالإضافة إلى هذه العلامات هناك أحداث تزامن ظهور المهدي إما قبله بقليل أو بعده بقليل ، وفيها اتفاق بين السنة والشيعية ، أولاً : انحسار الفرات : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً " ¹ ، وفي رواية مسلم " يحسر الفرات عن جبل من ذهب فيقتل عليه الناس فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون " ² ، فهذا الحدث يكون إبان ظهور المهدي ، كما قال ابن حجر : " ولعل هذا هو السر في إدخال البخاري للحديث في باب " خروج النار " ، وقال : " وقد أخرج ابن ماجة عن ثوبان رفعه قال : " يقتل عند كنزكم ثلاث كلهم ابن خليفة " فذكر الحديث - وفي إسناده مقال في المهدي فهذا إن كان المراد بالكنز فيه الكنز الذي في حديث الباب دل على أنه إنما يقع عند ظهور المهدي " ³ .

وسبحان الله بدأت الصحف تطالعنا عن ظهور بشائر لوجود الذهب في الفرات ، وكذلك نشوء خلافات بين تركيا والعراق بسبب المياه حيث تزداد المخاوف من قيام تركيا بأعمال من شأنها الإسراع بجفاف الفرات ، وقد بدأت فعلاً ببناء سدود على نهر الفرات فضلاً عن انتهاكها – منذ أسابيع في مايو 1997- لأراضي العراق فانتظر إنا منتظرون ، ولا يفوتنا أن ننبه على أن حبيبنا صلى الله عليه وسلم قد حذر من الاقتراب من هذا الكنز فضلاً عن الأخذ منه ، لما سيقع هنالك من فتنة ، ويترتب على

¹ رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنهم .

² جمال الدين محمد أمين ، القول المبين في الأشراف الصغرى ليوم الدين ، ص. 133

³ المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

الأخذ منه من اقتتال ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً"¹.

لكن ابن كثير يرى "أن المراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة يقتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء حتى يكون آخر الزمان فيخرج المهدي ويكون ظهوره من بلاد المشرق لا من سرداب سامراء كما تزعمه جهلة الرافضة من أنه موجود فيه الآن وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان فإن هذا النوع من الهذيان وقسط كثير من الخذلان وهوس شديد من الشيطان إذ لا دليل عليه ولا برهان لا من كتاب ولا من سنة ولا من معقول صحيح ولا استحسان"².

ثانيا : طلوع النجم ذو الذنب : ذكر صاحب (الإشاعة) أنه من العلامات القريبة جدا من ظهور المهدي طلوع نجم له ذنب يضيء

أحيانا أجد نفسي مضطرة إلى إحداث نوع من المقاربات بين الفكر السني والشيعي ، نظرا لما وجدته من تقارب فعلي وتشابه في بعض القضايا التي تخص المهدي المنتظر بغض النظر عن أصله أو وجوده ، المهم أن قضية المهدي مطروحة بشكل جدي وفعلي عند كلا الفريقين (السني والشيعي) ، وهنا تتضح تجليات فكرة المهديوية في الوعي كفكرة أو كمشروع مستقبلي بغض النظر عن التحضير النفسي والسلوكي لهذا الحدث العظيم ، إن كان سلبيا أو إيجابيا.

إذن مما لا شك فيه على الإطلاق أن كل علماء المسلمين متفقون على هوية مشتركة في المهدي ، فهو المهدي الموعود الذي اسمه على اسم رسول الله ، وهو من ولد فاطمة الزهراء ، وأنه لا ينقضي عمر الأرض أبدا قبل ظهور المهدي عليه السلام وأنه لو بقي ليلة واحدة لطول الله عمر هذه الأرض حتى يخرج المهدي ويقيم العدل فيها ، فالحديث عن العدل يؤول بنا إلى الحديث عن مشروعه العالمي .

¹ جمال الدين محمد أمين ، القول المبين في الأشراف الصغرى ليوم الدين ، ص 134 .

² بن كثير أبي الفداء اسماعيل ، النهاية في الفتن والملاحم ، ص 28 .

المبحث الثاني : مخطط الدولة العالمية وأهدافه

القسم الأول : الأهداف الرئيسية للمشروع

القسم الثاني: مهدي الإتيقا وفلسفة التربية

القسم الثالث : مهدي الفلسفة السياسية

القسم الرابع : مهدي الاقتصاد و العمران

الأهداف الرئيسية للمشروع :

تعودنا دائما إذا ما أردنا الحديث عن مشروع تأسيس دولة عالمية ، نرجع إلى تاريخ الفلسفة نتصفح كتب أفلاطون وأرسطو والفارابي وغيرهم ممن تحدثوا بامعان عن أسس الدولة المثالية ، فنسعد حينها بقراءتها ونغوص بعمق في تحليلها وتبيان نقاط ضعفها وقوتها معتقدين أن أي حديث عن مشروع دولة لا يمكن خروجه عن هذا الإطار ، أو بعبارة أصح لا يخرج عن هذه المعايير الفلسفية ، لكن التاريخ وقَّع على هذه المشاريع والواقع شهد ويشهد على طوبويتها وخيالها، فلا بأس أن نؤسس مشروع عالمي آخر يحمل هوية إسلامية، تمتزج فيه الفلسفة بالدين بالتاريخ بالسياسية بالاقتصاد بالجغرافية بالسيوسولوجيا والسيكولوجيا ، حتما سيكون مشروعا متميزا لا محالة لأنه ببساطة مشروع الآملين والراغبين في حياة أفضل ، ولا أقلّ الحالمين ، لأن الحلم بعيد عن الواقع لكن مشروع المهدي قريب من الواقع لأنه يظل مشروع رهن أيدينا بإمكاننا نحن تجسيده وإلا التحضير لتجسيده على الأقل .

مشروع فيه عنصر لم نجده في المشاريع السابقة إنه المُربي الإمام القائد الذي ينبغي أن تقدي به الشعوب حتى وإن كان غائبا أو غير موجود لأنه يجسد الرسالة المحمدية مستقبلا بشكل فعلي ،هاته الرسالة التي لا تزال موجودة بالقوة لا بالفعل ، فنحن من سيخرجها من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل ، عن طريق الاستعداد والتحضير النفسي والعقلي ومنه نحاول توضيح أسس هذه الدولة وأهدافها الرئيسية.

كانت حكومة الإسلام العالمية ، هدف أنبياء الله وأوصيائهم ، الهدف الذي لم يحققوه إلا فترات قصيرة ، وواجهوا في تلك الفترة القصيرة أنواع المؤامرات الخارجية ، والمقاومة الداخلية ، لكن قيام المهدي يكون في وقت تكون الأمة مستعدة لقبوله من الداخل ، وقد سُحق الأعداء من الخارج ، فيؤدي ذلك إلى قيام حكومة مبنية على

التوحيد ، والقضاء على الشرك والكفر ، والنفاق في جميع أنحاء العالم ، قال تعالى :
 (وقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كَلِمَةً لِلَّهِ)¹، وقال الإمام الباقر في تفسير هذه
 الآية : " لم يأت تأويل هذه الآية بعد ، لو قام قائمنا فإن من يدركه سيرى أن دين محمد
 صلى الله عليه وسلم ، سيأتي كما يأتي الليل ، لكن لا يبقى على الأرض شرك"² .
 بُشِّرَ الْعَالَمَ بِشُمُولِيَةِ دِينِ اللَّهِ فِي مَوَارِدٍ أُخْرَى مِنْ جَمَلَتِهَا الْآيَةُ الْآتِيَةُ الَّتِي ذَكَرْتُ فِي
 مَوَاقِعٍ ثَلَاثَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْمُهْدِيِّ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
 كُلِّهِ)³، وقد أرجع أئمة الشيعة الإثني عشرية ، تأويل هذه الآية إلى ظهور الإمام المهدي
 أيضا ن يبين الإمام الصادق سعة نداء الشهادتين في زمن الظهور بهذه العبارة - (لا إله
 إلا الله ، ومحمد رسول الله) - .

ويقول الإمام الباقر في رواية طويلة حول ظهور المهدي : " يقاتلون و الله حتى يُوحَد
 الله ولا يشرك به شيء ، ولولا ما يدركهم من السعادة لبلغوا " .
 الأمر الرائع في هذه الرواية هو أن السعادة والتوفيق الإلهي يمنع من بغيهم واعتدائهم ،
 فمن الآفات التي تصيب الثورات هو عودتها إلى الظلم والبغي بعد انتصار الثورة ،
 وأساس ذلك هو عدم تزكية الباطن ، إن عدم التزكية هذا يؤدي إلى أن يتحول الذين
 ثاروا على الظالمين السابقين بعد فترة من انتصارهم إلى ظالمين جدد ، وهكذا تتكرر
 الأحوال ، وكما في دعاء الإمام علي رضي الله عنه ، عند توجهه لحرب الصفين من
 عبرة ونصيحة : " اللهم إن أظهرتتنا على عدونا فجنبنا البغي* ، وسددنا للحق ، وإن
 أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة " .

عندما تستقر حكومة المهدي العالمية الإلهية ، يبدأ بإقامة الحدود الإلهية ، وهي أحكام

¹ الآية 39 - سورة الأنفال -

² كياتي كريم، صورة عن حكومة ولي الله الأعظم العالمية ، الإمام المهدي المحتوم ، ترجمة : حسن الهاشمي ، دار النبلاء ، بيروت ، ط1 ، 1994 ، ص 183 .

³ الآية 33 - سورة التوبة - ، الآية 28 - سورة الفتح - ، الآية 9 - سورة الصف - .

* جاء في كتاب قاموس القرآن حول معنى البغي ما يلي : " طلب مع تجاوز الحد " فالبغي حالة توجد عند انعدام التوحيد ، لأن التوحيد أكبر مانع من التجاوز على الحقوق بسبب ما حصلت عليه من قدرة .

أنزلها الله إلى الناس بواسطة الأنبياء لإقامة النظام الاجتماعي ، وجعل خير دنياهم وأخرتهم في تنفيذها ، لأنها تشكل الجانب العملي للدين ، طبعاً إن مجال (حدود الله) واسع جداً ، وتشمل ارتباط الإنسان بربه ونفسه والمجتمع والحكومة ، إن المجموعتين الأوليين لا تعطلان أبداً ، وعلى الإنسان أن يحفظ الحدود بينه وبين الله وبين نفسه لكن إقامة المجموعة الثالثة من الحدود (بالنسبة للمجتمع والحكومة وغيرها) تلزمها اليد وإيجاد القدوة والحكومة الإسلامية ، وعلى المسلمين أن يسعوا لإيادها وأن يُعدّوا الشروط لظهور حكومة الإسلام المطلقة ودولة المهدي ، هذه الأخيرة التي تسعى بدورها إلى تحقيق ما يلي :

1. تجديد الإسلام :

إن الأديان الإلهية بعد فترة معينة أصبحت ألعوبة بيد المفسرين الذين استخدموا الدين لخدمة الدنيا ، ولهذا كان استمرار إرسال الأنبياء متصلاً ليحفظوا خط الأنبياء السابقين صحيحاً يطهره من الانحرافات والخرافات¹.

وكلما كانت الأديان الإلهية تتكامل ، فإن التحريفات والخرافات تصبح أعقد معها ، لهذا فإن مسؤولية الإمام المهدي ، من هذه الجهة أصعب من مسؤوليات كل الأنبياء والأئمة السابقين ، لأنه يحمل مضافاً إلى ذلك مسؤولية التطهير وإزالة البدع من الإسلام ، ويمحو كل تحريف رسخ في أذهان الناس بوصفه حقيقة في زمن الغيبة ، ليعيد الناس ثانية إلى صراط الدين المستقيم ، وسبيل القرآن وعترة النبي ، وتبدأ " العترة " هذه المرة بتفسير القرآن دون أية تقية ، قال الإمام الباقر : " لو ظهر صاحب هذا الأمر فإنه يرى ما رأى رسول الله من الناس وأكثر " وذكر سبب هذا الأمر ، في روايات أخرى من جملتها رواية الإمام الصادق :² " جاء النبي إلى الناس وهم يعبدون الأصنام الحجرية والخشبية ، ولكن يخرجون ضد القائم ويؤولون كتاب الله ضده ، ويحاربونه

¹ كياني كريم، صورة عن حكومة ولي الله الأعظم العالمية ، ص 184.

² المرجع نفسه ، ص 185.

استنادا إلى آية التأويل ويتكرر التاريخ مرة أخرى ، هذه المرة بشكل أوسع ، وقبل هذا حارب الإمام علي من أول القرآن ضده ، وكانوا يستنتجون من القرآن أن عليا مشرك تجب محاربتة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، قد قال لعلي رضي الله عنه : " يا علي أنا أحارب على تنزيل القرآن ، وأنت تحارب على تأويله " أي أنا أحارب الذين ينكرون تنزيل القرآن من قبل الله ، وأنت تحارب الذين يحركون التأويل والتفسير عن موضعه الصحيح¹ .

كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يحارب في أحد وبدر وحنين ، وعلي رضي الله عنه في الصفين والجمل ، والنهران ، في وقت لم يمض على ظهور الإسلام نصف قرن فقط ، لكن المهدي عليه السلام يظهر في وقت مضى على ظهور الإسلام مئات السنين على الأقل ، وظهرت اثنتان وسبعون أمة في الإسلام ، وكلهم يستند إلى القرآن ، ولهذا تكررت هكذا عبارات في الروايات : " يصلح المهدي ما صنعه الرسول وخزبه التاريخ ، يعرض الإسلام بصورة جديدة للناس ، فقد شاع الباطل بين الناس حتى اعتبر الحق عليهم جديدا"² .

الشيعة الإثني عشرية يؤكدون أن مسألة تجديد القرآن لا تعني إطلاقا الإتيان بنص قرآني جديد ، بدليل أن دين المهدي هو الإسلام وأنه يسير على هدي القرآن وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم³ .

أما مسألة أن الإسلام يغدو في آخر الزمان ، غريبا سيعود غريبا فطوبى للغرباء ، فهذا يعني أن الإسلام بدأ غريبا ، فقد كان المؤمنون في السنوات الأولى للنبوّة غرباء في مجتمع يعج بالظلم والضياع ، وبقيت هذه الغربية حتى اتسعت دعوة الإسلام وارتفعت غربته ، وسيعود الإسلام غريبا حين يعود المجتمع نتيجة للتمحيص العام إلى الظلم والضياع مرة ثانية ، " فطوبى للغرباء " المؤمنين الذين يمثلون الحق والعدل على

¹ كياني كريم، صورة عن حكومة ولي الله الأعظم العالمية، ص 185.

² المرجع نفسه، ص 186

³ الصدر محمد ، تاريخ ما بعد الظهور ، دار التعارف للطبوعات ، بيروت ، [د.ط] ، 1992 ، ص 455 ، ص 456 .

مدى التاريخ وهم نخبة أو قلة ، يشبهون الغرباء الذي أشار إليهم ابن باجة في كتابه تدبير المتوحد ، هؤلاء الغرباء هم النواب الأختيار التي ستنبني على أيديهم دولة الحق القادمة – أنظر الفصل الأول (مبحث فلسفة الخلاص عند ابن باجة)-، ومنه ستبقى هذه الغربية إلى حين شروق شمس الهداية والعدل ، عند ظهور المهدي ، وسيقيم الغرباء بأنفسهم ويدعموه بسواعدهم ، ويستأنف المهدي عندئذ أمر جديد ودعاء جديدا ، كان قد تخلى عنه المجتمع منذ عهد بعيد ، نتيجة لانحرافه وفسقه¹ ، هنا سيلعب المهدي دور المُربي ، وهذه إحدى مخططاته الفلسفية في مجال التربية – وسأشرح ذلك بالتفصيل لاحقا .

يوضح العالم القرآني العظيم ، المرحوم " الشيخ مجتبي القرز ويني" هذا الأمر بقوله :
 " من البديهي أن العمل بقوانين الإسلام هو عين العدل ورفع الظلم والجور ، وكما شوهد بالعيان كلما قلّ العمل بقوانين الإسلام ازداد الظلم في العالم ، ويتضح من ذلك أن سيرة ذلك الإمام ستكون بنحو يظن الناس أنه جاء بدعوة جديدة وكتاب وحكم جديد فمثلا لو قيل اليوم : إنه يجب قطع يد سارق ، أو يجب إقامة الحدود الإلهية ، أو أنه حاكم أغنياء المسلمين كما فعل جده أمير المؤمنين عليه السلام ، وأخذ بحقوق البؤساء ونشر المساواة الحقيقية الإسلامية، ودافع عن الطبقات المحرومة وأقام عدالته الاجتماعية، لقال البعض: " إن هذا الأمر قانون جديد"².

ويبين الإمام أمير المؤمنين عودة الهداية إلى مسيرها الأصلي في زمن الإمام المهدي ، ويقول : " يعطف الهوى على الهدى ، إذا عطفوا الهدى على الهوى ، ويعطف الرأي على القرآن ، إذا عطفوا القرآن على الرأي "

يتحمل الإسلام كل هذه الضربات من جانب المتظاهرين بإتباعه ، لهذا قال الإمام الصادق : " وعندما يقوم قائمنا ، يدعو الناس إلى الإسلام مرة أخرى ، ويهدي إلى أمر

¹ الصدر محمد ، تاريخ ما بعد الظهور ، ص 456.

² كياتي كريم، صورة عن حكومة ولي الله الأعظم العالمية، ص 186 .

انقرض من الوجود ، وظلّ الناس عنه ، وسمّي المهدي ، لأنه يهدي إلى أمر ضال ، وسمي القائم لأنه يقوم بالحق"¹.

2. إتحاد الأمة :

كان اتحاد المجتمع البشري منذ أقدم هدف أنبياء الله والمصلحين ، بل هدف لزعماء الغرب قديما ، وحديثا تحت غطاء العولمة ، لكن هذه الوحدة لا تحصل إلا في ظل تنفيذ الأحكام الإلهية ، وطاعة النبي وأوصيائه بشكل عالمي ، وكانت موانع تقف في هذه السبيل منذ البداية ، وتعود بشكل كلي إلى ابتعاد الناس عن الله واقترابهم من الدنيا وإتباع الهوى ، لا تصل الأمة البشرية إلى الوحدة الحقيقية إلا أن تعمل بالتعاليم الإلهية كما حصل في بداية بعثه نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ، وسمّاها القرآن " نعمة إلهية " يقول تعالى : (وَاخْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)².

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، تبدّلت الوحدة إلى الفرقة ، بسبب طلب السلطة والمصلحة وترك وصايا النبي الكريم ، وفي ذلك الوقت خطبت فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، في مسجد المدينة الناس وقالت : " جعل الله نظاما للأمة وإمامتنا أمانا من الفرقة "³.

وقد تعجب الإمام علي رضي الله عنه من أخطاء واختلاف المجموعات المسلمة رغم نزول الحجج الإلهية المتصلة وبين سبب هذه الأخطاء المسببة للتفرقة بقوله : " لا

¹ كياني كريم، صورة عن حكومة ولي الله الأعظم العالمية ، ص 186 .

² الآية 103 – سورة آل عمران-

³ المرجع نفسه، ص187

يقتصون أثر نبي ولا يقتدون بعمل وصيِّ ، المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا ... كأن كل أمره منهم إمام نفسه " ¹ .

ألا يجب أن يسأل الإمام علي رضي الله عنه ، في تعجبه ذلك : " فأين تذهبون ؟ وأنى توفكون ؟ والأعلام قائمة ، والآيات واضحة ، والمنار منصوبة ، فأين يتاه بكم ؟ بل كيف تعمهون ؟ وبينكم عترة نبيكم ؟ ... " . وأما في زمن المهدي فتحصل الوحدة العالمية والإسلامية .

3. النمو العقلي :

خلق العقل منذ بدء الخلق بوصفه حجة باطنة ، وعونا للحجة الظاهرة ، قال الإمام موسى بن جعفر : " إن الله حجتين على الناس ، حجة ظاهرة ، وأخرى باطنة ، الحجة الظاهرة هم الأنبياء والرسل والأئمة ، والحجة الباطنة هي العقل " .

فلو استخدم العقل في مساره الصحيح ، فإنه يستفيد من ضياء النبوة والولاية بعون العلم ويهدي الإنسان لطريق عبادة الله وهو السبيل الحقيقي للخلة وهدفها السامي ، ولكن كلما ابتعد الإنسان عن الوحي اقترب عقله من الهوى أكثر ووقع في أسر عبودية الطاغوت ، لكن عقل البشر وفكرهم يصل إلى أقصى حد في عصر حكومة المهدي بنحو لم يصل إليه في عهد أي من الأنبياء والأوصياء ، قال الإمام الصادق : " العلم ،

سبع وعشرون حرفاً ، كل ما جاء به الأنبياء لحد اليوم ، هو حرفين فقط ، فعندما يظهر قائمنا ، يأتي بخمس وعشرين حرفاً المتبقية ويُظهرها للناس " ² .

تتسع العلوم كثيراً حتى يستغني المؤمن عن علم أخيه المؤمن ، وكل ذلك شعاع من نور الولاية الذي يضيء للناس في ذلك اليوم من دون ستارٍ وحجاب ، فالأفكار والعقول والعلوم المتطورة ، تبين الرقي الفكري للبشر في المجتمع النموذجي الإسلامي والإنساني .

4. إقامة العدل :

¹ كباتي كريم، صورة عن حكومة ولي الله الأعظم العالمية ص 187

² المرجع نفسه ، ص 188

العدالة أوضح خط في ثورة الإمام المهدي وأفضل دليل على ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه : " المهدي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً " ، ومنه يتضح مفهوم العدالة في بعد (العدالة الاجتماعية) فقط بسبب حكم الظلم في العالم لسنين طوال واتصال الناس بالمسائل الاجتماعية مباشرة ، في حين أن للعدل مفهوماً واسعاً لا يتضح معناه إلا في ساحة التوحيد .

وفسروا العدالة بأنها : " وضع الشيء في محله " ومن البديهي أن سعة هذا المعنى كبيرة بحيث تشمل مقابلة الحق والباطل طوال التاريخ ، و"القسط" هو قسم من هذه المقابلة في ساحة الحقوق الاجتماعية ، ولا يشمل القسط مجموعة ارتباط الإنسان بربه وبنفسه .

يقول مؤلف (مكيال المكارم) بشأن اختلاف مفهوم العدل والقسط ، بالاعتماد على الآيات والروايات : " إن ما ظهر لي من التحقيق في موارد استعمال (العدل والقسط) هو أن العدل أعم من القسط ، لأن القسط يفيد في مقام أداء الشهادة ، والقضاء ، وعدم غصب حقوق الآخرين ، وأمثالها ، في حين أن العدل ، إضافة إلى هذه الموارد يشمل أموراً أخرى ، وبعبارة أخرى ، يستخدم القسط للآخرين ، والعدل يستعمل في ارتباط الإنسان بنفسه وبالآخرين فالعدل هو موافقة الحق مطلقاً ، والقسط موافقة الحق بالنسبة إلى المخلوقات .

أما الجور ضد القسط ، والظلم ضد العدل ، وبالنظر لما قلنا ، فإن الظلم تجاوز على الحق مطلقاً ، والجور تجاوز عن الحق المرتبط بالآخرين.

على ها الأساس (فظلم النفس) ليس له معنى واسعاً إلا في المجتمع الإسلامي ، ويقول القرآن (ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) ¹ ، (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم

¹ الآية 229 - سورة البقرة -

نفسه)¹، وبهذا يبدأ الإنسان بالثورة على ظلم النفس أولاً ، ليتسنى له الثورة على ظلم الآخرين ، كما عاد قوم إبراهيم عليه السلام إلى أنفسهم عندما علموا ببطلان عملهم وعبادتهم للأصنام .

فالثورة على ظلم النفس هي التوبة ، أي عندما يتوب الإنسان عن ظلم النفس ، ولا يمكن للإنسان أن يُقيم العدالة بالمجتمع مالم يخرج من الظلم إلى العدل ، وإصلاح الآخرين مرحلة تقع بعد إصلاح النفس ، ومعها ، ولهذا لا يفرض الأنبياء القسط على الناس ، بل يحرضوهم ليقوموا أنفسهم بالقسط ، قال تعالى : (ولقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوموا بالناس بالقسط)².

العدالة من الوجهة الشيعية ، أمر تدريجي يجب على منتظري مجتمع الإمام المهدي أن يوجيدوه في أنفسهم ، قال الأئمة بشأن المنتظرين ، يجب عليهم أن يعملوا بالورع والأخلاق الحسنة في زمن الغيبة ، ليتسنى لهم حمل ثقل الانتظار ، لأن المنتظر يحسب كل لحظة هي ساعة الظهور ، وقلنا : إن وقت الظهور يرتبط بإرادة الله ، ولقد وردت العدالة الاجتماعية في زمن المهدي في بعض الموارد ، قال الإمام الصادق : " يا مفضل اعلم لو كانت الحكومة بأيدينا ، لم تكن فيها إلا سياسة الليل وسياسة النهار وأكل الأطعمة اليابسة ، وارتداء الملابس الخشنة كما كان أمير المؤمنين ، ولو كان غير هذا فإن جزاءه نار جهنم"³.

يقول العلامة المجلسي في توضيح هذا الحديث : سياسة الليل تعني سياسة وتدبير أمور الناس ، وحفظهم في الليل من الشر ، وتحملهم التعب والنصب للاهتمام بأمور الناس وتدبير معاشهم ومعادهم ، إضافة إلى العبادة البدنية ، وتعني سياسة النهار الدعوة إلى الحق والجهاد ، والسعي للأداء حوائج المؤمنين ، والسير في الأرض لهذا الهدف .

¹ الآية 1 - سورة الطلاق -

² الآية 25 - سورة الحديد -

³ كفاي كريم، صورة عن حكومة ولي الله الأعظم العالمية، ص191

5. الرفاهية والراحة :

في المجتمع الذي تنفَّذ فيه أحكام الله بعيدا عن مصالح الحكام والطواغيت ومنافعهم الشخصية ، ويكون الناس فيه مستعدين لقبول الحدود الإلهية وإقامتها ، تحكم العدالة في كل جوانب الحياة وتصل الراحة والرفاه فيه إلى أقصاها ، ويكون الأمن على أتمّه .

ورد في بعض المصادر الشيعية بعض الدلالات على الاستقرار والأمن : " في ضوء حكومة الإسلام " يأمن الذئب والبقرة والأسد والإنسان والثعبان والغنم وسيرضى أهل السماء و الأرض وطيور الهواء بخلافة المهدي " ¹ .

يحكم المهدي بين الناس كداود عليه السلام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وفي ذلك اليوم تُخرج الأرض كنوزها ، وتُظهر بركاتها ، وبسبب شمول الغنى بين المؤمنين لن تجد موردا للصدقة .

ليس الرفاهية والراحة والأمن هدفا نهائيا للحكومة الإسلامية ، بل من نتائجها ، النتيجة التي يجب أن تستخدم في الطريق النهائي ، أي عبادة الله ولذلك يقسم المال بالتساوي . هذه إذن أهم أهداف الحكومة العالمية التي يسعى المهدي إلى تحقيقها ، لكن من أجل تحقيق هذه الأهداف لا بد من مخطط فلسفي يسير على ضوئه المهدي ليتسنى له تحقيق أهدافه ، ولا شك أن هذا المخطط الفلسفي شاسع المجالات ، فحتما لديه فلسفة في التربية وفي السياسة وفي الاقتصاد وفي المجتمع الخ ، نحاول الآن عرض هذه الفلسفات المتعددة النطاقات .

المهدي الإتيقا و فلسفة التربية :

ينبغي في هذا المبحث أن ندرك أن البحث عن أسلوب وفلسفة المهدي التربوية ، سيكون بصفة إجمالية ، لأنه يتعذر الإطلاع بالتفصيل على مشروعه ، ويبقى هذا

¹ كياي كريم، صورة عن حكومة ولي الله الأعظم العالمية ، ص 191

التفصيل مؤجلا إلى عصر الظهور ، فلا بأس أن نستند إلى الأخبار الدالة على مشروعه كما تعودنا ذلك في الفصول السابقة .

وستحدث هنا عن جهتين : إحداهما : في الأساليب العامة المتخذة لتربية الأمة في عهد الظهور ، والأخرى في نتائج هذه التربية ، أو ما يمكن أن يصل إليه المستوى الثقافي والإيماني للأمة الإسلامية ، نتيجة للتربية المهدوية .

الجهة الأولى / في الأساليب العامة المتخذة لتربية الأمة في عصر المهدي :

ويكون في الإمكان أن ندرك تلك الأساليب لو استطعنا أن نحمل فكرة واضحة عن دواعي الانحراف وموجباته ، في المجتمع المنحرف فيما قبل الظهور ، وتتلخص تلك الدواعي - بشكل عام - فيما يلي :

أولا : التثقيف المنحرف الموجه من قبل الدولة للأجيال الصاعدة ، في المدارس ووسائل الإعلام بشكل عام¹ .

ثانيا : الضغط الموجه من قبل الدولة لإطاعة وتطبيق القوانين الوضعية المخالفة للعدل الإسلامي² .

ثالثا : الحاجة المالية عموما والتنافس المالي خاصة ، الذي يدعو الفرد إلى ارتكاب كل الأساليب في الحصول على المال ، سواء في الصناعة أو التجارة أو خدمة الدولة أو غيرها .

رابعا : التنافس الاجتماعي في توسيع السكن وتجميل الثياب وتحسين وجبات الطعام ، والحصول على الآلات الحديثة الموفرة للراحة والرافعة من شأن صاحبها نتيجة لهذا التنافس³ .

خامسا : الإغراء الجنسي ، على مختلف مستوياته وأشكاله .

وتتداخل هذه الأسباب وتتشعب، فيشعر الفرد المعاصر ، بكل وضوح ، بأن السير في

¹الصدر محمد ، تاريخ ما بعد الظهور ، ص 532

²المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

³المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

اتجاهها هو الأصلح له ، والذي يوفر له قسطا من الراحة والهناء ، ومن هنا يندفع تلقائيا إلى التكيف طبقا لمتطلباتها ، فيعطيها من جانبه المعنوي والخلقي ومن راحته وهناءة نفسه الشيء الكثير .

ومن هذا المنطلق يحدث التغيير ، إذ يشعر الفرد بالراحة والهناء ، بدون وجود أسباب الانحراف ليتوفر له فرصة الهداية ، والسير نحو العدل والحق .

وعليه نستطيع أن نتبين بوضوح الأسلوب الرئيسي الجديد لتربية الأمة ، ضمن النقاط التالية ، كل واحد بإزاء أحد الدواعي السابقة :

النقطة الأولى : إن التنقيف الخاص والعام موجهها نحو طاعة الله وعبادته الحقيقية ، في كل حقولها ومستوياتها ، والخلق الرفيع ، وذلك عن طريق كل السنة الدولة المهودية ، ابتداء بالتوجيهات العليا الصادرة من الإمام المهدي نفسه ، وانتهاء بأجهزة الإعلام كالإذاعة والتلفزيون والصحف ، وكذلك المناهج التربوية في المدارس والمعاهد العلمية في كل العالم .

إذن المهدي يسعى إلى تحقيق التكامل الإنساني الذي يقوم على قاعدة السعي باتجاه تجسيد الحقيقة الكلية والمثل الأعلى للإنسان ، فكلما اقترب أبناء البشر من هذه الحقيقة اكتملوا كيفاً ، إنها فعلا إتيقا أرسطية في ثوب مهدي ، لأن معنى الإتيقا يتمثل في السمو بالإنسان إلى أعلى مراتب الكمال ، "فالأفراد الذين يجسدون في وجودهم الخصوصيات النوعية للإنسان - يعني مثال آدم الذي نتصوره - يمثلون المصاديق العينية للإنسان الحقيقي وكل منهم "إمام" ، وحيث يقوم تكامل بني الإنسان على تلك القاعدة ، فلا يعني رشد الإنسان ونموه في الدين والأخلاق والتربية سوى الاقتداء بهؤلاء القدوة ، والتطلع لهم بوصفهم " الإنسان الحقيقي " أي " الاقتراب من الحقيقة الإنسانية"¹ .

النقطة الثانية : إن الضغط بدل أن يكون موجهها نحو تطبيق القانون المنحرف ، سيكون موجهها ضده ، وسيستأصل كل منحرف وفاشل في التمحيص الإلهي كما رأينا وسمعنا،

¹ علي شريعتي ، الأمة والإمامة ، ص 103 ، ص 104 .

وبذلك تنقطع الأرضية العامة لنمو الفساد انقطاعا كاملا ، ويطبق القانون الكامل تطبيقا كاملا .

إذا كان أفلاطون يستأصل من جمهوريته كل معاق أو مريض أو لقيط ، فإن المهدي يستأصل كل منحرف ما لم يحيد عن انحرافه ، حتى يقض على كل الأعشاب الضارة التي من شأنها أن تصيب الآخرين بالعدوى ، على حد تعبير الفارابي والذي كان يحبذ تسميتهم بالنوابت أي الأشواك الضارة.

لكن هناك من يرى أن سياسة الاستئصال والقتل والإبادة للظالمين التي يعتمدها الإمام المهدي ، أنها قسوة وإسراف في القتل ، ولكنها - حسب الشيخ علي كوراني - في الواقع عملية جراحية ضرورية لتطهير مجتمع المسلمين ومجتمعات العالم من الطغاة والظالمين ، وبدونها لا يمكن إنهاء الظلم من على وجه الأرض ، وإقامة العدل خالصا كاملا ، ولا القضاء على أسباب المؤامرات الجديدة التي سيقوم بها بقاياهم فيما لو استعمل الإمام معهم سياسة اللين والعمو فالظالمون في مجتمعات العالم كالغصون اليابسة من الشجرة ، بل كالغدة السرطانية ، لا بد من استئصالها من أجل نجاة المريض مهما كلف الأمر¹ .

إن فلسفة الاستئصال فلسفة لها جذور في التاريخ السياسي وفي كل المشاريع الفلسفية السياسية كمشروع أفلاطون والفارابي وابن باجة وغيرهم ممن خططوا لقيام دولة مثالية .

النقطة الثالثة : إن التنافس سوف يكون موجهها ومركزا نحو الخير والإصلاح طبقا للمفاهيم والقوانين العامة التي تصبح سائدة في ذلك العصر² .

هذه النقطة تذكرني بما قاله علي شريعتي في مسألة الخدمة والإصلاح ، بحيث يقول : " الخدمة تفكر في الإنسان وقوته وسعادته وراحته ، أما الإصلاح يفكر في تساميه

¹ علي كوراني العملي ، عصر الظهور - المهدي- ، دار الحجة البيضاء ، بيروت ، ط7 ، 2004 ، ص 258.
² الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور، ص353.

وتطوره وعظمته وحركته ، فالأولى تتعامل مع واقع الإنسان والثانية تتعامل مع حقيقته، الأولى تتناول الإنسان كما هو موجود والثانية تتناوله كما يجب أن يكون ¹ .

إذن مدلول الخدمة هو الإدارة أما مدلول الإصلاح هو التربية وهذا فعلا ما نحن بحاجة إليه ، لأن بإمكان الدولة أن توفر كل أساليب الراحة لكن إذا ما لم تقدم خدمات تتعلق بمصير الإنسان المعنوي وأقصد التربية التي تسمو به إلى مراتب الإنسان الحقيقي ، فإن الراحة التي وُفرت لهذا الإنسان ستصبح فراغا يفسح المجال لارتكاب المعاصي كالزنا والخمر وغيرها ، فنحن بحاجة إلى مُصلح إلى جانب الخادم ، وهذا هو الدور الذي سيجسده المهدي ، على الأقل من الوجهة النظرية .

النقطة الرابعة : إن الحاجة المالية ، وهي من أعظم أسس الجريمة في العالم اليوم ، سوف ترتفع تماما ، من توفير المهدي للمال وفره كبيرة جدا يرتفع به الدخل لكل أحد ، ارتفاعا كبيرا ، وتتوفر فرصة العمل لكل الأفراد توفرا حقيقيا بشكل متساوي ² - وهذا ما سنوضحه لاحقا .

فالمجتمع يصل في عصر المهدي إلى مجتمع الغنى وعدم الحاجة ، ثم إلى مجتمع المحبة وعدم الاختلاف وعدم الحاجة إلى المحاكم ، أي لا يصبح الناس بحاجة إلى قضاة ، لأن كثرة القضاة دلالة واضحة على كثرة الخصومات -على حد تعبير ابن باجة -، فالدولة المثالية لا خصومات فيها لأن المحبة هي الرابط الاجتماعي المتين ، وكأن مشروع ابن باجة سيجد صده في مشروع دولة المهدي العالمية ، وحديثنا عن الرابط الاجتماعي من أهم الأمور التي سيعاد النظر إليها في سياسة المهدي التربوية ، هاته العلاقات السوسيو مترية التي أصبحت اليوم في قمة تفككها ، فلا صلاح في مجتمع علاقات أفراد ممزقة .

النقطة الخامسة : إن الإغراء الجنسي المنحرف ، ينعدم بالمرّة ، بعد تطبيق الأحكام الإسلامية في تنظيم العلاقة بين الجنسين ، إذ بعد بناء النفوس والأفكار بناء صالحا عن

¹ علي شرعتي ، العودة إلى الذات ، ص 148 ، ص 149 .
² الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور، ص.533

طريق التنقيف العام والخاص ، سوف تتمثل هذه العلاقة على أرفع صورها وأعدل وأنبل أشكالها ، وكأن مشروع المهدي لا ينبغ أن يخلوا من تربية جنسية ، لأنها تمثل الأساس في صلاح الأفراد¹ .

هذا هو إذن مهدي التربية ، فمع اجتماع هذه النقاط ، سوف يصدر الفرد عن قناعة وإخلاص ، إلى ضرورة إقامته للخير والسلوك العادل ومواكبة الأطروحة العادلة الكاملة ، التي يدعو إليها المهدي ويطبّقها .

وسيشعر الفرد بوضوح ، أن سلوك الشرير على خلاف مصلحته الخاصة والعامّة ، على طول الخط ، فضلا عن كونه خروجاً عن الخط العبادي لله عز وجل ، ومستوجبا للعقاب في الدنيا والآخرة ، والآن سنناقش في الجهة الثانية النتائج الكبرى للتربية الإسلامية في دولة المهدي .

الجهة الثانية / نتائج التربية الإسلامية في دولة المهدي ، وما يمكن أن يصل إليه المستوى الثقافي والإيماني في المجتمع ، بشكل عام .

ونحن تارة نحاول أن نتناول ذلك من زاوية القواعد العامة التي عرفناها ، أعني من حيث الارتباط بالتخطيط الإلهي العام للبشرية ، وأخرى من حيث الاعتماد على الأخبار الواردة بهذا الصدد ، مما يمكن جعله منطلقاً إلى معرفة خصائص المستوى الثقافي والإيماني للناس ، في عصر المهدي² .

أما إذا نظرنا من زاوية التخطيط الإلهي العام ، فمن المكرر أن نؤكد على أن النتيجة الأولى التي تحدثت باستتاب الحكم للمهدي في العالم ، هو تطبيق ما سميناه بـ"

الأطروحة العادلة الكاملة " من الناحية القانونية وأن النتيجة الكبرى والنهائية التي تحدثت نتيجة للخط التربوي الطويل الذي يتخذه الإمام المهدي في دولته ، هو الهدف الإلهي نفسه من خلق البشرية ، ذلك الهدف الذي أعرب عنه قوله تعالى (وما خلقتم الجن

¹الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور، ص533 .

²المصدر نفسه ، ص 544.

والإنس إلا ليعبدون¹ ، وهو وجود المجتمع العادل في أفراده والمعصوم في رأيه العام ، بل المجتمع المعصوم في أفراده أيضا ، في نهاية المطاف .

وأما إذا نظرنا من زاوية الأخبار الواردة في هذا الصدد ، فنجد أمثلة متفرقة تعطينا صورة كافية عن السلوك الصالح والمستوى الثقافي والإيماني ، الذي يصله الأفراد بعد استتاب دولة المهدي .

فمن ناحية الأخوة في الهدف المشترك ، والتصافي بين أفراد المجتمع ، تسمع الأخبار التالية :

فمن ذلك : ما أخرجه السيوطي في الحاوي عن نعيم بن حماد وأبو نعيم من طريق مكحول عن علي قال : قلت : يا رسول الله ، أمانا آل محمد المهدي أم من غيرنا ؟ فقال : لا بل منا ، يختم الله به الدين كما فتح بنا ، وبنا يؤلف الله قلوبهم بعد عداوة الفتنة كما ألف بين قلوبهم بعد عداوة الفتنة إخوانا في دينهم ، أقول : وهذا حديث مشهور أورده الكثير من مصادر الفريقين .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لتذهبن الشحاء والتباغض"² .

وهذه الصورة كافية لنستشف من خلالها حياة الأخوة التي يبذرها الإمام القائد في مجتمعه العادل الذي صدرت فيه .

ومن هنا تنتج التربية نتيجتها الطبيعية المطلوبة ، وهي اجتماع العقول ، وتكامل

الأحلام ، والمراد من اجتماع العقول ، الجانب العلمي أو الثقافي من حياة الإنسان والمراد من اجتماعها تسالمها على مفهوم عقائدي واحد وعلى أطروحة تشريعية واحدة، بحيث يكون من الصعب أن نتصور وقوع الخلاف بين شخصين مندمجين في الأيديولوجية العامة للدولة المهدي العالمية ، وخاصة إذا أصبحت الأمة والبشرية بدرجة

¹ الآية 56 - سورة الذاريات -

² الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور، ص535

من الكمال بحيث يصبح الرأي العام فيها (معصوما) ويكون تحصل الاجتماع والاتفاق على الأمور سهلا إلى حد كبير¹ .

والمراد من تكامل الأحلام : ارتفاع مستوى الأناة والرشد ، وهو الجانب العاطفي والنفسي للإنسان ، ذلك الجانب الذي يمثل بأول درجاته مستوى العدالة الفردية في الإسلام ، ويمثل في درجاته العليا مستوى العصمة التي سوف يصل إليها المجتمع بعد، وهذه النتيجة بجانبها العلمي والعاطفي ، هي التي تمثل الوعي العالي الذي يُوجده المهدي في دولته ومجتمعه ، ذلك الوعي الذي قلنا أنه لا يمكن أن يدرك الفرد كنهه إلاّ المفكر المعاصر لعهد الظهور ، وإنما ندركه الآن بعناوينه العامة ليس غير .

ومن هنا يتضح أن وضع اليد على رؤوس العباد ، لا يراد به المعنى الحقيقي ، ولا الرحمة ولا الاستيلاء بمعنى الملك والسلطنة ، فإن كل ذلك بمجرد لا ينتج تكامل الأحلام ولا اجتماع العقول ، كما هو واضح ، وإنما الذي ينتج ذلك هو التربية والإعلاء للعقول والأفكار والعواطف² .

النجاح الرباني الذي سيحققه المهدي ليس على مستوى التربية فحسب بل على مستويات أخرى كالاقتصاد والعمران والسياسة -سندرس كل مجال على حدا- .

المهدي الفلسفة السياسية :

المهدي بصفته إماما ورئيسا للدولة العالمية العادلة ، لا بد له من منهج سياسي وصفات خاصة ، يتميز بها وتؤهلها لأن يكون قادرا على تسيير هذا العالم ، نبدأ بما صرحت به بعض الأخبار ، من أن لباسه الغليظ الخشن ، وطعامه الشعير ، هذا هو المسلك الصحيح

¹الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور، ص537

²المصدر نفسه ، ص 538

لرئيس الدولة الإسلامية العالمية على طول الخط ، فإنه قد أخذ الله تعالى على كل إمام عادل يتولى الحكم الفعلي في المجتمع أن يعيش في طعامه ولباسه على شكل أو أسلوب أقل أفراد شعبه ، والحكمة من ذلك ، أوضح من أن تخفى ، وهو أن لا يدعوه المنصب الكبير والمال الوفير إلى تناسي الفقراء والمعوزين من أبناء شعبه وحكومته ، إنه الزهد الذي ينبغي أن يتحلى به كل حاكم عادل ، وتعد هذه الصفة إحدى الصفات الجوهرية التي يتصف بها المهدي اقتداءا بسيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين من بعده¹.

ففيما يعود إلى الناحية الشخصية يشترط عليهم ، " لا يتمنطقوا بالذهب ولا يلبسوا الخبز والحريير ولا يلبسوا النعال الصرارة ، ولا يلبسوا الخشن من ثياب ، ويوسدون التراب على الخدود ويأكلون الشعير ويرضون بالقليل² .

وحيث لا يكون ذلك واجبا على كل المسلمين نعرف أن الإمام المهدي إنما يشترط ذلك عليهم باعتبارهم سيصبحون بعد فترة غير طويلة ريثما فتح العالم واستتاب الدولة العادلة، حكاما على أقاليم الأرض أو مشاركين في الحكومة المركزية معه . هذا المضمون من الوضوح في القواعد الإسلامية العامة بحيث لا يحتاج إلى خير خاص يعرب عنه .

وأما الخبر الوارد بهذا الصدد ، والذي سمعناه يقول : ما لباسه إلا الغليظ ، وما طعامه إلا الشعير الخشب ، فهو بالرغم من مطابقته لهذه القواعد ، يواجه سؤاليين لا بد مع محاولة عرضها مع محاولة الجواب عنها .

السؤال الأول : أن ما تقتضيه القواعد العامة هو أن يعيش الرئيس في حياته الخاصة كأقل فرد من محكوميه ، وبعد أن نعرف طبقا للروايات عموم الرفاه وكثرة المال في دولة المهدي العالمية ، نعرف نتيجة لذلك أن الواجب عليه سيتغير ، لأن أقل الأفراد في

¹الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور، ص.547

²المصدر نفسه ، ص 548

العالم سيعيش مرفها عالي الدخل ، فيكون للإمام أن يتوسع في حياته الخاصة إلى حد كبير وكذلك أصحابه الخاصون تماما¹ .

وجواب ذلك من عدّة وجوه ، نذكر منها اثنين :

الوجه الأول : أن الرواية لم تدل على بقاء هذا المسلك للمهدي ، طيلة أيام حكمه ، بل يكفي في صدقها كونه على ذلك فترة من الزمن في أول حكمه ، لأن العدل إنما يؤثر تدريجيا في نشر الرفاهية في الأرض والسعادة بين أبناء البشر أجمعين ، وما لم يعم الرفاه كل العالم بشكل حقيقي كامل ، يبقى الفرد البائس موجودا في بعض زوايا العالم بطبيعة الحال ، ومادام هذا الفرد موجودا ، يبقى المسلك المشار إليه واجبا على الإمام المهدي .

الوجه الثاني : أننا نحتمل - على أقل تقدير - أن تدريجية تأثير العدل في نشر الرفاه في العالم بكامله ، سوف تستمر طيلة حياة المهدي شخصيا وإنما سيحقق هذا الهدف الكبير بعده طبقا لنظامه الذي يسنه المهدي للحكام العالمين الذين يخلفونه .

ومن الصحيح أن الأعم الأغلب من مناطق العالم ستكون مرفهة ، ومن هنا يكتسب العالم كله سمة الرفاه والسعادة ، في حياة المهدي ، غير أنه من الممكن وجود الفرد البائس في مناطق نائية أو متخلفة حضاريا من العالم ، الأمر الذي يحتم عليه بقاؤه على هذا المسلك طيلة حياته ، وإنما تستطيع الدولة العالمية العادلة اجتثاث ذلك ، على أيدي خلفائه² .

السؤال الثاني : أن الرواية تقول : " ما تستعجلون بخروج القائم ، فوالله ما لباسه إلاّ

الغليظ وما طعامه إلاّ الشعير الخشب " ، مع أن هذا المسلك الحياتي الذي يتخذه ، لا ينافي استعجال ظهوره لأمرين :

¹الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور، ص549.

²المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

أحدهما : أن الفرد المؤمن يتمنى ظهور الإمام المهدي لأجل المصلحة العامة ، وهي تطبيق العدل في العالم كله وتنفيذ الهدف الرئيسي من خلق البشرية ... حتى وإن أوجب ذلك اتخاذ الفرد مسلك الزهد والنقشف ، أو أوجب الإجهاز على مصالحه الشخصية¹.

ثانيهما : أن الفرد لو كان يتمنى ظهور الإمام من أجل مصالحه الشخصية لرفع ظلماته وترفيه عيشه ، فهذا متوفر له أي حال ، لما عرفناه من أن هذا المسلك خاص غير عام، وسيكون الفرد الاعتيادي مرفها سعيدا طيلة حياة المهدي ، وما بعده ، ولن يكون هذا الفرد مسؤولا عن اتخاذ ذلك المسلك لأنه لا يكون ممارسا للحكم في أي منطقة من الأرض .

ومعه يكون مؤدى الاستفهام الاستنكاري حين يقول : ما تستعجلون بخروج القائم ؟ غامضا مجهول القصد .

وجواب ذلك أن الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام كان يخاطب قواعده الشعبية بهذا الكلام ، تلك المجموعات التي كانت تعاني من الظلم الأموي والعباسي أشد العذاب وكان الفرد منهم ينتظر خروج القائم ، من أجل رفع الظلمات وتطبيق العدل ، ومن ثم أجل حصوله على السعادة والرفاه ، وهذه المجموعة تنقسم إلى قسمين رئيسيين :

القسم الأول : خاصة الإمام الصادق وطلابه المرتفعوا الدرجة في العلم والإيمان .

القسم الثاني : الشعب الاعتيادي الموالي للأئمة المعصومين ، والفرد من كلا القسمين يتمنى ظهور القائم المهدي بسرعة ، وخطاب الإمام الصادق واستنكاره لذلك يمكن أن يشملهما معا ، فيكون لكل قسم فكرته الخاصة في الجواب².

أما القسم الأول فمن الواضح أنه لو حصل التمني وظهر المهدي يومئذ بغض النظر عن شرائط الظهور وعلاماته التي كان يجهلها الفرد منهم - ، فإن المهدي سوف يخص أفراد هذا القسم بالاهتمام ، ولن يجد غيرهم في التوزيع على مناطق العالم حكاما وقضاة ، وإذا

¹الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور،ص.550

²المصدر نفسه ، 551.

أصبحوا حاكمين كانوا مشمولين لوجوب مسلك التقشف كما قلنا ، ومن ثم لم يحصل السبب المهم في التمني لسرعة الظهور وهو حصول على الحياة المرفهة السعيدة ، فكان الاستفهام الاستنكاري عليهم من قبل الإمام الصادق في محله جدا ، لانطلاق جملة منهم من زاوية المصلحة الخاصة في هذا التمني ، كما يعرفه الإمام الصادق نفسه من أصحابه¹ .

وأما القسم الثاني من الأفراد ، فإن الفرد الاعتيادي يومئذ باعتبار بساطته في الإيمان والعلم نسبيا ، وعدم مروره بعصور التمحيص الطويلة ، التي تصرمت بعد ذلك ، يتخيل نفسه كامل الإيمان عميق الفهم ، ويتوقع من المهدي – لو ظهر يومئذ – أن يقربه ويمجد به ، ومن هنا نعود إلى نفس التسلسل الفكري الذي للقسم الأول .

إن هذا الفرد الاعتيادي ، لو حصل ما يتمنى وظهر المهدي ، فإن أبعد عنه واعتبره فردا اعتياديا من شعبه ، فسوف يحصل على الرفاه إلا أن توقعه القرب من إليه واعتبره من خاصيته ، فقد حصل توقعه من إمامه ، إلا أنه سيرسل هذا الفرد حاكما في بعض أقاليم العالم ، على أحسن تقدير ، ومعه يكون مشمولاً لوجوب الزهد والتقشف ولن يحصل على مصلحته الخاصة بحال ، ومعه يكون الاستفهام الاستنكاري من قبل الإمام الصادق عليه السلام في محله تماما² .

والغرض الرئيسي من هذا الاستفهام سيكون هو أن تمنى الظهور لا ينبغي أن يكون من زوايا المصلحة الخاصة أساسا ، وإنما يجب أن ينطلق من زاوية المصلحة العامة ، التي هي تطبيق العدل وتنفيذ الغرض الإلهي ، وإلا كان من المتوقع تخلف هذه المصلحة الخاصة أساسا .

مهدي الاقتصاد والعمران :

1. السياسة المالية للدولة المهديوية :

ينعم الناس في زمان المهدي برخاء اقتصادي لا مثيل له ، وهذا ما أكدته الأخبار والروايات والأحاديث وهذا ما أخرجه البخاري بسنده عن أبي موسى عن النبي صلى الله

¹ السيد الأبطحي حسن ، المُصلح الغيبي والحكومة العالمية الواحدة ، ترجمة : السيد هادي السليمان ، مؤسسة البلاغ ، بيروت ، ط2 ، 2003 ، ص 122 .

² الصدر محمد ، تاريخ ما بعد الظهور ، ص 551 .

عليه وسلم قال: "ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب ، ثم لا يجد أحدا يأخذها"¹ ، وما أخرجه أيضا عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة - وعد علامات كثيرة حتى قال : - وحتى يكثُر فيكم المال فيفيض ، حتى يهَم رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه : لا أرب لي به "².

هذه الأحاديث تنبأ بالرخاء الاقتصادي في زمان المهدي ، وعلى نفسية الإمام المهدي السخية ، المحبة للناس ، فحديث يحثو المال حثوا أو حثيا ولا يعده عدا ، مشهور في مصادر الفريقين (سنية وشيعية) ، فهذا الرخاء المشار إليه من شأنه حل مشكلة الصراع المادي القائمة بين الناس والشعوب والأمم .

فتنعم أمة المهدي نعمة لم ينعموا مثلها قط ، تُرسل السماء عليهم مدرارا ، ولا تدع الأرض شيئا من النبات إلا أخرجته .

كما تذكر أحاديث المهدي عددا من الأمور غير المألوفة للأجيال السابقة ولجيلنا المعاصر ، في وسائل الاتصال التي تكون في عصره ، ووسائل الرؤية والمعرفة ، ووسائل الحرب ، وأساليب الاقتصاد ، والحكم والقضاء وغيرها³ .

ويظهر أن بعضها يكون كرامات ومعجزات يُجريها الله على يديه ، ولكن كثيرا منها تطوير للعلوم الطبيعية واستثمار لقوانين الله تعالى ونعمه ، التي أودعها فيما حولنا من

مواد الأرض والسماء، وتدل أحاديث متعددة وتشير إلى أن المهدي يطور العلوم - كما ذكرت ذلك في أهداف الدولة العالمية - .

هذا الرخاء الاقتصادي يواجهنا في الأفكار المستفيضة من الفريقين (السنة والشيعية) وهو ما نصت عليه من وفرة المال وكثرته بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ وأن

¹الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور، ص543
² الشيخ محمد المهدي الحاج ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة-، دار الحجّة البيضاء ، بيروت ، ط2 ، 2003 ، ج3، ص 224
³علي كوراني العاملي ، عصر الظهور - المهدي-، ص 263 ، ص 264 .

الأفراد كلهم يكونون من الغنى المالي ، بحيث قد يكون للرجل زكاة أو صدقة ، فيبحث عن فقير لكي يعطيها ، فلا يجد فيعرضها على الناس فيرفضون أخذها استغناء¹ . وإن الإمام المهدي يعرض الأموال أمام الناس ويعلن التوزيع المجاني ، لكي يحمل كل فرد منهم ما يستطيع حمله ، إلا أن الناس لا يرغبون به ولا يأخذون منه شيئاً ، غير واحد يأتي ويأخذ ثم يندم لأنه أصبح الطامع الوحيد بالمال ، ثم يحاول إرجاعه فيرفض طلبه² . وكلا هاتين الصورتين المعروضتين في الأخبار ، صريحتان في شمول الغنى المالي الواسع لكل الناس في المجتمع ، وأن المال والذهب والفضة والأحجار الكريمة قد سقطت عن الرغبة الاجتماعية ، باعتبار توفرها كالماء والتراب . هذا، ولكن هذه الأخبار تواجه بعض الأسئلة يحسن عرضها ومحاولة الجواب عليها ، وسنذكر كل سؤال في ناحية مستقلة :

الناحية الأولى : ما سبب تكديس المال وكثرته في الدولة المهدوية ، سواء على مستوى الدولة أو الأفراد ، وللجواب على ذلك عدة أطروحات محتملة لا بد من عرضها وتمحيصها .

الأطروحة الأولى : توفر المال عن طريق المعجزة ، بركة الإمام المهدي ودعائه ولكن هذه الأطروحة لا تتم لعدة اعتراضات ، نذكر منها اثنتين :

أولاً : أنها خلاف قانون المعجزات ، من حيث أنه مهما أمكن وجود الشيء على

الطريقة الطبيعية لم يجر حمله على الوجود بسبب إعجازي ، وإمكان فهم تور المال بالطريق الطبيعي واضح ، بعد الاطلاع على الأطروحتين التاليتين¹ .

ثانياً : أن السياق العام لهذه الأخبار التي تذكر تكديس المال وكثرته ، يشير إلى عدالة النظام واستقامة الأمور إلى حد يتوفر المال بهذه الكثرة ، ومن الواضح أن افتراض توفر المال عن طريق المعجزة ينافي هذا السياق ، لإمكان وجود المعجزة - مع اقتضاء

¹ الشيخ محمد المهدي الحاج ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة-، ج3 ، ص 226

² المصدر نفسه ، ص 227

¹ الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور، ص 558

المصلحة- في أشد الأنظمة ظلما وفسادا ، وبتعبير آخر ، إن المال سوف يكون نتيجة للمعجزة لا للنظام العادل ، وهو خلاف ظاهر الأخبار ، ومعه فلا تكون هذه الأطروحة صحيحة² .

الأطروحة الثانية: إن المال يتوفر لدى الدولة عن طريق ما تقوم به في الزراعة والصناعة والتعدين وغيرها من استثمارات، تُوجب توفر المال للدولة والأفراد معا . وبهذه المشاريع يتوفر في الدولة العالمية المهدوية الاكتفاء الذاتي ، بل زيادة المنتجات على الحاجات من ناحية ، ويتوفر فيها زيادة على ذلك كمية من النقد ليس لها منفذ ومصدر للصرف معين ، فإن مصادر استهلاك المال – مهما تعددت- فهي تعود إلى الحاجة فحين تكون الحاجة منتفية في كل العالم والدولة واحدة والأمن مستتب والأخوة عامة بين البشر ، والحاجات الأولية والثانوية والتربوية كلها مستوفاة ، فيكون المال الزائد بلا مصدر معين للصرف³ .

نعم يمكن أن يذخر هذا المال إنقاذ أي منطقة من العالم ، قد تصبح محتاجة نتيجة لظروف طبيعية طارئة كالفيضانات أو الزلازل أو الوباء أو غيرها ، إلا أن نسبة حدوث ذلك سوف يكون أقل بكثير من نسبة تزايد وتوفر النقد – وهذه الأطروحة صحيحة لا مانع من القول بصحتها .

الأطروحة الثالثة : أن توفر المال يكون عن طريق السيطرة على البنوك الكبرى في العالم ، حيث يعتبر أكثر المال خزن فيها مغصوبا وحراما غير مشروع لمن سجلت باسمه ، من الناحية الإسلامية .

ومن ثم تقوم الدولة المهدوية بعدة خطوات في هذا الطريق ، أهمها تأسيس نظام مصرفي جديد قائم على الإيمان بحرمة الربح الربوي من ناحية ، وعلى عدم تقبل المال ما لم يحرز كونه مالا حلالا من الناحية الإسلامية لصاحبه ، من ناحية ثانية .

ثم تقوم الدولة بجرد البنوك التي كانت في عصر ما قبل الظهور ، وتصفية حساب الأموال المذخورة فيها ، فإن كانت الشرائط الجديدة متوفرة فيها بقيت مودعة في البنوك

²المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

³المصدر نفسه ، ص 559

لأهلها ، وإن كانت غير متوفرة أخرج المال من البنك وصادرتة الدولة ، باعتبار كونه مجهول المالك ، وهو يعود إلى الدولة الإسلامية في حكم الإسلام ، وإذا ثبت في مال أنه مسجل لغير مالكة الحقيقي أعيد إلى المالك¹ .

إلا أن الأموال التي تحصل عليها الدولة عن هذا الطريق كثيرة قد تربو على عشرات الملايين ، وإن كانت هناك كميات ضخمة أخرى تبقى مسجلة لأصحابها ، باعتبارها مستجمة للشرائط المطلوبة ، وهذه الأطروحة لا مانع من القول بصحتها .

والظاهر أن الدولة تحصل على الأموال عن كلا الطريقين المبينين في الأطروحتين الثانية والثالثة ، والمعتقد أن الأموال الفائضة نتيجة للأطروحة الثانية ستكون أكثر بكثير من الأموال التي تحصل عليها الدولة نتيجة للأطروحة الثالثة ، بالرغم من كثرتها في نفسها ، ومعه تكون العمدة في كثرة الأموال هو الأطروحة الثانية .

واضح مما سبق أن نظرية ماركس لها صدى في المشروع المهدي من جهتين ، الجهة الأولى: أن القوي اقتصاديا قوي سياسيا ، لذا كان مشروع المهدي العالمي كذلك، والجهة الثانية ، تخص التقسيم العادل للأموال وهذا ما كان يريه ماركس في

مشروعه الشيوعي ، والتقسيم العادل دلالة على التسيير الجيد الذي يحبذه بني البشر لذا يقل الطمع وتزيد القناعة مادام الإنسان مؤمن بالله ، ومُحب لغيره ، وهنا تظهر بوضوح النتائج التربوية التي غرسها الإمام في نفوس البشر ، فالقناعة والاعتدال في المطالب والحاجات من شأنها أن تذهب كل المفاصد ، وتُكثر الأموال .

أي أن الاستغناء يكون على نوعين : استغناء حقيقي : وهو ما سبق وأن تحدثنا عنه فيما يخص الأموال ، واستغناء نفسي ويحصل عند الناس بغنى أنفسهم ، فأغنى الغنى غنى النفس ، فكل شخص يرى نفسه غنياً عن الناس ، وتحصل له القناعة النفسية والاطمئنان

¹ الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور ، 559

بعدم الاحتياج ، وإن كان فعلا لا مال عنده ، بل محتاج كما يدل على ذلك بعض الأخبار المتقدمة ، بأن هناك أناس يحاولون ، ولا يقبلون من أحد زكاة الأموال مع احتياجهم¹

2. المهدي و السياسة الزراعية :

نستطيع أن نحيط علما ببعض نتائجها وأساليبها من الأخبار السابقة ، حيث نصت على أن الأرض تُؤتي أكلها لا تدخر منه شيئا ، وهو كناية عن أن إنبات الأرض للنبات سيكون إلى أكبر حد ممكن يتحملة وجه البسيطة " حتى تمشي المرأة بين العراق والشام لا تضع قدميها إلا على النبات ، ومن يخفى عليه حال هذه الصحراء التي تتوسط العراق والأردن والشام نجد أنها صحراء ضخمة وموحشة وجافة ، لكنها ستصبح يانعة بالأشجار والثمار في أقل مدة ممكنة² .

وما هذا إلا مثال واحد من العالم كله ، وإنما نصت عليه الأخبار ، باعتبار قربه إلى أذهان المجتمع السامع لهذه النصوص في عصر صدورها ، وليس ذلك باعتبار الانحصار ، فإذا دولة المهدي عالمية ، وجهوده وجهود المخلصين في دولته شاملة لكل العالم على حد سواء ، فمن الطبيعي أن نتصور أن هذه الصحراء ليست هي الصحراء الوحيدة التي ستصبح خضراء ، وإنما ستخضر كل الصحاري في العالم بما فيها الربع الخالي والصحراء الكبرى في شمال إفريقيا وغيرها¹ .

3. السياسة العمرانية في دولة المهدي :

نحن نرى نتائج هذه السياسة واضحة فيما سمعناه من الأخبار ، فبيوت الكوفة سوف تتصل بكرבלاء والحيرة ، ويكون الجميع بلدة واحدة ، وهي من السعة بحيث لو ركب شخص بغلة سفواء – أي سريع السير – من صبح يوم الجمعة قاصدا المسجد الذي تقام فيه صلاة الجمعة ظهرا لأجل حضور هذه الصلاة ، لم يدركها ، وإذا كان هذا الشخص قد توجه من أحد أطراف هذه المدينة ، فالمسجد على أي حال ، ليس في طرفها الآخر،

¹ محمد المهدي الحاج الشيخ ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة- ، ج3، ص225.

² المصدر نفسه ، ص 212، ص213.

¹ الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور، 552

بل في وسطها ، ومن هنا نعرف أن هذه المسافة التي يمشيها هذا الرجل ببغلتته السريعة، ليست إلاّ قسما من البلدة ، ولا يمثل أكثرها فضلا عن جميعها².

وهذه إشارة طريفة إلى مدى اتساع المدن على نحو لم تكون معروفة بأي حال في الزمن القديم، بل لعل مجرد تصورها كان فوق الخيال ، وأما الآن ، فهو يعتبر أمرا طبيعيا ، خاصة في العواصم الأخرى ، كيف والكوفة ستصبح عاصمة للعالم كله ، تحت راية الدولة المهدوية فمن الطبيعي أن تتسع بهذا المقدار .

ولعلنا نستطيع أن نفهم من هذا مقدار تركيز الدولة واهتمامه بال عمران في سائر البلدان وليس في العاصمة فقط ، فلئن كانت العاصمة بالتحديد الذي سمعناه ، يزيد طولها عن الثمانين كيلومترا ، فليكن غيرها مقاربا أو بمقدار نصفه مثلا ، حسب ظروف كل بلدة وموقعها الجغرافي وأهميتها الاجتماعية³.

وستنال المساجد اهتماما خاصا من قبل المهدي ، باعتبارها مراكز إسلامية رئيسة .
ومن جملة الأعمال العمرانية للمهدي في دولته - كما في الخبر- أنه يوسع الطريق

الأعظم ، والمراد به الطريق الرئيسي الذي يصل بين بلدين وليس في الخبر إشارة إلى طريق معين ، وإنما المراد أنه يقوم بتوسيع الطرقات المهمة التي تصل بين المدن عموما ، وإنما في عصرنا الحاضر لندرك أهمية هذا التوسيع وجسامة العمل المنتج له أكثر من أي وقت مضى¹.

نستخلص مما سبق أن مشروع الدولة المهدوية ، مشروع بلغ تطوره على كل المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية وغيرها من مجالات القضاء والعمران ، فهو مشروع يتجسد فيه كل أحلام البشرية لاسيما البشرية المحرومة والمضطهدة التي تستعجل حصول المجتمع المعصوم - على حد تعبير محمد الصدر - هذا المجتمع الذي ركز على أمرين هامين :

² المصدر نفسه، ص 553.

³ المصدر نفسه، ص 553 ، ص 554

¹ الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور ، ص 556 .

أولهما : الاستمرار في التكامل تدريجيا من جهة و التركيز على فلسفة التربية في الدولة باستمرار حسب حاجة كل عصر ، مما ينتج أن كل جيل أفضل من الجيل الذي سبقه ، وهكذا ، من جهة أخرى .

ثانيا : المشاركة الكونية المستمرة التي توجد بوضوح بمجرد وجود المجتمع المعصوم وتبدأ بالترسخ والتكثف تدريجيا ، عاما بعد عام وجيلا بعد جيل .

المبحث الثالث : خصائص المجتمع المعصوم

القسم الأول : هل تزول الدولة عند بلوغ المجتمع الطور الأعلى؟

القسم الثاني : هل توجد طبقة في الدولة العالمية ؟

القسم الثالث : ما محل الديمقراطية من الحكومة العالمية ؟

لكن ما معنى أن الدولة المهدوية تمثل المجتمع المعصوم ؟

يجيب محمد الصدر: "أن الفكرة التي ينبغي أن نحملها عن العصمة الآن بسيطة إلى حد كبير ، فإننا إذا عرفنا العصمة بأنها " الالتزام بالعدل بدون أن يكون هناك احتمال معقول للانحراف " أو إذا عرفناها بأنه تحصل "حين يصبح تطبيق العدل لذة حقيقية " بدل الالتذاذ بالشهوات والانحراف ، أو إذا عرفناها بأنها " التعود التام على تطبيق العدل بحيث يكون التخلي عنه موجبا للألم" كماما كاعتياد التدخين من هذه الناحية ، فإذا عرفناها بكل ذلك لا نكون قد جانبنا الصواب .

ومقصودنا من العدل : ذلك النظام العقائدي والتشريعي المنسجم مع التخطيط العام ، وبالتالي مع الأهداف البشرية الكونية العامة ، وبذلك نكون قد تجنبنا الجدل الكلامي الذي

يقع بين المذاهب الإسلامية ، في اقتران العصمة بامتناع الخطأ والسهو و النسيان أو اقترانها بالإلهام وعدمه " ¹ .

فتجنب ذلك ضروري فعلا ، لأن العصمة في المجتمع لا تعني عصمة أفراد المجتمع يومئذ من الخطأ والنسيان ، مضافا إلى العصمة عن التورط عمدا في الذنوب والانحراف ، وإن كان ذلك محتملا في المراحل البعيدة من التكامل .

لكن هل وصول المجتمع إلى طوره الأعلى يعني ضرورة زوال الدولة كما نص ماركس على ذلك في مشروعه؟

ستكون الدولة العالمية ، محتاجة دائما إلى فكرة الحكومة والدولة ، لعدّة أسباب أساسية:

1. أن تأسيس الدولة العالمية أساسا منطلق من هذه الزاوية، وهي أن القائد المهدي عليه السلام فتح العالم كله ، وإذا تم له ذلك كان مستحقا أن يمارس الحكم فيه ، طبقا للاتجاه العالمي المعاصر الذي يرى من حق الثورات الناجحة أن تسيطر وأن تحكم في المناطق التي هي فيها .

مضافا إلى أن فتحه للعالم لم يكن بقصد التوصل إلى السلطة ولا بشهوة الحكم ، بل لأجل تطبيق العدل ، ومعه فتخليه عن الحكم بعد إتمامه لفتح العالم يعني التنازل عن مسؤوليته وبالتالي عن التخطيط العام بلا مبرر .

2. الجانب العام الذي تحتاج إليه المجتمعات عموما إلى الدولة ، وهو ما أشرنا إليه في غضون مناقشة الطور الأعلى من أن الدولة تحفظ المصالح العامة التي لا يمكن للأفراد الحفاظ عليها ، فإن هذا الجانب متوفر في الدولة العالمية بشكل أوضح ، لجسامة هذه المصالح وتشعبها ووضوح استحالة قيام الأفراد بها مهما كثروا ، ما لم يكن هناك لهم قيادة مركزية .

3. أن المجتمع الذي تبدأ به الدولة العالمية ، مجتمع غير ناجز التربية بالشكل المطلوب ، وإنما لازال في أول الطريق ، وستنال البشرية تربيتها المطلوبة منه عند نهايته ، وهي ابتداء المجتمع المعصوم ¹ .

¹الصدر محمد ، اليوم الموعود ، ص 584.
¹الصدر محمد ، اليوم الموعود ، ص 570

وسنعرف أن الدولة أو الحكومة ، سوف تبقى حتى لو تحقق المجتمع المعصوم ، وان اختلف شكل تكوينها ، فكيف والمجتمع لم يصل بعد إلى العصمة ، كل ما في الأمر ، أن سبب وجودها يقتصر على السبب الثاني خاصة دون الأول والثالث .

هل توجد طبقة في دولة المهدي العالمية ؟

لا شك أنه بمجرد أن يتم انجاز القوانين المهدوية والمستوى الجديد العالي للوعي والتفكير الذي يريده المهدي ، وبالتالي يريده التخطيط العام – أقصد التخطيط الإلهي-، تتعدم تماما أهمية الطبقات وما قد يحدث بينها من نزاع .

إن ما قالته الماركسية من استعمار الصراع بين الطبقات باستمرار ، مما لا دليل عليه بعد أن عرفنا بطلان أدلة الماركسية على ذلك ، إلا أن هذا الصراع قد يحدث أحيانا في

المجتمعات الاعتيادية ، كما قد يحدث الصراع بين الأفراد وبين المجتمعات وبين الحكومات ، وهكذا ، إن كل هذه الصراعات سوف تتلاشى تماما تحت مجهر الوعي العالي والعدل الكامل والتلاحم الأخوي نحو الهدف الأعلى الذي يزرعه المهدي في نفوس البشر أجمعين¹ .

إن أهمية الطبقات ستزول ، ولن يكون هناك وجود للرأسمالية والرأسماليين بأي حال ، بعد كل الذي عرفناه من مبررات اضمحلال القطاع الخاص إلى حد بعيد ، كما لا وجود للاستغلال على المستوى الشخصي فضلا عن الطبقي أو غيره ، كما وضحنا ذلك سابقا- ، فيبوح الناس سواسية كأسنان المشط ، ينال كل منهم أفضل شكل من المستوى الاقتصادي من ناحية ومن التربية والتكامل من ناحية أخرى ، ولكن لا كما تعتقده الماركسية من تحول الشعب إلى صنّاع وزارعين فقط ، إن الهدف الأعلى لا يمكن أن يتحقق بمجرد ذلك ، فهناك الاختصاصيون في العلم والمعرفة من كل نوع ، والاختصاصي يفضل عن غيره بطبيعة الحال (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون

¹ الصدر محمد ، اليوم الموعود ، ص 571

(، كما أن هناك من هو أكثر أداءاً للسلوك المخلص ، ومن ثم أقوى إرادة وأكثر انسجاماً مع التخطيط من الآخرين ، وهؤلاء يتزايدون بالتدرج نتيجة للتخطيط التربوي السابق على العصمة ، وليس كل الناس سواسية في ذلك حتى ذلك العهد² .

إذن هل سواسية الناس في المجتمع المعصوم يعني بأن طبيعة النظام السياسي المنتهج هو نظام ديمقراطي ؟

إذا كان القصد من الديمقراطية هو اختيار الشعب لحكم نفسه في الأسلوب وأشخاص الحكام ، فهذا شيء غير موجود في الدولة العالمية تماماً ، بل لا معنى له فيها ، بعد الالتفات إلى أسلوب تكونها والتخطيط له ، والتخطيط التربوي الذي نتخذه ، الأمر الذي يتعذر على الجماعة إنجازه وحدها كما يتعذر عليها معرفة الأشخاص الذين ينجزونه ، لو كان لهم وجود بغض النظر عن القيادة المهدوية¹ .

وإن قصدنا منها الإخلاص في الانتخاب وصحته ، بدون تزوير حين تعنّ الحاجة إلى ذلك ، لو احتاج المجتمع إلى مجالس مؤقتة أو دائمة تقوم على أساس الانتخاب ، فهذا أمر صحيح ، ولكن صحة الانتخاب هذه لا تقوم على تقديس مفهوم الديمقراطية ، بل لأجل الجهة الأخلاقية القائلة بشناعة الاستغلال وخيانة الهدف المطلوب ، وبالتالي لكل المجتمع الذي يستفيد من هذا الهدف .

إذن سيكون للديمقراطية بمعناها المصطلح وجود في المجتمع المعصوم كما سبق أن أشرنا لكن منشأها كما يقول علي شريعتي : " منشأ السلطة في النظام الديمقراطي لا يرتبط بالإمام ارتباطها بالحكومة ، بل ارتباطها به ارتباط الناس بالواقع فهي لا تعينه بل تشخصه² " ، أي أن النظام الديمقراطي لا علاقة له باختيار الإمام المهدي لأن اختياره ذو طابع إلهي ، أما الحكومة العالمية نجد فيها أمور شتى تجسد الديمقراطية .

إذن بعد أن عرضنا أهم العناصر المكونة للدولة العالمية ، واكتشفنا مدى شموليتها وإمامها بجميع المجالات التي تضمن الحياة السعيدة ، هاته الأخيرة التي تمثل أمل كل الشعوب المظلومة منذ فجر التاريخ .

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

¹ المصدر محمد ، اليوم الموعود ، ص 572

² علي شريعتي ، الأمة والإمامة ، ص 120.

المبحث الرابع: فلسفة الإنسان في الدولة العالمية

القسم الأول: علاقة انتظار الشعوب المضطهدة بالمشروع

القسم الثاني: مسؤولية المفكر لا المثقف إزاء الدولة

القسم الثالث: رجعة المواطنين والغرباء إلى المجتمع المعصوم

القسم الرابع: نزول سيدنا عيسى (ع) ومساهمته في بناء المجتمع

فهل يا ترى هذه الشعوب المضطهدة والمظلومة والمنتظرة ليوم الخلاص سيكون لها فاعلية في مشروع الدولة العالمية المهدوية ؟

القول بوجود فلسفة انتظار لدى الشعوب المظلومة، هو قول بوجود أمل في حكومة العدل الإلهي للمهدي، لكن هل يعني هذا الانتظار أن يقف الناس مكتوفي الأيدي تجاه الانحطاط الأخلاقي والفساد الاجتماعي للأفراد والمجتمع ولا يبالون بها ؟ وهل الهدف من انتظار الفرج أن لا يُقدم المسلمون على أي عمل منطقي وإيجابي حتى يظهر المهدي ، ويُخْلِص الناس من المفاسد والمظالم ؟

إذا كان الانتظار وظهور الإمام المهدي بهذا المعنى فإن الحق مع الذين يقولون بأن مدرسة انتظار الفرج هي مدرسة التربية الجسدية وتخدير الأفكار والطاقات الإنسانية، أو بعبارة أخرى هي نفس مدرسة المستعمرين والعملاء القذرين.

ولكن وبتأكيد فإن المقصود بالانتظار ليس بهذا المعنى ، ذلك أن مدرسة انتظار الفرج هي مدرسة واسعة للتربية والإصلاح ، تلك المدرسة التي من شأنها وضع القوانين الإسلامية الواهبة للحياة الصحيحة من أجل صلاح الفرد والمجتمع ، وهنا تظهر مسؤولية الفرد إزاء قضايا مجتمعه لذا على الفرد أن يكون مفكر حامل لمسؤولية المجتمع الذي يعيش فيه ، فالمفكرين – خلافا للمثقفين – ليسوا جماعة متميزة ذات قاعدة اجتماعية متميزة ، فهم من الوجهة الطبقيّة الاجتماعية ، لا يقفون في مقابل الجماهير (MASS) أو شعب (PEUPLE) أو أعوام الناس (PLEBE) أو بإزائهم لأن

المفكر المستنير صفة معنوية بارزة ، في الإنسان وليست شكلا اجتماعيا متميزا¹ ، وليس من اللازم أن يكون المفكرون متعلمين وعلماء ، وبين المفكر والمثقف توجد علاقة ثنائية عامة ، وخاصة من وجه ، فوظيفة المثقف والعالم هي إدارة الحياة ودفع المجتمع إلى القوة والتقدم والرفاهية والمنفعة وتحسن أوضاع الناس ، ورسالة المفكر

هي حركة الحياة وهداية المجتمع وتغيير الإنسان ، ويمكن للعالم أن يكون فاقدا للوعي الاجتماعي بحكم اختصاصه وانشغالاته ، لكن المفكر مهمته الرئيسية هي معرفة الطريق والمخاطر وتعبئة الناس أي الإحساس بقضايا المجتمع والسعي إلى تغييرها وهذا هو المقصود بالسياسة¹ .

فبالنسبة للمفكر، التاريخ حاضر حي وجار يحسه في قلب مجتمعه ، وسلوك قومه وأفكارهم وأقوالهم وعواطفهم وحساسيتهم وكل عاداتهم وتقاليدهم ، ويحسه في أعماق روحه ، ليس التاريخ بالنسبة له ذهنية ما أو تذكارا لوقائع ذهبت ودفنت في القرون الخالية ، بل ذو عينية وفعل وحقيقة حية ومتحركة² ، فالتاريخ ليس أحداثا زمنية وكرونولوجية بل هو نهر ينبع من عمق فطرته ، وماهية عرقه وقوميته ودينه ، هذا هو الإنسان المسؤول الذي يستحق أن يكون فردا من أفراد حكومة المهدي العالمية .
ومنه أيعقل أن يكون الشخص المنتظر لهذه الحكومة الإلهية العادلة ، مُلوئا بالفساد وظالم للأخرين ؟

طبعا لن تتقارب المتناقضات فهي كمن يركض هنا وهناك منتظرا ضيفا عزيزا ، وهو لا يملك إمكانيات لاستقباله ، ويمكن وصف مثل هذا الشخص بالجنون ، وعلى هذا فإن فلسفة انتظار الخلاص والمهدي ليست فلسفة السكوت وعدم المبالاة تجاه المفسد والجرائم والانحطاط الأخلاقي ، بل هي فلسفة " ألا " رافضة للفساد واسعة للتربية والتقويم والعمل الاجتماعي الخلاق ، ذلك أن الإنسان الذي ينتظر المهدي لابد أن يكون

¹ علي شريعتي ، العودة إلى الذات ، ص 155 .

¹ ALI SHARIATI , Histoire et Destinè , traduits : F.hamèd , les presses Darantierre à Djon , (s.e) , 1982 , p57.

² ALI SHARIATI , Histoire et Destinè , traduits , p 58.

مُطبَقاً للبرامج الإلهية والأخلاق الحميدة التي يدعو لها ذلك المصلح العالمي ، حتى يتسنى له الخلاص بذاته من المعاصي والشهوات ويجد في نفسه استعداداً للفرج الرباني – كما وضحنا ذلك في الفصل الثالث (شروط الانتظار) – لكن هؤلاء المؤمنين إيماناً

راسخاً والمستعدين لاستقبال المهدي إذا ما وافتهم المنية هل لهم أجرًا يُثابون عليه ؟
يُجيب جمهور الشيعة بنعم ؟ لكن كيف ؟ بالقول بالرجعة .

معنى الرجعة بعد ظهور المهدي المنتظر :

هل عقيدة الرجعة تخص المذهب الشيعي فقط ؟ لقد سبق وأن ذكرت في الفصل الأول – قصة الخلاص – جملة من الديانات الوضعية والسماوية ، فوجدت أن الأساطير تؤمن بـرجعة الألهة* ، بل حتى البوذيون يؤمنون بـرجعة بوذا والزرادشتيون يؤمنون بعودة الأخيار بعد انتصار قوى الخير ، والمسيحيين بعودة عيسى (عليه السلام) وكذا المسلمون ، إذن مسألة الرجعة ليست غريبة عن التاريخ البشري والديني .
والمقصود بالرجعة هو رجوع الروح إلى الجسم قبل يوم البعث والقيامة ، وأن هذا المبدأ تقبله جميع الأديان كالإسلام والتوراة والإنجيل . لكن الرجعة التي ذكرها المذهب الشيعي لها بعض الخصوصيات ، وما يهمنا في هذا الصدد من هم الذين سيرجعون بعد ظهور المهدي ؟

جاء من الأحاديث الشيعية المنقولة عن الإمام الصادق أنه قال : " أول من يقوم من قبره هو الإمام الحسين بن علي رضي الله عنه ، وأن الرجعة لا تشمل جميع الناس ، وإنما فقط أولئك المؤمنون إيماناً كاملاً أو الكفار الملحدين كفراً محضاً .

ومن الناحية العقلية وحسب الأوامر المعطاة عن المستحبات ، فإن الشخص العامل يأخذ أجره بعد ظهور المهدي ، فإن من يقول –مثلاً- أربعين مرة : (اللهم ربّ النور العظيم) سيكون من أصحاب ولي العصر وعضو في حكومة المهدي¹ .

*أنظر الفصل الأول – قصة الخلاص - ، ص 10 .
¹ السيد الأبطحي حسن ، المصلح الغيبي والحكومة العالمية الواحدة ، ص 65 ، ص 66 .

إذن دلت الأخبار على أن الرجعة خاصة بالمؤمنين الذين محضوا الإيمان محضاً لأن عالم الرجعة هو عالم تقوم فيه دولة المؤمنين ، والصالحين وملوكه وسلاطينه ، هم

الأنبياء والصدّيقون ، والأئمة الطاهرون ، والأبرار والأخيار فلا مجال فيه لحكومة الكفار ، والمنافقين ، والأشرار ، نعم يرجع هؤلاء ليزوقوا العذاب الأدنى المُفسر لعذاب الرجعة ، وبعده يذوقون العذاب المُفسر بيوم القيامة ، أما الفجار فينثرون إلى خزي الله تعالى إيّاهم ، والخزي هو الهلاك والوقوع في البلية² .

كما أن هناك أخبار أخرى تقول برجعة الحسين عليه السلام مع أصحابه ، وذلك بعد شهادة الإمام المهدي ، ورحلته من عالم الرجعة ، تنتقل الرئاسة الدينية والدينية إلى الإمام الحسين عليه السلام وهو الذي يتولى تجهيزه ، لأن الإمام لا يلي أمره إلا الإمام¹ .

إذن عرفنا أن الأخيار ستكون لهم مكانة عظيمة في الدولة المهديّة ، ويحق لي أن أسميهم مواطني الحكومة المهديّة في حين الكفار هم الغرباء الذين سيلقون عقاباً وتقتيلاً شديدين من قبل المهدي وسيدنا عيسى عليه السلام . على ذكر عيسى عليه السلام ما محله من الدولة العالمية ؟

نزول سيدنا عيسى ومساندته للمهدي عليهما السلام :

ينبغي أن نذكر احتراماً لتسلسل الأحداث أن نزول عيسى عليه السلام ، يكون بعد ظهور المهدي ولكن قبل استتباب دولته ، يعني خلال محاربتة للكافرين والمنحرفين ، وممارسته للفتح العالمي ، وهذا هو المراد من الحديث القائل : " لن تهلك أمة أنا أولها وعيسى ابن مريم في آخرها والمهدي في وسطها"² ، وهذا دليل أن المهدي يكون في وسط الأمة وعيسى في آخرها ، لأنه ينزل بعد ظهور المهدي ، ويبقى بعد وفاته .

² محمد المهدي الحاج الشيخ ، بيان الأئمة - للوقائع الغربية والأسرار العجيبة- ، ج3، ص 431

¹ المصدر نفسه، ص 432 .

² أخرجه السيوطي في الحاوي عن أبي نعيم عن ابن عباس عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ستكون وظيفة عيسى عليه السلام الرئيسية هي قتل الدجال والقضاء عليه ، فيطارده حتى يُدركه بباب لُد في فلسطين فيقتله بحربته ، فيختبئ أتباعه السبعون ألف يهودي

وراء الأحجار والأشجار فيقتلهم المسلمون بقيادة المهدي وتحت إشراف عيسى عليه السلام ، وهنا تتطهر الأرض من النجاسة والخبث¹ .

وحينما يقضي على الدجال تكون مهمته الثانية تأييد المؤمنين في العالم والقضاء على الكافرين الغرباء ، فيقاتلهم على الإسلام ويدق الصليب بمعنى أنه يقضي على المسيحية المعروفة المتخذة للصليب ، ويقتل الخنزير ، بمعنى أنه يحرم أكله ويأمر بالقضاء على الموجود للتدجين منه ، ويضع الجزية على من بقي على دين اليهودية والنصرانية ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيمكث في الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون .

أما المهدي فهو الشخص الرئيسي من هؤلاء المؤمنين الذين يواجههم المسيح ، وحين تحين الصلاة بعد وصولهم إليه أو وصوله إليهم ، يدعو الإمام المهدي احتراماً له ، أن يكون هو الإمام في صلاة الجماعة ، فأبى ذلك قائلاً ، لا إن بعضكم على بعضكم أمراء تكرمة الله لهذه الأمة الإسلامية، فلا بد في الحكم الإلهي أن يحكمها شخص منها.

وسيحين خلال هذه المدة ، الوقت المناسب لمنازلة الكافرين والمنحرفين الغرباء ، متمثلين بياجوج ومأجوج ، وبالرغم من أن القيادة العالمية إنما هي بيد الإمام المهدي غير أن قيادة الحرب ستكون بيد المسيح عليه السلام ، ومن هنا نُسب القضاء على ياجوج و مأجوج إليه كما نُسب قتل الدجال إليه أيضاً² .

لكن ينبغي أن نفهم أن الفتح العالمي يكون على يد المهدي عليه السلام ، وهي مهمة كبيرة أعظم من الفتح العسكري الذي سيوكل لسيدنا عيسى عليه السلام ، ومع ذلك فهو دور مهم كون أن سيدنا عيسى سيتكفل بقيادة جيوش المهدي فهو في مركز مشابه

* هناك اتفاق كلي بين جمهور السنة والمذهب الشيعي حول مسألة نزول عيسى عليه السلام ومقتل الدجال برفقة المهدي .

¹ جمال الدين محمد أمين ، هرمجدون ، ص 102 .

² الصدر محمد، تاريخ ما بعد الظهور ، ص 608.

لرئيس الوزراء في الدولة الحديثة ، هذا هو دور سيدنا عيسى عليه السلام في مشروع الدولة العالمية باختصار شديد .

نستخلص مما سبق أن مشروع المهدي العالمي مشروع ينبض بالحركة والنشاط والإرادة ، قلّما نجد في هذه الحركة معجزات خارقة إلا نادرا جدا ، هذا إن دلّ على شيء إنما يدل على حضور المهدي الإنسان الذي أدرك ميكانيزمات هذا العالم أثناء غيبته - حسب جمهور الشيعة - فأدرك نقاط القوة والضعف الأمر الذي سمح له بالقضاء على الأشواك الضارة أو الغرباء - كما أحبذ تسميتهم - ، وفتح المجال واسعا أمام الأخيار الذين عانوا مرارة الظلم والفساد ليعيشوا حياة سعيدة ، فكانوا أهلا لأن يكونوا مواطني الحكومة العالمية بجدارة ، إنها البداية بالنسبة للمذهب الشيعي ، لكنني لم أجد فلسفة واضحة تحدد معالم هذا المشروع العالمي بالنسبة لجمهور السنة ، فكل ما أعرّفه أن ظهور المهدي بالنسبة لهم هو بداية لمرحلة النهاية .

الخاتمة:

لا يسعنا أن نقول إلا أن الإنسان اليوم أصبح مجرد مادة سوقية وإلا فهو معدوم، ومجرد جندي في إمبراطوريات تشن الحروب في كل بقاع الجغرافيا والأقاليم وإلا فهو معدوم ، إن من يراقب حركة التاريخ البشري بهذا الانحطاط منذ قرون عدّة يدرك أن الشيخوخة في الذهنية البشرية وصلت إلى حدّ مُخيف ، ودخلت مرحلة الافتراس العنيف ، واليوم تسيطر فلسفة العنف والعدوان على كلّ كيان ، دون أن يكون لعلم الأخلاق والحكمة أي معنى في موثيق الهوية الحاكمة ، ما عليك إلا أن تقرّ منظومة الدول حتى ترى ما فيها من تدهور و كارثة ويأس وإحباط .

ومع كل هذا يجب أن ندرك أننا في زمن النبي وولده المهدي ، زمن النبوة الخاتمة والإمامة الخاتمة ، زمن شيخوخة النظرة البشرية إلى الإنسان والكون ومعامل الوجود ، زمن شن الحرب الأعنف على الأديان والصلة بمعالم السماء ، زمن الافتخار بسكّير أو متعرية أو مُدمن مخدرات في عالم بدأ الدخول في زمن الاستنساخ بعقلية تجارية سوقية وغريزة متوحشة ، في عالم مليء بالفساد، فبلا شك هو تاريخ مؤلم وعالم منحرف يسير نحو كارثة أشد .

إن أمثلة الظلم والجور والحييف في العالم يشق السياسة والاقتصاد وقيادة زمام العالم وصولاً إلى الحرب الهائلة التي تجول في العالم من كيان إلى آخر، من آسيا إلى أوروبا ومنها إلى أمريكا اللاتينية وأفريقيا ، كلّها تدل على الميزة التي تحدث عنها سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم.

يجب أن ندرك أيضاً أن الصراع بين الخير والشر ليس موجوداً في العالم وحسب بل هو محتدم في الإنسان ، الذي يستطيع بإرادة الوعي الذاتي والقدرة على الخلق والعلم

والتقنية ، ومعرفة القوانين الحاكمة على الدنيا والمجتمع والإنسان ، وباستخدام هذه القوانين والتدخل في المسير الحتمي والطبيعي للطبيعة والإنسان ، توجيه التضاد والحركة الجدلية التي تجري في فطرته وحياته إلى المثل المتسامية فيه وإلى اتجاه تكامله ، وبهذا الشكل يتدخل في قدره الطبيعي وبغيره مما هو عليه بالفعل إلى ما يريده وما ينبغي أن يكون ، وهنا نطرح قضية المسؤولية في الإنسان وعلى هذا النسق : في هذه الرؤية الكونية – ليس الأمر مثل الرؤية الكونية المادية – ليس الكون نظاما أعمى بلا شعور، وماديا ، و الإنسان فيه ظاهرة مادية محصورة ومسيرة ، ولا مثل الرؤية الكونية الوجودية ،التي ترى أن الدنيا بلاهة مجسدة والإنسان فيها مجنون مندهش بلا مصير ولا ملجأ وبلا هدف فاقد للماهية والمعنى ، وإن ذاته وعمله فحسب هما اللذان يمنحانه الماهية والمعنى ، ولما كان الكون فاقدا للإدراك والإرادة ، ولأنه غير واع فهو نفسه غير مسؤول أمام نفسه وأمام اختيار نفسه وهذه مسؤولية عابثة ، وبلا قاعدة لأنه أولا: الإنسان الفاقد للمعنى فاقد للمسؤولية أيضا ، وثانيا : إن المسؤولية في الأساس علاقة إلتزامية بين إرادة تابعة وإرادة غالبية على أساس القيم والواقعيات العينية والمسؤولية التي يكون فيها الشخص المسؤول مسؤولا أمام نفسه وهو نفسه يعتبر مسؤولا والمسؤولية متعلقة به ، فإن القيم والواقعيات التي تتعلق بها المسؤولية أيضا تتحدد بواسطته ، فماذا ستكون ؟ قضية حساسة وأخلاقية بدون قاعدة منطقية وموقف كوني وضمنان تنفيذ عيني أو خارجي .

إن الرؤية الكونية المبنية على التوحيد الكوني أي الإيمان بإرادة واعية خلّاقة ومنطقية مسيطرة على الوجود ، والثنوية الجدلية أي الاعتقاد في أن الإنسان إرادة في حالة تطور دائم بوعيه وإرادته وأخلاقياته ، وفي هذا التطور الذي يحتوي على مسافة ما بين أدنى الأصول من التدني الذي لا تدني بعده ، من الطين المترسب ، إلى أعلى

الذوات تساميا ، إلى ما لا يضاف بعدها شيء ، إلى روح الله ، في هذا التطور يعد عمل الإنسان "اختباره وتحققه" ، وبهذا الشكل أومن في هذه الرؤيا الكونية مثل الماديين بالقدر العلمي والحتمية التاريخية المسيطرة على جبلة البشر ومصيرهم ، وأعتبر الطبيعة والإنسان واقعيات عينية ومادية تابعة للعلية والمنطق والقوانين الثابتة العلمية ، وأيضا كما في الوجودية العالمية أعتبر أن الإنسان في الوقت نفسه ذو إرادة خلاقية وقدرة على الاختيار ، بناء عليها فهو مسؤول ، الفرق أنها ليست مسؤولية عاطفية وأخلاقية وذهنية ، لكنها مسؤولية عينية واقعية ، مسؤولية الإنسان أمام الوجدان والإرادة والوجود ، هذه هي المعايير العقائدية التي تفسر وحدة الإنسان مع الإنسان ووحدة الإنسان مع الطبيعة ووحدة الإنسان مع الله .

ومن هذه الرؤية الكونية التوحيدية ، تتشعب أيضا وحدة التاريخ ففي هذه الرؤية الكونية كل ظاهرة وحركة تابعة للنظام لها علل ، فليس التاريخ مجموعة من الحوادث والأحداث التصادفية والتي لا علة لها ولا هدف ، ليس مجموعة من الحركات المنفصلة والحلقات المتفسخة التي لا ارتباط بينها ، فالتاريخ هو مسيرة الحركة المنطقية والعلمية للنوع الإنساني تحقق على أساس قوانين مسلم بها ومعينة وعلمية هي الخطة المثالية للتكامل البشري في الوجود .

تدخل الوعي البشري في حركة التاريخ هو في حد ذاته ، صناعة جديدة لعالم جديد ، عالم تكون طبيعة العلاقات فيه مختلفة ، سيخرج من النفق الهائل المُميت ، سيقيم أولى دعائم الأمل وعلى نحو متوسع ، هي دعوة ضرورية ، تحتضنها قراءة بسيطة في تاريخ البشر ، فهذه دعوة إلى كل سياسيي العالم وعقلائه ، إلى كل ناشط من أجل فهم الوجودية، فالمهدوية – بغض النظر عن واقعياتها أو عدمها – قد خطت في الوجود أملا هائلا ، لابد للقارئ أن يقرأه ، وعلى كل مفكر أن يفكر بالفعل فيه، ومن

الضروري جدا أن يقرأ الحكام والقادة أفق الوجود الناطق بذلك ، لكل من يقرأ إستراتيجية الوجود ، إلى كل من يهمله أن يدرك عمق الذات في ميدان العالم ، سيدرك لا محالة أن زمن المهدي هو زمن الأمل ، زمن نهاية اليأس والإحباط ، والسّير قُدا نحو مشروع السعادتين سعادة الدين والدنيا .